هذا الكتاب

موسوعة في تزكية النفس، ذَكَرَ فيه مؤلِّفُه منهجَ تزكية النفس وإصلاحها ومحاسبتها ومعاتبتها، بالطرق الشرعية من الكتاب والسنة الثابتة، وما وافقها من أقوال أهل العلم والحكمة والوعظ، من درر المنثور، وجواهر المنظوم.

وضَمَّنَه عامةَ أبواب التزكية والأخلاق والسلوك؛ من العلم والإيمان والتوحيد، والإخلاص والاتباع، والاعتصام بالكتاب والسنة، واليقين والزهد وذكر الآخرة، وذكر الموت وقِصَر الأمل، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذكر والدعاء والتوكل، وتلاوة القرآن الكريم وسماعه وتدبره، والتوبة والإنابة والمسارعة بالخيرات، وغير ذلك.

وضَمَّنَه أيضًا مَدْحَ محاسنِ الأخلاق؛ من الصدق والعِفة والصبر والشجاعة وغيرها، والترغيب فيها، وذَمَّ مساوئِ الأخلاق؛ من الكذب والرياء والعُجْب والغرور والكِبْر وغيرها، والترهيب منها.

كل ذلك عن طريق مخاطبة النفس؛ بمعاتبتها وزجرها ووعظها، بأسلوب سهل جذاب، خالٍ من التكلف والتعقيد.

والله الهادي.

معاتبة النفس

الطبعة الأولى ١٤٤١ هـ

معاتبة النفس

(يا نفس)

تأليف
محمد شومان الرملي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق الأنفس، وجعل لها أجلًا فيه يتوفاها، القائل بعد أحد عشر قسمًا: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ [الشمس:٩-١٠].

والصلاة والسلام على رسوله الكريم، القائل: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا».

أما بعد، فهذا كتاب في معاتبة النفس، أوجهه إلى نفسي، وأعاتبها بما فيه، وأخاطبها وألومها بما تضمنه، وقد بنيته على كتاب الله عز وجل، والاسترشاد بآياته، فليتدبرها القارئ، ولينظر في معانيها، ولينزلها على واقع نفسه، وحالها وصفاتها، وليعظها بها وليعاتبها، وكذلك حديث النبي ﷺ، وهو الوحي الثاني، وأيضًا كلام السلف، من العلماء والصالحين، والزهاد والخاشعين، ومعاتبتهم لأنفسهم.

وذكرت في أوله وبعد هذه المقدمة مباشرة تمهيدًا لا بد منه، ذكرت فيه أقسام النفس وصفاتها، وأهمية إصلاحها وتزكيتها، وضرورة التخلص من شرها، وبينت طرق ذلك، وكان آخر طريق فيه هو «معاتبة النفس»، وبينت كيف تكون المعاتبة، وضربت لذلك الأمثلة الكثيرة، ونبهت إلى أنجح الوسائل فيها، فصارت هذه الأمثلة المتنوعة روح هذا الكتاب وقِوامه، وعُظْمه وكِيانه.

وذكرت فيه أيضًا كثيرًا من المواعظ والحِكم والرقائق المنثورة والمنظومة في مخاطبة النفس وتأنيبها ولومها، وحثها على فعل الخيرات، وترك المنكرات، ومعاتبتها على التقصير في ذلك.

وقد انتقيتها من مراجع كثيرة، من كلام الوعاظ والأدباء والشعراء والحكماء والعلماء، واخترتها مما اشتمل على هذا الأسلوب خاصة، أعني أنها مواعظ موجهة إلى النفس ومخاطِبة لها، إذ هذا هو موضوع الكتاب، وكم في هذا النمط من أثر بالغ

فيها، وواعظ زاجر لها، فكم أنصت المستمع إلى الموعظة فأدخلها من أذن ـ كما يقال ـ وأخرجها من الأخرى!! متجاهلًا لها، متعاميًا عنها، لأن الشيطان يملي عليه أن غيره هو المقصود والمَعْنِيّ بالانتفاع بها!!

فهي إذًا مواعظ ومعاتبات تتحدث إلى النفس وتكلمها، وتأمرها وتنهاها، وتزجرها وتحذرها، فأنت كلما استمعتها أو قرأتها وجدتها تخاطبك، وألفيتها تناجيك، وتقول: يا نفس ... يا نفس ....

كقول الواعظ: يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشققت، وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت.

وقول الشاعر:

يـــا نفـــسُ إن الحـــق دينـــي ... فتذللـــي ثـــم استكينـــي

فـــإلى متـــى أنـــا غافـــلٌ ... يـــا نفـــسُ ويحـــك خبرينـــي

وقول الآخر:

ألا يـــا نفـــسُ ويحـــك ســـاعديني ... بســـعي منـــك في ظُلَـــم الليـــالي

لعلـــك في القيامـــة أن تفـــوزي ... بطِيـــب العـــيش في تلـــك العـــلالي

فجاء الكتاب بعد هذا كله شاملًا في هذا الموضوع (معاتبة النفس)، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وأسأله عز وجل أن ينفعني به، وكلَّ من اطلع عليه، وأن يجعلَه سببًا في صلاح قلوبنا، وتزكية نفوسنا، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب.

وكتبه

محمد شومان

١٤٣٨هـ

تمهيد

النفس الأمارة

جاء وصف النفس بأنها أمارة بالسوء في قول الله تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف:٥٣].

قال ابن سعدي[(١)]: «﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾؛ أي: لَكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾، فنجاه من نفسه الأمارة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، منقادة لداعي الهدى، متعاصية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبده».

وللصَّرْصَري[(٢)]:

وأنتِ يا نفس مـأوى كلِّ مُعضـلةٍ ... وكلُّ داء بقلـبي مـن عواديـكِ
أنتِ الطَّليعةُ للشيطان في جسـدي ... فلـيس يـدخل إلا مـن نواحيـكِ
لمّـا فَسَـحْتِ بتـوفير الحظـوظِ لهُ ... أضحى مع الدَّمِ يجري في مجاريـكِ

النفس اللوامة

ووصفها تبارك وتعالى باللوامة في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ * وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (٤٢٢/٢).

(٢) «الآداب الشرعية» (٥٩٨/٣).

واللوّامة: هي كثيرة اللّوم، وهو العَذْل والعتاب، واللّوم أيضًا: التردد والتوقف في العمل، فتتردد النفس وتتوقف: هل أفعل أم لا أفعل؟!

قال الشوكاني(١): «معنى النفس اللوامة: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردتِ بكذا؟ ما أردتِ بكذا؟ والفاجر لا يعاتب نفسه».

النفس المطمئنة

ووصفها تبارك وتعالى بالمطمئنة في قوله: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال ابن القيم(٢): «حقيقة الطُّمَأنينة: السكون والاستقرار، فهي التي قد سكنت إلى ربها وطاعته وأمره وذكره، ولم تسكن إلى سواه، فقد اطمأنت إلى محبته وعبوديته وذكره، واطمأنت إلى أمره ونهيه وخبره، واطمأنت إلى لقائه ووعده، واطمأنت إلى التصديق بحقائق أسمائه وصفاته، واطمأنت إلى الرضا به ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، واطمأنت إلى قضائه وقدره، واطمأنت إلى كفايته وحَسْبِه وضمانه، فاطمأنت بأنه وحده ربها وإلهها ومعبودها ومليكها ومالك أمرها كله، وأن مرجعها إليه، وأنها لا غنى لها عنه طرفة عين».

وقال(٣): «فإذا اطمأنت من الشك إلى اليقين، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الخيانة إلى التوبة، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن العجز إلى الكيس، ومن صولة العُجب إلى ذلة الإخبات، ومن التِيه إلى التواضع، ومن الفتور إلى العمل، فقد باشرت روح الطُّمَأنينة.

---

(١) «فتح القدير» (٥/٣٣٥).

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/٧٦).

(٣) «الروح» (ص ٢٢٤-٢٢٥). ولكلامه بقية تستحق الاطلاع والتأمل.

وأصل ذلك كله ومنشؤه من اليقظة، فهي أول مفاتيح الخير، فإن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده بمنزلة النائم، بل أسوأ حالًا منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده، وما تتقاضاه أوامر الرب تعالى ونواهيه وأحكامه من الحقوق، لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك ويقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده، وركد وأخلد إلى نوازع الشهوات، فاشتد إخلاده وركوده، وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين، وفي سكرته مع المخمورين.

فمتى انكشف عن قلبه سِنَة هذه الغفلة، بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن، أو همة علية أثارها مِعْول الفكر في المحل القابل، فضرب بمِعْول فكره، وكبر تكبيرة أضاءت له منها قصور الجنة، فقال:

ألا يا نفس ويحك ساعديني ... بسعي منك في ظُلَم الليالي
لعلك في القيامة أن تفوزي ... بطيب العيش في تلك العلالي

فأثارت تلك الفكرة نورًا، رأى في ضوئه ما خلق له، وما سيلقاه بين يديه، من حين الموت إلى دخول دار القرار، ورأى سرعة انقضاء الدنيا، وعدم وفائها لبنيها، وقتلها لعشاقها، وفعلها بهم أنواع المثلات، فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلًا: ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر:٥٦]. فاستقبل بقية عمره التي لا قيمة لها، مستدركًا بها ما فات، مُحْيِيًا بها ما أمات، مستقبلًا بها ما تقدم له من العثرات، منتهزًا فرصة الإمكان التي إن فاتت فاته جميع الخيرات».

حال النفس المطمئنة عند الموت

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ * ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى * وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴾ [الفجر:٢٧-٣٠].

قال ابن كثير[1]: «هذا يقال لها عند الاحتضار وفي القيامة أيضًا». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ * وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [الواقعة:٨٣-٩١].

قال ابن جرير[2]: «قوله: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾، يقول تعالى ذكره: فأما إن كان الميت من المقربين الذين قربهم الله من جواره في جنانه، ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾، يقول: فله روح وريحان».

وذكر أقوالًا في معنى ﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ ﴾، منها: عن أبي العالية: ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾، قال: لم يكن أحد من المقربين يفارق الدنيا، والمقربون: السابقون، حتى يؤتى بغصن من ريحان الجنة فيَشُمَّه، ثم يُقبض.

ثم قال ابن جرير: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: عَنَى بالرَّوْح: الفرح والرحمة والمغفرة، وأصله من قولهم: وجدت رَوْحًا: إذا وجد نسيمًا يَسْتَرْوِح إليه من كرب الحرّ.

وأما الريحان، فإنه عندي الريحان الذي يُتلقى به عند الموت، كما قال

---

(١) «تفسيره» (٤/٥١٠).

(٢) «تفسيره» (٢٧/١٢١-١٢٢).

أبو العالية والحسن ومَنْ قال في ذلك نحو قولهما، لأن ذلك الأغلب والأظهر من معانيه». اهـ.

وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ * فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، فقال ابن كثير[1]: «أي وأما إن كان المحتضَر من أصحاب اليمين، ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾؛ أي: تبشرهم الملائكة بذلك، تقول لأحدهم: ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ ﴾؛ أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة، أنت ﴿ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾».

وقال ابن سعدي[2]: «﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾؛ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات، وترك المحرمات والمكروهات وفضول المباحات، (فـ) لهم (روح)؛ أي: راحة وطُمَأنينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾، وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيرًا بنوع الشيء عن جنسه العام.

﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾، جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيُبَشَّر المقربون عند الاحتضار بهذه البِشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح فرحًا وسرورًا.

وقوله: ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾، وهم الذين أدَّوْا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تُخِلّ بتوحيدهم وإيمانهم، فيقال لأحدهم: سلام ﴿ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾؛ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين؛ أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم

---

(١) «تفسيره» (٤/٣٠١).

(٢) «تفسيره» (٥/١٧١).

ولقائهم له، أو يقال له: (سلام لك) من الآفات والبليات والعذاب، لأنك ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾، الذين سلِموا من الذنوب الموبقات». اهـ.

وقال الله تعالى بعد ذكر نعيم الجنة: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣١-٣٢].

قال ابن كثير[١]: «﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾؛ أي: كذلك يجزي الله كل من آمن به واتقاه وأحسن عمله. ثم أخبر تعالى عن حالهم عند الاحتضار أنهم طيبون؛ أي: مخلصون من الشرك والدنس وكل سوء، وأن الملائكة تسلم عليهم وتبشرهم بالجنة». اهـ.

وقال ابن جرير[٢]: «يقول تعالى ذكره: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الذين تَقْبِض أرواحَهم ملائكةُ الله، وهم طيبون بتطييب الله إياهم بنظافة الإيمان، وطُهر الإسلام، في حال حياتهم وحال مماتهم.

وقوله: ﴿يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾؛ يعني جل ثناؤه: أن الملائكة تقبض أرواح هؤلاء المتقين، وهي تقول لهم: سلام عليكم، صِيروا إلى الجنة، بِشارة من الله تبشرهم بها الملائكة». اهـ.

فصل

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولَمّا يُلحد، فجلس رسول الله ﷺ مستقبل القبلة، وجلسنا حوله، وكأنّ على رؤوسنا الطير، وفي يده عُودٌ يَنكُتُ به

(١) «تفسيره» (٢/٥٦٨).

(٢) «تفسيره» (١٤/٧٠).

في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه، ثلاثًا، فقال:

«اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، مرتين، أو ثلاثًا.

ثم قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»، ثلاثًا.

ثم قال: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ[(١)] مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ (وفي رواية: الْمُطْمَئِنَّةُ)، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ». قال: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، (وفي رواية: حَتَّى إِذَا خَرَجَتْ رُوحُهُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ أَنْ يُعْرَجَ بِرُوحِهِ مِنْ قِبَلِهِمْ)، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ [عَزَّ وَجَلَّ]: ﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام:٦١]. وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قال: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ ـ يعني بها ـ عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ. ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا

(١) هو ما يُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة. «نهاية».

عِلِّيُّونَ * كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٞ * يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين:١٩-٢١]. فَيُكْتَبُ كِتَابُهُ فِي عِلِّيِّينَ، ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قال: «فَيُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ، وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ يَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ. فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ. فَيَنْتَهِرُهُ فَيَقُولُ: مَنْ رَبُّكَ؟ مَا دِينُكَ؟ مَنْ نَبِيُّكَ؟ وَهِيَ آخِرُ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَى الْمُؤْمِنِ، فَذَلِكَ حِينَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ [إبراهيم:٢٧]. فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، وَدِينِيَ الْإِسْلَامُ، وَنَبِيِّي مُحَمَّدٌ ﷺ. فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

قال: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ».

قال: «وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ)، رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، أَبْشِرْ بِرِضْوَانٍ مِنَ اللهِ، وَجَنَّاتٍ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ لَهُ: وَأَنْتَ فَبَشَّرَكَ اللهُ بِخَيْرٍ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ سَرِيعًا فِي طَاعَةِ اللهِ، بَطِيئًا فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ خَيْرًا. ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ الْجَنَّةِ، وَبَابٌ مِنَ النَّارِ، فَيُقَالُ: هَذَا [كَانَ] مَنْزِلَكَ لَوْ عَصَيْتَ اللهَ، أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ هَذَا. فَإِذَا رَأَى مَا فِي الْجَنَّةِ قَالَ: رَبِّ عَجِّلْ قِيَامَ السَّاعَةِ، كَيْمَا أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي. فَيُقَالُ لَهُ: اسْكُنْ».

قال: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ (وفي رواية: الْفَاجِرَ) إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ، سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ[١] مِنَ النَّارِ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ».

قال: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ[٢] الْكَثِيرُ الشُّعَبِ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَتُقَطَّعُ مَعَهَا الْعُرُوقُ وَالْعَصَبُ، فَيَلْعَنُهُ كُلُّ مَلَكٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَكُلُّ مَلَكٍ فِي السَّمَاءِ، وَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، لَيْسَ مِنْ أَهْلِ بَابٍ إِلَّا وَهُمْ يَدْعُونَ اللهَ: أَنْ لَا تَعْرُجَ رُوحُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ. فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ. بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ». ثم قرأ رسول الله ﷺ: «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِ ﴾ [الأعراف:٤٠]. فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ، فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى. ثُمَّ يُقَالُ: أَعِيدُوا عَبْدِي إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي وَعَدْتُهُمْ أَنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى. فَتُطْرَحُ رُوحُهُ مِنَ السَّمَاءِ طَرْحًا، حَتَّى تَقَعَ فِي جَسَدِهِ». ثم قرأ: «﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج:٣١]،

---

(١) واحدها: مِسْح، وهو كساء من شعر، والمراد الكفن.

(٢) السَّفود والسُّفود: عُودٌ من حديد يُنظَمُ فيه اللحمُ ليُشْوَى، وشُعَب السفود: أسنانه التي يُغرز فيها اللحمُ للشِّواء. «معجم».

فتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ».

قال: «فَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ خَفْقَ نِعَالِ أَصْحَابِهِ إِذَا وَلَّوْا عَنْهُ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ شَدِيدَا الانْتِهَارِ، فَيَنْتَهِرَانِهِ، وَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي. فَيَقُولَانِ [لَهُ] مَاذَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَلَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ، فَيُقَالُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ ذَاكَ.

قال: «فَيُقَالَ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَوْتَ. فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ. فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ، حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ (وفي رواية: يُمَثَّلُ لَهُ) رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ. فَيَقُولُ: وَأَنْتَ، فَبَشَّرَكَ اللهُ بِالشَّرِّ، مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ. فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَوَاللهِ مَا عَلِمْتُكَ إِلَّا كُنْتَ بَطِيئًا عَنْ طَاعَةِ اللهِ، سَرِيعًا إِلَى مَعْصِيَةِ اللهِ، فَجَزَاكَ اللهُ شَرًّا. ثُمَّ يُقَيَّضُ لَهُ أَعْمَى أَصَمُّ أَبْكَمُ، فِي يَدِهِ مِرْزَبَةٌ، لَوْ ضُرِبَ بِهَا جَبَلٌ كَانَ تُرَابًا، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً حَتَّى يَصِيرَ تُرَابًا، ثُمَّ يُعِيدُهُ اللهُ كَمَا كَانَ، فَيَضْرِبُهُ ضَرْبَةً أُخْرَى، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهُ كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ، ثُمَّ يُفْتَحُ لَهُ بَابٌ مِنَ النَّارِ، وَيُمَهَّدُ مِنْ فُرُشِ النَّارِ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الْمَيِّتُ تَحْضُرُهُ الْمَلَائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا، قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ،

(١) حديث صححه الحاكم، والذهبي، وابن القيم، ثم الألباني، ومن كتابه «أحكام الجنائز» نقلته، لما أودعه فيه من الزيادات الكثيرة والروايات العديدة، فجزاه الله خيرًا.

وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَيُفْتَحُ لَهَا، فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ، فَيُقَالُ: مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ، كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، ادْخُلِي حَمِيدَةً، وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلَا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». الحديث(١).

وعنه رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللَّهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا [يَشُمُّونَهُ]، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ». الحديث(٢).

وعنه رضي الله عنه قال:

«إِذَا خَرَجَتْ رُوحُ الْمُؤْمِنِ تَلَقَّاهَا مَلَكَانِ يُصْعِدَانِهَا».

قال حماد: فذَكَرَ من طِيب ريحها وذَكَرَ المسكَ.

قال: «وَيَقُولُ أَهْلُ السَّمَاءِ: رُوحٌ طَيِّبَةٌ جَاءَتْ مِنْ قِبَلِ الْأَرْضِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكِ وَعَلَى جَسَدٍ كُنْتِ تَعْمُرِينَهُ، فَيُنْطَلَقُ بِهِ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَقُولُ: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْأَجَلِ(٣)». الحديث(٤).

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه النسائي (٤/٨-٩)، وهذا لفظه، وابن حبان (٧٣٣ - موارد)، والحاكم (١/٣٥٢-٣٥٣)، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٣٠٩)، وزيادة «يَشُمُّونَهُ» لابن حبان والحاكم.

(٣) أي: إلى سدرة المنتهى، كذا قال القاضي. كما في «شرح مسلم» للنووي (١٧/٢٠٥).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٧٢) وغيره.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ (أو قال: أَحَدُكُمْ)، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللَّهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ». الحديث[1].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال نبي الله ﷺ:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ، إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ» قال: «يَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟» قال: «فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ». قال: «فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الْجَنَّةِ». قال نبي الله ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا».

قال قتادة: وذُكِر لنا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[2].

تغير أحوال النفس

والنفس تتغير من حال إلى أخرى، فتارة تكون أمارة بالسوء، وتارة لوامة، وأخرى مطمئنة.

فبطاعتها لله تعالى تنتقل من أمارة إلى لوامة، ثم إلى مطمئنة، وينعكس الأمر بالمعصية.

وغاية كمال العبد أن يكون ذا نفس مطمئنة، وهذا لا يمكن تحصيله إلا برحمة من الله تعالى وتوفيق، نسأله سبحانه من فضله، إنه هو الجواد الكريم،

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٧١) وغيره، وجود إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣/٣٨٠).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

والعليم الحكيم.

قال ابن القيم[1]: «والنفس قد تكون تارة أمارة، وتارة لوامة، وتارة مطمئنة، بل في اليوم الواحد والساعة الواحدة يحصل منها هذا وهذا، والحكم للغالب عليها من أحوالها، فكونها مطمئنة وصف مدح لها، وكونها أمارة بالسوء وصف ذم لها، وكونها لوامة ينقسم إلى المدح والذم، بحسب ما تلوم عليه».

قلت: وَصْفُ القرآن الكريم النفس باللوامة وَصْفُ مدح، ولذا أقسم الله تعالى بها، فلوم النفس صاحبها على فعل الشر وترك الخير ممدوح، وهو المقصود من القسم بالنفس اللوامة، ولكن أمر النفسِ العبدَ بالشر ونهيه عن الخير مذموم، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على هذا وذاك، وتلومه على حال كونها أمارة، فلا تكون لوامة إلا وثمَّ معصية ومخالفة، فلذلك كانت دون المطمئنة الموصوفة بما تقدم.

وقد يكون المقصود من القَسَمِ القَسَمَ بجنس النفس اللوامة، وهو ممكن، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس:٧-٨]، وعندها يتوجه كلام ابن القيم بكون اللوامة صفةَ مدح أو ذم بحسب ما تلوم عليه، ويكون القَسَم قَسَمًا بجنس النفس اللوامة، سواء كانت مؤمنة أو كافرة، وذلك لعجيب خَلْقها وخُلُقها، وما استودِع فيها من أسرار، والله أعلم.

وقال الغزالي[2]: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، فرّارة من الخير، وأُمِرْتَ بتزكيتها وتقويمها، وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها، وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفسَ

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٨/١).

(٢) «الإحياء» (٤١٦/٤).

المطمئنةَ المدعوةَ إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك».

قلت: ومع هذا فعلى العبد أن يعالج نفسه ويعمل على تزكيتها بالحق والعدل، دون إفراط ولا تفريط، وذلك لا يكون أبدًا إلا بالطرق الشرعية، كما سيأتي بيانه وتفصيله، فالنفس لها حقوق وعليها واجبات، وهي مطية صاحبها، بها يسير في طريقه إلى الله تعالى والدار الآخرة.

وعن عَون بن أبي جُحَيْفَةَ، عن أبيه قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء مُتَبَذِّلَةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كل فإني صائم. قال: ما أنا بآكل حتى تأكل. فأكل. فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال: نم. فنام. ثم ذهب يقوم، فقال: نم. فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن. قال: فصليا. فقال له سلمان: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صَدَقَ سَلْمَانُ»(١).

معنى التزكية

الزكاة في اللغة ــ كما في المعاجم ــ: البركة والنماء. والطهارة. والصلاح.

قال شيخ الإسلام(٢): «الزكاة في اللغة: النماء والزيادة في الصلاح. يقال: زكا الشيء إذا نما في الصلاح. فالقلب يحتاج أن يَتَرَبَّى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يُرَبَّى بالأغذية المُصْلِحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ومنع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو

(١) أخرجه البخاري وغيره.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٠/٩٦).

ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره، وكذلك الزرع لا يزكو إلا بهذا».

وقال[1]: «فالتزكية وإن كان أصلها النماء والبركة وزيادة الخير فإنما تحصل بإزالة الشر، فلهذا صار التزكي يجمع هذا وهذا».

وقال[2] في قول الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور:٣٠]: «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك».

وقال[3]: «إن الشرك أعظم ما تنجس به النفس، وأعظم تزكية النفس وتطهيرها تزكيتها منه وتطهيرها منه».

قلت: فتزكية النفس وصلاح القلب يكون بالإيمان والعمل الصالح، وبتطهيرها من ضد ذلك من الكفر والفسوق والعصيان، وهذا كله يكون بالعلم من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ والعمل به، فهذا الذي تكبُر به النفس وتنمو وتعلو وتشرُف وتظهر وتطهُر، كما سيأتي تفصيله.

❑❑❑❑❑

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٦٠/١٦).

(٢) «العبودية» (ص ٩١).

(٣) «العبودية» (ص ٩١).

الباب الأول

طرق تزكية النفس

والتخلص من شرها

طرق تزكية النفس

وإذ قد عُلِم شر النفس، وكثرة أمرها صاحبها بالسوء، وأنها مركب الشيطان، وشريكه في سحبه إلى النار، وعُلِم أن في طُمَأنينتها الخير كله، والفلاح كله، صار لزامًا على العاقل أن يتخلص من شرها، ويحملها على ما فيه صلاحها، وذلك يكون بأمور، منها:

مجاهدة النفس

بأن يكبح جماحها ويجاهدها على فعل الخير، ملزمًا إياها تقوى الله عز وجل، التي بها تكون زكاتها، فتفوز وتفلح فلاح الأبد، وتربح خير الدنيا والآخرة، وقد أقسم الحق جل وعلا على هذا، فقال سبحانه: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا * وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا * وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا * وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا * وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا * وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا * وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس:١-١٠].

وقال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ * وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى:١٤-١٥].

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، قال ابن القيم(١): «والمعنى: قد أفلح من كبرها وأعلاها بطاعة الله وأظهرها، وقد خسر من أخفاها وحقّرها وصغرها بمعصية الله، وأصل التدسية: الإخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ﴾ [النحل:٥٩].

فالعاصي يدس نفسه في المعصية، ويخفي مكانها، يتوارى من الخلق من سوء ما يأتي به، قد انقمع عند نفسه، وانقمع عند الله، وانقمع عند الخلق، فالطاعة والبر تكبر النفس وتعزها وتعليها، حتى تصير أشرف شيء وأكبره، وأزكاه وأعلاه، ومع ذلك فهي أذل شيء وأحقره وأصغره لله تعالى، وبهذا الذل حصل لها هذا العز والشرف

---

(١) «الجواب الكافي» (ص ٩١).

والنمو، فما صَغّر النفوس مثل معصية الله، وما كبرها وشرفها ورفعها مثل طاعة الله».

وقال[١]: «قال بعض العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم. فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في حَجة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ»[٢].

قال الحسن: ما الدابةُّ الجموحُ بأحوجَ إلى اللِّجام الشديد من نفسك[٣].

وكان يقول: إن النفس أمارة بالسوء، فإن عصتك في الطاعة فاعصها أنت في المعصية[٤].

وقال الآجُرّي في «أدب النفوس»: «اعلم أن النفس مثلها كمثل المُهر الحسن من الخيل، إذا نظر إليه الناظر أعجبه حسنه وبهاؤه، فيقول أهل البصيرة به: لا يُنتفع بهذا حتى يُراض رياضة حسنة ويؤدب أدبًا حسنًا، فحينئذ يُنتفع به، فيصلح للطلب والهرب، ويَحمد راكبُه عواقبَ تأديبه ورياضته، فإن لم يُؤَدَّب لم يُنتفع بحسنه ولا ببهائه، ولا يَحمد راكبُه عواقبَه عند الحاجة.

فإن قبل صاحب هذا المُهر قول أهل النصيحة والبصيرة به علم أن هذا قول صحيح، فدفعه إلى رائضٍ فراضه، ثم لا يصلح أن يكون الرائض إلا عالمًا بالرياضة، معه صبر على ما معه من علم الرياضة، فإن كان معه علم بالرياضة

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٥/١).

(٢) أخرجه الترمذي (١٦٢١)، وابن ماجه (٣٩٣٤)، وابن حبان (٤٨٦٢)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٣) «الإحياء» (٧١/٣).

(٤) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص ٣٠).

ونصيحة انتفع به صاحبه، فإن كان الرائض لا معرفة معه بالرياضة ولا علم بأدب الخيل أفسد هذا المُهر وأتعب نفسه، ولم يَحمد راكبُه عواقبَه، وإن كان الرائض معه معرفة الرياضة والأدب للخيل إلا أنه مع معرفته لم يصبر على مشقة الرياضة، وأحب الترفيه لنفسه، وتوانى عما وجب عليه من النصيحة في الرياضة، أفسد هذا المُهر وأساء إليه، ولم يصلح للطلب ولا للهرب، وكان له منظر بلا مَخْبَر.

فإن كان مالكه هو الرائض له ندم على توانيه يوم لا ينفعه الندم، حين نظر إلى غيره في وقت الطلب قد طلب فأدرك، وفي وقت الهرب قد هرب فسلم، وطلب هو فلم يدرك وهرب فلم يسلم، كل ذلك بتوانيه وقلة صبره بعد معرفته منه، ثم أقبل على نفسه يلومها ويوبخها، فيقول: لم فرطتِ؟ لم قصرتِ؟ لقد عاد عليَّ من قلة صبري كلُّ ما أكره، والله المستعان.

اعقلوا رحمكم الله علم هذا المثل وتفقهوا به تفلحوا وتنجحوا». اهـ.

ولله در من قال:

صبرتُ عن اللذات حتى تولتِ ... وألزمتُ نفسي تركَها فاستمرتِ
وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن تُوِّقَتْ تاقت وإلا تسلتِ

ولعنترة:

وأَغُضُّ طرفي ما بَدَتْ لي جارتي ... حتى يواري جارتي مأواها
إني امرؤٌ سَمْحُ الخليقةِ ماجدٌ ... لا أُتْبِعُ النفسَ اللجوجَ هواها

وقال ابن القيم[1]: «في النفس: كبر إبليس، وحسد قابيل، وعُتُوّ عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمرود، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقِحَة هامان، وهوى بَلعام، وحِيَل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل.

(١) «الفوائد» (ص ٧٤-٧٥).

وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَه الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعَل، وعقوق الضَّبّ، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعَبَث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ولؤم الضبع.

غير أن الرياضة والمجاهدة تذهب ذلك، فمن استرسل مع طبعه فهو من هذا الجند، ولا تصلح سلعته لعقد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة:١١١]، فما اشترى إلا سلعة هذبها الإيمان، فخرجت من طبعها إلى بلدٍ سكانه التائبون العابدون».

وقال[١]: «قال رجل للحسن البصري رحمه الله تعالى: يا أبا سعيد، أي الجهاد أفضل؟ قال: جهادك هواك.

وسمعت شيخنا يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين، فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم».

وقال[٢]: «لما كان جهاد أعداء الله في الخارج فَرْعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله، كما قال النبي ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ»[٣]، كان جهاد النفس مُقَدَّمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلًا له، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولًا لتفعل ما أُمرتْ به، وتترك ما نُهيتْ عنه، ويحاربها في الله، لم يمكنه جهادُ عدوِّه في الخارج، فكيف يمكنه جهادُ عدوِّه والانتصافُ منه، وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه، لم يجاهده ولم يحاربه في الله؟! بل لا يمكنه الخروجُ إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج».

---

(١) «روضة المحبين» (ص ٤٧٨).

(٢) «زاد المعاد» (٣/٥-٦).

(٣) تقدم بنحوه قبل قليل، والجملة الثانية بهذا اللفظ في «صحيح البخاري»، من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما.

مراتب جهاد النفس

وجهاد النفس أربع مراتب ـ كما قال ابن القيم[1] ـ:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق، الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله.

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًّا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه. اهـ.

ولبعضهم:

فـإنّ أمّـارتي بالسُّـوء مـا اتّعظـتْ ... من جهلهـا بنـذير الشّـيب والهَـرَمِ

ولا أعدتْ من الفعل الجميـل قِـرى ... ضـيف ألـمَّ بـرأسي غـير محتشـمِ

لـو كنـت أعلـم أني مـا أُوقِّـرهُ ... كتمـتُ سرًّا بـدا لي منـه بـالكَتَمِ

مـن لي بِـرَدّ جِمـاحٍ مـن غَوايتهـا ... كمـا يُـرَدّ جِمـاحُ الخيـلِ بـاللُّجُمِ

فلا تَرُمْ بالمعـاصي كسـر شـهوتها ... إن الطعـام يُقـوّي شـهوةَ النَّهِـمِ

والنّفس كالطّفل إنْ تهملْـه شَـبَّ على ... حـبّ الرَّضـاع وإن تَفطمْـه يَـنْفَطِمِ

فـاصرف هواهـا وحـاذر أن تولّيَـهُ ... إن الهـوى مـا تـولى يُصْـمِ أو يَصِـمِ

---

(1) «زاد المعاد» (٣/١٠).

وراعهــا وهي في الأعمــال ســائمةٌ وإن هي استحلتِ المرعى فــلا تَسُـمِ

كــم حسَّــنت لَذة للمــرء قاتلــةً من حيث لم يـدر أن السّـمّ في الدَّسَـمِ

واخش الدسائس من جـوع ومـن شِبَعٍ فــرُبّ مخمصــة شرٌّ مــن التُّخَــمِ

واستفرغ الدمع من عين قـد امـتلأتْ مــن المحــارم والــزم حِميــةَ النــدمِ

وخالفِ النّفس والشيطان واعصـهما وإن همــا محضــاك النصـح فــاتّهمِ

ولا تطـع منهمــا خصـمًا ولا حَكَمًــا فأنت تعـرف كيـد الخصـم والحَكَـمِ

وقال ابن الجوزي[١]: «أعجب الأشياء مجاهدة النفس، لأنها تحتاج إلى صناعة عجيبة، فإن أقوامًا أطلقوها فيما تحب فأوقعتهم فيما كرهوا، وإن أقوامًا بالغوا في خلافها حتى منعوها حقها وظلموها، وأثّر ظلمُهم لها في تعبداتهم، فمنهم من أساء غذاءها فأثر ذلك ضعف بدنها عن إقامة واجبها، ومنهم من أفردها في خلوة أثمرت الوحشة من الناس، وآلت إلى ترك فرض أو فضل من عيادة مريض أو بر والدة.

وإنما الحازم من تَعْلم منه نفسه الجِد وحفظ الأصول، فإذا فسح لها في مباح لم تتجاسر أن تتعداه، فيكون معها كالملك إذا مازح بعض جنده، فإنه لا ينبسط إليه الغلام، فإن انبسط ذَكر هيبة المملكة، فكذلك المحقق يعطيها حظها ويستوفي منها ما عليها».

وقال[٢]: «تأملت جهاد النفس فرأيته أعظم الجهاد، ورأيت خلقًا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه، لأن فيهم من منعها حظوظها على الإطلاق، وذلك غلط من وجهين:

أحدهما: أنه رُب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها، مثل أن يمنعها

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٤١).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٨٠-٨٢).

مباحًا فيشتهر بمنعه إياها ذلك، فترضى النفس بالمنع لأنها قد استَبدلتْ به المدح.

وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها ما منع أنه قد فَضُل سواه ممن لم يمنعها ذلك، وهذه دقائق تحتاج إلى مِنقاشٍ(١) فَهْمٍ يُخَلِّصها.

والوجه الثاني: أننا قد كُلِّفنا حفظها، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التي تُقِيمها، فلا بد من إعطائها ما يُقِيمها، وأكثر ذلك أو كله مما تشتهيه، ونحن كالوكلاء في حفظها، لأنها ليست لنا، بل هي وديعة عندنا، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر.

ثم رب شد أوجب استرخاء، ورب مُضَيِّق على نفسه فرت منه، فصعب عليه تلافيها، وإنما الجهاد لها كجهاد المريض العاقل، يحملها على مكروهها في تناول ما ترجو به العافية، ويُذَوِّب في المرارة قليلًا من الحلاوة، ويتناول من الأغذية مقدار ما يصفه الطبيب، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطعم ربما جر جوعًا، ومن لقمة ربما حَرَمَتْ لُقمات.

فكذلك المؤمن العاقل لا يترك لجامها، ولا يهمل مِقودها، بل يُرخي لها في وقت والطِّوَل(٢) بيده، فما دامت على الجادة لم يضايقها في التضييق عليها، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف، فإن وَنَتْ وأبت فبالعنف، ويحسبها في مقام المداراة كالزوجة التي مَبنى عقلها على الضعف والقلة، فهي تدارى عند نشوزها بالوعظ، فإن لم تصلح فبالهجر، فإن لم تستقم فبالضرب، وليس في سياط التأديب أجود من سوط عزم. هذه مجاهدة من حيث العمل.

فأما من حيث وعظها وتأنيبها: فينبغي لمن رآها تسكن للخلق وتتعرض بالدناءة من الأخلاق، أن يُعَرِّفها تعظيم خالقها لها، فيقول: ألست التي قال فيك: خلقتك بيدي، وأسجدت لك ملائكتي، وارتضاك للخلافة في أرضه، وراسلك، واقترض منك، واشترى؟! فإن رآها تتكبر قال لها: هل أنت إلا قطرة من ماء مهين،

---

(١) المنقاش: مِلْقاط؛ أداة تُستخرج بها الأشياء الصغيرة، كالشوكة.

(٢) الرَّسَن أو الحبل.

تقتلك شَرْقة، وتؤلمك بقة؟! وإن رأى تقصيرها، عَرَّفها حق الموالي على العبيد، وإن وَنَتْ في العمل حدثها بجزيل الأجر، وإن مالت إلى الهوى خوّفها عظيمَ الوزر، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية، كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ﴾ [الأنعام:٤٦]. والمعنوية، كقوله تعالى: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]. فهذا جهاد بالقول[1]، وذاك جهاد بالفعل».

الخوف من الله تعالى

ومن طرق الخلاص من شر النفس: تحذيرها مولاها وتخويفها منه تعالى جده[2]، فإنه لا شيء أقمع لشهوات النفس من الخوف من عقاب الله جل وعلا، فمن خاف من الله تعالى خوفًا صادقًا سكنت نفسه وخشعت، وذلت وانكسرت، وجانبت ما هي فيه من المعاصي، وبادرت بالأعمال الصالحة الأوقات، واغتنمت من أجل ذلك الساعات، بل وضنت بالأنفاس واللحظات.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنَّةُ»[3].

قال أبو سليمان الداراني: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل[4].

وقال أبو الحسين الوراق: الشهوة أغلب سلطان على النفس، ولا يزيلها إلا الخوف المزعج[5].

---

(١) يعني: وعظ النفس ومعاتبتها ولومها وتأنيبها، وهو موضوع كتابنا، كما سيأتي تفصيله.

(٢) كما تقدمت الإشارة إليه قبل قليل من كلام ابن الجوزي.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٥٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) «شعب الإيمان» (٤٨١/٧)، وانظر «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٢٠/٧).

(٥) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

وقال ابن أبي الدنيا: «بلغني أن بعض الملوك قال لبعض الحكماء: العجب لمن عرف الله وجلاله كيف يخالف أمره وينتهك حريمه؟! فقال الحكيم: بإغفال الحذر، وبسط الأمل، وبعسى وسوف ولعل. قال الملك: بم يُعتصم من الشهوة وقد رُكِّبت في أبدان ضعيفة، ففي كل جزء من البدن للشهوة حلول ووطن؟! قال الحكيم: إن الشهوة من نتاج الفكر، وقرين كل فكرة عبرة، ومع كل شهوة زاجر عنها، فمن قرن شهواته بالاعتبار، وحاط نفسه بالازدجار، انحلت عنه ربقة العدوان، ودحض سَيِّءَ فكره بإيثار الصبر على شهوته، لما يرجو من ثواب الله على طاعته، ويخاف من عقابه على معصيته»[1].

وقال ابن الجوزي[2]: «الخوف سوط يساق به المتواني».

وفي المدهش[3]: «ما دامت نفسك عند التوبيخ تنكسر، وعينك وقت العتاب تدمع، ففي قلبك بعد حياة، إنما المعاصي أوجبت سكتة، فأَنْشِقْ هواك حُرّاق التخويف وقد عطس. يا من قد أبعدته الذنوب عن ديار الأنس، ابك وَطَرَ الوطن عساك تُرَد».

وفي «التبصرة»[4]: «يا من يبارز مولاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْرَه، ويُنْعِم عليه وهو ينسى شكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه تُرفع عشيًّا وبكرة، يا قليل الزاد ما أطول السفرة! والنَّقلة قد دنت والمصير الحفرة.

متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ؟ أما تحذر مَنْ أوعدَ وهدّد؟ أما تخاف مَنْ أنذر وشدّد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد؟ متى تهُب بك ريح الخوف

---

(١) «ذم الهوى» (ص ٣٠).

(٢) «الطب الروحاني» (ص ٤٨).

(٣) (ص ٣٥٧).

(٤) (١/٩٧-٩٨).

كأنك غصن يَتَأَوَّد[1]؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيام قلائل».

وفيها[2]: «يا مبارزًا [مولاه] بالذنوب خذ حِذرك، وتَوَقَّ عقابه بالتقى فقد أنذرك، وخَلِّ الهوى فإنه كما ترى صيّرك، قبل أن يغضب الإله ويُضَيِّق حَبْسَه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾[آل عمران:٢٨ و٣٠].

اجتهد في تقوية يقينك قبل خُسْرِ موازينك، وقم بتضرعك وخيفتك قبل نشر دواوينك، وابذل قواك في ضعفك ولينك، قبل أن يدنو العذاب فتجد مَسَّه، ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾».

وقد فصلت في باكورة كتبي (الخوف) فضائل الخوف من الله عز وجل، والأمور التي يُستجلب بها، فمن أحب فليطّلع عليه.

معرفة عاقبة اتباع الهوى

ومن طرق الخلاص من شر النفس: تعريفها بعاقبه من ملكته شهوته، وأسره هواه، وبالمقابل عاقبه من تحرر من رِقّ الشهوة، وخرج من سجن الهوى.

وفي ذلك قال المولى عز وجل: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ [مريم:٥٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ * وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا * فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ * وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ * فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴾ [النازعات:٣٧-٤١].

وفي بيان معنى «الهوى» قال ابن الجوزي[3]: «اعلم أن الهوى ميل الطبع إلى

---

(١) أي: يتثنى.

(٢) (٧٤/١).

(٣) «ذم الهوى» (ص ١٢).

ما يلائمه، وهذا الميل قد خُلق في الإنسان لضرورة بقائه، فإنه لولا ميله إلى المطعم ما أكل، وإلى المشرب ما شرب، وإلى المنكح ما نكح، وكذلك كل ما يشتهيه، فالهوى مستجلِب له ما يفيد، كما أن الغضب دافع عنه ما يؤذي، فلا يصلح ذم الهوى على الإطلاق، وإنما يُذم المفرِط من ذلك، وهو ما يزيد على جلب المصالح ودفع المضار، ولما كان الغالب مِن مُوافق الهوى أنه لا يقف منه على حد المنتفع أُطلِق ذمُّ الهوى والشهوات لعموم غلبة الضرر».

وقال[1]: «اعلم أن مطلِق الهوى يدعو إلى اللذة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحث على نيل الشهوات عاجلًا وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل.

فأما العاقل فإنه ينهى نفسه عن لذة تُعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى.

ألا ترى أن الطفل يؤثر ما يهوى وإن أداه إلى التلف؟ فيفضل العاقل عليه بمنع نفسه من ذلك.

وإذا عرف العاقل أن الهوى يصير غالبًا وجب عليه أن يرفع كل حادثة إلى حاكم العقل، فإنه سيشير عليه بالنظر في المصالح الآجلة، ويأمره عند وقوع الشبهة باستعمال الأحوط في كف الهوى، إلى أن يتيقن السلامة من الشر في العاقبة.

وينبغي للعاقل أن يتمرن على دفع الهوى المأمون العواقب ليستمر بذلك على ترك ما تؤذي غايته.

وليعلم العاقل أن مدمني الشهوات يصيرون إلى حالة لا يلتذونها، وهم مع ذلك لا يستطيعون تركها، لأنها قد صارت عندهم كالعيش الاضطراري، ولهذا ترى مدمن الخمر والجماع لا يلتذ بذلك عشر التذاذ من لم يدمن، غير أن

(١) «ذم الهوى» (ص ١٢-١٥)، مختصرًا.

العادة تقتضيه ذلك، فيلقي نفسه في المهالك لنيل ما يقتضيه تعوده، ولو زال رَين الهوى عن بصر بصيرته لرأى أنه قد شَقي من حيث قدَّر السعادة، واغتم من حيث ظن الفرح، وأَلِم من حيث أراد اللذة، فهو كالحيوان المخدوع بحَب الفخ، لا هو نال ما خُدع به، ولا أطاق التخلص مما وقع فيه.

فإن قال قائل: فكيف يُتخلص من هذا من قد نشب فيه؟ قيل له: بالعزم القوي في هجران ما يؤذي، والتدرج في ترك ما لا يؤمَن أذاه، وهذا يفتقر إلى صبر ومجاهدة، يهونهما سبعة أشياء:

أحدها: التفكر في أن الإنسان لم يخلق للهوى، وإنما هيئ للنظر في العواقب، والعمل للآجل، ويدل على هذا أن البهيمة تصيب من لذة المطعم والمشرب والمنكح ما لا يناله الإنسان، مع عيش هني خال عن فكر وهم، ولهذا تساق إلى منحرها وهي منهمكة على شهواتها، لفقدان العلم بالعواقب.

والثاني: أن يفكر في عواقب الهوى، فكم قد أفات من فضيلة! وكم قد أوقع في رذيلة! وكم من مطعم قد أوقع في مرض! وكم من زلة أوجبت انكسار جاه وقبح ذكر مع إثم! غير أن صاحب الهوى لا يرى إلا الهوى، فأقرب الأشياء شبهًا به مَن في المدبغة، فإنه لا يجد ريحها حتى يخرج فيعلم أين كان.

والثالث: أن يتصور العاقل انقضاء غرضه من هواه، ثم يتصور الأذى الحاصل عقيب اللذة، فإنه يراه يُرْبي على الهوى أضعافًا، وقد أنشد بعض الحكماء:

وأفضل الناس من لم يرتكب سببًا ... حتى يميِّز ما تجني عواقبُهُ

والرابع: أن يتصور ذلك في حق غيره، ثم يتلمح عاقبته بفكره، فإنه سيرى ما يعلم به عيبه إذا وقف في ذلك المقام.

والخامس: أن يتفكر فيما يطلبه من اللذات، فإنه سيخبره العقل أنه ليس

بشيء، وإنما عين الهوى عمياء.

والسادس: أن يتدبر عز الغلبة وذل القهر، فإنه ما من أحد غلب هواه إلا أحس بقوة العز، وما من أحد غلبه هواه إلا وجد في نفسه ذل القهر.

والسابع: أن يتفكر في فائدة المخالفة للهوى، من اكتساب الذكر الجميل في الدنيا، وسلامة النفس والعرض، والأجر في الآخرة، ثم يعكس فيتفكر لو وافق هواه في حصول عَكْسِ ذلك على الأبد».

وسئل شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: ما دواء من تحكم فيه الداء؟ وما الاحتيال فيمن تسلط عليه الخيال؟ وما العمل فيمن غلب عليه الكسل؟ وما الطريق إلى التوفيق؟ وما الحيلة فيمن سَطَتْ عليه الحيرة؟ إن قصد التوجه إلى الله تعالى منعه هواه! وإن رام الإدّكار غلب عليه الافتكار! وإن أراد أن يشتغل لم يطاوعه الفشل!

فأجاب رحمه الله: دواؤه الالتجاء إلى الله ودوام التضرع والدعاء، بأن يتعلم الأدعية المأثورة، ويتوخَّى الدعاء في مظانّ الإجابة، مثل آخر الليل، وأوقات الأذان والإقامة، وفي سجوده، وفي أدبار الصلوات.

ويضم إلى ذلك الاستغفار، فإنه من استغفر الله ثم تاب إليه متعه متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، وليتخذ وردًا من الأذكار، طرفي النهار، ووقت النوم.

وليصبر على ما يَعرِض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه.

وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس بباطنه وظاهره، فإنها عمود الدين، وليكن هِجِّيراه[2] لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فإنه بها يحمل الأثقال، ويكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال.

---

(١) انظر «مختصر الفتاوى المصرية» (ص ٦٥٠-٦٥١)، و«جامع المسائل - بكر أبو زيد» (المجموعة ٧/ ٤٤٦-٤٤٨).

(٢) دأبه وعادته.

ولا يسأم من الدعاء والطلب، فإن العبد يُستجاب له ما لم يَعْجَلْ، فيقول: قد دعوت فلم يُستجب لي[1]، وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا.

ولم ينل أحدٌ شيئًا من جسيم الخير ـ نبيٌّ فمَن دونه ـ إلا بالصبر، والحمد لله رب العالمين».

وفي «المدهش»[2]: «يا تائهًا في بوادي الهوى، انزل ساعة بوادي الفكر يخبرك بأن اللذة قصيرة، والعقاب طويل، وا عجبا لمن يشتري شهوة ساعة بغم الأبد! كانت المعصية ساعة لا كانت، فكم ذلت بعدها النَّفْس؟! وكم تصاعد لأجلها النَّفَس؟! وكم جرى لتذكارها دمع؟!».

وفيه[3]:

أيا نفس حقك أن تجزعي	ويا عين إياك أن تهجعي
ويا أذني إن دعاك الهوى	فإياك إياك أن تسمعي

ترك الفضول

ومن طرق الخلاص من شر النفس: ترك فضول الكلام، والنظر، والطعام، والمخالطة، فإن هذه تسهل على الشيطان دخوله إلى النفس.

قال ابن القيم[4]: «فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة».

---

(١) كما في «الصحيحين» وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي». وقوله: «أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ». بعض حديث نبوي، أخرجه الحاكم (٣/٦٦٦) وغيره. وهو في « الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٢) (ص ٤٠٥).

(٣) (ص ٢١٧).

(٤) انظر «بدائع الفوائد» (٢/٢٧١-٢٧٢).

فضول النظر

قال: فإن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، وهو أصل البلاء، والحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟! كما قال الشاعر:

كُلُّ الحــوادثِ مَبْــداها مــن النظــرِ

ومعظمُ النـار مـن مُستصـغَر الشــررِ

كـم نظـرةٍ فَتكـتْ في قلـب صـاحبها

فَتْــكَ الســهامِ بــلا قــوسٍ ولا وَتَــرِ

وقال المتنبي:

وأنـــا الذي جَلـــبَ المنيـــةَ طَرفُـــهُ

فمَـــن المطالَـــبُ والقتيـــلُ القاتـــلُ

قال ابن القيم:

يــا راميًــا بســهام اللحــظ مجتهــدًا ... أنت القتيل بمـا تـرمي فـلا تُصِـبِ

وباعــثَ الطــرف يَرتـاد الشـفاءَ لهُ ... تَوَقَّـــه إنـــه يَرتـــدُّ بالعَطَـــبِ

ترجو الشـفاء بأحـداق بهـا مـرضٌ ... فهل سمعت ببُرْءٍ جـاء مـن عَطَـبِ

وواهبًــا عمــرَه في مثــل ذا ســفهًا ... لو كنت تعرف قَدْرَ العمر لـم تَهَـبِ

وبائعًـا طِيـب عـيشٍ مـا له خَطَـرٌ ... بطَيفِ عـيشٍ مـن الآلام مُنتهَـبِ

غُبِنْتَ والله غَبْنًا فاحشًـا فلـوِ اســـ ... ـترجعتَ ذا العَقدِ لم تُغـبن ولـم تَخِـبِ

فضول الكلام

قال: وأما فضول الكلام: فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»(١).

وأكثر المعاصي إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام، وأما العين واللسان فلو تُركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات.

وكان السلف يحذرون من فضول النظر كما يحذرون من فضول الكلام، وكانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

فضول الطعام

قال: وأما فضول الطعام: فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشِّبَع وفضول الطعام! وكم من طاعة حال دونها! فمن وُقِيَ شر بطنه فقد وُقِيَ شرًّا عظيمًا، والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام.

وقال النبي ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ»(٢).

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله

---

(١) بعض حديث، أخرجه بنحوه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. وسيأتي بتمامه (صفحة ٣٦٦ - ٣٦٦). واللفظ أعلاه عند الطبراني في «الكبير» وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وغيره، وصححه الألباني، ولفظه كاملًا: عن مقدام بن مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

عز وجل لكفى به شرًّا، فإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان، ووعده ومناه وشهاه، وهام به في كل واد، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

فضول المخالطة

قال: وأما فضول المخالطة فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة! وكم زرعت من عداوة! وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة.

وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة، ويجعل الناس فيها أربعة أقسام، متى خلط أحد الأقسام بالآخر ولم يميز بينهما دخل عليه الشر:

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يُستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة، ثم إذا احتاج إليه خالطه، هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله تعالى وأمره، ومكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله تعالى ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحًا فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يُستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها، فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما، فهذا إذا تمكنت مخالطته واتصلت فهي مرض الموت المخوِّف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس، يشتد ضربًا عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حُمَّى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعِصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحْدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحى العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض.

وبالجملة فمخالطة كل مخالف حُمَّى للروح فعرضية ولازمة، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب وليس له بد من معاشرته ومخالطته، فليعاشره بالمعروف حتى يجعل الله له فرجًا ومخرجًا.

القسم الرابع: من مخالطته الهُلك كله، ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لأكله ترياق وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثرهم الله! وهم أهل البدع والضلالة الصادون عن سنة رسول الله الداعون إلى خلافها، ﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًا ﴾ [الأعراف:٤٥، وهود:١٩]، فيجعلون البدعة سنة والسنة بدعة، والمعروف منكرًا والمنكر معروفًا.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين. وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين. وإن وصفت الله بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله من غير غلو ولا تقصير قالوا: أنت من المشبِّهين. وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر قالوا: أنت من المُفَتِّنين. وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين. وإن انقطعت إلى الله تعالى وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا قالوا: أنت من المُلَبِّسين. وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم فأنت عند الله تعالى من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا

تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالِ بذمهم ولا بغضبهم، فإنه عين كمالك، كما قال [الشاعر]:

وإذا أتتك مذمتي من ناقصٍ ... فهي الشهادة لي بأني فاضلُ

انتهى كلام ابن القيم.

انفراد العبد بنفسه

قال شيخ الإسلام(١): «ولا بد للعبد من أوقات ينفرد بها بنفسه، في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه، وما يختص به من الأمور التي لا يَشرَكه فيها غيره، فهذه يحتاج فيها إلى انفراده بنفسه، إما في بيته، كما قال طاوس: نعم صومعة الرجل بيته يَكُفّ فيها بصرَه ولسانَه. وإما في غير بيته».

وقال ابن الجوزي(٢): «ليكن لك مكان في بيتك، تخلو فيه، وتحادث سطور كتبك، وتجري في حلبات فكرك».

غض البصر

وفي غض البصر وحفظ الفرج قال العليم الخبير سبحانه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠].

قال شيخ الإسلام(٣): «فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور، من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك».

وقال ابن سعدي: «﴿ذَٰلِكَ﴾ الحفظ للأبصار والفروج، ﴿أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾: أطهر وأطيب وأنمى لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره طهر من الخبث الذي يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم الذي تطمع إليه النفس

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٢٦).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٤٦).

(٣) «العبودية» (ص ٩١).

وتدعو إليه، فمن ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، ومن غض بصره عن المحرم أنار الله بصيرته، ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع داعي الشهوة كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظًا، فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه وعمل الأسباب الموجبة لحفظه لم ينحفظ، كذلك البصر والفرج إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعاه في بلايا ومحن».

قال: «ثم ذكَّرهم بعلمه بأعمالهم ليجتهدوا في حفظ أنفسهم من المحرمات».

وقال ابن القيم[1]: «قال تعالى عَقِيبَ أمره للمؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥].

وسر هذا الخبر: أن الجزاء من جنس العمل، فمن غض بصره عما حرم الله عز وجل عليه عوضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرمات أطلق الله نور بصيرته وقلبه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضه عن محارم الله تعالى، وهذا أمر يُحِسّه الإنسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصدأ فيها، فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صورة الحقائق كما هي عليه، وإذا صَدِئت لم ينطبع فيها صورة المعلومات، فيكون علمه وكلامه من باب الخرص والظنون». اهـ

وعن علي بن زيد، عن سعيد بن المسيب قال: ما أَيِسَ الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء.

ثم قال لنا سعيد ـ وهو ابن أربع وثمانين سنة، وقد ذهبت إحدى عينيه، وهو يعشو بالأخرى ـ: ما شيء أخوف عندي من النساء[2].

وقال: ما خِفْتُ على نفسي شيئًا مخافةَ النساء. قالوا: يا أبا محمد، إن مثلك

(١) «إغاثة اللهفان» (٤٨/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٧/٤).

لا يريد النساء، ولا تريده النساء. فقال: هو ما أقول لكم.

وكان شيخًا كبيرًا أعمش[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: من تضييع الأمانة النظرُ في الحُجُرات والدور[2].

وعن قيس بن الحارث قال: قال سلمان: لأن أموت ثم أنشر، ثم أموت ثم أنشر، ثم أموت ثم أنشر، أحب إلي من أن أرى عورة مسلم أو يراها مني[3].

وعن وكيع قال: خرجنا مع سفيان الثوري في يوم عيد فقال: إن أول ما نبدأ به في يومنا غض أبصارنا[4].

وعن أبي حكيم قال: خرج حسان بن أبي سنان يوم العيد، فلما رجع قالت له امرأته : كم من امرأة حسنة قد نظرت اليوم إليها؟

فلما أكثرت عليه قال: ويحك! ما نظرت إلا في إبهامي منذ خرجت حتى رجعت إليك[5].

وعن العلاء بن زياد قال: لا تُتبع بصرك رداء المرأة، فإن النظر يجعل شهوة في القلب[6].

وعن إبراهيم بن أدهم قال: كثرة النظر إلى الباطل تذهب بمعرفة الحق من القلب[7].

وقال ابن مفلح[8]: «وليحذر العاقل إطلاق البصر، فإن العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه، وربما وقع من ذلك العشق فيُهلك البدن

---

(١) «السير» (٤/٢٤١).

(٢) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٧١).

(٣) «الزهد» لأحمد (رقم ٨٣٥).

(٤) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٦٦).

(٥) «الورع» لابن أبي الدنيا (رقم ٦٨).

(٦) «الزهد» لأحمد (رقم ١٤٢٨).

(٧) «حلية الأولياء» (٨/٢٢).

(٨) «الفروع» مع «التصحيح» (٨/٢٨١).

والدين، فمن ابتُلي بشيء منه فليتفكر في عيوب النساء.

قال ابن مسعود: إذا أعجبت أحدَكم امرأةٌ فليذكر مناتنَها».

قلت: وليحذر العبد من الخروج إلى أماكن الفتنة والتنزه واللهو، حيث يرى النساء، خصوصًا المتبرجات، وليُقِلّ الخروج إلى الأسواق ما استطاع، فإن في هذا عونًا على غض البصر وتقييدًا لإطلاقه.

وبالمقابل ينبغي للمرأة ألّا تخرج من بيتها إلا للضرورة، وباللباس الشرعي الكامل، فهي معرضة للفتنة كذلك، وفي التزام النساء بيوتهن قَطْع للفتنة أو تقليل لها، وهي مأمورة بغض البصر مثلها مثل الرجل، وقد قال الله تعالى آمرًا نساء النبي ﷺ، وسائرُ النساء تبعٌ لهن:

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب:٣٣].

قال ابن كثير: «قال مقاتل بن حَيّان: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾، والتبرج: أنها تُلقي الخمار على رأسها، ولا تَشُدُّه فيواري قلائدَها وقُرْطَها وعنُقَها، ويبدو ذلك كله منها، وذلك التبرج». اهـ.

قلت: هذا تبرج الجاهلية الأولى، وقارنه بتبرج الجاهلية الآخرة: نساء كاسيات عاريات، قد كشفن نحورهن وصدورهن وبطونهن وأفخاذهن، ومعظم أجسادهن، وخرجن وتغنجن في الطرقات، مائلات مميلات، لا يخشَين الله تعالى، ولا يرعَين حقوقه، ولا يحفظن حدوده، وصرن يختلطن بالرجال حتى فيما اختصوا فيه من أعمال، ويَفْتِنّهم بزينتهن وعريهن وأفعالهن، ولسان حال إحداهن يقول للرجل: هيت لك!! هيت لك!!

قد ظهر من أجسادهن ما لا يجوز لإحداهن أن تظهره أمام أبيها وأخيها!! ولا حتى أمام أمها وأختها وابنتها وسائر بنات جنسها!! فإلى الله ربنا المشتكى!!

وعن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، وَإِنَّهَا إِذَا خَرَجَتِ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَإِنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ أَقْرَبَ مِنْهَا فِي قَعْرِ بَيْتِهَا»(١).

قلت: فهذا أصل عام أن المرأة كلها عورة، ولا يجوز أن يرى زينتها أحد، ولا يُستثنى من هذا إلا ما استُثني بالقرآن أو السنة، وقد استَثنى القرآن الكريم من الممنوعين من إبداء الزينة لهم مَنْ ذكرهم في قوله تبارك وتعالى:

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ [النور:٣١]. الآية.

ومواضع الزينة هي: الوجه والرأس، والعنق وموضع القلادة من طرف الصدر، واليدان إلى العضدين، والقدمان إلى ما تحت أنصاف الساقين، فهذا ما يجوز إظهاره أمام المذكورين، وهو ما جرت العادة بإظهاره، ومفهومه أن غيره لا يجوز إظهاره أمامهم، فضلًا عن غيرهم! ومعنى لا يجوز إظهاره: أن يُستر بما لا يَشِفّ ولا يَصِف؛ أي: بما لا يُظْهر لونَ الجسد كالملابس الشفافة، وبما لا يُحَجِّمه كالملابس الضيقة، كالبنطال وغيره.

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«صَلَاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلَاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهَا فِي بَيْتِهَا»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمُ الْمَسَاجِدَ، وَبُيُوتُهُنَّ خَيْرٌ لَهُنَّ»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (١١٧٣) بالجملة الأولى، وابن حبان (٥٥٩٨ و٥٥٩٩، ولعله في مواضع أُخَر)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٥٧٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (٥٦٧) وغيره، وصححه الألباني، وهو في «الصحيحين» بنحوه، دون الجملة الثانية.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ، وَلَكِنْ لِيَخْرُجْنَ وَهُنَّ تَفِلَاتٌ»[١].

وقال القرطبي[٢]: «وقيل: كل بلدة يكون فيها أربعة فأهلها معصومون من البلاء: إمام عادل لا يظلم، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويحرضون على طلب العلم والقرآن، ونساؤهم مستورات لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

وقال الشنقيطي[٣] في قول الله تعالى في وصف نساء الجنة: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن:٧٢]: «وكون المرأة مقصورة في بيتها لا تخرج منه من صفاتها الجميلة».

وقال قال ابن القيم[٤]: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشر، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامة والخاصة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتصلة[٥].

ولما اختلط البغايا بعسكر موسى، وفشت فيهم الفاحشة أرسل الله إليهم

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٦٥) وغيره، وصححه الألباني. و(تفلات)؛ أي: تاركاتٌ للطِّيب. «نهاية».

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/٤٩).

(٣) «أضواء البيان» (٦/٣١٤).

(٤) «الطرق الحكمية» (ص ٢٣٩).

(٥) أنقل كلام ابن القيم هذا في آخر ما أنقله إلى هذا الكتاب في وقت قد بدأ فيه في العالم انتشار وباء خطير، بسبب ما يسمى (فيروس كورونا)، وقد أصاب في بداية ظهوره آلاف البشر، ومات بسببه الكثير، وذلك في شهر رجب من سنة ١٤٤١ للهجرة، الموافق لشهر آذار سنة ٢٠٢٠، نسأل الله العافية والسلامة، وأن يكفينا شره، وأن يجنبنا الأسقام والأوبئة ما ظهر منها وما بطن، وأن يعيننا على طاعته واجتناب معاصيه، وأن يغفر لنا ويرحمنا، إنه هو العلي العظيم، وإنه هو الغفور الرحيم.

الطاعون، فمات في يوم واحد سبعون ألفًا، والقصة مشهورة في كتب التفاسير.

فمن أعظم أسباب الموت العام كثرة الزنا، بسبب تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال، والمشي بينهم متبرجات متجملات، ولو علم أولياء الأمر ما في ذلك من فساد الدنيا والرعية ـ قبل الدين ـ لكانوا أشد شيء منعًا لذلك».

فتنة الشاشة

وليحذر المسلم فتنة الشاشة الكبيرة وفتنة الشاشة الصغيرة (التلفاز والهاتف)، وقد كنت كلما خطر ببالي حديث الفتنة التي تدخل كل بيت[1] أكاد أقول: هي التلفاز وما يعرض فيه من فساد وحرام، لولا أنني كنت أعلم أنه لم يدخل كثيرًا من بيوت المتدينين وغيرهم، والآن أجزم أن الفتنة التي تدخل كل بيت هو هذا الهاتف الجوال الذي لم يخل منه بيت غني ولا فقير، وصار بمتناول يد كل أحد، حتى الطفل الصغير.

ووصلت فتنته وفساده لمن يبغيه إلى حدٍّ لا يُتصور، فالعالَم بحلاله وحرامه صار بين يدي طالبه، فلو أراد شخص ـ والعياذ بالله ـ أن ينتقل في دقيقة إلى بانكوك أو أمستردام أو باريس أو نيويورك مثلًا، أو أي مدينة تخطر بالبال، وكان من قبل يسمع بها سمعًا فقط، ويحرِّم على نفسه السفر إليها تدينًا، فإنه ينتقل إليها، ويستطيع أن يصل إلى أماكن الفساد فيها، فلو أراد أن يدخل ـ والعياذ بالله ـ خمارة أو ملهًى ويرى ما يجري فيها لاستطاع ذلك، بل لو أراد أن

---

(١) أخرج البخاري (٣١٧٦) وغيره، عن عوفِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: أَتيتُ النبيَّ ﷺ في غزوة تبوك وهو في قُبَّةٍ من أَدَمٍ، فقال: «اعْدُدْ سِتًّا بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ: مَوْتِي، ثُمَّ فَتْحُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ». الحديث. وفيه: «ثُمَّ فِتْنَةٌ لَا يَبْقَى بَيْتٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا دَخَلَتْهُ». قلت: وذكر العرب في هذا الحديث للتغليب، فقد جاء في رواية من حديث معاذ رضي الله عنه: «وَفِتْنَةٌ يَدْخُلُ حَرُّهَا بَيْتَ كُلِّ مُسْلِمٍ». أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤٤) وغيرُه. وهو في «صحيح الجامع» (٣٦٠٨)، وانظر «الصحيحة» (١٨٨٣).

يدخل ـ والعياذ بالله ـ بيت زنى، ويرى ما هنالك من الفاحشة والفجور وما لا تشاهده عينه من قبل لاستطاع، وليس هذا قاصرًا على بلاد الكفر، بل لو شاء لوجده على الشبكة (النت) في أي مكان، ولاستطاع أن يصاحب ويتخذ أخدان، بالمشاهدة والمراسلة من بعيد ومن قريب، وأخشى أن يأتي وقت تتطور فيه الأمور، ويصبح هناك خدمة التوصيل إلى البيوت، فينظر إلى الشاشة ويختار الفاجرة التي تعجبه، ويدفع الثمن المطلوب، وخلال ساعة تكون معه في الفراش! ومن يعش فسيرى اختلافًا كثيرًا!

اللهم مَكِّن للمؤمنين في الأرض، وانصر عبادك، وأَعِزَّ جندك، واهزم أعداءك، فقد طغَوا في البلاد، وأكثروا فيها الفساد.

وأما فضول الكلام، فحدِّث ولا حرج، فأصبح الجوال في أيدينا نقرأ فيه ونكتب ليل نهار، وكَثُر الفضول وأدى إلى الحرام، وكم كنت أتعجب عندما كنت أسمع عن السلف وانشغالهم في العبادة أو العلم أو التصنيف! وأن فلانًا كان يكتب في اليوم ثلاثين صفحة أو ضعف ذلك، مع اشتغاله بالتعلم والتعليم وإفتاء السائلين، وكثرة العبادة من صلاة وتلاوة وذكر، وأن فلانًا كان يختم القرآن في أسبوع، أو فلانًا كان يختم في ثلاثة أيام، وغير ذلك، فكنت أتعجب كيف تصل هممهم إلى هذا ونحوه دون كلل أو ملل، ودون فتور أو كسل!! وكيف يفعلون ذلك وليس لديهم من وسائل التطور والسرعة والبحث ما عندنا!!

فلما رأيت بعينَيّ كم تمكث الجوالات بأيدي الناس، من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وعالم وجاهل، وصحيح وسقيم! وكيف هم مولعون بها! وكيف يمضون جلّ أوقاتهم عليها! أصبحت أجزم يقينًا أن أحدنا لو أراد أن يختم القرآن في يوم لاستطاع! ولو أراد أن يقرأ مجلدًا كبيرًا لاستطاع، ولو أراد أن يكتب مئة صفحة وأكثر لفعل، وقلت: لو كان اهتمامنا بالعلم والتعلم والعبادة والذكر مثل اهتمامنا بالجوال، بل

مثل عشر ذلك، لتأملنا من الله تعالى أن نكون من أهل الفردوس الأعلى!!

وأما فضول المخالطة فقد غَزَت معظم البيوت، وأدت تدريجيًّا ـ بل بسرعة ـ إلى ما نحذر منه، فصار لا يكاد بيت مسلم يخلو من المخالطة المحرمة على (الفيس) وغيره، فصارت الفتاة ـ التي كانت محتشمة في بيتها ـ تجالس الأجانب على الشبكة (النت)، وتلاقيهم وتصادقهم، ويرَونها وتراهم، وأشياء يصعب حصر قدر فسادها وإفسادها، نستجير بالله تعالى.

ويبدو أن الأمور ستتسع رقعتها، ويعم أثرها أكثر وأكثر، بأشياء نعلمها وأشياء لا نعلمها، وأشياء لا تخطر ببالنا، وستكون الزيادة بسرعة فائقة مطردة مع سرعة الاكتشافات ونمو آثار التِّقْنِيَّات (التكنولوجيات)، نسأل الله العافية والسلامة من كل سوء، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، اللهم احفظنا واحفظ ذرياتنا بالإسلام قائمين وقاعدين، ومَسِّكْنا به، وأَمِتْنا عليه، يا رب العالمين.

وإنما كل هذا بدأ عند من لا يبغي الحرام بالولوج في الفضول من كل نوع منه، من نظر وسماع ومخالطة وغيرها[١].

فاحذر عبدَ الله من ذلك كله، ولا تستهن به، وتجنب ما يمكن أن يوصلك إليه جوالك من شرور ما استطعت، واحرص على الخير في استعماله، وعلى ما ينفعك في دينك ودنياك، وإياك والفضول، واقتصر على الضروري فقط، واعلم أن أول النار شرارة، وأن الجبال من الحصى[٢].

وانظر ماذا ترى عيناك! وماذا تسمع أذناك! وماذا تكتب يداك! وانظر ماذا تنشر

---

(١) وليست فتنة الشاشة مقتصرة على ما فيها من فتنة النظر والشهوات وما يتعلق بذلك مما ذكرنا، بل الأمر أكبر من ذلك وأوسع، من نشر الفساد بكل أنواعه، من الكفر والشرك والإلحاد، والمحادة لله تعالى ورسوله ﷺ، والمحاربة لدينه وشرعه وللمؤمنين، بكل وسيلة وحيلة، أعاذنا الله من ذلك كله، بمَنِّه وكرمه.

(٢) وأنصح في باب غض البصر والعفة والستر وما يلتحق بذلك بكتاب «حراسة الفضيلة»، لبكر أبو زيد، فإنه كتاب جامع مانع في هذا الباب.

بين الناس، أهو من الخير الذي ينفع وينجي، أم من الشر الذي يضر ويؤذي!! واعلم أنك عن كل ذلك مسؤول[1]، وسيلحقك أجره أو وزره وأثره ما دام منتشرًا متداوَلًا!

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴾ [يس:١٢].

قال القاسمي: «﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾؛ أي: نحفظ عليهم ما أسلفوا من الخير والشر ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾؛ أي: ما تركوه من سنة صالحة، فعُمِل بها بعد موتهم، أو سنة سيئة فعُمِل بها بعدهم». اهـ.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً، فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، كُتِبَ عَلَيْهِ مِثْلُ وِزْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[2].

ولله در القائل:

وما من كاتب إلا سيفنى ... ويُبقي الدهرُ ما كتبت يداهُ

فلا تكتب بكفك غير شيءٍ ... يسرك في القيامة إن تراهُ

وقال الشاطبي[3]: «طوبى لمن مات وماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة، ومائتي سنة، يعذب بها في قبره، ويُسأل عنها إلى انقراضها». اهـ.

العمر جوهرة نفيسة

واعلم أنك إنما تضيع من عمرك، وتنفق من محفظتك، فاستدرك ما فاتك، واندم على ما ضيعت من أيامك، فالبِدار البِدار، والحِذار الحِذار، فإن عمرك

---

(١) كما سيأتي في فصل السؤال يوم القيامة (صفحة ٤٨٠).

(٢) بعض حديث، أخرجه مسلم (١٠١٧) وغيره.

(٣) «الموافقات» (٣٦١/١).

جوهرة نفيسة غالية، فلا تلقها في البئر، أو تقايضها بفَلس، وأيامك دُرَرٌ ثمينة، فلا تبعها بثمن بخس، فإنك تستطيع أن تشتري بكل ساعة منها قصورًا وأنهارًا، وأشجارًا وثمارًا، وذهبًا ولؤلؤًا، وجواهر وألماسًا، وزوجات حسانًا، وخدمًا وولدانًا، ولا يشبه شيء منه شيئًا مما في الدنيا إلا بالاسم، في نعيم أبدي مقيم، وفوز كبير عظيم، لا يفنى فيه الشباب، ولا تبلى فيه الثياب، وفيه من كل ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين، وما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فلا ترضَيَنّ ويحك! بنفسك ثمنًا دون الجنة.

واعلم أن وقتك هو أنفس ما وُكِلْتَ بحفظه، وهو ـ وا أسفا ـ أكثر شيء تضيعه، كما قيل:

والوقت أَنْفَسُ ما عُنِيت بحفظهِ ... وأراه أسهلَ ما عليك يَضيعُ

فاحفظ عبدَ الله نفسك وأهلك، وقِهم نارًا وقودها الناس والحجارة، واضبط أمرك وأمرهم، قبل أن يفلت الزِّمام من يدك، ويخرج الأمر من عهدتك، واستعن بالله تعالى ولا تعجز، وعجل قبل زلة القدم، فعندها لا ينفع الندم!

قال ابن القيم(١): «سمعت شيخنا رحمه الله يقول: تنازع أبوان صبيًّا عند بعض الحكام، فخيره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمه: سَلْهُ لأي شيء يختار أباه. فسأله، فقال: أمي تبعثني كل يوم للكتاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني للعب مع الصبيان. فقضى به للأم، قال: أنتِ أحق به».

حفظ الخطرات

ويتخلص من شر النفس بحفظ الخطرات والأفكار، ومنعها من الجولان في الشهوات المحرمة، والأماني الكاذبة، والخيالات الفاسدة، فإن إطلاق الخطرات هو مدخل الشيطان الأول، وثغرته التي يدخل منها إلى النفس، وهو أصل الشر كله ومبدؤه.

---

(١) «زاد المعاد» (٥/٤٢٤).

وتكلم ابن القيم على الخطرات، فقال[1]: «وأما الخطرات: فشأنها أصعب، فإنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، فمن راعى خطراته ملك زمام نفسه، وقهر هواه، ومن غلبته خطراته فهواه ونفسه له أغلب، ومن استهان بالخطرات قادته قهرًا إلى الهلكات.

وأخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة، التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، ويتولد منها العجز والكسل، وتولد التفريط والحسرة والندم.

والمتمني لمّا فاتته مباشرة الحقيقة بجسمه حَوَّل صورتها في قلبه، وعانقها وضمها إليه، فقنع بوصال صورة وهمية خيالية صورها فكره، وذلك لا يجدي عليه شيئًا، وإنما مثله مثل الجائع والظمآن، يصور في وهمه صورة الطعام والشراب، وهو لا يأكل ولا ويشرب».

وقال في «فوائده»[2]: «دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت فكرة، فدافع الفكرة فان لم تفعل صارت شهوة، فحاربها فإن لم تفعل صارت عزيمة وهِمّة، فإن لم تدافعها صارت فعلًا، فإن لم تتداركه بضدِّه صار عادة، فيصعب عليك الانتقال عنها».

وقال[3]: «قاعدة في ذكر طريق قريب يوصل إلى الاستقامة في الأحوال والأقوال والأعمال، وهي شيئان:

أحدهما: حراسة الخواطر وحفظها والحذر من إهمالها والاسترسال معها، فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء، لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أَرض القلب، فإذا

---

(١) انظر «الجواب الكافي» (ص ١٨١).

(٢) (ص ٤٦).

(٣) «طريق الهجرتين» (ص ٣١٧-٣٢٠ - طبعة قطر).

تمكن بذرُها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تكون عزائم، ثم لا يزال بها حتى تثمر الأعمال، ولا ريب أن دفع الخواطر أَيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزًا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذا لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟ قلت: أسباب عدة:

أحدها: العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك وعلمه بتفصيل خواطرك.

الثاني: حياؤك منه.

الثالث: إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته[1] الذى خلقه لمعرفته ومحبته.

الرابع: خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

الخامس: إيثارك له أن تساكن قلبك غير محبته.

السادس: خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله، فتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

السابع: أن تعلم أن تلك الخواطر بمنزلة الحَب الذي يلقى للطائر ليصاد به، فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

الثامن: أن تعلم أن تلك الخواطر الرديئة لا تجتمع هي وخواطر الإيمان ودواعي المحبة والإنابة أصلًا، بل هي ضدها من كل وجه، وما اجتمعا في قلب إلا وغلب أحدهما صاحبه وأخرجه واستوطن مكانه، فما الظن بقلب غلبت خواطر

(١) يعني القلب، يشير إلى الحديث المشتهر: «القلب بيت الرب». ولا أصل له، وهو من كلام المتصوفة، قال السخاوي: «ليس له أصل في المرفوع، والقلب بيت الإيمان ومعرفته ومحبته».

النفس والشيطان فيه خواطر الإيمان والمعرفة والمحبة فأخرجتها واستوطنت مكانها! لكن لو كان للقلب حياة لشعر بألم ذلك وأحس بمصابه.

التاسع: أن يعلم أن تلك الخواطر بحر من بحور الخيال لا ساحل له، فإذا دخل القلب في غمراته غرق فيه وتاه في ظلماته، فيطلب الخلاص منه فلا يجد إليه سبيلًا، فقلب تملكه الخواطر بعيد من الفلاح معذب مشغول بما لا يفيد.

العاشر: أن تلك الخواطر هي وادي الحمقى وأماني الجاهلين، فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس وعزلته عن سلطانه(١) وأفسدت عليه رعيته وأَلقته في الأسر الطويل، كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية هي أصل الخير كله، فإن أرض القلب إذا بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسقيت مرة بعد مرة، وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها والقيام عليها، أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات، واستقر بها المَلِك في سلطانه واستقامت له رعيته، ولهذا لما تحققت طائفة من السالكين ذلك عملت على حفظ الخواطر، وكان ذلك هو سيرها وجل عملها.

وهذا نافع لصاحبه بشرطين:

أحدهما: أن لا يترك به واجبًا ولا سنة.

الثاني: أن لا يجعل مجرد حفظها هو المقصود، بل لا يتم ذلك إلا بأن يجعل موضعها خواطر الإيمان والمحبة والإنابة والتوكل والخشية، فيفرِّغ قلبه من تلك الخواطر ويَعمره بأضدادها، وإلا فمتى عمل على تفريغه منهما معًا كان خاسرًا، فلا بد من التفطن لهذا».

---

(١) في المطبوع: «سلطانها»، والصواب ما أثبته، كما سيظهره السياق الآن.

ملء الفراغ بالخير

ومن طرق تزكية النفس والتخلص من شرها: إشغالها في أوقات فراغها بنوافل الطاعات[1]، من صلاة وصيام، وتلاوة وذكر وفكر، وزيارة قبور، وعيادة مريض، وعلم نافع، وطلب رزق حلال، وغير ذلك من المستحبات، فان النفس إن لم تشغلها بالخير والحق شغلتك بالشر والباطل، فإنها دائمة الحركة لا تفتر، فضلًا عن كونها أمارة بالسوء، فكن أنت الآمر الناهي لها لا العكس!

ويعين على هذا معرفة قيمة الوقت الذي يضيعه العبد في غير طاعة الله عز وجل، والعمل لنيل رضاه، والزلفى عنده، في أبدٍ لا يزول، ونعمة دائمة، وحياة ناعمة، وعيشة راضية، فمن عرف ذلك خاف أن تفوته لحظة في غير طاعة، واجبة أو مستحبة.

قال ابن القيم[2]: «فوقت الإنسان هو عمره في الحقيقة، وهو مادة حياته الأبدية في النعيم المقيم، ومادة المعيشة الضَّنْك في العذاب الأليم، وهو يمر أسرع من السحاب، فما كان من وقته لله وبالله فهو حياته وعمره، وغير ذلك ليس محسوبًا من حياته، وإن عاش فيه عاش عيش البهائم، فإذا قطع وقته في الغفلة والسهو والأماني الباطلة، وكان خير ما قطعه به النوم والبطالة، فموت هذا خير له من حياته». اهـ

ويعينه عليه: النظر في سيرة أهل المسابقة إلى الخيرات، أهل القيام والصيام، أهل الذكر والفكر، أهل العلم والخشية.

وهذا يحتاج إلى همة عَلِيّة، ونفس أبيّة، ونية خالصة نقيّة، ولجوء واستعانة بالمولى الكريم، الهادي القدير، فالخير كله بيده، ولا معطي له إلا هو سبحانه، نسأله خير الدنيا وخير الآخرة.

---

(١) انظر فصل «التقرب بالنوافل بعد الفرائض» الآتي (صفحة ٤١٦).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ١٥٦- ١٥٧- طبعة دار المعرفة).

ذكر الله تعالى

وهو أعظم ما يحفظ النفس، ويقيها من شرور الشيطان، بل لا يحرز العبد نفسه من الشيطان إلا بذكر الله عز وجل، فعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا». الحديث[1]. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللهَ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا، حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ، فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ».

قال ابن القيم[2]: «وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، و(الخناس): الذي إذا ذَكَر العبدُ اللّهَ انخنس وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله تعالى التقم القلب، وألقى إليه الوساوس، التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبدُ نفسَه من الشيطان بمثل ذكر الله عز وجل».

وقال[3]: «فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة، لكان حقيقًا بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى، وأن لا يزال لَهِجًا بذكره، فإنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده، فإذا غَفَل وثب عليه وافترسه، وإذا ذَكَر اللّهَ تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع، حتى يكون كالوصع[4] وكالذباب، ولهذا سُمِّي (الوسواس

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٦٣ و٢٨٦٤)، وصححه الألباني.

(٢) «بدائع الفوائد» (٢/٢٧٠).

(٣) «الوابل الصيب» (ص ٤٦).

(٤) الوصع: بفتح الصاد وسكونها: طير أصغر من العصفور.

الخناس)؛ أي: يوسوس في الصدور، فإذا ذُكِر الله تعالى خَنَس؛ أي: كَفّ وانقبض».

الصلاة

وأفضل عبادة اشتملت على أنواع الذكر الثلاثة (التلاوة، والذكر من تسبيح وتحميد ونحوه، والدعاء) هي الصلاة، لذا كانت أعظم ما يحرز النفس من الشيطان، ويحميها من شره، إضافة إلى نهيها عن الفحشاء والمنكر، كما قال الله تبارك اسمه:

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن القيم(١): «ولما كانت الصلاة مشتملة على القراءة والذكر والدعاء، وهي جامعة لأجزاء العبودية على أتم الوجوه، كانت أفضل من كل من القراءة والذكر والدعاء بمفرده، لجمعها ذلك كله مع عبودية سائر الأعضاء».

تربية النفس على منهج السلف

ويُتخلص من شر النفس بالتزام صاحبها في تربيتها الطريقة السلفية الحقة، التي كان عليها رسول الله ﷺ وأصحابه، مجانبًا في ذلك البدع المحدثات والشعوذات والخرافات(٢)، ملتزمًا العلم الصحيح الصافي، فينهل من معينه، ويعمل به، ويترك ما دونه مما لم يأذن به الشرع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

ومما يجب الابتعاد عنه وترك العمل به الأحاديث الضعيفة التي ليس لها شواهد وطرق معتبرة تقويها وتَعْضدها، ومن باب أولى الأحاديث الموضوعة

(١) «الوابل الصيب» (ص ١١٩).

(٢) وما أكثرها وما أعظمها عند أهلها في هذا الباب خصوصًا!

المكذوبة، التي غالبًا ما تقترن ببدع ترفع سننًا ولا بد.

قال الألباني: «وبذلك تستعد نفسك لتقبل ما يلقى إليك من الأحاديث الأخرى الصحيحة، وإحلالها من قلبك المحل اللائق بها من القبول والعمل، وحينئذ تصفو روحك، ويستنير لبك، وتنجو من الأمراض الخفية التي كانت ألمت بك، بسبب سيطرة الأحاديث الواهية التي يقترن بها دائمًا التصديقُ بالخرافات والترهات والأباطيل، فضلًا عن الأحكام والآراء المخالفة».

قال: «ثم لا بد لك مع ذلك من العناية بتربية نفسك ومن يلوذ بك تربية إسلامية صحيحة، لا شرقية ولا غربية، وتخليقها بالأخلاق المحمدية، وبذلك يصلح قلبك، وتسعد في الدنيا قبل الآخرة». اهـ.

قلت: وأعظم ما يدخل في هذا العلم الذي ذكرت علم التوحيد، وهو العلم بالله تعالى وعظمته وتفرده بالألوهية وصفات الكمال، الموجِبة لأن يحَب وحده، ويُتوجه إليه بالعبادة وحده، بكل أنواعها، من صلاة وصيام، وتوبة وإنابة، وخوف ورجاء، وسائر عبادات القلب واللسان والجوارح.

وكذلك تفرده بالربوبية للعالمين، من خلق وإحياء وإماتة ورزق وضر ونفع ... إلخ.

ويدخل في علم التوحيد: العلم بأسماء الله تعالى الحسنى، وصفاته المجيدة، ذات الكمال المطلق من كل وجه، وإثباتها لله عز وجل دون غيره، على الوجه الذي يليق بكماله وجلاله وجماله.

وأكثر الخلق في غفلة عن هذا العلم الشريف، الذي هو أعظم العلوم وأنفعها للعبد، وأفضلها على الإطلاق، وسائر العلوم إنما هي من أجل تحقيق هذا العلم والعمل بما يمليه.

قال ابن سعدي[1]: «المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله، لا يُحَصِّل العبدُ في الدنيا أجلَّ ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوْحه».

فصل

ويدخل في هذا العلم الشريف: العلم برقابة الله تعالى، وأنه مطلع على أفعال العباد وأقوالهم، عليم بذوات صدورهم، وهواجس نفوسهم، وأسرار سرائرهم، في سرهم وعلانيتهم، في الغيب والشهادة.

فاذا تحقق العبد بمعرفة ذلك، وامتلأ قلبه منه، زكت نفسه ـ ولا بد ـ وصلحت واستقامت، وخشي ربه تبارك وتعالى وأطاعه في السر والعلانية، واستحيي منه سبحانه أن يراه على ما يكره أشد من استحيائه ممن يُعَظِّم من الخلق، قال تبارك اسمه: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء:١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر:١٩].

ولا شيء أنفع في صلاحها من هذا (أعني: دوام المراقبة لله عز وجل).

وقد صرح بذلك النبي ﷺ، فيما رواه عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال:

---

(١) «القول السديد» (ص ١٥٨).

«أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»[1].

فصل

هذا، ولا تصلح النفس بهذا العلم، العلم بالأسماء الحسنى والصفات العلى، حتى يكون قائمًا على مذهب أهل السنة والجماعة، فصلاح النفس أولًا قائم على معرفة الله والإقرار له بالوحدانية، فلا إله إلا هو، وقائم على معرفة صفاته كما أخبر بها عباده في كتابه وعلى لسانه نبيه ﷺ، ثم صلاح النفس ثانيًا بما توجبه هذه المعرفة من محبة الله وتعظيمه والخوف منه والرجاء له، فكيف يقوم العبد بمثل هذه العبادات وهو لا يثبت لله أنه يحِب ويحَب، وصلاحها أيضًا بما توجبه هذه المعرفة من ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه وتدبره والتقرب إليه سبحانه بأنواع العبادات، فكيف سيقول الذاكر مثلًا «سبحان ربي الأعلى» على وجهها وهو لا يثبت لله العلو المطلق، وكيف سيدعوه ساعة النزول وهو ينكره، وكيف سيشتاق إلى رؤيته ويعبده طلبًا لأجلّ غاية وهو ينكر الرؤية، والمقصود أن تحصيل موجبات صلاح النفس وزكاتها لا تكون كلها على وجه الكمال والتمام حتى يكون اعتقاد النفس بالله وأسمائه وصفاته كما ورد في الكتاب والسنة، فيثبت كل ما ورد منها، وينفي كل ما نُفي، ويثبته على طريقة السلف، فيؤمن بها وبمعانيها، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، وتفصيل هذا ليس هنا موضعه.

وبهذه المناسبة يوصى بكتاب سهل ميسر غير متكلَّف في الباب، مثل «العقيدة الواسطية» وشرح لها، ثم يُتوسع بعده إلى غيره بحسب الحاجة، والأمر في هذا سهل لا تعقيد فيه، لذا يُنصح أهل العلم ألا يوهموا الناس أن العقيدة صعبة عسيرة، وأن لا يجعلوا بينهم وبينها حواجز، فقد بالغت جماعة في هذا، حتى تصور المسلم أن العقيدة أسرار وطلاسم! ولا تؤخذ إلا من فلان أو فلان! فلو

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥ - الروض)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

رأَوا أولئك مَن تعلم العقيدة من بعض الكتب لشيخ الإسلام مثلًا، واستفاد واكتفى فيما هو بحاجة إليه، أو فيما هو ضمن قدرته، قاموا فأوهموه أن العقيدة شيء آخر مخبؤ عندنا! وتعال إلينا نعلمْك إياها! وكن تابعًا لنا وإلا حرمناك من تعلمها! كما يفعل الأحبار والرهبان! والعياذ بالله تعالى.

من أجل هذا السبب ونحوه أحجم أكثر المسلمين عن تعلم العقيدة! وما الأمر إلا أن يأخذ بغيته من مثل «الواسطية» وانتهى، فإن احتاج زاد، كما أسلفنا.

وهذا الذي يفعله أولئك المتعيشون على العلم والدين والعقيدة!! ما هو إلا صَرْف للناس عن معرفة الله تعالى وعبادته، جهلًا من بعضهم، وقصدًا من آخرين، ليصيبوا بذلك عَرَضًا من الدنيا يأخذونه ويأكلونه بدينهم! لا جرم عاقبهم الله تعالى وحرمهم، فانحرف كثير منهم عن مذهب السلف وهم لا يشعرون، جزاء وفاقًا! وكذلك تكون العقوبات الإلهية!

التكسب بالعلم والدين

هذا، ولا تكاد ترى مركزًا علميًّا دينيًّا[١]، ولا دار تعليم قرآن، ليس هذا صفتها، بل كلهم أو أكثرهم هكذا، يتاجرون بالدين، ويشترون به ثمنًا قليلًا، يفعلون هذا باسم العلم والقرآن، لمصلحة أفراد أو جماعات أو أحزاب، عكس ما يمليه العلم والقرآن على أهلهما، من الخشية والزهد في الدنيا وفضولها، فضلًا عن حرامها، فاتقوا الله يا أهل العلم! واتقوا الله يا أهل القرآن! ماذا تركتم لأهل الدنيا؟! وماذا تركتم للفساق؟! ماذا ستقولون لهم وأنتم تتنافسون على جناح البعوضة أكثر منهم؟! بالله عليكم، لا تتركوا الناس يتأملون منهم أكثر مما يتأملون منكم في نصر دين الله وحفظه!!

قال يوسف بن أسباط: والله لقد أدركت أقوامًا فساقًا كانوا أشد إبقاء على

---

(١) هذا ما شاهدناه في بلادنا، ولا نعمم على ما في غيرها مما لم نشاهده.

مروءاتهم من قراء أهل هذا الزمان على أديانهم[1].

وقال ميمون بن مهران: يا أصحاب القرآن، لا تتخذوا القرآن بضاعة تلتمسون به الشَّفَّ (يعني: الربح) في الدنيا، والتمسوا الدنيا بالدنيا، والتمسوا الآخرة بالآخرة[2].

وقال بِشر: ويحكم يا علماء! أنتم ورثة الأنبياء، وإنّما ورّثوكم العلم، فحملتموه ورغبتم عن العمل به، وجعلتم علمكم حرفة تكسبون بها معاشكم، أفلا تخافون أن تكونوا أول من تسعر به النار؟![3].

وقال ذو النون: أدركنا الناس وأحدهم كلما ازداد علمًا ازداد في الدنيا زهدًا وتقللًا من أمتعتها، ونراهم اليوم كلما ازداد أحدهم علمًا ازداد في الدنيا رغبة وتكثيرًا لأمتعتها.

وقال: أدركناهم وهم ينفقون الأموال في تحصيل العلم، وأنتم اليوم تنفقون العلم في تحصيل المال[4].

وعن الفضيل: لأن أطلب الدنيا بالطبل والمزمار أحب إلي من أن أطلبها بديني.

وعنه: لأن يطلب الرجل الدنيا بأقبح ما تطلب به أحسن من أن يطلبها بأحسن ما تطلب به الآخرة[5].

وعن خالد بن دُرَيْكٍ قال: خرج ابن مُحَيْرِيزٍ إلى بزاز يشتري منه ثوبًا، والبزاز لا يعرفه، قال: وعنده رجل يعرفه. فقال: بكم هذا الثوب؟ قال الرجل: بكذا وكذا. فقال الرجل الذي يعرفه: أَحْسِنْ إلى ابن مُحَيْرِيزٍ. فقال ابن مُحَيْرِيزٍ:

---

(١) «حلية الأولياء» (٨/٢٣٨).

(٢) «تاريخ دمشق» (٦١/٣٥٤).

(٣) «بيان العلم الأصيل» (ص ١٧).

(٤) «بيان العلم الأصيل» (ص ١٩).

(٥) «ربيع الأبرار» (١/٤٤).

إنما جئت أشتري بمالي، ولم أجئْ أشتري بديني. فقام ولم يشتر[1].

وعن سفيان قال: ما ازداد عبد علمًا فازداد في الدنيا رغبة إلا ازداد من الله بعدًا[2].

وقال ابن القيم[3]: «كل من آثر الدنيا من أهل العلم واستحبها فلا بد أن يقول على الله غير الحق في فتواه وحكمه، في خبره وإلزامه، لأن أحكام الرب سبحانه كثيرًا ما تأتي على خلاف أغراض الناس، ولا سيما أهل الرياسة والذين يتبعون الشهوات، فإنهم لا تتم لهم أغراضهم إلا بمخالفة الحق ودفعه كثيرًا، فإذا كان العالم والحاكم محبين للرياسة متبعين للشهوات لم يتم لهما ذلك إلا بدفع ما يضاده من الحق، ولا سيما إذا قامت له شبهة فتتفق الشبهة والشهوة ويثور الهوى، فيخفى الصواب وينطمس وجه الحق، وإن كان الحق ظاهرًا لا خفاء به ولا شبهة فيه أقدم على مخالفته وقال: لي مخرج بالتوبة.

وفي هؤلاء وأشباههم قال تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ ﴾ [مريم:٥٩].

وقال تعالى فيهم أيضًا: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٌ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [الأعراف:١٦٩].

فأخبر سبحانه أنهم أخذوا العرَض الأدنى مع علمهم بتحريمه عليهم، وقالوا: سيغفر لنا. وإن عَرَضَ لهم عَرَضٌ آخر أخذوه، فهم مصرون على ذلك، وذلك هو الحامل لهم على أن يقولوا على الله غير الحق، فيقولون: هذا حكمه وشرعه ودينه، وهم

(١) «حلية الأولياء» (١٣٧/٥).

(٢) «سنن الدارمي» (٣٨٥/١).

(٣) انظر «الفوائد» (ص ١٠٠-١٠٢).

يعلمون أن دينه وشرعه وحكمه خلاف ذلك، أو لا يعلمون أن ذلك دينه وشرعه وحكمه، فتارة يقولون على الله ما لا يعلمون، وتارة يقولون عليه ما يعلمون بطلانه.

وأما الذين يتقون فيعلمون أن الدار الآخرة خير من الدنيا، فلا يحملهم حب الرياسة والشهوة على أن يؤثروا الدنيا على الآخرة، وطريق ذلك أن يتمسكوا بالكتاب والسنة، ويستعينوا بالصبر والصلاة، ويتفكروا في الدنيا وزوالها وخستها، والآخرة وإقبالها ودوامها.

وهؤلاء لا بد أن يبتدعوا في الدين مع الفجور في العمل، فيجتمع لهم الأمران، فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب فلا يميز بين السنة والبدعة، أو يُنَكِّسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة، فهذه آفة العلماء إذا آثروا الدنيا واتبعوا الرياسات والشهوات، وهذه الآيات فيهم، إلى قوله: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ * وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦]. فهذا مَثَلُ عالم السوء الذي يعمل بخلاف علمه.

وتأمل ما تضمنته هذه الآية من ذمه، وذلك من وجوه:

أحدها: أنه ضل بعد العلم واختار الكفر على الإيمان عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مفارقة من لا يعود إليه أبدًا، فإنه انسلخ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿ فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ﴾، ولم يقل: تبعه، فإن في معنى أتبعه أدركه ولحقه، وهو أبلغ من تبعه لفظًا ومعنى.

ورابعها: أنه غويَ بعد الرشد، والغَي: الضلال في العلم والقصد، وهو أخص بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخص بفساد العلم والاعتقاد،

فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن اقترنا فالفرق ما ذُكِر.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يُرفع به فصار وبالًا عليه، فلو لم يكن عالمًا كان خيرًا له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن خسة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلاد إلى الأرض وميل بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان، إذا لزم الإقامة به، وعبر عن ميله إلى الدنيا بإخلاده إلى الأرض، لأن الدنيا هي الأرض وما فيها وما يستخرج منها من الزينة والمتاع.

وثامنها: أنه رغب عن هداه واتبع هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعه.

وتاسعها: أنه شبهه بالكلب الذي هو أخس الحيوانات همة وأسقطها نفسًا وأبخلها وأشدها كَلَبًا، ولهذا سُمِّي كلبًا.

وعاشرها: أنه شبه لَهَثَه على الدنيا وعدم صبره عنها وجزعه لفقدها وحرصه على تحصيلها بلَهَث الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا هذا إن تُرِك فهو لهْثان على الدنيا، وإن وُعظ وزُجر فهو كذلك، فاللهَث لا يفارقه في كل حال كلَهَث الكلب.

قال ابن قتيبة: كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال وحال الراحة، وحال الرِّيّ وحال العطش، فضربه الله مثلًا لهذا الكافر فقال: إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال، كالكلب إن طردته لَهَثَ وإن تركته على حاله لَهَثَ.

وهذا التمثيل لم يقع بكل كلب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وذلك أخس ما يكون وأشنعه».

فصل

ويدخل في هذا العلم ـ ولا بد ـ: العلم بالنفس وصفاتها، وما يزكيها ويُصلحها، من إخلاص وذكر وتوبة وإنابة وخشوع وتواضع وخشية في السر والعلن، ونحوها، والعلم بطرق تحصيلها، وأيضًا العلم بأمراضها، من رياء وعُجب وحرص وكبر وغل وحسد ونحوها، والعلم بطرق علاج هذه الأدواء، ويدخل فيه العلم بجناياتها وعقوبات الله تعالى عليها في الدنيا والآخرة، وكذلك العلم بثواب طاعاتها في الدنيا والآخرة، فيعمل بجِد على تحصيل هذه واجتناب تلك.

ولأبي الفتح البُستي:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمتـهِ ... أتطلـب الـربح ممـا فيـه خســرانُ

أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنـت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ

ويكون ذلك بالطرق الشرعية، والعلاجات النبوية، والأدوية الربانية، الواردة في الكتاب والسنة وفعل الصحابة رضي الله عنهم، لا بأي طريقة أخرى خارج هذه الثلاث، مهما كانت في ظاهرها على شكل العبادة وشَبَهها من زهد وخشوع وذكر ونحوها، فلا التفات إلى شيء من هذا إذا كان على غير هدي سيد ولد آدم ﷺ، ولا التفات إلى فاعله في هذه الحال، مهما كانت منزلته وشهرته وكثرة أتباعه، فالنبي ﷺ وهديه فوق كل أحد من البشر، ولسنا مأمورين ولا ملزمين باتباع أحد سواه ﷺ، ولسنا محاسبين ولا معاتبين على مخالفة أحد سواه ﷺ.

قال ابن القيم[1]: «وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشد، فمن زكى نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسل فهو كالمريض الذي عالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟! فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٣٠٠).

وما أنفس ما قاله الشوكاني! خاتمًا به كتابه «أدب الطلب»، مما يناسب ما نحن بصدد التنبيه إليه، والتأكيد عليه، قال لله دره: «والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا، وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى، وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا زهد لمن لم يمش على الهدى النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم، فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنَّصَب وإيقاعها على أبلغ الوجوه، بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة بموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية، واعتبر بالخوارج، فقد وصفهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما وصف من تلك العبادات والمجاهدات التي لا تبلغ عبادتنا ولا مجاهدتنا إلى شيء منها، ولا تُعتبر بالنسبة إليها، ومع هذا فقال: إنها لا تجاوز تراقيهم. وقال: إنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. وقال إنهم كلاب النار[1]. فانظر كيف كانت مجاهداتهم وعباداتهم وقيامهم الليل وصيامهم النهار نقمة عليهم وبلية ومحنة لهم! لم تَعُدْ عليهم بنفع قط، إلا ما أصيبوا به من الخسار والنكال والوبال، فكانت تلك الطاعات الصُّوْرية من صلاة وصيام وتهجد وقيام هي نفس المعاصي الموجبة للنار!

وهكذا كل من رام أن يطيع الله على غير الوجه الذي شرعه الله لعباده وارتضاه لهم، فإنه ربما يلحق بالخوارج بجامع وقوع ما أطاعوا الله به على غير ما شرعه لهم في كتابه وعلى لسان رسوله.

وإني أخشى أن يكون من هذا القَبيل ما يقع من كثير من المتصوفة من تلك الأقوال والأفعال التي ظاهرها التنفير عن الدنيا والبعد عن أهلها والفرار عن زينتها، مع تلك الوظائف التي يلازمونها من التخشع والانكسار

(١) قوله ﷺ: «لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ». و«يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ». بعض حديث، متفق عليه. وحديث: «الْخَوَارِجُ كِلَابُ النَّارِ». أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٧٣) وغيره، وصححه الألباني.

والتلهب[1] والتأسف، والصراخ تارة والهدوء تارة أخرى، والرياضات والمجاهدات، وملازمة أذكار يذكرون بها لم ترد في الشرع على صفات لم يأذن الله بها، مع ملازمة تلك الثياب الخشنة الدرنة، والقعود في تلك المساطب القذرة، وما ينضم إلى ذلك من ذلك الهيام والشطح والأحوال التي لو كان فيها خير لكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه الذين هم خير القرون.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة مَنْ قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والأصنام المستورة عن الناس كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغًا عظيمًا وارتقى مرتقًا جسيمًا، ولكني أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزواجر المصطفوية ما يغسل كل قذَر، ويدحض كل درَن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء، فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرًا له، متفهمًا لمعانيه، باحثًا عن مشكلاته، سائلًا عن معضلاته، ، ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام، كالأمهات الست وما يلحق بها، ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ليله ونهاره، ويتفكر في أخلاقه وشمائله، وهديه وسَمْته[2]، وما كان عليه أصحابه، وكيف كان هديهم في عبادتهم ومعاملاتهم.

فإنه إذا تداوى بهذا الدواء، ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير، مع ما له من الأجر الكثير والثواب الكبير في مباشرة هذه الأسباب، وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل، ومنعه من الظفر

---

(١) أظنها عند الصوفية حالًا من أحوال القلب، معناها: تحرّقه واشتعاله حبًّا وشوقًا؛ تشبه الوَجْد، ولعله يقصده.

(٢) وانظر في ذلك كلامًا نفيسًا للمُعَلِّمي يأتي (صفحة ٥٦٥ - ٥٦٦).

بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرًا عظيمًا، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع، لأنه قد جهد نفسه في الأسباب ولم يُفتح له الباب.

فانظر كم بين هذين الأمرين من المسافة الطويلة، فإن طالب الرشد بغير الأسباب الشرعية لا يأمن على نفسه بعد الوصول إلى مطلوبه من أن يكون صنعه كصنع الخوارج في خسرانهم بما ظنوه ربحًا، ووقوعهم في الظلمة وقد كانوا يظنون أنهم يلاقون صبحًا، لأنهم خالفوا الطريقة التي أرشد الله إليها عباده وأمرهم بسلوكها.

وإذا كان هذا الأمر مجوزًا في طلبة الخير من غير طريق الشرع، كصلحاء الصوفية اللذين لا رغبة لهم في غير تهذيب أخلاقهم على وجه يوجب زهدهم فيما ترغب النفوس إليه، وتتهالك الطبائع البشرية عليه، فما ظنك بمن كان من متصوفة الفلاسفة؟! الذين يدورون بمرقعاتهم وأبدانهم القشفة[١] وثيابهم الخشنة ووجوههم المصفرة حول ما يقوله الفلاسفة من تلك المقالات، التي هي ضد الشرع وخلاف له، وينهقون عند إدراك شيء من تلك المعارف الشيطانية نهيقًا منكرًا، ويُسَمُّون ذلك حالًا، وهو عند التحقيق حالٌ حائلٌ عن طريق الدين، وخيال مائل عن سبيل المؤمنين». اهـ.

فصل

ومن أعظم ما يدخل في العلم الذي به صلاح النفوس: العلم بالأحكام الشرعية بأدلتها من الكتاب والسنة الصحيحة (الفقه)، وإلا فكيف يطيع العبد ربه، وكيف يعبده دون هذا العلم؟!

وبعض الطوائف يغلب عليهم الإهمال لهذا العلم، مع الاهتمام بالعبادات،

---

(١) أي: الوسخة، التي لم يتعاهدها أصحابها بالغسل والتنظيف.

ويقابلهم من يعكس ذلك، فيهتمون بالعلم ولا يهتمون بالعبادة، وكلاهما منحرف عن الصراط المستقيم، مائل عن هدي الرسول الكريم ﷺ.

فصل

ويجمع كل ما ذكرنا من العلم: العلم بكتاب الله تعالى، وما ثبت من سنة النبي ﷺ، وفهمهما بطريقة السلف الصالح (الأولين) ومنهاجهم، فهما الروح والنور، وفيهما الأمان من الزيغ، والعصمة من الضلال، وفيهما الكفاية والهداية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»[1].

وعن عبد الرحمن بن عمرو السُّلمي، وحُجْر بن حُجْر قالا: أتينا العرباض بن سارية، وهو ممن نزل فيه: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة:٩٢]. فسلمنا، وقلنا: أتيناك زائرين وعائدين ومقتبِسين، فقال العرباض: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع! فماذا تعهد إلينا؟ فقال:

«أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[2].

---

(١) أخرجه الحاكم (١٧٢/١) وغيره. وهو في «صحيح الجامع» (٢٩٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

العلم الأصلي

ثم وجدت لشيخ الإسلام كلامًا فريدًا في شأن العلم، أثلج صدري، ووافق ما في نفسي، ذكره أثناء اشتراطه حفظ القرآن الكريم للمجتهد[1]، قال: «العلم الأصلي هو العلم الذي بُعِث به الرسل وأُنزل به الكتب، وهو علم الإيمان، وعلم أحوال القلوب، وما تزكو به، من الخشية والإنابة والتوكل والرضا والصبر واليقين والمحبة، والزهد في الدنيا وطلب الآخرة، والحب في الله والبغض في الله، ومحبة الله وكتابه ورسوله، والنصيحة لله ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين، والإخلاص والصدق والشكر لله دائمًا، وعلم شروط الأعمال وما يصححها ويفسدها مما يتعلق بالقلوب، من الرياء والعُجب والغفلة عن معانيها، وغير ذلك مما هو مبسوط في غير هذا الموضع.

ومن ذلك: معرفة النفس وشرورها ودسائسها، من الشِّرَة والحرص والحسد والغضب والكبر والبخل، وحب الدنيا وحب التعظيم وحب الرياسة، ومعرفة الشيطان وكيده ومداخل غروره، ومعرفة موازين الأعمال، وما الذي ينبغي أن يبدأ به، وأيها الذي يرجح على صاحبه عند الله محبة ومنزلة، ومراعاة موقع نظر الرب وإهمال موقع نظر الخلق، ومعرفة حقوق الخلق، مثل الوالدين وذوي الأرحام، والأئمة من أهل العدل والإنصاف، والعلماء العاملين، والصلحاء المقتدين، والمشايخ المهتدين، والجيران، وعامة المؤمنين، وما الذي يجب لكل منهم من الحق، ومعرفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيفيته وصفته، إلى غير ذلك مما قد ذكر في غير هذا الموضع.

فهذا هو العلم المطلوب من الخلق معرفته، وهو أصل التوحيد الذي ما أنزل الله كتابًا ولا أرسل رسولًا إلا به، ودعوة الرسل كلهم إليه، وسائر العلوم وسيلة إليه.

وبعد ذلك معرفة أحكام الشريعة وأمور الدين، وبعد هذا كله علم الفروع

(١) وهو ضمن فصل في آخر رسالة مطبوعة معنونة باسم: «فضائل الأئمة الأربعة»!

المعروف عن الرسول وعن أصحابه، الأهم منه فالأهم». اهـ.

وقال المقدسي[1]: «أما علم أحوال القلب، كالخوف والرجاء والرضا والصدق والإخلاص وغير ذلك، فهذا العلم ارتفع به كبار العلماء، وبتحقيقه اشتهرت أذكارهم، كسفيان وأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد.

وإنما انحطت رتبة المُسَمَّين بالفقهاء والعلماء عن تلك المقامات، لتشاغلهم بصورة العلم من غير أخذ على النفس أن تبلغ إلى حقائقه وتعمل بخفاياه[2]». اهـ

وقال المَرُّوذِيّ: قلت لأبي عبد الله أحمد بن حنبل: بم نال من نال ما نال حتى ذُكِر به؟ فقال: بالصدق. ثم قال: إن الصدق موصول الجود[3].

وقال: سمعت رجلًا يقول لأبي عبد الله، وذَكر له الصدق والإخلاص، فقال أبو عبد الله: بهذا ارتفع القوم[4].

وأنصح في هذا الباب بكتاب «فضل علم السلف» لابن رجب، فإنه كتاب نافع فريد في بابه، فليطالعه الموفق، وليحرص على ما جاء فيه، وليعَضّ عليه بالنواجذ.

فصل

وما يحصِّله العباد من هذا العلم درجات كثيرة جدًّا، لا يحصيها إلا الله تعالى، وبقدر هذا العلم والعمل به تكون زكاة النفس وصلاحها، وتكون سعادتها في الدنيا والآخرة، وتوفيق المولى النصير سبحانه من وراء ذلك كله.

هذا، وكلما ازداد العبد من هذا العلم ازدادت نفسه زكاة وطُهرًا ونورًا، وكلما زكت النفس رسخ فيها العلم وآتى ثماره.

قال شيخ الإسلام[5]: «إن القلب إذا كان رقيقًا ليّنًا كان قَبوله للعلم سهلًا

---

(١) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (ص ١٨).

(٢) يعني: تحصيل أحوال القلب، من خوف ورجاء وغيرها، كما تقدم.

(٣) «طبقات الحنابلة» (٥٨/١).

(٤) انظر «طبقات الحنابلة» (٦١/١).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٣١٥/٩).

يسيرًا، ورسخ العلم فيه وثبَت وأثّر، وإن كان قاسيًا غليظًا كان قَبوله للعلم صعبًا عسيرًا، ولا بد مع ذلك أن يكون زكيًّا صافيًا سليمًا حتى يزكو فيه العلم ويثمر فيه ثمرًا طيبًا، وإلا فلو قبل العلم وكان فيه كَدَر وخَبَث أفسد ذلك العلمَ، وكان كالدَّغَل[١] في المُزْدَرَع[٢]، إن لم يَمنع الحَبَّ من أن يُنْبِت مَنَعه من أن يزكو ويَطيب، وهذا بيّن لأولي الأبصار».

وقال علي بن خَشْرَمٍ: ما رأيت بيد وكيعٍ كتابًا قط، إنما هو حفظٌ، فسألته عن أدوية الحفظ، فقال: إنْ علّمتُك الدواءَ استعملتَه؟! قلت: إي والله. قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ[٣].

ومما يُنسب إلى الشافعي[٤]:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن العلم فضلٌ ... وفضلُ الله لا يؤتاه عاصي

وقيل:

ونفسَك فازجرها عن الغَيِّ والخَنَا ... ولا تَتَّبِعْها فهي أُسُّ المفاسدِ
وحاذر هواها ما استطعت فإنهُ ... يَصُدُّ عن الطاعات غيرَ المجاهدِ
وإنّ جهاد النفس حَتْمٌ على الفتى ... وإن التُّقَى حقًّا لَخَيْرُ المقاصدِ
فإن رمت أن تحظى بنيل سعادةٍ ... وتُعطَى مقامَ السالكين الأماجدِ
فبادر بتقوى الله واسلك سبيلها ... ولا تَتَّبعْ غَيَّ الرجيم المعاندِ
تمسك بشرع الله والزم كتابهُ ... وبالعلم فاعمل تَحْوِ كلَّ المحامدِ

(١) الدَّغَل: الشجر الكثير الملتف.

(٢) المُزْدَرَع: موضع الزرع.

(٣) «سير أعلام النبلاء» (١٥١/٩).

(٤) انظر «الداء والدواء = الجواب الكافي» لابن القيم (ص ٥٢).

ومن لامية ابن الوردي:

يـا بُـنَيّ اسـمع وصـايا جَمَعَـتْ ... حِكَمًا خُـصَّتْ بها خيرُ المِلَلْ

اطلـبِ العلـمَ ولا تكسـلْ فما ... أبعـدَ الخيرَ على أهـل الكسلْ

واهجـرِ النـومَ وحَصِّـلْهُ فمَـنْ ... يَعـرفِ المطلـوبَ يَحقِـرْ ما بـذلْ

لا تقـل قـد ذهبـتْ أربابُـهُ ... كلُّ مـن سـار على الدرب وصـلْ

في ازديـاد العلـم إرغامُ العِـدا ... وجمـالُ العلـمِ إصـلاحُ العمـلْ

فصل

واستعن بالله على طلب العلم وتسهيله، فمن يستعن بالله يُعِنْه، ومن يتوكل عليه يَكْفِه، وليكن همك في طلبه رضا الله تعالى، ومعرفة دينه وكتابه وسنة نبيه ﷺ، ومن أجل إحسان عبادته والتقرب إليه، وتعليم عباده ودعوتهم إليه، ومن أجل اجتناب معاصيه وترك ما يبغضه، لا من أجل الشهرة والظهور والجاه والمنزلة عند الناس، ولا من أجل أموالهم، ولا من أجل التكبر عليهم والتفاخر.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة:٥]. الآية.

وعن الأسود بن يزيد، عن عبد الله بن مسعود قال: لو أن أهل العلم صانوا العلم، ووضعوه عند أهله، لسادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلوه لأهل الدنيا لينالوا به من دنياهم، فهانوا عليهم، سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»(١). اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧ و ٤١٠٦) وغيره، وحسنه الألباني.

عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». يعني: رِيحَها[1].

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، أَوْ لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، أَوْ لِتَصْرِفُوا وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ فِي النَّارِ»[2].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَشِّرْ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالنَّصْرِ وَالسَّنَاءِ وَالتَّمْكِينِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»[3].

وعن عبد الله بن عمرو، أنه حدث عبدَ الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ».

قال: فذرفت عينا عبد الله بن عمر[4].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللهُ بِهِ»[5].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟!» قال: قلنا: بلى. فقال:

«الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، أَنْ يَقُومَ الرَّجُلُ يُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ»[6].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٦٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه ابن حبان (٢٥٠١ - موارد) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٢/٢، وفي مواضع أُخَر)، وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٢٣).

(٥) أخرجه مسلم (٢٩٨٦) وغيره، وهو في «الصحيحين» بنحوه، من حديث جُنْدُب بن عبد الله رضي الله عنه.

(٦) أخرجه ابن ماجه (٤٢٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

وعن محمود بن لَبيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ قالوا: يا رسول الله، وما الشرك الأصغر؟ قال:

«الرِّيَاءُ، إِنَّ اللهَ يَقُولُ يَوْمَ تُجَازَى الْعِبَادُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ بِأَعْمَالِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»(٢).

قال الشوكاني(٣): «أول ما على طالب العلم أن يحسن النية ويصلح طويته، ويتصور أن هذا العمل الذي قصد له والأمر الذي أراده هو الشريعة التي شرعها الله سبحانه لعباده، وبعث بها رسله، وأنزل بها كتبه، ويجرد نفسه عن أن يشوب ذلك بمقصد من مقاصد الدنيا، أو يخلطه بما يكدره من الإرادات التي ليست منه، كمن يريد به الظفر بشيء من المال، أو يصل به إلى نوع من الشرف، أو البلوغ إلى رئاسة من رئاسات الدنيا، أو جاه يحصله به، فإن العلم طيب لا يقبل غيره، ولا يحتمل الشركة، والروائح الخبيثة إذا لم تغلب على الروائح الطيبة فأقل الأحوال أن تساويها، وبمجرد هذه المساواة لا تبقى للطيب رائحة، والماء الصافي العذب الذي يستلذه شاربه كما يكدره الشيء اليسير من الماء المالح فضلًا عن غير الماء من القاذورات، بل تنقص لذته مجرد وجود القذاة فيه ووقوع الذباب عليه، هذا على فرض أن مجرد تشريك العلم مع غيره له حكم هذه المحسوسات، وهيهات ذاك! فإن من أراد أن يجمع في طلبه العلم بين قصد الدنيا والآخرة فقد

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣١ و٢٣٦٣٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٨٥) وغيره.

(٣) انظر «أدب الطلب» (ص ٢٨-٣٠).

أراد الشطط، وغلط أقبح الغلط، فإن طلب العلم من أشرف أنواع العبادة وأجلها وأعلاها، وقد قال الله سبحانه ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]. فقيد الأمر بالعبادة بالإخلاص الذي هو روحها.

وصح عن النبي ﷺ حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى»[١].

فكل طاعة من الطاعات، وعبادة من العبادات، إذا لم تصدر عن إخلاص نية وحسن طوية لا اعتداد بها، ولا التفات إليها، بل هي إن لم تكن معصية فأقل الأحوال أن تكون من أعمال العبث واللعب التي هي بما يصدر عن المجانين أشبه منها بما يصدر عن العقلاء».

قال الذهبي[٢]: «وأشر الكبر من يتكبر على العباد بعلمه، ويتعاظم في نفسه بفضيلته، فإن هذا لم ينفعه علمه، فإن من طلب العلم للآخرة كسره علمه، وخشع قلبه، واستكانت نفسه، وكان على نفسه بالمرصاد، فلا يفتر عنها، بل يحاسبها كل وقت ويتفقدها، فإن غفل عنها جمحت عن الطريق المستقيم وأهلكته، ومن طلب العلم للفخر والرياسة وبَطَر على المسلمين وتحامق عليهم وازدراهم فهذا من أكبر الكبر». اهـ.

وقال ابن عبد الهادي[٣]: «أُخبرت عن القاضي علاء الدين ابن اللحام أنه قال: ذَكر لنا مرة الشيخُ[٤] مسألة فأطنب فيها، فعجبت من ذلك ومن إتقانه لها، فوقعتْ بعد ذلك في محضر من أرباب المذاهب وغيرهم، فلم يتكلم فيها الكلمة الواحدة!

فلما قام قلت له: أليس قد تكلمتَ فيها بذلك الكلام؟! قال : إنما أتكلم بما أرجو ثوابه، وقد خفتُ من الكلام في هذا المجلس. أو ما هذا معناه». اهـ.

---

(١) متفق عليه. وسيأتي بتمامه (صفحة ٥٦٢).

(٢) «الكبائر» (ص ٧٨)، بحذف يسير.

(٣) «ذيله على طبقات ابن رجب» (ص ٣٩-٤٠).

(٤) يقصد ابنَ رجب الحنبلي.

فصل

واعمل بما تعلمه للناس، وائتمر به قبلهم، ولا يخالفنّ فعلُك قولَك، فما أقبح هذا من العاقل! وما أمقته عند الله تعالى! وما أسخطه عند الناس! كيف لا وهم يرَونه يأتي ما ينهاهم عنه؟! فكيف يُقتدى به؟! وكيف يُطاع؟!

وما أحسن ما قاله نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه حين قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

فهذا مما يحث المدعوّ على الاقتداء به، ويطمئنه على صدق دعوته، وأنه مقتنع بها قبل المدعوّ، وإلا لقيل: لو كان مؤمنًا بما يدعو إليه لما ترك العمل به!!

وقال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢-٣].

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي رِجَالًا تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ، أَفَلَا يَعْقِلُونَ؟!»(١).

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت [رسول الله ﷺ] يقول:

«يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ(٢) فِي النَّارِ، فَيَدُورُ

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (رقم ٣٥) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٩١).

(٢) أي: أمعاؤه.

كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلَانُ، مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَاكُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[١].

وعن جُنْدُبِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْعَالِمِ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ، كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرِقُ نَفْسَهُ»[٢].

قال النووي[٣]: «قال إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه: ليس العلم ما حُفِظ، العلم ما نفع».

وقال أبو قِلابة لأيوب: إذا حدث لك علم فأحدث فيه عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به الناس[٤].

وعن الحسن قال: قد كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يُرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه وبصره ويده[٥].

وقال حكيم: القلب ميت وحياته بالعلم، والعلم ميت وحياته الطلب، والطلب ضعيف وقوته بالمدارسة، ومحتجب بعد المدارسة وإظهاره بالمناظرة، وإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم ونتاجه بالعمل، فإذا زُوِّج العلم بالعمل توالد وتناسل ملكًا أبديًّا لا آخر له[٦].

وقال ابن القيم[٧]: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (رقم ٧٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «بستان العارفين» (ص ٣٤).

(٤) «الآداب الشرعية» (٢/٤٥).

(٥) انظر «الزهد» لأحمد (ص ٤٤٥ و٤٨١ – طبعة دار ابن رجب).

(٦) «مفتاح السعادة» لطاشْكُبْري زاده (ص ١١).

(٧) «الفوائد» (ص ٦١).

الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا. قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دَعَوْا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له. فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قُطَّاع الطرق». اهـ.

واستعذ بالله تعالى من علم لا ينفع، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ كان يدعو بهذه الدعوات:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَقَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَدُعَاءٍ لَا يُسْمَعُ، وَنَفْسٍ لَا تَشْبَعُ»، ثم يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعِ»(١).

قال ابن رجب(٢): «وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع». اهـ.

فالعلم العلم! والعمل العمل بالعلم! فإنه لا نجاح ولا فلاح إلا باجتماعهما، والخسار كل الخسار في افتراقهما، قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر:١-٥].

قال ابن القيم(٣): «أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كَمَّل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصالح، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه، فالحق هو الإيمان والعمل، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما، والتواصي بهما».

قال: «فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع والعمل الصالح، وهما الهدى ودين الحق، وبتكميله لغيره في هذين الأمرين، كان حقيقًا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره، واستخراج

---

(١) أخرجه النسائي (٥٤٧٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «ورثة الأنبياء» (ص ١٧ - مجموع رسائل ابن رجب).

(٣) انظر «مدارج السالكين» (٦/١).

كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرشاد». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦-٦٨].

ففي فعل العبد ما يوعَظ به من الإيمان وصالح الأعمال خير عظيم، وسبب قوي للثبات على الحق المبين، وحفظ له من الفتن والشبهات، والمعاصي والشهوات، وسبب لنيل الأجر العظيم، والهداية إلى الصراط المستقيم.

ولأبي الأسود الدُّؤَلي(١):

يـا أيـها الرجـل المعلـم غـيرَهُ ... هـلّا لنفسـك كان ذا التعلـيمُ
فابـدأ بنفسـك فانههـا عـن غَيِّهـا ... فـإن انتهـتْ عنـه فأنـت حكـيمُ
فهناك يقبـل مـا تقـول ويُقتـدى ... بـالقول منـك وينفـع التعلـيمُ
لا تنـهَ عـن خُلُـق وتـأتي مثلَـهُ ... عارٌ عليـك إذا فعلـت عظيـمُ

وقال ابن رجب(٢): كان يحي بن معاذ ينشد في مجالسه:

مـواعظ الـواعظ لـن تـقبلا ... حـتى يَعيَهـا نفسُـه أولا
يـا قـومُ مـن أظلـم مـن واعـظٍ ... قـد خـالف قـالَه في المَـلا
أظـهر بيـن النـاس إحسانـهُ ... وبـارز الرحمـنَ لمـا خـلا

وللصُّورِي(٣):

كـم إلى كم أغدو إلى طلب العِلْـ ... ـمِ مُجِـدًّا في جَمْـعِ ذاك حَفيّـا

---

(١) «شرح شذور الذهب» لابن هشام (ص ٣١٠)، وفيه: «يُشتَفى» بدل «يقتدى»، و«أدب الدنيا والدين» (ص ٣٤).

(٢) «لطائف المعارف» (ص ١٤).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (ص ٥٧).

طـالبًـا منـه كـلَّ نـوعٍ وفـنٍّ وغريـبٍ ولسـتُ أعمـل شـيّا
وإذا كـان طـالب العلـم لا يَعْـ ـمَلُ بالعلـم كان عبـدًا شقيّـا
إنمـا تنفـع العلـوم لمـن كا ن بهـا عامـلًا وكان تقيّـا

ولابن المبارك[1]:

وكيف قـرت لأهـل العلـم أعيـنهم أو استلذوا لذيذ العيش أو هجعـوا
والمـوت ينـذرهم جهـرًا علانيـةً لـو كان للقوم أسماعٌ لقـد سـمعوا
والنـار ضـاحيةٌ لا بـد مـوردهمْ وليس يدرون من ينجو ومن يقـعُ
لينفـعِ العلـمُ قبـل المـوت عالمَـهُ قد سال قومٌ بها الرجعى فمـا رجعـوا

وللمارتُلي الأندلسي[2]:

إلى كـم أقـول ولا أفعـلُ وكـم ذا أحـوم ولا أنـزلُ
وأزجـرُ عيـني فـلا ترعـوي وأنصـحُ نفسـي فـلا تَقبـلُ
وكـم ذا تُعَلِّـلُ لي ويحهـا بعَـلَّ وسـوف وكـم تَمْطُـلُ
وكـم ذا أؤمِّـل طـولَ البَقـا وأغفُـلُ والمـوتُ لا يَغْفُـلُ
وفي كل يـومٍ ينـادي بنـا منـادي الرحيـل ألا فـارحلوا
أمِـنْ بعـد سـبعين أرجـو البَقـا وسـبعٍ أتـتْ بعـدها تَعْجَـلُ
كـأنْ بي وشـيكًا إلى مصـرعي يُسـاقُ بنعشـي ولا أُمْهَـلُ

فصل

واطلب من العلم الأهم فالأهم، وحَصِّل منه ما استطعت، واجتهد في

(١) «ديوانه» (ص ٥٥).
(٢) «الغصون اليانعة» (ص ١٣٦-١٣٧).

ذلك، وابذل فيه وقتك، واسأل زيادته من ربك عز وجل، ولم يأت في القرآن الكريم طلب الزيادة في شيء إلا فيه، وذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

واصبر على طلبه، وجاهد نفسك في تحصيله، واعلم أن من جد وجد، ومن سار على الدرب وصل، وأن المَجد لا يُنال بالكسل، وأن المعالي لا يوصل إليها بالهوينى، وتلمح حلاوة ما ستناله من المطالب الغالية، ولذة ما ستصل إليه من الفضائل العالية، تهن عليك مشقة التعب، وتحلُ لك مرارة النصب.

قال الشوكاني(١): «وما أحسن ما حكاه بعض أهل العلم عن الحكيم أفلاطون، فإنه قال: الفضائل مُرَّة الأوائل حلوة العواقب، والرذائل حلوة الأوائل مُرَّة العواقب. وقد صدق، فإن من شَغَل أوائل عمره وعنفوان شبابه بطلب الفضائل لا بد أن يَفْطِم نفسه عن بعض شهواتها، ويحبسها عن الأمور التي يشتغل بها أترابه ومعارفه، من الملاهي ومجالس الراحة وشهوات الشباب، فإذا انتهى إليه ما هم فيه من تلك اللذات والخلاعات وجد في نفسه بحكم الشباب وحداثة السن وميل الطبع إلى ما هناك مرارة، واحتاج إلى مجاهدة يَرُدُّ بها جامح طبعه، ومتفلِّت هواه، ومتوثِّب نشاطه، ولا يتم له ذلك إلا بإلجام شهوته بلجام الصبر، ورباطها بمربط العفة، وكيف لا يجد مرارة الحبس للنفس مَنْ كان في زاوية من زوايا المساجد، ومقصورة من مقاصر المدارس، لا ينظر إلا في دفتر، ولا يتكلم إلا في فن من الفنون، ولا يتحدث إلا إلى عالم أو متعلم، وأترابه ومعارفه من قرابته وجيرانه وذوي سنه وأهل نشأته وبلده يتقلبون في رافه العيش ورائق القَصْف(٢)؟!

وإذا انضم لذلك الطالب إلى هذه المرارة الحاصلة له بعزف النفس عن

---

(١) «أدب الطلب» (ص ١٣٣-١٣٥).

(٢) القَصْف: اللهو واللعب والافتنان في الطعام والشراب. والقَصْف: الجَلَبة والإعلان باللهو. «وسيط».

شهواتها مرارةٌ أخرى: هي اعواز الحال، وضيق المكسب، وحقارة الدخل، فإنه لا بد أن يجد من المرارة المتضاعفة ما يعظم عنده موقعه، لكنه يذهب عنه قليلًا قليلًا.

فأول عقدة تنحل عنه من عُقد هذه المرارة عندما يتصور ما يؤول به الأمر، وينتهي إليه حاله، من الوصول إلى ما قد وصل إليه من يجده في عصره من العلماء.

ثم تنحل عنه العقدة الثانية بفهم المباحث وحفظ المسائل وإدراك الدقائق، فإنه عند ذلك يجد من اللذة والحلاوة ما يذهب بكل مرارة.

ثم إذا نال من المعارف حظًّا، وأحرز منها نصيبًا، ودخل في عداد أهل العلم، كان متقلِّبًا في اللذات النفسانية التي هي اللذات بالحقيقة، ولا يعدم عند ذلك من اللذات الجسمانية ما هو أفضل وأحلى من اللذات التي يتقلب فيها كل من كان من أترابه.

وهو إذا وازن بين نفسه الشريفة وبين فرد من معارفه الذين لم يشتغلوا بما اشتغل به اغتبط بنفسه غاية الاغتباط، ووجد من السرور والحبور ما لا يقادَر قدرُه، هذا باعتبار ما يجده من اللذة النفسانية عند أن يجد نفسه عالمة ونفس معارفه جاهلة.

ويزداد ذلك بما يحصل له من لوازم العلم من الجلالة والفخامة، وبُعْد الصيت وعظم الشهرة، ونبالة الذكر ورفعة المحل، والرجوع إليه في مسائل الدين، وتقديمه على غيره في مطالب الدنيا، وخضوع من كان يُزري عليه ويستخف بمكانه من بني عصره، فإذا جمعهم مجلس من الدنيا كانوا له بمنزلة الخدم، وإن كان على غاية من الإفلاس والعدم.

ثم إذا تناهى حاله وبلغ من الحظ في العلم إلى مكان عَلِيٍّ انثال عليه الطلبة للعلوم، وأقبل إليه المستفتون في أمر الدين، واحتاج إليه ملوك الدنيا فضلًا عن غيرهم، فيكون عند هذا عيشه حلوًا محضًا، وعمره مغمورًا باللذات النفسانية والجسمانية.

ويرتفع أمره عن هذه الدرجة ارتفاعًا لا يقادَر قدرُه إذا تصور ما له عند الله من عظيم المنزلة، وعَلِيّ الرتبة، وعظيم الجزاء، الذي هو المقصود أولًا وبالذات

من علوم الدين.

وكنت في أوائل أيام طلبي للعلم في سن البلوغ وبعدها بقليل تصورت ما ذكرت هنا فقلت:

سددت الأذن عن داعي التصابي ... فلا داعٍ لديّ ولا مجيبُ
وأنفقتُ الشبيبةَ غيرَ وانٍ ... لمَجْدِ الشيب فليَهْنَ المشيبُ

وقلت أيضًا رامزًا إلى هذا المعنى:

وأُبدي رغبةً لنُجودِ نَجْدٍ ... وشوقًا لانتشاقي منه ريحا
وما بسوى العقيق أقام قلبي ... وأضحى بين أهليه طريحا

وأما كون الرذائل حلوة الأوائل مرة العواقب فصِدقٌ هذا غير خاف على ذي لب، فإن من أرسل عنان شبابه في البطالات، وحل رباط نفسه فأجراها في ميادين اللذات، أدرك من اللذة الجسمانية من ذلك بحسب ما يتفق له منها، ولا سيما إذا كان ذا مال وجمال، ولكنها تنقضي عنه اللذة وتفارقه هذه الحلاوة إذا تكامل عقله ورجح فهمه وقوي فكره، فإنه لا يدري عند ذلك ما يدهمه من المرارات، التي منها الندامة على ما اقترفه من معاصي الله، ثم الحسرة على ما فَوَّته من العمر في غير طائل، ثم على ما أنفقه من المال في غير حِلِّه، ولم يفز من الجميع بشيء، ولا ظفر من الكل بطائل.

وتزداد حسرته وتتعاظم كربته إذا قاس نفسه بنفس من أشتغل بطلب المعالي من أترابه في مقتبل شبابه، فإنه لا يزال عند موازنة ذاته بذاته وصفاته بصفاته في حسرات متجددة، وزفرات متصاعدة، ولا سيما إذا كان بيته في العلم طويل الدعائم، وسلفه من المتأهلين لتلك المعالي والمكارم، فإنه حينئذ تذهب عنه سكرة البطالة، وتنقشع عنه عماية الجهالة، بكروب طويلة وهموم ثقيلة،

وقد فاته ما فات، وحيل بين العِير والنَّزَوَان[1]، وحال الجريض دون القريض[2]، والصَّيْفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَن[3].

فانظر أعزك الله: أي الرجلين أربح صفقة، وأكثر فائدة، وأعظم عائدة، فقد بَيَّن الصبح لذي عينين[4]، وعند الصباح يَحْمَد القومُ السُّرى». اهـ.

فضل العلـم

وفي فضل العلم وأهله ـ إضافة إلى ما تقدم مفرقًا ـ قال العليم الخبير سبحانه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران:١٨].

فبدأ سبحانه بنفسه الكريمة شاهدًا على توحيده وقيامه على خلقه بالقسط، ثم ثنى بملائكته عليهم السلام، ثم ثلث بالذين أوتوا العلم، وكفى بهذا شرفًا ورفعة للعلم وأهله.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر:٢٨].

فهم الذين عرفوا جلاله وعظمته وحقه، فحَرِيٌّ بهم أن يَخْشَوْه، ويأتمروا بأمره، وينتهوا عن نهيه، ومن أولى منهم بذلك؟!!

---

(١) من الأمثال السائرة. يقال ذلك للرجل يحال بينه وبين مراده. «جمهرة الأمثال».

(٢) من الأمثال السائرة. والجريض: الاختناق بالريق، والقريض: الشعر. ومعنى المثل: أن الاختناق بالريق منع من قول الشعر، فيُضرب في كل أمر يعوق عنه عائق. يُنظر «زهر الأكم».

(٣) من الأمثال السائرة. يُضرب لمن يطلب شيئًا قد فَوَّته على نفسه. «مجمع الأمثال».

(٤) من الأمثال السائرة. يُضرب للأمر يظهر كلَّ الظهور. «مجمع الأمثال».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ۞ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۞ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩].

والمعنى: سواء آمنتم بالقرآن الكريم والفرقان المبين أو لم تؤمنوا، فإن لله تعالى عبادًا غيركم (هم الذين أوتوا العلم) قد آمنوا به وصدقوه، وأذعنوا له أعظم إذعان، وتأثروا به أشد تأثر، حتى خروا سُجَّدًا للأذقان، باكين خاشعين خاضعين، فأي شرف لأهل العلم أعظم من هذا؟!! وأي فضل أكبر منه؟!!

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ [العنكبوت:٤٩].

فأي فضل لأهل العلم أعظم من هذا؟!! فلله تلك الصدور وما أُودع فيها من آيات الله عز وجل!! وهنيئًا لها نورها وانشراحها به!! وهنيئًا لها فرحها وسعادتها!!

وفي فضل العلم وأهله وذم الجهل وأهله آيات كثيرة لا تكاد تحصى.

فصل

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»(١).

وعن عثمان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»(٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري وغيره.

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان، أحدهما عابد، والآخر عالم، فقال رسول الله ﷺ:

«فَضْلُ العَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِي عَلَى أَدْنَاكُمْ».

ثم قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ، وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ، حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا، وَحَتَّى الْحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ»[1].

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«فَضْلُ الْعِلْمِ خَيْرٌ مِنْ فَضْلِ الْعِبَادَةِ، وَخَيْرُ دِينِكُمُ الْوَرَعُ»[2].

قلت: وهذا إذا تزاحمت نافلة العلم مع نافلة العبادة، أو في الوقت الفارغ بعد أداء سنن العبادات والنوافل الواردة، فيقدم العلم بنص هذا الحديث، وليس المقصود الاشتغال بطلب العلم وترك النوافل طول العمر، كما يفعله عامة من ينسبون أنفسهم إلى العلم والسنة في هذا الزمان، فما كان هذا طريق السلف، ولا فِعل أهل العلم السابقين، ولا القدوة من المتأخرين، بل المتتبع لسيرتهم يجدهم أكثر الناس حرصًا على النوافل، من صلاة وصيام وذكر وجهاد وغيرها، خلافًا لما يُلَبِّسه بعض من ذكرنا على العوام، ليبرروا لهم كسلهم وتركهم بل هجرهم هدي السلف في التبتل والعبادة!!![3].

قال الذهبي[4]: «هذه مسألة مختلف فيها: هل طلب العلم أفضل، أو صلاة النافلة والتلاوة والذكر؟ فأما من كان مخلصًا لله في طلب العلم، وذهنه جيد، فالعلم أولى، ولكن مع حظ من صلاة وتعبد، فإن رأيته مُجِدًّا في طلب العلم لا حظ له في

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٩٦٠) وغيرُه، وصححه الألباني.

(٣) وانظر كلام ابن الجوزي الآتي (صفحة ٦١٦ - ٦١٧).

(٤) «سير أعلام النبلاء» (١٦٧/٧).

القربات، فهذا كسلان مهين، وليس هو بصادق في حسن نيته، وأما من كان طلبه الحديث والفقه غِيَّة ومحبة نفسانية، فالعبادة في حقه أفضل، بل ما بينهما أَفْعُلُ تفضيل، وهذا تقسيم في الجملة، فقَلَّ والله من رأيته مخلصًا في طلب العلم!». اهـ.

وقال أبو المعالي الجُوَيْني[1]: «الانقطاع عن النوافل عظيم الوقع عند ذوي الدين، وركعتان خفيفتان خير من الدنيا وما فيها». اهـ.

وعن قيس بن كَثير قال: قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ. قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟ قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث؟ قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضَاءً لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»[2].

قال ابن المبارك[3]: «لا أعلم بعد النبوة درجة أفضل من بث العلم».

وقيل له: لو قيل لك لم يبق من عمرك إلا يوم ما كنت صانعًا؟ قال: كنت أُعَلِّمُ الناس[4].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: حدث صفوان بن عسال المُرادي قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو متكئ في المسجد على بُرْدٍ له، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم. فقال:

---

(١) انظر «نهاية المطلب» (١٦٧/١).

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، واللفظ له، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٣) «تهذيب الكمال» (٢٠/١٦).

(٤) «المدخل» للبيهقي (ص ٣٠٩).

«مَرْحَبًا بطالبِ الْعِلْمِ، طَالِبُ الْعِلْمِ لَتَحُفُّهُ الْمَلَائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ، فَمَا جِئْتَ تَطْلُبُ؟».

قال: قال صفوان: يا رسول الله، لا نزال نسافر بين مكة والمدينة، فأفتنا عن المسح على الخفين، فقال له رسول الله ﷺ:

«ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ لِلْمُسَافِرِ، وَيَوْمٌ وَلَيْلَةٌ لِلْمُقِيمِ»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول:

«الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ مَا فِيهَا، إِلَّا ذِكْرَ اللَّهِ، وَمَا وَالَاهُ، أَوْ عَالِمًا، أَوْ مُتَعَلِّمًا»[(٢)].

قوله ﷺ: (أو عالمًا، أو متعلمًا)، قال الصنعاني[(٣)]: «وخصهما بعد دخولهما فيما والى ذكر الله إعلامًا بعِظَم شرفهما وفخامة شأنهما، والمراد أن الدنيا مبعدة عن الله وعن نظره إليها متروكة لا يؤبه لها إلا هذه الأربعة، وبدأ بذكر الله عز وجل لأنه أشرف الأشياء».

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَسَلَّطَهُ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللهُ حِكْمَةً، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا»[(٤)].

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧) وغيره، وهو عند ابن ماجه (٢٢٦)، مختصرًا، وحسنه الألباني.

ولفظ ابن ماجه: عن زِرِّ بن حُبَيْشٍ قال: أتيت صفوان بن عسال المُرادي، فقال: ما جاء بك؟ قلت: أُنْبِطُ العلم، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلَّا وَضَعَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ». وقوله: (أُنْبِطُ العلم): أي: أطلبه وأستخرجه. «منذري».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢)، واللفظ له، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٣) «التنوير» (١٤٣/٦).

(٤) متفق عليه.

أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مِمَّا يَلْحَقُ الْمُؤْمِنَ مِنْ عَمَلِهِ وَحَسَنَاتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ عِلْمًا عَلَّمَهُ وَنَشَرَهُ، وَوَلَدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَوْ مَسْجِدًا بَنَاهُ، أَوْ بَيْتًا لِابْنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَوْ نَهْرًا أَجْرَاهُ، أَوْ صَدَقَةً أَخْرَجَهَا مِنْ مَالِهِ فِي صِحَّتِهِ وَحَيَاتِهِ، يَلْحَقُهُ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِ»(٣).

وعن أبي قَتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«خَيْرُ مَا يَخْلُفُ الرَّجُلَ مِنْ بَعْدِهِ ثَلَاثٌ: وَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ، وَصَدَقَةٌ تَجْرِي يَبْلُغُهُ أَجْرُهَا، وَعِلْمٌ يُعْمَلُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ»(٤).

هذا، والوارد في فضل العلم وأهله إنما المقصود به العلم الشرعي، علم الكتاب والسنة، فهو العلم الممدوح مطلقًا.

وأما العلوم الدنيوية من طب وهندسة وصناعة وزراعة وغيرها فإنها

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه مسلم (١٦٣١) وغيره.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٤٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٤١) وغيره، وصححه الألباني.

تُمدح بحسب ما يُتوصل بها إلى الخير ونفع المسلمين ونصرهم والدفع عنهم، كعلم صناعة آلات الحرب مثلًا، فإنها تدخل في قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، وإذا صلحت النية في تعلم العلوم الدنيوية، وخلت من الآفات والمنكرات، من اختلاط وغيره، فإنها تكون من العلوم التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، وقد يكون بعضها من فروض الكفاية.

وسئل شيخ الإسلام: أيما طلب القرآن أو العلم أفضل؟

فأجاب: أما العلم الذي يجب على الإنسان عينًا، كعلم ما أمر الله به وما نهى الله عنه، فهو مقدم على حفظ ما لا يجب من القرآن، فإن طلب العلم الأول واجب وطلب الثاني مستحب والواجب مقدم على المستحب.

وأما طلب حفظ القرآن فهو مقدم على كثير مما تسميه الناس علمًا، وهو إما باطل أو قليل النفع، وهو أيضًا مقدم في التعلم في حق من يريد أن يتعلم علم الدين من الأصول والفروع، فإن المشروع في حق مثل هذا في هذه الأوقات أن يبدأ بحفظ القرآن، فإنه أصل علوم الدين، بخلاف ما يفعله كثير من أهل البدع من الأعاجم وغيرهم، حيث يشتغل أحدهم بشيء من فضول العلم، من الكلام أو الجدال والخلاف أو الفروع النادرة، أو التقليد الذي لا يحتاج إليه، أو غرائب الحديث التي لا تثبت ولا ينتفع بها، وكثير من الرياضيات التي لا تقوم عليها حجة، ويترك حفظ القرآن الذي هو أهم من ذلك كله! فلا بد في مثل هذه المسألة من التفصيل.

والمطلوب من القرآن هو فهم معانيه والعمل به، فإن لم تكن هذه همة حافظه لم يكن من أهل العلم والدين، والله سبحانه أعلم[١]. اهـ.

وقال ابن الجوزي[٢]: «من تأمل بعين الفكر دوام البقاء في الجنة، في صفاء بلا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٣/٥٤-٥٥).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٣٥٥-٣٥٦).

كدر، ولذات بلا انقطاع، وبلوغ كل مطلوب للنفس، والزيادة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من غير تغيير ولا زوال، إذ لا يقال: ألف ألف سنة، ولا مائة ألف ألف، بل ولو أن الإنسان عد الألوف ألوف السنين لانقضى عدده، وكان له نهاية، وبقاء الآخرة لا نفاد له، إلا أنه لا يحصل ذلك إلا بنقد هذا العمر.

وما مقدار عمر غايته مائة سنة، منها خمسة عشر صَبْوة وجهل، وثلاثون بعد السبعين إن حصلت ضعف وعجز، والتوسط نصفه نوم، وبعضه زمان أكل وشرب وكسب، والمنتحل منه للعبادات يسير؟! أفلا يُشترى ذلك الدائم بهذا القليل؟!

إن الإعراض عن الشروع في هذا البيع والشراء لَغُبن فاحش في العقل، وخلل في الإيمان بالوعد، والعلم هو الذي يدل على الطريق، ويعرف ما يصلح لها، ويحذر من قُطّاعها.

ولقد دخل إبليس على طائفة من المتزهدين بآفات، أعظمها أنه صرفهم عن العلم، فكأنه شرع في إطفاء المصباح ليَسرق في الظُّلمة، حتى إنه أخذ قومًا من كبار العلماء، فسلك بهم من ذلك ما ينهى عنه العلم.

فرأيت أبا حامد الطوسي يحكي عن نفسه في بعض مصنفاته، قال: شاورت متبوعا مقدَّمًا من الصوفية في المواظبة على تلاوة القرآن، فمنعني منه! وقال: السبيل أن تقطع علائقك من الدنيا بالكلية، بحيث لا يلتفت قلبك إلى أهل وولد ومال وعلم، بل تصير إلى حالة يستوي عندك وجود ذلك وعدمه، ثم تخلو بنفسك في زاوية، فتقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب، وتجلس فارغ القلب، ولا تزال تقول: الله، الله، إلى أن تنتهي إلى حالة، لو تركت تحريك اللسان رأيت كأن الكلمة جارية على لسانك، ثم تنظر ما يفتح عليك مما فتح مثله على الأنبياء والأولياء!!».

قال ابن الجوزي: «قلت: وهذا أمر لا أتعجب أنا فيه من المُوصِي به، وإنما أتعجب من الذي قبله مع معرفته وفهمه!! وهل يُقطع الطريق

بالإعراض عن تلاوة القرآن؟! وهل فُتِح للأنبياء ما فتح بمجاهدتهم ورياضتهم؟! وهل يُوثق بما يظهر من هذه المسالك؟! ثم ما الذي يُفتح؟! أثَمَّ اطلاع على علم الغيب؟! أم هو وحي؟!

فهذا كله من تلاعب إبليس بالقوم، وربما كان ما يتخايل لهم من أثر الماليخوليا أو من إبليس.

فعليك بالعلم، وانظر في سير السلف: هل فعل أحد منهم من هذا شيئًا أو أمر به؟! وإنما تشاغلوا بالقرآن والعلم، فدلهم على إصلاح البواطن وتصفيتها، نسأل الله عز وجل علما نافعًا، ودفعًا للعدو مانعًا، إنه قادر».

وقال طاشْكُبْري زاده[1]: «اعلم أن شرف الشيء وفضيلته إما لذاته أو لغيره، والعلم حائز لكلا الشرفين، وجامع لكلتا الفضيلتين، لأنه لذيذ في نفسه، فيطلب لذاته ولغيره، فيطلب لأجله من وجوه:

أما الأول: فلا يخفى على أحد من مزاوليه، لأنها لذة لا نهاية لها ولا لذة فوقها، وكان محمد بن الحسن يقول عندما تنحل له مشكلات العلوم: أين أبناء الملوك من هذه اللذة؟! سيما إذا كانت الفكرة في ملكوت السموات والأرضين وفي أسرار رب العالمين.

وأيضًا: أن شرف العلم لا يقبل العزل، كعزل الولاة والأمراء وسائر أرباب المناصب الدنيوية، ومع دوامها لا مزاحمة فيها لأحد، لأن المعلومات متسعة للطلاب وإن كثروا، بل تزيد بكثرة الشركاء، بخلاف حطام الدنيا وجاهها، ولهذا يكثر فيها البغضاء، ويعظم في تحصيلها الشحناء، ومع كونها أوفى اللذات وأدومها وأشملها وأعمها لا ترى أحدًا من الولاة والأمراء وسائر أبناء الدنيا لا يتمنون أن يكون عزهم كعز العلماء، إلا أن الموانع الشهوانية تمنع عن نيلها.

هذه هي اللذائذ الحاصلة في نفس العلم.

---

(١) «مفتاح السعادة» (ص ١٥).

وأما اللذائذ الحاصلة له لغيره: أما في الأخرى: فلكونه وسيلة تارة إلى أعظم اللذائذ الأخروية، وأخرى إلى أكمل السعادات الأبدية.

أما الأول: فلذة الوصول إلى جوار رب العالمين، والبلوغ إلى مرضاته التي هي المقصد والسعادة الكبرى، ولذة النظر إلى وجهه الكريم، التي هي غاية الغايات، ومنتهى جميع السعادات.

وأما الثاني: فلأن العلم لا أقل من أن يكون سببًا للوصول إلى الأفق المبين، ولحوق زمرة الملأ الأعلى في جوار رب العالمين، ولا يخفى أنه لا بلوغ إلى شيء منها إلا بالعمل المتوقف على العلم، فهو رأس السعادات ورئيسها.

وأما المنافع الدنيوية: فالعز والوقار، ونفوذ الحكم على الملوك، ولزوم الاحترام في الطباع».

وقال الماوَرْدي(١): العلم والعقل سعادة وإقبال، وإن قل معهما المال، وضاقت معهما الحال، والجهل والحمق حرمان وإدبار، وإن كثر معهما المال، واتسعت فيهما الحال، لأن السعادة ليست بكثرة المال، فكم من مُكْثِرٍ شقي ومُقِلٍّ سعيد!! وكيف يكون الجاهل الغني سعيدًا والجهل يضعه؟! أم كيف يكون العالم الفقير شقيًّا والعلم يرفعه؟!

وقد قيل في منثور الحِكَم: كم من ذليل أعزه علمه!! ومن عزيز أذله جهله!!

وقال عبد الله بن المعتز: الجاهل كروضة على مزبلة.

وقال بعض الحكماء: كلما حَسُنَتْ نعمة الجاهل ازداد قبحًا.

وقال بعض الأدباء: من لم يُفِدْ بالعلم مالًا كَسَب به جمالًا.

وأنشد بعض أهل الأدب لابن طَبَاطَبَا:

حسودٌ مريضُ القلب يُخفي أنينَهُ ويَضْحَى كئيبَ البال عندي حزينَهُ

---

(١) انظر «أدب الدنيا والدين» (ص ٥٢-٥٣).

يلـوم عليَّ أن رحـت للعلـم طالبًـا أَجْمَـعُ مـن عنـد الـرواة فنونَـهُ
فـأَعرف أبكـار الـكلام وعُونَـهُ[1] وأحفــظ ممــا أســتفيد عيونَــهُ
ويزعم أن العلم لا يُكسِب الغـنى ويُحْسِـنُ بالجهـل الذمـيمِ ظُنونَـهُ
فيـا لائـمي دعـني أغالي بقيمـتي فقيمــة كل النــاس مــا يحســنونهُ

فينبغي لمن زهد في العلم أن يكون فيه راغبًا، ولمن رغب فيه أن يكون له طالبًا، ولمن طلبه أن يكون منه مستكثرًا، ولمن استكثر منه أن يكون به عاملًا، ولا يَطلب لتركه احتجاجًا، ولا للتقصير فيه عذرًا.

وقد قال الشاعر:

فـلا تعـذِراني في الإسـاءة إنـهُ شرارُ الرجال من يسـيء فيُعْذَرُ

ولا يُسوِّف نفسه بالمواعيد الكاذبة، ويمَنِّيها بانقطاع الأشغال المتصلة، فإن لكل وقت شغلًا، ولكل زمان عذرًا.

وقال الشاعر:

نـــروح ونغـــدو لحاجاتنـــا وحاجة مَـنْ عاش لا تنقضـي
تمـوت مـع المـرء حاجاتـهُ وتـبقى له حاجـةٌ مـا بَـقِي

انتهى كلام الماوَرْدي.

وللإلبيري:

فلو قد ذقتَ من حَلواه طَعمًـا لآثـرتَ التعلـمَ واجتهـدتا
ولم يَشْغَلْكَ عنه هـوًى مطـاعٌ ولا دنيــا بزخرفهــا فُتِنْتــا
ينالـك نفعُـه مـا دمـتَ حيًّـا ويـبقى ذخـرُه لـك إن ذهبْتـا

---

(١) يعني: يعرف أحسنه وأجوده. والعُون: جمع عَوَان، وهي من البقر: المتوسطة بين المُسِنَّة والصغيرة. ويقال: فرس عَوَان، وخيل عُون. وفي التنزيل: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة:٦٨].

الإخلاص

واعلم أن أساس كل ما تقدم مما تُزَكَّى به النفوس: هو الإخلاص لله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

قال شيخ الإسلام[1]: «وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربه فأحيا قلبه واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر به عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة، فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي من يذمه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، ويكون ذليلًا له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين».

وقال[2]: «فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله، ولهذا يكون قبل أن يذوق حلاوة

(١) «العبودية» (ص ١٢٤). قلت: لو لم يكن في هذا الكتاب (العبودية) إلا هذه الكلمة من شيخ الإسلام لكان حقيقًا أن يوصَى به في رأس قائمة ما ينبغي لطالب العلم أن يقرأه ويتعلمه، كيف والكتاب كنز عظيم، قد امتلأ بجواهر العلوم، ودرر الفوائد، ويواقيت الحِكَم!! وهو أول مؤلف أُوصي به في باب تزكية النفس.

(٢) «العبودية» (ص ٩٩).

العبودية لله والإخلاص له، بحيث تغلبه نفسه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج». اهـ.

وقال الله عز وجل: ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص:٨٢-٨٣].

وعن جُبَيْرِ بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بِالْخَيْفِ من مِنًى، فقال:

«نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرِ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»(١).

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى: أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل(٢) والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن».

وعن مالك أنه كثيرًا ما سُمِع يقول: من أحب أن يُفتح له فرجةٌ في قلبه، وينجو من غمرات الموت وأهوال يوم القيامة، فليكن عمله في السر أكثر منه في العلانية(٣).

وقال ابن القيم(٤): «لا يجتمع الإخلاص في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس إلا كما يجتمع الماء والنار والضب والحوت، فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص فأقبل على الطمع أولًا فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

(٣) انظر «ترتيب المدارك» (٥١/٢).

(٤) «الفوائد» (ص ١٤٩).

المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة، فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل علي ذبح الطمع، والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع: فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس من شيء يُطمع فيه إلا وبيد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره، ولا يؤتي العبدَ منها شيئًا سواه.

وأما الزهد في الثناء والمدح: فيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحُه ويَزين ويضر ذمُّه ويَشين إلا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إن مدحي زَين وذمي شَين. فقال: «ذَلِكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»(1). فازهد في مدح من لا يَزينك مدحه وفي ذم من لا يَشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزَّين في مدحه وكل الشَّين في ذمه.

ولن يُقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب! قال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم:٦٠]. وقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]». اهـ.

وقيل: كان معروف الكرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه، ويقول: يا نفس، أخلصي تتخلصي(2).

وللصَّرْصَري(3):

يا نفسُ توبي إلى الرحمن مخلصةً ... ثم استقيمي على عَزْمٍ يُنَجِّيكِ
واستدركي فارِطَ الأوقات واجتهدي ... عساكِ بالصدق أن تُمْحَى مساويكِ

---

(1) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وغيره، عن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤]، قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن حمدي زَين، وإن ذمي شَين. فقال ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». وصححه الألباني.

(2) «الإحياء» (٣٧٠/٤).

(3) «الآداب الشرعية» (٥٩٩/٣).

دعاء لاتقاء الرياء

عن أبي عليٍّ (رجل من بني كاهلٍ) قال: خطبنا أبو موسى الأشعري فقال: يا أيها الناس، اتقوا هذا الشرك، فإنه أخفى من دبيب النمل. فقام إليه عبد الله بن حَزْنٍ وقيس بن المُضارب فقالا: والله لَتَخْرُجَنَّ مما قلت أو لَنَأْتِيَنَّ عمرَ مأذونٌ لنا أو غيرُ مأذونٍ. قال: بل أخرج مما قلت، خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال:

«أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ».

فقال له من شاء الله أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟! قال: قولوا:

«اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[1].

سؤال التوفيق

ويتخلص من شر النفس باستمداد التوفيق من الله تعالى في ذلك، بدعائه عز وجل في صلاح نفسه وزكاتها، والاستعاذة به من شرها، فإنه هو الموفق للخير، ودون توفيقه لا يمكن العبد أن يتخلص من شر نفسه، كما قال تبارك وتعالى:

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٢١].

قال ابن كثير[2]: «أي: لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه، ويزكي النفوس من شركها وفجورها ودسها، وما فيها من أخلاق رديئة، كل بحسبه، لما

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٤٧٩)، وأحمد (١٩٦٠٦)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ١٥).

(٢) «تفسيره» (٣/٢٧٥).

حصّل أحد لنفسه زكاة ولا خيرًا».

وقد تقدم الكلام على قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف:٥٣].

وقال ابن القيم فيه[١]: «وقد أخبر سبحانه أنها أمارة بالسوء ولم يقل «آمرة» لكثرة ذلك منها، وأنه عادتها ودأبها، إلا إذا رحمها الله وجعلها زاكية تأمر صاحبها بالخير، فذلك من رحمة الله لا منها، فإنها بذاتها أمارة بالسوء، لأنها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة إلا مَنْ رحمه الله، والعدل والعلم طارئ عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك، فإذا لم يلهمها رشدها بقيت على ظلمها وجهلها، فلم تكن أمارة إلا بموجب الجهل والظلم، فلولا فضل الله ورحمته على المؤمنين ما زكت منهم نفس واحدة.

فإذا أراد الله سبحانه بها خيرًا جعل فيها ما تزكو به وتصلح من الإرادات والتصورات، وإذا لم يرد بها ذلك تركها على حالها التى خلقت عليها من الجهل والظلم.

وسبب الظلم إما جهل وإما حاجة، وهي في الأصل جاهلة والحاجة لازمة لها، فلذلك كان أمرها بالسوء لازمًا لها إن لم تدركها رحمة الله وفضله.

وبهذا يُعلم أن ضرورة العبد إلى ربه فوق كل ضرورة، ولا تشبهها ضرورة تقاس بها، فإنه إن أمسك عنه رحمته وتوفيقه وهدايته طرفة عين خسر وهلك»[٢]. اهـ.

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۞ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٧٧/١).

(٢) وانظر كلامه الآتي بعد قليل.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات:٧-٨].

قال ابن القيم(١): «فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين، ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، عليم بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه، ويثمر عنده، حكيم فلا يضعه عند غير أهله، فيضيعه بوضعه في غير موضعه». اهـ.

قلت: فعلى العبد أن يدعو ربه تبارك وتعالى أن يزكي له نفسه، وأن لا يكله إليها طرفة عين أبدًا، ويتوسل إليه، وينطرح بين يديه، ويتذلل له، ويستغيث برحمته ألا يُحَكِّم فيه نفسه، فتهلكه هلاكًا لا يستطيع الخلاص منه.

ويدعو ويقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا»(٢).

ويدعو بما أوصى به رسول الله ﷺ ابنته فاطمة رضي الله عنها، وذلك من حديث أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ لفاطمة:

«مَا يَمْنَعُكِ أَنْ تَسْمَعِي مَا أُوصِيكِ بِهِ؟! أَنْ تَقُولِي إِذَا أَصْبَحْتِ وَإِذَا أَمْسَيْتِ: يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ [أَبَدًا]»(٣).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٣٦/١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٢) وغيره، عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله ﷺ يقول: كان يقول: « اللَّهُمَّ...» إلخ.

(٣) أخرجه النسائي (رقم ٥٧٠)، وابن السني (رقم ٤٨)، والزيادة له، كلاهما في «عمل اليوم والليلة»، وغيرُهما. وهو في «الصحيحة» (٢٢٧).

وقال النبي ﷺ: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ: اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، [وَ]أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(١).

قال ابن القيم(٢): «أجمع العارفون بالله على أن الخِذلان: أن يكلك الله إلى نفسك، ويخلي بينك وبينها، والتوفيق: أن لا يكلك الله إلى نفسك».

وقال(٣): «فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخِذلانه، بل العبد في الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا، فيطيعه ويرضيه ويذكره ويشكره بتوفيقه له، ثم يعصيه ويخالفه ويُسخطه ويغفل عنه بخِذلانه له، فهو دائر بين توفيقه وخِذلانه، فإن وفقه فبفضله ورحمته، وإن خذله فبعدله وحكمته، وهو المحمود على هذا وهذا، له أتم حمد وأكمله، ولم يمنع العبد شيئًا هو له، وإنما منعه ما هو مجرد فضله وعطائه، وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق في كل نَفَس وكل لحظة وطرفة عين، وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى، لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلّ عرش توحيده، ولخرت سماء إيمانه على الأرض، وأن الممسك له هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه».

ووصف رحمه الله النفس بالظلم والجهل، وذكر أن هذين الوصفين يصدر عنهما كل قول وعمل قبيح، ثم قال(٤): «ومَنْ وَصْفه الجهل والظلم لا مطمع في استقامته واعتداله البتة، فيوجب له ذلك بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلها أكثر من علمها، وظلمها أعظم من عدلها».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٠)، وأحمد (٢٠٤٣٠ - ط الرسالة)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٢) «إغاثة اللهفان» (١/١٨٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٤١٣).

(٤) «مدارج السالكين» (١/٢٢٠).

قال: «فحقيق بمن هذا شأنه: أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَه شرها، وأن يؤتيها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها، فإنه ربها ومولاها، وأن لا يكله إليها طرفة عين، فإنه إن وَكَله إليها هلك، فما هلك من هلك إلا حيث وُكِل إلى نفسه».

قلت: وحقيق بمَنْ مَنَّ الله عليه بالهداية، فحبب إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وجعله من الراشدين، وهذا أعظم النعم على الإطلاق، حقيق به أن يلهج بحمد الله تعالى والثناء عليه وشكره، وأن لا يني أبدًا في ذكره عز وجل، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا، مباركًا فيه، مباركًا عليه، كما يحب ربنا ويرضى، ملء السموات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء ربنا من شيء بعد.

وليحذر العبد كل الحذر من أن يمدح نفسه أو يزكيها، وينسى منة الله تعالى عليه، وأنه لولا فضله عليه ورحمته ما وصل إلى شيء من الخير، ولا قوي على اجتناب شيء من الشر، قال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٩].

الاستعاذة من شر النفس

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله، مُرْنِي بكلمات أقولهُنَّ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَ[مِنْ] شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، [وَأَنْ أَقْتَرِفَ عَلَى نَفْسِي سُوءًا أَوْ أَجُرَّهُ إِلَى مُسْلِمٍ]».

قال: «قُلْهَا إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ»(١).

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٧)، واللفظ له، والترمذي (٣٣٩٢)، وله الزيادة الأولى، وغيرهما، والزيادة الثانية للترمذي (٣٥٢٩)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما. وصحح الألباني الحديثين.

وفي خُطبة الحاجة: «الْحَمْدُ للهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا». الحديث(١).

الدعاء للنفس بالحفظ

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه أمر رجلًا إذا أخذ مضجعه قال:

«اللَّهُمَّ [أَنْتَ] خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ».

فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: مِنْ خَيرٍ من عمر، من رسول الله ﷺ(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ(٣) إِزَارِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»(٤).

الدعاء لها بالنور

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، [أن النبي ﷺ] كان يقول في دعائه:

«اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَمِنْ فَوْقِي نُورًا، وَمِنْ تَحْتِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ شِمَالِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (١٨٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٢) وغيره.

(٣) هي حاشية الإزار التي تلي جسده. «طِيبي».

(٤) أخرجه الترمذي (٣٤٠١) بهذا اللفظ، وحسنه الألباني. وأصله في «الصحيحين».

يَدَيَّ نُورًا، وَمِنْ خَلْفِي نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا»[1].

المعوذات

ومن أهم ما يحصن العبد به نفسه: المُعَوِّذات، فيقولها في الصباح والمساء وعند النوم ثلاث مرات، ويقولها مرة في دبر كل صلاة مكتوبة، ولا يخلي منها يومًا ولا ليلة.

عن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْبٍ، عن أبيه، أنه قال: خرجنا في ليلةِ مَطَرٍ وظُلْمَةٍ شديدةٍ نطلب رسول الله ﷺ ليُصَلِّيَ لنا، فأدركناه فقال: «أَصَلَّيْتُمْ؟» فلم أقل شيئًا. فقال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ». فقلتُ: يا رسول الله، ما أقول؟ قال:

«قُلْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ، حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ: «كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ، ثُمَّ نَفَثَ[3] فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»[4].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقِيت رسول الله ﷺ فقال لي: «يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا

---

(١) بعض حديث، متفق عليه، وهذا أحد ألفاظ مسلم (٧٦٣). وهذا الدعاء مما يقال في السجود، كما في رواية النسائي (١١٢١).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) النَّفْث: نفخ لطيف بلا ريق. «نووي».

(٤) أخرجه البخاري وغيره.

فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾»[1].

وعنه رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمُعَوِّذات دُبُرَ كل صلاة[2].

قال ابن القيم في شأن المعوذتين[3]: «حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النَفَس والطعام والشراب واللباس».

سؤال الهداية

ومن أنفع الأدعية والأذكار في الخلاص من شر النفس، ومن كل شر، بل ولجلب كل خير: دعاء العبد في صلاته بقول الله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وعلى العبد أن يتنبه لمعنى هذا الدعاء العظيم، ويستحضر في قلبه ما اشتمل عليه، وهو أوجب دعاء على المكلفين، ومع وجوبه عليهم في كل يوم مرات عديدة، ففيه غاية صلاحهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، مثله مثل سائر أوامر الحق تبارك وتعالى، التي ألزمهم بها لا لحاجة إليهم، إنما ليزكيهم ويسعدهم بها، فسبحانه هو الغني الحميد!

قال ابن القيم بعد كلام[4]: «ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس شيء أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها».

---

(١) بعض حديث، أخرجه أحمد (١٧٤٥٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٨٦١).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «بدائع الفوائد» (١٩٩/٢).

(٤) «الجواب الكافي» (ص ١٢٢).

وقال[1]: «إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ ﴿إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء.

فإذا عُوفي من مرض الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، ومن مرض الكبرياء والعُجْب بـ ﴿إِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ومن مرض الضلال والجهل بـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورَفَل في أثواب العافية، وتمت عليه النعمة، وكان من المنعَم عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾، وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾، وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه.

وحقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين أن يُستشفى بها من كل مرض، ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذي هو أعظم الشفاءين، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى، فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه، وفهمت عنه فهما خاصًّا اختصها به، من معنى هذه السورة».

وله:

فسَلِ الهدايةَ مَنْ أَزِمَّةُ أمرنا ... بيديه مسألةَ الذليل العاني
وسَلِ العياذَ من اثنتين هما اللتا ... ن بهَلْكِ هذا الخلق كافلتانِ
شرُّ النفوس وسيِّءُ الأعمال ما ... واللهِ أعظمُ منهما شرانِ
ولقد أتى هذا التعوذُ منهما ... في خُطبة المبعوث بالقرآنِ

---

(١) «مدارج السالكين» (٧٨/١).

لـو كان يـدري العبـد أن مُصـابهُ ... في هـــذه الدنيـــا هـــو الشـــرانِ
جعـــل التعـــوذ منهمـــا دَيْدانَـــهُ ... حـــتى تـــراه داخـــل الأكفـــانِ
وسَـلِ العيـاذ مـن التكـبر والهـوى ... فهمـــا لـــكل الشـــر جامعتـــانِ
وهما يَصُـدانِ الفـتى عـن كل طُـرْ ... ق الخـــير إذ في قلبـــه يَلجـــانِ

سؤال التثبيت

ومن أهم الأدعية في ذلك: أن يسأل العبد ربه عز وجل أن يثبت قلبه على دينه، ويُصَرِّفه على طاعته، وأن لا يزيغه بعد إذ هداه، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول:

«يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال:

«نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ»(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ». ثم قال رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»(٢).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: ما آمَنُ على أحد بعد الذي سمعتُ من رسول الله ﷺ يقول:

«لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَسْرَعُ تَقَلُّبًا مِنَ الْقِدْرِ إِذَا اسْتَجْمَعَتْ غَلَيَانًا»(٣).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤) وغيره.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن أبي عاصم في «السنة» (٢٠٢/١)، وصححه الألباني.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يقول:

«يَا وَلِيَّ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنِي (وفي رواية: مَسِّكْنِي) بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ»(١).

وقال تبارك وتعالى في حقه ﷺ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٧٤].

وأخبر جل وعز عن الراسخين في العلم أنهم يدعونه سبحانه قائلين:

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران:٨].

ومن ذلك: أن يستعيذ بالله في كل صلاة بعد التشهد من فتنة المحيا وفتنة الممات، وهو متضمن لسؤال الثبات على الدين وحسن الخاتمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ أَرْبَعٍ، يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»(٢).

ولْيعلم العبد أنه كما لا يستقيم في الدنيا على الصراط المستقيم ولا تزكو نفسه إلا بتوفيق الله تعالى وفضله ورحمته، فإنه كذلك لن يدخل الجنة بعمله مهما كان، إلا أن يتغمده الله تعالى بفضل منه ورحمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «وَلَا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ مِنْهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ»(٣).

❑❑❑❑❑

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١) و«الدعوات» (٢٥٤) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٣).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) متفق عليه.

الباب الثاني

معاتبة النفس

على التقصير

وحثها على الجد والاجتهاد

معاتبة النفس

ومن طرق تزكية النفس ومداواتها من أدوائها: معاتبتها ولومها على التقصير، ومراقبتها، ومخالفتها فيما تريد من معصيه الله تعالى، فان ترك النفس تسرح في الشهوات، وتمرح في الملذات، وتفعل ما تهوى من المحرمات، وتدع ما تشاء من الطاعات، دون محاسبتها وإيقافها عند حدها، وأمرها ونهيها، هو سبب عَطَبها وهلاكها، كما قيل:

ألا مَـن لنفـسٍ في الهـوى قـد تمـادتِ
إذا قلتُ قد مالت عن الجهـل عـادتِ
وحسـبُ امـرئٍ شرًّا بإهمـالِ نفسِـهِ
وإمكانهـا مـن كـل شـيءٍ أرادتِ

وقد أقسم الله تعالى بالنفس اللوامة، فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة:١-٢].

قال الشوكاني[1]: «معنى النفس اللوامة: النفس التي تلوم صاحبها على تقصيره، أو تلوم جميع النفوس على تقصيرها. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، لا يُرى المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكذا؟ ما أردت بكذا؟ والفاجر لا يعاتب نفسه».

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۞ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

---

(١) «فتح القدير» (٥/٣٣٥).

قوله تعالى: ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: زجرها وحذرها من الوقوع فيما تهوى من الحرام، ولامها إذا مالت إليه، ومنعها من الوقوع فيه، وجاهدها عليه، فإن فعلت عاتبها أشد العتاب، وألزمها بالتوبة، مخوفًا إياها مقامها بين يدي الله تعالى.

فهذه الآية والتي قبلها أصل في زجر النفس ومعاتبتها ولومها على المعصية.

قال الشوكاني: «﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾؛ أي: زجرها عن الميل إلى المعاصي والمحارم التي تشتهيها. قال مقاتل: هو الرجل يَهِمّ بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها».

قلت: هل تعلم أن من آخر صيحات علم النفس(!) الحديث: أن من طرق علاج التوتر، والتخلص من القلق، واستجلاب الراحة، هو التكلم مع النفس والفضفضة إليها (كما يقولون)؟! فأقول: كيف إذا كان هذا التكلم وتلك الفضفضة لومًا للنفس على خطئها، ولومًا لها على ترك رشدها؟! أو بمعنى آخر: لومها على معصية الله العظيم المنعم المتفضل على عبده، ولومها على ترك طاعته سبحانه[1]، التي فيها مصلحة العبد ونجاته، عندها بحق سترتاح النفس وتسكن، ويذهب همها وقلقها، ويحضر فرحها وسرورها، فسبحان العليم الحكيم إذ قال: ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾!

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزِنوا أنفسكم قبل أن تُوزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨][2].

---

(١) وهو موضوع كتابنا هذا.

(٢) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (رقم ٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعت عمر بن الخطاب، وخرجت معه حتى دخل حائطًا[1]، فسمعته وهو يقول، وبيني وبينه جدار، وهو في جوف الحائط: عمرُ بن الخطاب أميرُ المؤمنين! بَخٍ بَخٍ! والله يا بن الخطاب، لَتتقينّ الله أو لَيعذبنّك[2].

هذا، وهو أمير المؤمنين، وهو هو في مقامه وصحبته من رسول الله ﷺ، وتبشيره بالجنة والشهادة، بلهَ مناقبه العظيمة، ومواقفه الجليلة!

فمن أولى بالمعاتبة منكِ يا نفس؟! وأنتِ العاصية، الظالمة، الشاردة عن الله تعالى، المعرضة عن ذكره، المقبلة على الدنيا، المشتغلة بها، المدبرة عن الآخرة، الغافلة عنها.

قال الحسن: إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة من همه[3].

وعن مالك بن دينار قال: رحم الله عبدًا قال لنفسه النفيسة: ألست صاحبة كذا؟! ألست صاحبة كذا؟! ثم ذمها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله، فكان[4] لها قائدًا[5].

وعن ميمون بن مِهْران قال: لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون أشد محاسبة لنفسه من الشريك لشريكه، [من أين مطعمه وملبسه؟!][6].

قال ابن القيم[7]: «ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوّان، إن لم تحاسبه

---

(١) الحائط: البستان من النخيل إذا كان عليه حائط، وهو الجدار. «نهاية».

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (٣٦٣٨)، وإسناده صحيح.

(٣) «الحلية» (١٤٥/٢).

(٤) يعني: فكان كتاب الله لها قائدًا.

(٥) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (رقم ٨).

(٦) «الزهد» لهناد (٥٨٠/٢). والزيادة من «سنن الترمذي» (٢٤٥٩).

(٧) «إغاثة اللهفان» (١٣٣/١).

ذهب بمالك».

وقال ابن الجوزي[1]: «يا هذا، عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدثها بما بين يدها وأخبرها، أشر عليها بمصلحتها ودبِّرها».

وقال[2]: «يا من قد ملكته نفسه، وغلبه حسه، وقد دنا حبسه، وستكف خَمسه، ولقد أنذره جنسه، عاتب نفسك لعلها ترعوي[3]، وسلمها إلى رائض العلم عساها تستوي، [أحضرها] دستور المحاسبة وحاسبها، واندُبها إلى الخير فإن أبت فاندُبها[4]».

وقال[5]: «يا هذا، اخْلُ بنفسك في بيت الفكر، واعذلها في الهوى، فإن لم تلن فاخرج بها على عسكر المقابر، فإن لم ترعوي فاضربها بسوط الجوع[6]».

وقال[7]: ما دامت النفس حيةً تسعى فهي حيةٌ تسعى، أَقَلُّ فِعْلٍ لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخَرقاء وجدت صوفًا، اخْلُ بها في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليك؟! نادها بلسان التذكرة: يا نفس، ذهب عرش بِلقيس، وبَلِيَ جمال شِيرين، وتمزق فَرش بُوران، وبقي نُسُك رابعة، يا نفس، صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتَحَزَّمي تَحَزُّمَ

---

(١) «المدهش» (ص ٣٧٩).

(٢) «المدهش» (ص ٥١٣).

(٣) أي: تكفّ وترتدع.

(٤) الأولى بمعنى: ادعُها وحثَّها، والثانية بمعنى: ابك عليها، كما يُندب الميت؛ أي: يُبكى عليه.

(٥) «المدهش» (ص ٣٧٩).

(٦) وذلك بالصوم الشرعي.

(٧) «المدهش» (ص ١٦٠-١٦١).

الأجير، فإنما هو يوم.

جِـدَّ في الجِـدِّ قـد تـولى العمـر | كم ذا التفريط قـد تـدانى الأمـر
أقبـل فعسـى يقبـل منـك العـذر | كم تبني وكم تنقض كم ذا الغدر

ولأبي العتاهية:

ألا لله أنـت دع التمـني | ولا تـأمن عواقبـه فتهلـك
وخـذ في عـذل نفسـك كل يـومٍ | لعـل النفـس تقبـل منـك عـذلك

وقال ابن القيم ذامًّا المغتر، واصفًا تارك المحاسبة(١): «يغمض عينيه عن العواقب، ويمُشِّى الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سَهُل عليه مواقعة الذنوب، وأَنِس بها، وعَسُر عليه فِطامها، ولو حضره رشده لعلم أن الحِمْيَة أسهل من الفِطام وترك المألوف والمعتاد».

كيفية معاتبة النفس

وأما كيفية معاتبة النفس ومحاسبتها، فليس فيها طريقة معينة أو لازمة، ولكن يحاسب العبد نفسه على التقصير في أداء الطاعات، ويحاسبها على فعل المحرمات، ويراقبها باستمرار، ويحذرها على الدوام، ويجاهدها في الليل والنهار.

فيقول لها: ويحك يا نفس! (أو يا عبد الله، أو يا يزيد، ويذكر اسمه)، لِمَ تركتِ كذا من الواجبات؟ ولِمَ تركتِ كذا، ويخوفها من عقاب الله تبارك اسمه، ويرغبها في ثوابه، ويلزمها فعل الطاعة، واستدراك ما فات منها، بأدائه إن أمكن شرعًا، أو بإصلاحه، وإلا فبالتوبة النصوح.

ثم يحاسبها على فعل المعاصي، فيوبخها قائلًا: لِمَ فعلتِ كذا؟ ولِمَ فعلتِ

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٨٢/١).

كذا؟ يا ظالمة، يا جاهلة، يا مرائية، يا قليلة الطاعات، يا كثيرة المعاصي، أمّا المعاصي فتسترينها عن الخلق! وأمّا الطاعات فمع قلتها فأنت ترائين الناس بها وتسمِّعين! وتحسبين أنك مأجورة! لا والله، بل أنت مغرورة، ولن ينفعك إلا ما كان خالصًا لوجه مولاك جل وعلا.

ويقول لها: ألا تتقين الله تعالى؟! ألا تخافين عقابه؟! ألا ترغبين في ثوابه؟! ألا تستحين ممن ينعم عليك ويسترك؟! أما آن لك أن تخافي وترعوي؟! إلى متى؟! وحتى متى؟! ألا تؤمنين أنه لا بد من الموت ولقاء الله عز وجل؟! فكيف تلاقينه بهذه المعاصي الكثيرة؟! أم لك قدرة على النار وحر النار؟!

ويقول لها: ألا تخافين أن يفاجئك الموت وأنت مصرة على المعاصي؟! ألا تخافين أن تتراكم عليك الذنوب ولا توفقي لتوبة مدى العمر؟!

ويلكِ يا نفس! منذ كذا وكذا وأنت تقولين: غدًا أتوب، غدًا أتوب. متى يأتي غدًا هذا؟! أعند انتهاء العمر؟! أم إلى أن تزول نعمة الصحة والعافية؟! أم حتى تنقضي مدة الشباب، أو حتى تمرضي مرض الموت، وتقعي في حسره الفوت؟!

ويقول لها: لا تغتري بالشباب، فان الموت قد يفاجئك، ألم تسمعي بآلاف من الشباب يموتون فجأة، ومن غير علة؟! فاتقي الله يا نفس، وهيا إلى رضاه وسعادتك، هيا هيا.

ويقول لها: لن أطيعك بعد اليوم، وسأتوب إلى مولاي من غدٍ، لا بل أخاف ألا أدرك غدًا، أنا تائب من الآن، ولن أطيعك، وسأمنعك من المحرمات، وألزمك بالطاعات.

ولو أبيتِ، ولو أظهرتِ العجز، ومهما تضايقتِ، ومهما فعلتِ لن أطيعك.

ويقول لها: تفكري في السابقين وأحوالهم، تدبري في ثواب الأبرار

وسرورهم، والمقربين وعُلُوّ منازلهم، ألا همة للَّحاق بهم ومنافستهم، ونيل الدرجات العلى عند المليك المقتدر؟!

ويقول لها: واعلمي أنك بعد قليل ستفرحين وتتلذذين بالتوبة وترك الذنب أكثر من فرحك وتلذذك به.

قال ابن القيم[1]: «فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية».

واصبري يا نفس، فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣، والأنفال:٤٦]، وهو سبحانه وتعالى شكور، ولن يَتِرَكِ عملَك، وسيعوضك جزاء ما تركت خيرًا منه وأطيب، في الدنيا قبل الآخرة، ألم يقل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣، والمطففين:٢٢]. هذا في الدنيا والآخرة.

ألم يقل رسوله ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا بَدَّلَكَ اللهُ بِهِ مَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ مِنْهُ»[2].

فهيا يا نفس إلى طاعة الله تعالى وترك معصيته، وهيا إلى جنة عالية، قبل فوات الأوان، وانقضاء الزمان.

وقولي معي[3]:

يا نَـداميَ[4] صـحا القلـب صـحا ... فــاطردوا عــني الصِّــبا والمَرَحــا

---

(١) «الروح» (ص ٣٣٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٦٣، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني في «السلسلة الضعيفة» تحت الحديث (رقم ٥).

(٣) أبيات ذكرها ابن رجب في «لطائف المعارف» (ص ١٨٣)، ثم عاد فختم بها كتابه.

(٤) هي: ندامى، جمع نديم، مضافة إلى ياء المتكلم، والنديم: الرفيق المسامر المصاحب.

زجر الوعظ فؤادي فارعوى[1] وأفاق القلب مني وصحا

هزم العزم جنودًا للهوى فاسِدي لا تعجبوا أن صَلُحا

بادروا التوبة من قبل الردى فمناديه ينادينا الوَحا[2]

أنواع محاسبة النفس

قال ابن القيم[3]: «ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: رحم الله عبدًا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر.

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد، وقف أولًا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورًا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى ونظر: هل هو مُعان عليه،

---

(١) ارعوى: من رعَا رِعْوًا ورَعْوَى؛ أي: كفّ وارتدع.

(٢) الوحا: البِدار، فيقال للإسراع: الوحا الوحا؛ أي: البِدار البِدار.

(٣) انظر «إغاثة اللهفان» (١/٨١-٨٢).

وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجًا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه.

فهذه أربعة مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل، فما كل ما يريد العبد فِعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا له من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه، وما يحجم عنه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله تعالى، فلم توقعها على الوجه الذى ينبغي.

وحق الله تعالى في الطاعة ستة أمور، وهي: الإخلاص في العمل، والنصيحة لله فيه، ومتابعة الرسول فيه، وشهود مشهد الإحسان فيه، وشهود منة الله عليه فيه، وشهود تقصيره فيه بعد ذلك كله.

فيحاسب نفسه: هل وَفَّى هذه المقامات حقها؟ وهل أتى بها في هذه الطاعة؟

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح، أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحًا، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به».

وقال[(١)]: «ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة: معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٨٠-٨١).

ويعينه عليها أيضًا: معرفته أن ربح هذه التجارة: سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها: دخول النار، والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحَق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها، فكل نَفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها، يمكن أن يُشترى بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه خسران عظيم، لا يَسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن: «﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران:٣٠]».

أفضل الطرق في معاتبة النفس

وأنجع الطرق وأفضل الأساليب في لوم النفس ومعاتبتها: أن يخاطبها بما في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، من الوعظ والتذكير، والتخويف والتحذير، كأن يقول لها مخوفًا وزاجرًا:

ويحك يا نفس! ألم تسمعي قول الله عز وجل: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠-٥١].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة:١٩٦].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم:٤٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأۡسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء:٨٤].

وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢-١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ * يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم:١٥-١٧].

وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ * سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم:٤٩-٥٠].

وقوله سبحانه وتعالى بعد ذكر أخذه للأقوام الظالمة بالعقوبات الشديدة المتنوعة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقوله سبحانه: ﴿فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذًا وَبِيلًا * فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمًا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا * ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا﴾ [المزمل:١٦-١٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٍ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ * مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ:٤٦].

وقول رسوله ﷺ من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ[1]، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلَّا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ».

قال أبو ذر: «لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ»[2].

وكأن يقول لها مُرَجِّيًا: يا نفس، ألم تسمعي قول مولاك الكريم: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر:٥٣].

وقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الحجر:٤٩].

فهل بلغك هذا النبأ يا نفس؟! وهل بلغك نبأ ما بعده؟!

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [النجم:٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦].

وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴾ [البروج:١٤].

وقول رسوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[3].

وقوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»[4].

---

(١) الأطيط: صوت الرَّحل والإبل من ثقل أحمالها. يُنظر «الصِّحاح». قال في «النهاية»: «أي أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣١٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٩) وغيره.

(٤) متفق عليه.

وقوله ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(١).

وقوله ﷺ في الحديث القدسي العظيم الشهير: عن سعيد بن عبد العزيز، عن ربيعة بن يزيد، عن أبي إدريس الخَوْلاني، عن أبي ذر، عن النبي ﷺ، فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَمُوا، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ، إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ، يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ، يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ». قال سعيد: كان أبو إدريس الخَوْلاني إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٤٢٥٧) وغيره.

ويقول لها مزَهِّدًا: اسمعي وتعقلي قول الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَـٰغٌ ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقوله سبحانه: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [القصص:٦٠].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بذي الحُلَيْفَة، فإذا هو بشاة ميتة شائلة برجلها، فقال:

«أَتُرَوْنَ هَذِهِ هَيِّنَةً عَلَى صَاحِبِهَا؟ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ عَلَى صَاحِبِهَا، وَلَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا قَطْرَةً أَبَدًا»(١).

ويقول لها مُنَدِّمًا: ألم تسمعي عتاب الله عز وجل لعباده بقوله: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴾ [يس:٦٠-٦٢].

وروى أبو نعيم في «الحلية»(٢)، عن أبي المَليح قال: قرأ ميمون (يعني: ابن مِهْران): ﴿ وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾، فرَقّ حتى بكى، ثم قال: ما سمع الخلائق بعَتْب أشدّ منه قط.

يعني: قوله عز وجل: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾. الآيات.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٤١١٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) (٩٢/٤).

ويقول لها: ألم تسمعي عتابه سبحانه للمؤمنين بقوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين(١).

وهكذا، يحاسبها ويعاتبها بكلام ربها سبحانه، وبكلام رسوله ﷺ، ويخاطبها بما تضمنه، من أمر أو نهي، أو وصية وعهد، أو بِشارة أو نَذارة، أو غير ذلك، من ذكر إنعام الله وتفضله على أوليائه، وذكر عقوباته وعدله في أعدائه، وذكر أيامه عز وجل.

فيا ألله ما أعظم أثر ذلك! وما أجل ثمرته! وما أشد تأثيره في النفوس! وما أنجح إصلاحه للقلوب! فليس والله شيء أنجع منه، ولا أكثر تحريكًا لكامن الإيمان ومُخَبَّأ الفطرة منه.

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه:١١٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِ﴾ [الأنبياء:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ

(١) أخرجه مسلم (٣٠٢٧) وغيره.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [الأنعام:٧٠].

قال ابن كثير: «﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾؛ أي: وذكر الناس بهذا القرآن، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة.

وقوله: ﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾؛ أي: لئلا تبسل. قال الضحاك عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والحسن، والسُّدّي: تبسل: تُسْلَم.

وقال الوالبي عن ابن عباس: تُفتضَح. وقال قتادة: تُحبَس. وقال مُرّة وابن زيد: تؤاخَذ. وقال الكَلْبي: تجازَى.

وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى، وحاصلها الإسلام للهلكة، والحبس عن الخير، والارتهان عن درك المطلوب، كما قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨- ٣٩]». اهـ.

وقال شيخ الإسلام: «أي: تُحبَس عما فيه نجاتها في الدارين، فإن المعاصي قَيْد وحبس لصاحبها عن الجَوَلان في فضاء التوحيد، وعن جَنْي ثمار الأعمال الصالحة»[١]. اهـ.

قلت: فقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾؛ أي: أولئك الذين أُخِذوا بذنوبهم، وحُبِسوا بأعمالهم، وارتُهِنوا بما كسبوا، وأُسلِموا للعذاب، ووقعوا في ورطة العقاب، فجُوزوا بما قدموا، فلا يصلهم أي خير، ولا يُدفع عنهم أي شر.

قال ابن الجوزي[٢]: «والله لو أن مؤمنًا عاقلًا قرأ سورة الحديد، وآخر سورة الحشر، وآية الكرسي، وسورة الإخلاص، بتفكر وتدبر، لتصدع من خشية الله قلبه، وتحير في عظمة الله لبه».

ooooo

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٩/١٤).

(٢) «التذكرة في الوعظ» (ص ٧٣-٧٤).

عداوة الشيطان

وتفصيل ذلك: أن يقول لها مثلًا: يا نفس، ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر:٦]؟! فاقبلي يا نفس قول ربك العليم الحكيم بعداوة الشيطان الرجيم لك، واتخذيه عدوًّا، وأنت حقيقة بذلك، فإنه عدو والديك من قبل، ومن كان سببًا في إخراجهما من الجنة.

وإياك يا نفس، أن تتشبهي بهذا العدو اللئيم، في حسده وكبره وتيهه، وتشبهي بأبيك آدم الرحيم، في انكساره لله عز وجل وتوبته واعترافه بظلمه، وتيقظه على أن الخسران كل الخسران في الحرمان من الرحمة من الله والغفران، كما قال الله تعالى عن الوالدين عليهما السلام:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

وانظري يا نفس واستشعري: كيف يكون حال من والى العدو اللئيم وذريته من الشياطين، وترك ولاية الرب الرحمن الرحيم، وأوقعي على قلبك عتابه وتوبيخه لمن هذا حاله، وذلك قوله سبحانه:

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠].

ويقول لها: تخيلي يا نفس وقوع الموت بغتة وأنت على معصية مولاك، وتخيلي وقد انكشف لك أمر الآخرة، وقد عاينت الهلاك والخسار، وتمنيت لو تُعْطَين يومًا واحدًا من أيام الدنيا التي ضيعت آلافًا منها، تستدركين فيه ما فات، وتوجهت إلى ربك الرحمن، وقد فات الأوان، قائلة: رب ارجعون.

فقيل لك: كلا. فكيف يا نفس سيكون حالك؟! وكيف سيكون أسفك؟!

فاجعلي يا نفس هذا منك على بال، لا تغفلين عنه أبدًا، واجعلي نُصْب عينيك دائمًا قول الله تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ * لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

مقارنة بين الدنيا والآخرة

ويقول لها: يا نفس، ما الذي يشغلك عن طاعة ربك الكريم والاستقامة إليه،؟! أليس حب الدنيا والتعلق بشهواتها؟!

بلى يا نفس، إن شهواتها كثيرة جميلة، ولذاتها حلوة خضرة، وهذا شيء لا ينكر، ولكن الله قد جعل لك من مباحها ما لذ وطاب، وكثر وزاد، فخذي منه ما شئت هنيئًا مريئًا، وإياك أن تقربي الحرام فإنه عليك ممنوع، ومهما أخذت منه فإنه مكدر منغص، لا هنيء ولا مريء، مع كل حلاوة مرارة، ومع كل لقمة غصة، وكله عن قريب مقطوع، إما يفارقك وإما تفارقينه، ولا يبقى إلا تبعته وإثمه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران:١٨٥، والحديد:٢٠].

وقال سبحانه حاكيًا عن مؤمن آل فرعون يعظ قومه ويوقفهم على حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴾ [غافر:٣٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ * وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ

﴿ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٣٣-٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ ﴾ [الرعد:٢٦].

يتمتع بها صاحبها برهة ثم يروح ويتركها، ولو عاش فيها ما عاش فلا بد من فراقها، وبقدر التعلق بها تكون الحسرات والآلام عند فقدها.

فهل مثل هذا تباع به الآخرة الباقية، وشهواتها الكثيرة الدائمة، وهي حاصلة متناوَلة لأصحابها دون تعب ولا نَصَب، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ * ٱدْخُلُوهَا بِسَلَـٰمٍ ءَامِنِينَ * وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ * لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر:٤٥-٤٨].

وقال تعالى: ﴿ يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ * ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * لَكُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف:٦٨-٧٣].

وقال جل جلاله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب:٤٤].

وقال جل جلاله: ﴿ سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ [يس:٥٨].

قال ابن سعدي(١): «﴿ سَلَـٰمٌ ﴾ حاصل لهم ﴿ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾، ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿ قَوْلًا ﴾، وإذا سلم عليهم الرب الرحيم حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم

(١) «تفسيره» (٤/٢٤٢).

التحية التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها.

فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبدًا؟! فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك، فنرجو ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم». اهـ.

وقال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢-٢٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ * وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٨].

وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وعن صهيب رضي الله عنه قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وقال:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللَّهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟».

قال: «فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللَّهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللَّهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ ـ يعني إليه ـ وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»(١).

وعن عبد الله بن قيس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١)، والترمذي (٢٥٥٢)، وابن ماجه (١٨٧) بلفظه، وغيرهم.

«جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ»[(١)].

وقال الله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٧٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ـ قال: ـ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا فَأَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا وَمَا فَوْقَ مَا أَعْطَيْتَنَا؟ قَالَ: يَقُولُ: رِضْوَانِي أَكْبَرُ»[(٢)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: أُهْدِيَ للنبي ﷺ جُبَّةُ سُنْدُسٍ، وكان ينهى عن الحرير، فعَجِبَ الناسُ منها، فقال:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ فِي الْجَنَّةِ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا»[(٣)].

والمناديل: ما تُمسح به الأيدي، فمناديل سعد في الجنة أفضل وأرق وألين من حلل الملوك!!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت خليلي ﷺ يقول:

«تَبْلُغُ الْحِلْيَةُ مِنَ الْمُؤْمِنِ حَيْثُ يَبْلُغُ الْوَضُوءُ»[(٤)].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٢/١) وغيره، وقال: «صحيح على شرط الشيخين»، وأقره الألباني في «الصحيحة» (٣٢٤/٣).

(٣) متفق عليه. والذي أهدى الجُبة للنبي ﷺ هو أُكَيْدِرُ دُومَةِ الجَنْدَلِ، وأُكَيْدِرُ اسمه، وهو ملك دُومة الجندل، وكان نصرانيًّا، ودُومة الجندل مدينة بقرب تبوك. انظر «الفتح» (٢٣١/٥).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٢٥٠) وغيره، وهو في «صحيح البخاري»، مختصرًا.

«لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ(١) مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ»(٢).

وقال رسول الله ﷺ وقد سئل عن بناء الجنة:

«لَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَمِلَاطُهَا الْمِسْكُ الْأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَاليَاقُوتُ، وَتُرْبَتُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ دَخَلَهَا يَنْعَمُ وَلَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ وَلَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ، وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ»(٣).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الْجَوَادَ الْمُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ عَامٍ مَا يَقْطَعُهَا»(٤).

هذا، وفي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة:١٧](٥).

وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أي: ما يحمله ظفر.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٣٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٢٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه. ومعنى: (ذُخْرًا)؛ أي: جَعلتُ ذلك لهم مذخورًا. و(بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ) معناه: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم. فإن أضيفت «مِنْ» في أول الكلام؛ أي: «مِنْ بَلْهِ مَا قَدْ أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ» ـ كما في «سنن ابن ماجه» (٤٣٢٨) ـ كان المعنى: من غير ما أطلعكم الله عليه. وانظر ـ إن شئت ـ «الفتح» (٨/٥١٦-٥١٧).

«سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟! فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ. فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ».

قال: «وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]. الآية(١)»(٢).

وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال:

«يُنَادِي مُنَادٍ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣]»(٣).

وفي الحديث عن الجنة والنار: قال رسول ﷺ عن ربه عز وجل: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قال: «[قَالُوا:] يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ

---

(١) وتمامها: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٧) وغيره.

رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قال: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً»[1].

هذا، ووالله لو كانت الآخرة ـ كما قيل ـ خزفًا يبقى، والدنيا ذهبًا يفنى، لكان حريًّا بالعاقل أن يقدم ما يبقى على ما يفنى، كيف وهي ـ كما تقدم ـ مُلك لا يحول، وخُلد لا يزول، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وهو باقٍ أبد الآباد، لا ينقطع ولا يمتنع، دون تكدير ولا تنغيص، كما وصفه ربنا سبحانه بقوله: ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥].

أي: سلمت من كل الآفات، وكملت من كل وجه، ولا يشتهي من دخلها الانتقال عنها.

وبالمقابل، فإن الدنيا تزول وتحول، وهي في قدرها ومدتها كنقطة في بحر بالنسبة إلى الآخرة، كما قال النبي ﷺ:

«وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ - وأشار يحي بالسبابة - فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»[2].

وعن عتبة بن عبد رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ قال:

«لَوْ أَنَّ رَجُلًا يُجَرُّ عَلَى وَجْهِهِ، مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ، هَرَمًا فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ، لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[3].

---

(١) متفق عليه، وسيأتي كاملًا (صفحة ٢٢٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) وغيره.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥/٤) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٤٤٦).

قال المناوي[1]: «لِـما يَرى وينكشف له عيانًا من عظيم نواله وباهر عطائه». اهـ

فيا نفس، يا عاقلة! يا راشدة! وازني بين الأمرين، واختاري إحدى الدارين.

وتعقلي قول ربك العزيز الرحيم سبحانه: ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴾ [القصص:٦١].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف:١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل:٩٦].

فمِيزة العقل النظر في العواقب، وحبس النفس وعقلها ومنعها عما فيه هلاكها وعطبها وخسارها، والمقارنة بين ما يضره وما ينفعه، واختيار وإيثار ما ينبغي إيثاره، وبمثل هذا يتميز الآدمي عن البهائم.

فالعاقل يأمر نفسه وينهاها، ويعاتبها على ترك أمر الله تعالى، ويحذرها عاقبة ذلك، ويدعوها إلى النظر في مآل الأمور.

قال ابن سعدي[2]: «فيقول من أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلًا وتفريطًا! فما النفع الذي انتفعت به؟! وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟! وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرمان والخيبة والخسران؟! وكذلك إذا دعته نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة قال لها: هَبْكِ فعلت ما اشتهيت! فإن لذته تنقضي ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب، ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها».

---

(١) «فيض القدير» (٥/٣٠٨).

(٢) عند تفسيره قول الله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ [النساء:١٠٩].

قال: «وهذا من أعظم ما ينفع العبدَ تدبرُه، وهو خاصة العقل الحقيقي[1]، بخلاف الذي يدّعي العقل وليس كذلك، فإنه بجهله وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة والراحة الراهنة، ولو ترتب عليها ما ترتب!».

التخويف بالنار

هذا يا نفس، واعلمي أن الأمر أخطر من ذلك، والخطب أعظم وأجل، فإن الله عز وجل قد أعد للعصاة نارًا وقودها الناس والحجارة، فيها من الهوان والعذاب والنكال، ما لا يخطر على بال، ولا يعبر عنه بلسان، كما وصفها سبحانه وتعالى فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

وقال سبحانه: ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ * وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ * نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ * ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ * إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ * فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ [الهمزة:٤-٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ * نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر:٣٥-٣٦].

قال الطبري: يعني الأمور العظام.

وروى عن الحسن قال: والله ما أُنذر الناسُ بشيء أدهى منها!

وقال الله سبحانه: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٥٦].

---

(١) يعني: النظر في العواقب والعمل بمقتضى العقل، كما تقدم.

فهل تَقْوَيْن على هذا يا نفس؟! وأنت لا تطيقين حر الهجير! ولا تتحملين أدنى أدنى شيء من نار الدنيا!

وانظري أيضًا، واسمعي وتدبري، وأحضري قلبك، ولا تكوني من الغافلين، الذين يسمعون بأذن واحدة، وينظرون بعين واحدة، ولا يتفكرون ولا يعقلون، وإذا سمعوا لا يعملون بمقتضى ما سمعوا، ولا يتبعون أحسنه، اسمعي يا نفس:

قال الله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر:١٦].

وقال: ﴿ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا * وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [المزمل:١٢-١٣].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا * لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا * لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا * إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا * جَزَآءً وِفَاقًا * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا * وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا * وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا * فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾ [النبأ:٢١-٣٠].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ [القمر:٤٧-٤٨].

وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ * فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر:٧٠-٧٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴾ [الرحمن:٤٣-٤٤].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ * طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ * كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ * كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ * خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ * ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ * ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ * إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴾ [الدخان:٤٣-٥٠].

وقال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق:٣٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ * فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ * وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ * لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ * فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ * فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ * فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ * هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة:٤١-٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴾ [الأحزاب:٦٦].

وقال تبارك اسمه: ﴿ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ. وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢) وغيره.

مقارنة بين الجنة والنار

واسمعي يا نفس ما قاله الله سبحانه وتعالى في حق الدارين، وجعله ذكرى لك لتقارني بين المنزلتين، ويا ألله ما أشد وقعه عليك لو كنت من المتدبرين العاقلين، فاسمعي يا نفس وعِي: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ * جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ * مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ * وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ * هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ * إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ * هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ * هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ * وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ﴾ [ص:٤٩-٥٨]. الآيات.

واسمعي: ﴿ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ * إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء:١٠٠-١٠٣].

واسمعي يا نفس، وقارني، وقرري واختاري قبل فوات الأوان: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا * إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا * وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا * لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا * قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا * لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا ﴾ [الفرقان:١١-١٦].

واسمعي يا نفس: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ [الشورى:٢٢].

ويحك يا نفس! اسمعي وتفكري، واختاري الآن، وأنت في فرصة الإمكان،

ولا تسوِّفي ولا تؤجلي، فالعمر قد ذهب في التسويف والتعليل، والأيام قد انقضت في التأخير والتأجيل.

اسمعي بالله يا نفس: ﴿ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۞ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۞ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ۞ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ [الحج:١٩-٢٣].

نعم يا نفس، قارني! قارني كما علمك الله عز وجل، وانظري وميزي، قال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد:١٥].

وقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴾ [الرعد:٣٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۞ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ۞ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۞ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۞ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۞ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۞ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۞ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات:٤١-٤٩].

ثم قال سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۞ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ۞ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ۞ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ۞ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۞

﴿طَلۡعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ * فَإِنَّهُمۡ لَأٓكِلُونَ مِنۡهَا فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ * ثُمَّ إِنَّ لَهُمۡ عَلَيۡهَا لَشَوۡبًا مِّنۡ حَمِيمٖ * ثُمَّ إِنَّ مَرۡجِعَهُمۡ لَإِلَى ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٠-٦٨].

وعن أنس رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، فلما قضى الصلاة أقبل علينا بوجهه. الحديث. وفيه: ثم قال:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا». قالوا: وما رأيت يا رسول الله قال: «رَأَيْتُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا!!! وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا!!!»(٢).

الحسرة وتمني الرجعة

واعلمي يا نفس، أنك ما زلت في الدنيا في المهلة، فإذا جاءت الآخرة فقد انقضت المدة، وعندها ستتمنين لو كنت ـ والعياذ بالله ـ من العصاة الرجعةَ إلى الدنيا، لتحصيل الإيمان وصالح الأعمال، والتخلص من العذاب ولو يومًا واحدًا، وهيهات! فقد فات الأوان، وحيل بينك وبين ما تشتهين، كما قال الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ * لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

قال ابن كثير: «وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾، قال: كان العلاء بن زياد يقول: ليُنزلْ أحدُكم نفسَه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل».

---

(١) أخرجه مسلم (٤٢٦) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٠١) وغيره، وحسنه الألباني.

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:١٠-١١].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۞ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۞ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٍ ۞ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبِۭ ﴾ [سبأ:٥١-٥٤].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام:٢٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ [الأنعام:٣٠].

فهذه الآيات والله ترتجف منها القلوب، وتقشعر منها الأبدان، لشدة ما تضمنته من تخويف وتيئيس وتنديم، وابتداؤها بلو المحذوفة الجواب ينبئ عن أمر عظيم، وخطر جسيم، وحال لا يوصف هولها، تحصل لو وُقفوا على الله عز وجل وعلى عذابه، والمعنى: ولو ترى إذ وُقفوا على ربهم وإذ وُقفوا على عذابه لرأيت أمرًا هائلًا، وخطرًا ماثلًا، ولرأيت كيف حالُهم وقتَها من الخوف العظيم، والندم الشديد، واستحقاق العذاب والوعيد، وكيف يوبَّخون ويقرَّعون، وبذنوبهم يعترفون ويقرون، ويتمنَّوْن الرد إلى الدنيا لاسترضاء الحق جل وعلا، ولكن هيهات هيهات أن يستجاب لهم!

ثم قال تعالى بعدها: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام:٣١].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

وقال سبحانه: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۞ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

وقال سبحانه: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

أي: لا ينفعهم اعتذارهم عن ترك أوامر الله وعن فعل نواهيه، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾؛ أي: ولا يُطلب منهم أن يقدِّموا العتبى، وهي أن يرجعوا فيطيعوا الله تعالى، فيرضى عنهم، أو هي بمعنى: ولا هم يُعتَبون؛ أي: ولا يُعْطَوْن العتبى، وهي الرضا.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤].

وحتى لو طُلبت منهم العتبى فإنهم لن يستطيعوا أن يقدموها، لكذبهم: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]، ولأنه قد فات أوانها، وذهب زمانها ومكانها، وهو الدنيا، وهذا على ضم الياء في الكلمة الأولى وكسر التاء في الكلمة الثانية؛ أي: (وإن يُستعتَبوا فما هم من المُعتِبين)، وهي موافقة لآية

(الروم) المتقدمة، والأُولى قراءة الجمهور[1]؛ أعني: الفتح فيهما.

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [سبأ:٣٣].

وقال سبحانه: ﴿وَجِا۟ىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ * يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر:٢٣-٢٤].

نسأل الله سبحانه أن يحيي قلوبنا، وأن يزكي نفوسنا، وأن يعجل لنا بتوبة نصوح، يكفر بها عنا سيئاتنا، بمنه وكرمه.

الخسران المبين

يا نفس، أرأيت؟! إنها الندامة الكبرى التي لا ينتفع بها صاحبها، ولا يستجاب له فيها، وإنها الخسارة الكبرى، التي لا تعوض ولا تسترد، إنها خسارة النفس، وخسارة الأهلين، وخسارة العمر، وخسارة مدة الحياة التي لا قدر لها على قِصَرها، ولا خطر لها على قلة أيامها، إذ كان بالإمكان أن يُشترى بها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، في صحبة النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين، في جوار رب العالمين، في مقام أمين، في جنات وعيون، ونزل كريم، عند رحمن رحيم.

فوا أسفا ما أعظمها من خسارة! ووا أسفاه ما أشدها من ندامة!

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ * لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَـٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٥-١٦].

---

(١) كما في «أضواء البيان» (٤٢٣/٢) وغيره.

وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ * وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ [الشورى:٤٤-٤٥].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩].

مثل الحياة الدنيا

واعتبري يا نفس بما ضربه الله تعالى مثلًا للحياة الدنيا، وبما ضربه رسوله ﷺ لها[(١)]، فإن في ضرب الأمثال عبرة وموعظة، وتقريبًا للبعيد، وتصويرًا للمحسوس بالملموس، وللغائب بالشاهد، وللمعاني بالحقائق.

قال الله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًاۖ وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد:٢٠].

قال ابن القيم[(٢)]: «أخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهَدًا لأولى البصائر، وأنها لعب ولهو، تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مَشغلة للنفس مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعًا في غير شيء.

ثم أخبر أنها زينة، زينت للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحسانًا ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفةُ حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها

(١) ولي ـ ولله الحمد ـ كتاب مطبوع في هذا الباب، بعنوان «مثل الحياة الدنيا»، جمعت فيه أمثال الدنيا من القرآن الكريم والحديث الصحيح، وكذلك من كلام العلماء والحكماء، فليطلع عليه من شاء.

(٢) «عدة الصابرين» (ص ١٤٣-١٤٥)، مختصرًا.

ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يفاخر بعضنا بعضًا بها، فيطلبها ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخرة، من مال أو جاه أو قوة أو علم أو زهد.

والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة، فالمذمومة مفاخرة أهل الدنيا بها، والمحمودة أن يطلب المفاخرة في الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وحقيقة المنافسة: الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد، فيحب كل واحد أن يكاثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالًا وولدًا، وأن يقال فيه ذلك[1]، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة، كما قال تعالى: ﴿**أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ**﴾ [التكاثر:١-٤].

والتكاثر في كل شيء، فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه، أو بالعلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوأ حالًا عند الله ممن يكاثر بالمال والجاه، فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر سبحانه عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته، والصحيح ـ إن شاء الله ـ أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عُرْف القرآن حيث ذُكِروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد «الزراع» لذكرهم باسمهم

---

(١) قال ابن سعدي: «وهذا مصداقه وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها، بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرًا ولم يجعلها مستقرًا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى دار كرامته، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة». «تيسير الكريم الرحمن» (١٨٢/٥).

الذي يعرفون به، كما ذكرهم به في قوله: ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ [الفتح:٢٩].

وانما خص الكفار به لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنها دارهم التي لها يعملون ويكدحون، فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات، وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه». اهـ

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو على حصير قد أثّر في جنبه، فقال: يا رسول الله، لو اتخذت فراشًا أَوْثَرَ(١) من هذا؟ فقال:

«يَا عُمَرُ، مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، وَمَا لِلدُّنْيَا وَلِي، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»(٢).

وعن أُبي بن كعب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ ضُرِبَ لِلدُّنْيَا مَثَلًا بِمَا خَرَجَ مِنِ ابْنِ آدَمَ، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرْ مَا يَصِيرُ إِلَيْهِ»(٣).

قوله ﷺ: (قزحه)، قال ابن الأثير: «أي: تَوْبَلَه، من القِزْح وهو التابِل الذي يُطرح فِي القِدْر، كالكمون والكزبرة ونحو ذلك. يقال: قَزَحْتُ القِدْر إذا تركت فيها الأبازير.

والمعنى: أن المطعم وإن تكلف الإنسان التَّنَوُّقَ في صنعته وتطييبه فإنه عائد إلى حال يُكره ويُستقذر، فكذلك الدنيا المحروص على عِمارتها ونَظم

---

(١) أي: ألين وأوطأ.

(٢) أخرجه ابن حبان (٩١/٨ - إحسان) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٩).

(٣) أخرجه ابن حبان (٤٣/٢ - إحسان) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٢).

أسبابها راجعة إلى خراب وإدبار».

وعن المستورِد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ ـ وأشار يحيى بالسبابة ـ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيلًا(٢)، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ الْقَلِيلِ، وَمَثَلُ مَا بَقِيَ مِنْهَا كَالثَّغْبِ ـ يعني: الغَدِير ـ شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ»(٣).

وقال ابن القيم(٤): «مثال للدنيا ولأهلها في اشتغالهم بنعيمها عن الآخرة وما يعقبهم من الحسرات: مَثَل أهلها في غفلتهم مَثَل قوم ركبوا سفينة، فانتهت بهم إلى جزيرة، فأمرهم الملاح بالخروج لقضاء الحاجة، وحذرهم الإبطاء، وخوفهم مرور السفينة، فتفرقوا في نواحي الجزيرة، فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة، فصادف المكان خاليًا، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده، ووقف بعضهم في الجزيرة ينظر إلى أزهارها وأنوارها العجيبة، ويسمع نغمات طيورها، ويعجبه حسن أحجارها، ثم حدثته نفسه بفوت السفينة وسرعة مرورها وخطر ذهابها، فلم يصادف إلا مكانًا ضيقًا فجلس فيه.

وأكبّ بعضهم على تلك الحجارة المستحسنة والأزهار الفائقة فحمل منها حِمله، فلما جاء لم يجد في السفينة الا مكانًا ضيقًا وزاده حِمله ضِيقًا، فصار محموله ثِقلًا عليه ووبالًا، ولم يقدر على نبذه، بل لم يجد من حَمْله بدًّا، ولم يجد له

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٨) وغيره.

(٢) وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

(٣) أخرجه الحاكم (٣٢٠/٤) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٦٢٥).

(٤) انظر «عدة الصابرين» (ص ٢٠٠-٢٠١).

في السفينة موضعًا، فحمله على عنقه، وندم على أخذه فلم تنفعه الندامة، ثم ذبلت الأزهار وتغيرت رائحتها وآذاه نتنها.

وتولج بعضهم في تلك الغياض ونسي السفينة، وأبعد في نزهته حتى أن الملاح نادى بالناس عند دفع السفينة فلم يبلغه صوته لاشتغاله بملاهيه، فهو تارة يتناول من الثمر وتارة يشم تلك الأنوار، وتارة يَعجب من حسن الأشجار، وهو على ذلك خائف من سبع يخرج عليه، غير مُنفكّ من شوك يتشبث في ثيابه ويدخل في قدميه، أو غصن يجرح بدنه، أو عوسج يخرق ثيابه ويهتك عورته، أو صوت هائل يفزعه.

ثم من هؤلاء من لحق السفينة ولم يبق فيها موضع فمات على الساحل، ومنهم من شغله لهوه فافترسته السباع ونهشته الحيات، ومنهم من تاه فهام على وجهه حتى هلك.

فهذا مثال أهل الدنيا في اشتغالهم بحظوظهم العاجلة، ونسيانهم موردهم وعاقبة أمرهم، وما أقبح بالعاقل أن تغره أحجار ونبات يصير هشيمًا! قد شغل باله وعَوّقه عن نجاته ولم يصحبه».

وله:

ولـــو تبصـــــر الدنيـــا وراء ســـتورها ... رأيـــــت خيـــالًا في منـــامٍ سيُصْـــــرَمُ

كحُلمٍ بطَيْفٍ زار في النوم وانقضى الْـ ... ـمنامُ وراح الطيـف والصَّـبُّ مُغـــرمُ

وظِـلٍّ أرتــه الشــمسُ عنــد طلوعهــا ... سَــيَقلِصُ في وقــت الــزوال ويُفصَــمُ

ومُزْنَــةِ صــيفٍ طــاب منهــا مَقيلهــا ... فولّـــت سريعًـــا والحَـــرورُ تَضَـــرَّمُ

ومَطعـــمِ ضـــيفٍ لذّ منـــه مَســـاغُهُ ... وبعـــــد قليـــل حـــاله تلـــك تُعلَـــمُ

كــــذا هـــذه الدنيـــا كـــأحلام نـــائمٍ ... ومِـــن بعـــدها دار القضـــاء سَـــتَقدَمُ

فجُزهــا ممــرًّا لا مقــرًّا وكــن بهــا ... غريبًــا تعــش فيهــا حميــدًا وتسـلَمُ

أو ابــن ســبيلٍ قــال في ظــلِّ دوحــةٍ ... وراح وخـــلّى ظلَّهـــا يَتـــــقسَّمُ

أخـــا ســـفرٍ لا يســـتقرُّ قـــرارهُ ... إلى أن يـــرى أوطانَـــه ويُسَـــلِّمُ

فيا عجبا كم مصـرع وعظـت بـهِ ... بنيها ولكن عـن مصـارعها عَمُـوا

سقتهم كـؤوس الحـب حـتى إذا نَشَـوْا ... سـقتهم كـؤوس السُّـمِّ والقـوم نُـوَّمُ

وأعجب ما في العبـد رؤيـة هـذه الــ ... ـــعظائم والمغـــرور فيهـــا مُتَـــيَّمُ

ومــــا ذاك إلا أنَّ خمـــرة حُبِّهـــا ... لَتَسْـلِبُ عقـل المـرء منـه وَتَصْـلِمُ

وأعجَـبُ مـن ذا أنَّ أحبـــابها الأُلى ... تُـهـــينُ وللأعــدا تُــراعي وتُكــرِمُ

وذلــك برهـــانٌ علــــى أنّ قــدرها ... جنـــــاح بعـــــوض أو أدَقُّ وألأمُ

وحسـبك مـا قـال الرسـول مُـمثِّلًا ... لهـــا ولدار الخــلد والحَــقُّ يُفهَـــمُ

كما يُـدلِيَ الإنسـان في اليَـمِّ أصـبعًا ... ويَنزعُهـــا منـــه فمـــا ذاك يَغنَـــمُ

ألا ليـت شـعري هـل أبيـتنَّ ليـــلةً ... على حـــذر منهـــا وأمـــري مُـــبْرَمُ

قدر الدنيا وقدر الآخرة

وإذا أردت يا نفس أن تعرفي قدر الدنيا عندك وقدر الآخرة، فانظري كم يكون فرحك إذا حصَّلت شيئًا من الدنيا، وانظري كم يكون فرحك إذا حصَّلت شيئًا من الدين ومن عمل الآخرة، وانظري إلى حزنك وألمك إذا فاتك شيء من هذه ، وحزنك وألمك إذا فاتك شيء من تلك.

فيا نفس، كيف يكون حالك إذا فاتك شيء من المال في ربح تجارة، أو فاتك شيء من جاه الدنيا ومناصبها ومتاعها؟! وكيف يكون حالك بالمقابل إذا

فاتتك صلاة الفجر مثلًا؟!

قارني يا نفس، وتنبهي كم للدنيا في قلبك من قدر! وكم للآخرة؟!

وتدبري قول الله جل وعلا: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨].

وقول رسوله ﷺ: «رَكْعَتَا الْفَجْرِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

يعني: ركعتي السنة.

وقوله ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ»(٢).

وقوله ﷺ: «مَنْ هَالَهُ اللَّيْلُ أَنْ يُكَابِدَهُ، أَوْ بَخِلَ بِالْمَالِ أَنْ يُنْفِقَهُ، أَوْ جَبُنَ عَنِ الْعَدُوِّ أَنْ يُقَاتِلَهُ، فَلْيُكْثِرْ مِنْ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فَإِنَّهَا أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ جَبَلِ ذَهَبٍ يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٣).

وقوله ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ»(٤).

وقوله ﷺ: «بَخٍ بَخٍ لِخَمْسٍ مَا أَثْقَلَهُنَّ فِي الْمِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ، وَالْوَلَدُ الصَّالِحُ يُتَوَفَّى لِلْمُسْلِمِ فَيَحْتَسِبُهُ»(٥).

وقوله ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي

---

(١) أخرجه مسلم (٧٢٥) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٥) وغيره.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨٠٠، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني لغيره في «صحيح الترغيب» (١٥٤١).

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه ابن حبان (٢٣٢٨ - موارد)، والحاكم (١/٥١١-٥١٢)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «الصحيحة» (١٢٠٤).

السَّلَامَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ الْمَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ[1]، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ»[2].

وقوله ﷺ: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ»[3].

وقوله ﷺ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»[4].

فانظري يا نفس: كم يفوتك من أرباح الآخرة، وكم يضيع عليك من كنوزها، وأنت لا تحزنين عليه، ولا تتألمين لفواته!! وكأن شيئًا يا نفس لم يكن!!

فهلمَّ يا نفس إلى الأرباح في زمن الإمكان ووقت البِذار، واعملي لنفسك في الدنيا قبل أن تتحسري إذا ما رأيت الفائزين في الآخرة وقد تخلفتِ عنهم.

وقد قال رسول ﷺ: «رَكْعَتَانِ خَفِيفَتَانِ مِمَّا تَحْقِرُونَ وَتَنْفِلُونَ يَزِيدُهُمَا هَذَا ـ يشير إلى قبر ـ فِي عَمَلِهِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»[5].

فلا تضيعي يا نفس أجر الآخرة الكبير، من أجل جناح البعوضة الحقير، هذا لو ملكت الدنيا كلها، وهي لا تساوي جناح البعوضة، فكيف بك وأنت تضيعين الآخرة وأنت فقيرة لا تملكين من الدنيا إلا القليل!

ويحك يا نفس! فبأي شيء وأنت في هذه الحال تتشبثين؟! وعن أي شيء منها للآخرة تتنازلين؟! هلَّا اعتبرت بمن زهدوا في الدنيا وقد ملكوا كنوزها،

(١) (قيعان): جمع قاع، وهو كما في «النهاية»: المكان المستوي الواسع في وَطْأة من الأرض، يعلوه ماء السماء، فيمسكه، ويستوي نباته.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أحمد (٣٣٣/٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٣/٤).

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٢٤) وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (١٣٨٨).

وكانوا فيها أمراءها وملوكها؟! فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ اسْتَخْلَفُوا خَلِيفَةً عَلَيْهِمْ بَعْدَ مُوسَى ﷺ، فَقَامَ يُصَلِّي لَيْلَةً فَوْقَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي الْقَمَرِ، فَذَكَرَ أُمُورًا كَانَ صَنَعَهَا، فَخَرَجَ فَتَدَلَّى بِسَبَبٍ[1]، فَأَصْبَحَ السَّبَبُ مُعَلَّقًا فِي الْمَسْجِدِ وَقَدْ ذَهَبَ».

قال: «فَانْطَلَقَ حَتَّى أَتَى قَوْمًا عَلَى شَطِّ الْبَحْرِ، فَوَجَدَهُمْ يَضْرِبُونَ لَبِنًا (أو: يَصْنَعُونَ لَبِنًا)، فَسَأَلَهُمْ: كَيْفَ تَأْخُذُونَ عَلَى هَذَا اللَّبِنِ؟».

قال: «فَأَخْبَرُوهُ، فَلَبَّنَ مَعَهُمْ، فَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، فَإِذَا كَانَ حِينُ الصَّلَاةِ قَامَ يُصَلِّي، فَرَفَعَ ذَلِكَ الْعُمَّالُ إِلَى دِهْقَانِهِمْ[2]؛ أَنَّ فِينَا رَجُلًا يَفْعَلُ كَذَا وَكَذَا، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ إِنَّهُ جَاءَ يَسِيرُ عَلَى دَابَّتِهِ، فَلَمَّا رَآهُ فَرَّ، فَاتَّبَعَهُ فَسَبَقَهُ، فَقَالَ: أَنْظِرْنِي أُكَلِّمْكَ».

قال: «فَقَامَ حَتَّى كَلَّمَهُ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ، فَلَمَّا أَخْبَرَهُ أَنَّهُ كَانَ مَلِكًا، وَأَنَّهُ فَرَّ مِنْ رَهْبَةِ اللَّهِ رَبِّهِ، قَالَ: إِنِّي لَأَظُنُّنِي لَاحِقٌ بِكَ».

قال: «فَاتَّبَعَهُ فَعَبَدَا اللَّهَ حَتَّى مَاتَا بِرُمَيْلَةِ مِصْرَ (وفي رواية: فَعَبَدَا اللَّهَ، فَسَأَلَا اللَّهَ أَنْ يُمِيتَهُمَا جَمِيعًا، فَمَاتَا)».

قال عبد الله: لو أني كنت ثَمَّ لاهتديت إلى قبريهما بصفة رسول الله ﷺ التي وَصف لنا[3].

---

(١) أي: نزل بحبل أو نحوه.

(٢) أي: رئيسهم. فالدهقان: رئيس القرية، ورئيس الإقليم، والقوي على التصرف مع حدة، ومن له مال والتاجر. «وسيط». وهي بكسر الدال وضمها.

(٣) أخرجه البزار في «مسنده» (٤/٢٦٨/ رقم ٣٦٨٩ - كشف الأستار) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٣)، والرواية الثانية عند الطبراني في «الكبير» (١٠/١٧٥-١٧٦/ رقم ١٠٣٧٠)، وحسن إسناده الهيثمي في «المجمع» (١٠/٢١٩).

ويقول لها: يا نفس، فإن كان ما يشغلك عن الله تعالى والدار الآخرة والعمل لها هو فتنتك بالنساء! فإي والله إنها لفتنة وأيّ فتنة! بل هي أعظم الفتن وأضرها على الرجال، تطيش منها العقول، وتضل منها الألباب، خصوصًا وأنها في هذا الزمان قد تزخرفت غاية الزخرفة لمن أرادها، وتزينت غاية التزين لمن ابتغاها، وصارت مقدورًا عليها، ميسورًا تناولها، فمهما طلبها الطالب وجدها، ومهما ابتغاها الراغب حصلت له.

لكن يا نفس! تنبهي وتيقظي ولا تنسَي أنها جُعلت من ضمن الشهوات الكثيرة التي تُمتحنين بها في الدنيا، بل هي أولها وأشهرها وأشدها، كما قال الله تعالى:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»[١].

فما دهاك يا نفس! ما تلبثين أن تنسَي أنك في هذه الدنيا مبتلاة ممتحنة، ليُنظر ماذا تعملين[٢]، فاعملي إن كنت صادقة لنساء الآخرة، ولا تفوِّتي عليك تلك الخيرات الحسان، التي لو اطلعت إحداهن إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأته ريحًا[٣].

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر الفصل الآتي بعنوان «الدنيا امتحان» (صفحة ٣٨٤).

(٣) كما سيأتي.

يا نفس، فلا تضيعي تلك الشهوات العظيمة المبهرة، التي لا يحاط بوصفها، ولا يمكن لبشر أن يعبر عن قدرها، إلا بالتمثيل والتقريب فقط، فإن خيرات الآخرة من نساء ومآكل ومشارب وغيرها، وإن تشابهت مع ما في الدنيا في الأسماء، فإن ما بينها من التفاوت والبون لا يعلم قدره ووصفه وكنهه إلا الله عز وجل.

فاسمعي إن كنت عاقلة تميزين بين تلك الشهوات والملذات الحقيقية الكاملة الباقية، التي لا يعتريها نقص ولا نغص ولا تكدير، ولا أي آفة من الآفات، وبين هذه الزائلة المنغصة المليئة بالآفات، اسمعي صفاتهن:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ﴾ [النساء:٥٧].

قال ابن القيم(١): «المطهرة: من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق، وكل قذر وكل أذى يكون من نساء الدنيا، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة، وطهر لسانها من الفحش والبَذاء، وطهر طَرْفها من أن تطمح به إلى غير زوجها، وطهرت أثوابها من أن يَعرض لها دنس أو وسخ».

ومن صفاتهن: أنهن جمعن المحاسن كلها، ظاهرًا وباطنًا، خَلْقًا وخُلُقًا، كما قال الله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [الرحمن:٧٠].

أي: خيرات الأخلاق، حسان الوجوه. كذا قال الطبري(٢). وهو قول الجمهور(٣).

---

(١) «حادي الأرواح» (ص ١٤٩).

(٢) «تفسيره» (٢٧/٩١).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/٢٨٠).

وقال ابن القيم واصفًا تلك الخيرات الحسان:

ولله كـم مـن خَـيْرَة إن تبسـمتْ — أضاء لهـا نـور مـن الفجـر أعظـمُ
فيـــا لَذة الأبصــــار إن هي أقبلـــتْ — ويـــا لَذة الأســـماع حـــين تَكَلَّـــمُ
ويا خجلة الغصن الرطيب إذا انثنتْ — ويا خجلـة الفجـرين حـين تَبَسَّـمُ
فـإن كنـت ذا قلـب عليـل بحبهـا — فلـم يبـق إلا وصـلها لـك مَـرهمُ
ولا سـيّما في لثمهــا عنــد ضــمها — وقد صار منها تحت جيدك مِعصمُ
تـراه إذا أبـدت له حسـن وجههـا — يَـلَذ بـه قبـل الوصـال ويَـنعمُ
تَفَكَّهُ منهـا العـينُ عنـد اجتلائهـا — فواكـهَ شـتى طلعهـا لـيس يُعـدَمُ
عناقــدَ مــن كــرمٍ وتفــاحَ جنــةٍ — ورمانَ أغصـانٍ بـه القلـب مُغـرمُ
وللـورد مـا قـد أُلْبِسَـتْه خـدودُها — وللخمر ما قد ضـمه الريـق والفـمُ
تَقَسَّمَ منها الحسـنُ في جَمْـعٍ واحـدٍ — فيـــا عجبـــا مـــن واحـــد يَتقســـمُ
لها فِرَق شـتى مـن الحسـن أجمعـتْ — بجملتهـــا أن السُّـــلُوَّ محـــرمُ
تُــذَكِّر بــالرحمن مــن هــو نــاظرٌ — فينطـــق بالتســـبيح لا يَتلعـــثمُ
إذا قابلَـتْ جـيش الهمـوم بوجههـا — تـولى على أعقابـه الجـيش يُهـزمُ

ومن صفاتهن: صفاء لون أجسادهن وبياضها، وكونها في غاية الحسن والجمال والنعومة والرقة، فشبههن الله باللؤلؤ المكنون، فقال:

﴿ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ [الواقعة:٢٢-٢٣].

قال الطبري[1]: «هن في صفاء بياضهن وحسنهن كاللؤلؤ المكنون الذي قد صِينَ في كِنٍّ[2]».

---

(١) «جامع البيان» (١٠٢/٢٧).

(٢) هو ما يَرُدّ الحر والبرد من الأبنية والمساكن. وقد كَنَنْتُه أَكُنُّه كَنًّا، والاسم: الكِنُّ. «نهاية».

وقال ابن كثير[١]: «أي كأنهن اللؤلؤ الرطب في بياضه وصفائه».

وشبههن سبحانه بالبَيض المكنون، فقال:

﴿ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصافات:٤٨-٤٩].

قال الطبري[٢] بعد أن ذكر أقوالًا في معنى ﴿بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي قول من قال: شُبِّهْنَ في بياضهن، وأنهن لم يَمَسَّهن قبل أزواجهن إنس ولا جان، ببياض البيض الذي هو داخل القشر، وذلك هو الجلدة المُلْبَسة المُحّ[٣] قبل أن تَمَسَّه يَدٌ أو شيء غيرها، وذلك لا شك هو المكنون، فأما القشرة العليا فإن الطائر يمسها، والأيدي تباشرها، والعش يلقاها». اهـ.

قال ابن القيم:

ورأَوْا على بُعــدٍ خيامًــا مشــرفا ... تٍ مشــرقاتِ النــور والبرهــانِ

فتيممــوا تلــك الخيــام فآنســوا ... فــيهن أقمــارًا بــلا نقصــانِ

من قاصرات الطرف لا تبغي سوى ... محبوبهــا مــن ســائر الشــبانِ

قَصَـرَتْ عليه طَرْفَها مـن حسنهِ ... والطَـرْفُ منــه مُطلــقٌ بأمــانِ

يَحار منـه الطَـرْفُ في الحسـن الذي ... قــد أُعْطِيَــتْ فــالطَرْفُ كالحـيرانِ

والطَرْفُ يشرب من كـؤوس جمالها ... فــتراه مثــل الشــارب النَّشــوانِ

وشبههن سبحانه وتعالى بالياقوت والمرجان، فقال:

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ [الرحمن:٥٨].

أي: كالياقوت في صفائه، والمرجان في بياضه[٤].

---

(١) «تفسيره» (٢٧٨/٤).

(٢) «جامع البيان» (٣٧/٢٣).

(٣) المُحّ: خالص كل شيء، وما في جوف البيضة من صفرة أو من صفرة وبياض. «وسيط».

(٤) كما في «تفسير الطبري» وغيره.

وقال الشوكاني[1]: «شبههن سبحانه في صفاء اللون مع حمرته بالياقوت والمرجان».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى إِثْرِهِمْ كَأَشَدِّ كَوْكَبٍ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا يُرَى مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ لَحْمِهَا مِنَ الْحُسْنِ، يُسَبِّحُونَ اللهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا، لَا يَسْقَمُونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، وَلَا يَبْصُقُونَ، آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلُوَّةُ؛ [الْأَلَنْجُوجُ[2]: عُود الطِّيب]، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ»[3].

وفي لفظ: «لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ، عَلَى كُلِّ زَوْجَةٍ سَبْعُونَ حُلَّةً، يَبْدُو مُخُّ سَاقِهَا مِنْ وَرَائِهَا»[4].

وقال ابن القيم:

والساق مثل العاج ملموم بهِ	مُخُّ العظام تناله العينانِ
والريح مسك والجسوم نواعمٌ	واللون كالياقوتِ والمرجانِ

ومن صفاتهن: حسن الصدور ونعومتها، بثُدِيٍّ تفلّكتْ، كأنها رمان من أحسن الرمان.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۞ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۞ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٣].

ومعنى (كواعب أترابًا): أي نواهد في سن واحدة. كما قال الطبري وغيره[5].

---

(١) «فتح القدير» (١٤٢/٥).

(٢) قال الحافظ في «الفتح» (٣٦٧/٦): «هو العُود الذي يُتَبَخَّرُ به، ولفظ الْأَلَنْجُوجِ هنا تفسير الْأَلُوَّةِ، والعُود تفسير التفسير».

(٣) أخرجه البخاري (٣١٨/٦ و٣١٩ و٣٢٠ و٣٦٢ - فتح)، والزيادة له، ومسلم (٢٨٣٤)، وغيرهما.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٥٢٢ و٢٥٣٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) «جامع البيان» (١٢/٣٠).

قال ابن القيم:

والقَدّ[١] منهـا كالقضـيب الـلَّدْنِ في حُسْــن القَــوَام كأوسـط القضـبانِ

في مَغــرس كالعــاج تحســب أنــهُ عالي النَّقــا[٢] أو واحــدُ الكثبــانِ

لا الظهــرُ يلحقهــا ولــيس ثُـدِيُّها بلَواحـــقٍ للـــبطنِ أو بَـــدْوانِ

لكـــنهن كواعـــبٌ ونواهـــدٌ فثُـــدُيُّهن كـــألطف الرمـــانِ

والجِيــد ذو طــول وحُسْــنٍ في بيــا ضٍ واعتــدالٍ لــيس ذا نُكــرانِ

ومن صفاتهن: أنهن أبكارٌ لم يُفْضَضْنَ، وشاباتٌ على سن واحدة لا يَهرمن، وغَنِجاتٌ مغنوجات متحببات لأزواجهن على كل حال، وخاصة حال القرب والوصال، فكملت بهذه الصفات محاسنهن.

وكملت لَذة الرجل بكونهن أبكارًا، إذ أن لَذته بوَطْء من لم يطأها أحد سواه أعظم وأكبر، وهذا ظاهر[٣].

وكملت لَذته أيضًا بكونهن شابات، لا عجائز فلا يُشْتَهَيْن، ولا صغار فلا يُطأن.

هذا بالإضافة إلى كونهن حسنات التبعل، وبذا يتم له أحسن وصال وألذه وأشهاه.

قال الكريم المنان سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۞ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۞ عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۞ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٨].

فالأبكار: العذارى. كما قال سبحانه: ﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ [الرحمن: ٥٦ و٧٤].

وأما العُرُب: فالغَنِجات المتحببات إلى أزواجهن بحسن التبعل، وهن جمع،

---

(١) القَدّ: القامة أو القَوَام. والقضيب اللَّدْن: الغصن اللَّيِّن.

(٢) النَّقَا: الكثيبُ من الرَّمْل.

(٣) انظر ـ إن شئت ـ «توضيح المقاصد/ شرح نونية ابن القيم» (٢/٥٥٥).

واحدتهن عَروب[1].

قال ابن القيم[2]: «العُرُب: جمع عَروب، وهي التي جمعت إلى حلاوة الصورة حُسْنَ التأني والتبعل والتحبب إلى الزوج، بدَلِّها وحديثها وحلاوة منطقها وحسن حركتها».

وقال:

وهي العَــروب بشــكلها وبــدَلِّها ... وتحبــــبٍ للـــــزوج كل أوانِ

وهي الــتي عنـد الجمـاع تزيـد في ... حركاتهـــا للعـــين والأذنــــانِ

لطفًـــا وحُسْـــنَ تَبَعُّـــلٍ وتَغَـــنُّجٍ ... وتحبـــبٍ تفســـيرُ ذي العرفـــانِ

تلــك الحــلاوة والملاحــة أوجبــا ... إطــلاق هــذا اللفــظ وَضْـعَ لســانِ

فملاحــة التصــوير قبــل غُناجهــا ... هي أول وهي المحـــل الثـــاني

فإذا همـا اجتمعـا لصَـبٍّ وامِـقٍ[3] ... بلغـــتْ بـــه الـــلذاتُ كلَّ مـــكانِ

وأما الأتراب: فهن المستويات على سن واحدة، وهي جمع تِرْب[4].

قال ابن القيم[5]: «والمعنى من الإخبار باستواء أسنانهن: أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن، ولا ولائد لا يُطِقْنَ الوَطء، بخلاف الذكور فان فيهم الولدان وهم الخدم».

وقال:

أتـــرابٌ سِـــنٌّ واحـــدٌ متماثـــلٌ ... سِـــنُّ الشـــباب لأجمـــلِ الشـــبانِ

---

(١) «تفسير الطبري» (١١٠/٢٧)، و«تفسير ابن كثير» (٢٩٢/٤)، و«تفسير الشوكاني» (١٥٣/٥).

(٢) «روضة المحبين» (ص ٢٤٥). وانظر ـ إن شئت ـ «حادي الأرواح» (ص ١٥٦).

(٣) الصَّب: العاشق. والوامق: المحب.

(٤) انظر «تفسير الطبري» (١٠٩/٢٧).

(٥) «حادي الأرواح» (ص ١٥٢).

بِكْرٌ فلم يأخذ بَكَارتها سوى الـــ ـمحبوبِ مـن إنـسٍ ولا مـن جـانِ

ومن صفات الحور العين: أن الله عز وجل وهبهن أصواتًا جميلة، لم تسمع الخلائق بمثلها قط.

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ(١):

«إِنَّ أَزْوَاجَ أَهْلِ الْجَنَّةِ لَيُغَنِّينَ أَزْوَاجَهُنَّ بِأَحْسَنِ أَصْوَاتٍ سَمِعَهَا أَحَدٌ قَطُّ، إِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ:

نَحْـــنُ الْخَـــيْرَاتُ الْحِسَـــانْ
أَزْوَاجُ قَـــــوْمٍ كِـــــرَامْ
يَنْظُـــرْنَ بِقُـــرَّةِ أَعْيَـــانْ

وَإِنَّ مِمَّا يُغَنِّينَ بِهِ:

نَحْـنُ الْخَـالِدَاتُ فَـلَا يَمُتْنَـهْ
نَحْـنُ الْآمِنَـاتُ فَـلَا يَخَفْنَـهْ
نَحْـنُ الْمُقِيمَـاتُ فَـلَا يَظْعَنَّـهْ

وقال الله تعالى: ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ۞ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ [الزخرف: ٦٨-٧٠].

وقال تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴾ [الروم:١٥].

ومعنى ﴿فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾؛ أي: في الرياحين والنباتات الملتفة، وبين

(١) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٣٥/٢/ رقم ٧٣٤) بلفظه، وفي «الأوسط» (١٤٩/٥/ رقم ٤٩١٧)، وغيرُه. وهو في «صحيح الجامع» (١٥٥٧)، وانظر (١٦٠٢).

أنواع الزهر في الجنان يُسرون، ويُلذّذون بالسماع وطيب العيش الهنيّ. قاله الطبري[1].

وقال ابن كثير[2]: «قال مجاهد وقتادة: يُنَعَّمون. وقال يحي بن أبي كثير: يعني سماع الغناء. والحَبْرة أعم من هذا كله».

وقال ابن القيم مشوقًا إلى سماع غناء الحور العين، محذرًا من سماع الموسيقى والألحان، وغناء أتباع الشيطان:

واهًـا لذيّـاك السـماع وطيبـهِ ... مـن مثـل أقمـارٍ على أغصـانِ
واهًـا لذيّـاك السـماع فكـم بـهِ ... للقلـب مـن طَـرَب ومـن أشـجانِ
ما ظنُّ سـامعِه بصـوتٍ أطيـبِ الـ ... أصوات مـن حـور الجنـان حسـانِ
نَـزِّهْ فـؤادك إن أردت سـماع ذَيَّـ ... ـاكَ الغنـاءِ عـن هـذه الألحـانِ

فصل

واعلمي يا نفس أن شأن الحور العين، ورفعة قدرهن، وعظمة جمالهن، فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال.

فأعظِم بذلك الجمال! الذي لا يبلى ولا يزول، ولا ينقص، بل يزداد ويدوم، كما جاء في الحديث الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ، فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»[3].

---

(١) «تفسيره» (١٩/٢١).

(٢) «تفسيره» (٤٢٨/٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).

وأعظِم بحسن غَنِجَة شَكِلَة! لو اطلعتْ لملأتْ ما بين الجنة والأرض من طيب ريحها، ولأضاءت ما بينهما من نورها، وإن خمارها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، كما روى أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«لَرَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ غَدْوَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَقَابُ قَوْسِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَوْ مَوْضِعُ قِيدٍ ـ يعني: سَوْطَه ـ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»(١).

ولابن القيم:

يا مُطْلِقَ الطَرْف المعذب في الأُلى ... جُرِّدن عن حسن وعن إحسانِ
لا تسبينّك صورة من تحتها الدَّ ... اء الدويُّ تبوء بالخسرانِ
قَبُحَتْ خلائقُها وقَبُح فعلُها ... شيطانةٌ في صورة الإنسانِ
تنقاد للأنذال والأرذالُ هم ... أكْفاؤها من دون ذي الإحسانِ
ما ثَمّ من دين ولا عقل ولا ... خُلُق ولا خوف من الرحمنِ
فجمالها قشر رقيق تحتهُ ... ما شئت من عيب ومن نقصانِ
أما جميلات الوجوه فخائنا ... تٌ بعولتَهن وهُنّ للأخدانِ
والحافظات الغيب منهن التي ... قد أصبحت فردًا من النسوانِ
فانظر مصارع من يليك ومَنْ ... مِنْ قبلُ من شِيبٍ ومن شبانِ
وارغب بعقلك أن تبيع العاليَ الـ ... ـباقي بذا الأدنى الذي هو فانِ
إن كان قد أعياك خَوْدٌ مثلما ... تبغي ولم تظفر إلى ذا الآنِ

---

(١) أخرجه البخاري (١٥/٦ - فتح)، ومسلم (١٨٨٠)، مختصرًا، وغيرهما.

فاخطِب من الـرحمن خَـوْدًا ثـم قَـدِّ مْ مهرهــا مـــا دمـــت ذا إمـــكانِ
ذاك النكاح عليك أيسـرُ إنْ يكـن لـــك نســبة للعلـــم والإيمـــانِ
والله لـــم تخـــرج إلى الدنيـــا لِـــلَذّ ةِ عيشــــها أو للحطـــام الفـــاني
لكن خرجت لكي تُعِـدّ الـزاد للــ أخـرى فجئـت بـأقبح الخسـرانِ
أهملت جمع الـزاد حـتى فـات بـل فــات الذي ألهــاك عــن ذا الشــانِ
والله لــو أنّ القلــوب ســليمةٌ لتقطعــت أســفًا مــن الحرمــانِ
لكنهـا سـكرى بحـب حياتهـا الدّ نيــا وســوف تفيــق بعــد زمــانِ
يـا غافـلًا عمـا خُلقـتَ لَهُ انتبـهْ جَـدّ الرحيـلُ فلسـتَ باليقظـانِ
سـار الرفـاق وخلفـوك مـع الأُلى قَنِعوا بـذا الحـظّ الخسيس الفـاني
ورأيـت أكـثر مـن تـرى متخلفًـا فتَبِعْـــتَهم ورضِـــيت بالحرمـــانِ
لَكِن أتيـت بخُطَّـتَيْ عَجْـز وَجَهْــ ــلٍ بعـد ذَا وصـحبتَ كلّ أَمَـانِ
منّتك نفسُـك باللّحـاق مـع القعـو د عــن المســير وراحــة الأبــدانِ
ولسوف تعلم حين ينكشـف الغِطـا مــاذا صــنعت وكنــت ذا إمــكانِ
مــا هاهنــا والله مــا يَسْـوَى قُــلَا مــةَ[١] ظفـرِ واحـدةٍ تُـرى بجنـانِ
ونَصـيفها خـير مـن الدنيـا ومـا فيهـــا إذا كانـــت مـــن الأثمـــانِ
مـا هاهنـا إلا النِّقـار[٢] وسَـيِّئ الــ أخـلاق مـع عيـب ومـع نقصـانِ
هـــم وغـــم دائـــم لا ينـــتهي حــتى الطــلاقِ أو الفــراقِ الثــاني
واللهُ قــد جعــل النســاء عوانيًــا شرعًا فأضـحى البعـل وهـو العـاني

(١) قُلَامة الظُّفْر: ما قُطِعَ من طَرَفه. ولا يُساوي قُلَامةَ ظُفْرٍ: أي هو حقير لا قيمة له.

(٢) أي: النزاع والخصام.

لا تـــؤثرِ الأدنى على الأعلى فـــإنْ | تفعـــلْ رجعـــتَ بذلـــة وهـــوانِ
وإذا بَـــدَتْ في حُلـــةٍ مِـــنْ لُبْســـها | وتمايلـــتْ كتمايـــل النَّشـــوانِ
تهـــتز كالغصـــن الرطيـــب وحَملـــهُ | وردٌ وتفـــــاحٌ على رمـــــانِ
وتبخـــترت في مشـــيها ويحـــق ذا | ك لمثلهـــا في جنـــةِ الحيـــوانِ

التحذير من الزنا

ويقول لها: يا نفس، احذري ثم احذري، لا تقربي الزنا، واهربي من مقدماته، وإياك أن تختلي بامرأة لا تحل لك، فإن الخلوة أكبر سبب للوقوع في الفاحشة، فلا تعرضي ذاتك لمقت الله تعالى وغضبه وعقابه وعذابه في الدنيا والآخرة.

يا نفس أترضِين الزنا لأهلك؟!! إذًا فلا تَرْضِنَّه لغيرك!

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء:٣٢].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ناهيًا عباده عن الزنا وعن مقاربته، وهو مخالطة أسبابه ودواعيه: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ ﴾؛ أي: ذنبًا عظيمًا، ﴿وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾؛ أي: وبئس طريقًا ومسلكًا».

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: إن فتى شابًّا أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقالوا: مَهْ، مَهْ. فقال: «ادْنُهْ». فدنا منه قريبًا. قال: فجلس. قال: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ» . قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟» قال: لا والله يا رسول الله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟» قال: لا والله،

جعلني الله فداءك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قال: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟» قال: لا والله، جعلني الله فداءك. قال: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قال: فوضع يده عليه وقال: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ». فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: إِمَامٌ [عَادِلٌ]، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ، اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»(٢).

وعن المغيرة بن شعبة قال: قال سعد بن عبادة: لو رأيت رجلًا مع امرأتي لضربته بالسيف غير مُصْفِحٍ(٣) عنه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال:

«أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَنَ». الحديث(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ»(٥).

وقال ﷺ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٢١١) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٧٠).

(٢) متفق عليه.

(٣) أي: غير ضارب بصَفْحِ السيف، وهو جانبه، بل أضربه بحَدّه. «نووي».

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) بعض حديث، متفق عليه.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴾ [المؤمنون:٥-٧، والمعارج:٢٩-٣١].

يا نفس، وكوني فيمن ترَين من النساء ـ كما قيل ـ على إحدى حالين:

الأولى: إذا رأيت امرأة قد ابتُليت بمرض امرأة العزيز: قد تجملت وتطيبت وتبرجت، ولسان حالها يقول: هيت لك!

فمع هذه تصرفي كما تصرف نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام، ولك فيه قدوة، وقولي كما قال: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [يوسف:٢٣].

الثانية: إذا رأيت امرأة عفيفة: قد تسترت وتحجبت، ولكن ألجأتها الضرورة إلى الخروج لقضاء حوائجها، ولسان حالها يقول: ﴿لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴾ [القصص:٢٣].

فمع هذه تصرفي كما تصرف كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام، وابذلي المساعدة باحتشام وأدب وعفة، ثم امضي وتولَي: ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾ [القصص:٢٤].

ثم اعتبري يا نفس، بما وصلت العفة بيوسف عليه السلام من الرفعة والعلو والشرف! وبما وصلت بموسى عليه السلام من المأوى الأمين والزوج الكريم!

ويا نفس، احذري كل ما يقربك من الفاحشة، من نظر ومس ونحوه، واحذري مجالسة أهل الخنا والفجور، وأهل الزنا والخمور، واحذري سماع الموسيقى والأوتار، والطبل والمزمار، والغناء والأشعار، التي تزين الفسق، وتمدح العشق، وتصف النساء، فإن الغِنا ـ كما قيل ـ رقية الزنا.

قال شيخ الإسلام[1]: «ومن أقوى ما يهيج الفاحشة إنشاد أشعار الذين في قلوبهم مرض من العشق ومحبة الفواحش ومقدماتها بالأصوات المطربة، فإن المغني إذا غنى بذلك حرك القلوب المريضة إلى محبة الفواحش، فعندها يهيج مرضه ويقوى بلاؤه، وإن كان القلب في عافية من ذلك جعل فيه مرضًا، كما قال بعض السلف: الغناء رقية الزنا.

ورقية الحية هي ما تُستخرج بها الحية من جحرها، ورقية العين والحُمَّة هي ما تستخرج به العافية، ورقية الزنا هو ما يدعو إلى الزنا ويُخرج من الرجل هذا الأمر القبيح والفعل الخبيث».

OOOOO

(١) «مجموع الفتاوى» (١٥/٣١٣-٣١٤).

ويقول لها: يا نفس، أين ذكرك لله تبارك وتعالى؟! أين ذكرك لربك ومليكك عز وجل؟! أين ذكرك لمولاك المنعم المتفضل عليك؟!

يا نفس، أين وردك من القرآن الكريم والأذكار؟!

يا نفس، إياك أن تشابهي قومًا نسوا الله فنسيهم وأنساهم أنفسهم، فأهملوا مصالحها ومنافعها، جزاء وفاقًا، كما قال سبحانه:

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾ [الحشر:١٩].

يا نفس، إياك أن تطول بك الغفلة، ويستمر بك البعد، وترضَي بهذه الحال، فيسيطر عليك الشيطان، فلا تجدي منه فِكاكًا، ولا عن شره مصرفًا، كما قال الله تبارك وتعالى:

﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة:١٩].

فالتزمي وردك من التلاوة، ولا تتركيه يومًا واحدًا، فإن ذلك يجلب لك الخير والبركة في وقتك وقولك وعملك، وإياك أن تنشتغلي عنه بأعمالك مهما كانت، ولو كانت في ظاهرها أعمالًا دينية، فضلًا عن الأعمال الدنيوية!

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴾ [فاطر:٢٩].

فكيف تفوتك يا نفس هذه الأرباح وأنت أنت في حرصك على الدنيا ومتاعها الفاني، وحرصك على جمع المال، وحذقك في التجارة؟!

واحذري يا نفس أن تكوني في القوم الذين شكاهم النبي ﷺ إلى ربه، وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان:٣٠].

فلا تهجري يا نفس كتاب ربك، ولا تعرضي عنه، واختاري راحة قلبك وطُمَأنينته، وسعادتك في الدنيا والآخرة، وإلا فهو الهم والغم والضنك والظلمة والعمى والوحشة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤].

فإياك إياك يا نفس والإعراض عن كتاب ربك وهجره، إياك والإعراض عن الاستشفاء به لأدوائك وأدواء أمتك، وإياك وهجر سماعه وتلاوته، وتدبره وتعلمه، وإياك وهجر العمل به وتحكيمه في جميع أمور دينك ودنياك.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَذْكِرُوا الْقُرْآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا[١] مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، مِنَ النَّعَمِ بِعُقُلِهَا»[٢].

قال المناوي[٣]: «(استذكروا القرآن)؛ أي: استحضروه في قلوبكم، وعلى ألسنتكم، واطلبوا من أنفسكم المذاكرة، والسين للمبالغة».

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«تَعَاهَدُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقُلِهَا»[٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ الْقُرْآنِ، كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ الْمُعَقَّلَةِ، إِنْ عَاهَدَ عَلَيْهَا أَمْسَكَهَا، وَإِنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ»[٥].

---

(١) أي: تفلتًا، كما في رواية أبي موسى رضي الله عنه الآتية.

(٢) بعض حديث، متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) «فيض القدير» (٤٨٨/١).

(٤) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٥) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

قال الصنعاني[1]: «والإبل إذا انفلتت من عقالها فإنها لا تكاد تُلحق، ولعل النكتة في التمثيل وخصوصية الإبل الإشارة إلى أن كلام الله تعالى لعلو شأنه، وعظمة مكانه، وكثرة علومه، وتتابع أنواره، لا تسكن قلوب الرجال إلا بالشد عليه وقوة الإمساك بالتلاوة له، وإلا فإن عظمة شأنه تقتضي مع تلوث العباد بالمعاصي، وعدم عملهم بعلومه، أن لا يقر في قلوبهم ولا تكون صدورهم مساكنه، فكأنه ينفلت منها لولا عقاله بدوام التلاوة، فهذه والله أعلم هي نكتة الخصوصية في التمثيل».

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨].

فبالقرآن لا بسواه تطمئن القلوب وتسكن وترتاح، وتحضرها الأفراح، وتذهب عنها الأتراح، إذ فيه دون ما سواه الهدى واليقين دون الريب والاختلاف.

وإن كان المقصود بالذكر في الآية ذكر الله المعروف، فلن يختلف الأمر عما تقدم، لأن تلاوة القرآن وسماعه رأس الأذكار وأعظمها.

وبتلاوة القرآن العظيم يثبت الإيمان في القلب، فلا تزعزعه الفتن، ولا تميله الشهوات، ولا تؤثر فيه المغريات، ولا تعمل فيه الشبهات.

قال الله سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ﴾ [الفرقان:٣٢].

وقال سبحانه: ﴿ وَكُلّٗا نَّقُصُّ عَلَيۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَقُّ وَمَوۡعِظَةٞ وَذِكۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [هود:١٢٠].

والأحاديث في فضل وثواب تلاوة القرآن كثيرة مشهورة، فمن ذلك:

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «التنوير» (٥/٥٢)، بحذف يسير

«يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ، وَارْتَقِ، وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أوصني. قال:

«أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ، فَإِنَّهُ رَأْسُ الْأَمْرِ كُلِّهِ». قلت: يا رسول الله، زدني. قال:

«عَلَيْكَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وذِكْرِ اللهِ، فَإِنَّهُ نُورٌ لَكَ فِي الْأَرْضِ، وَذُخْرٌ لَكَ فِي السَّمَاءِ»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُحِبَّ اللهَ وَرَسُولَهُ فَلْيَقْرَأْ فِي الْمُصْحَفِ»(٤).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ونحن في الصُّفَّة(٥)، فقال:

«أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى بُطْحَانَ، أَوْ إِلَى الْعَقِيقِ، فَيَأْتِيَ مِنْهُ بِنَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ، [زَهْرَاوَيْنِ](٦)، فِي غَيْرِ إِثْمٍ، وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟»، فقلنا: يا رسول

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) وغيره، وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) بعض حديث، أخرجه مسلم (٢٦٩٩) وغيره.

(٣) بعض حديث، أخرجه ابن حبان (٣٦١) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه ابن شاهين في «الترغيب» (١٩١)، وابن المقرئ في «المعجم» (٤٩٨)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «الصحيحة» (٢٣٤٢).

(٥) (الصفة)؛ أي: في موضع مظلل من المسجد الشريف كان فقراء المهاجرين يأوون إليه، وهم المُسَمَّون بأصحاب الصفة، وكانوا أضياف الإسلام. (يغدو)؛ أي: يذهب في الغُدْوة، وهي أول النهار. (بطحان): اسم موضع بقرب المدينة. (العقيق): واد بالمدينة. (كوماوين): الكوماء من الإبل: العظيمة السنام. «عبد الباقي».

(٦) أي: ذواتي البياض الناصع الصافي المشرق.

الله، نحب ذلك. قال:

«أَفَلَا يَغْدُو أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَيَعْلَمُ أَوْ يَقْرَأُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَثَلَاثٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ثَلَاثٍ، وَأَرْبَعٌ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَرْبَعٍ، وَمِنْ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الْإِبِلِ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ، وَلَامٌ حَرْفٌ، وَمِيمٌ حَرْفٌ»(٢).

والمراد بالحرف في الحديث: الكلمة، كما نقله ابن الجَزَري في «النشر» عن شيخه ابن كثير، وصححه، وهو اختيار شيخ الإسلام، وليس هنا موضع بسط تحقيقه، هذا، وأكثر الناس على خلافه! فليتنبه.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَامَ بِعَشْرِ آيَاتٍ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ الْغَافِلِينَ، وَمَنْ قَامَ بِمِائَةِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْقَانِتِينَ، وَمَنْ قَامَ بِأَلْفِ آيَةٍ كُتِبَ مِنَ الْمُقَنْطِرِينَ»(٣).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرَّيْحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٣)، وأبو داود (١٤٥٦)، والزيادة له، وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) متفق عليه.

(الأترجة): قال في «الكوكب الوهاج»[1]: «هي ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحُسن اللون، يشبه البِطِّيخ».

وقال في «فتح المنعم»[2]: «الأولى القول بأن اختيار الأترجة للتمثيل بها، لأنها كانت أحسن الفواكه عند المخاطبين لونًا وطعمًا وريحًا.

وهذا التشبيه يبرز المعنى المعقول الصِّرف في صورة المحسوس المشاهَد، فكلام الله تعالى له تأثير في نفس العبد وأعماقه، وفي ظاهره وسلوكه، والعباد في ذلك متفاوتون، فمنهم من لا نصيب له البتة، وهو المنافق الحقيقي الذي لا يقرأ، ومَثَله كالحنظلة، ومنهم من يتأثر ظاهره دون باطنه، وهو المرائي بالقراءة فهو لا يستفيد وقد يستفاد منه، ومَثَله كالريحانة، ومنهم من يتأثر بكلام الله باطنه دون ظاهره، فلا يفيد من بجواره، وهو المؤمن الذي لا يقرأ، ومَثَله مثل التمرة، ومنهم من يتأثر بالقرآن باطنه وظاهره، يستفيد ويفيد، وهو المؤمن الذي يقرأ، ومَثَله مثل الأترجة».

وقال ابن رجب[3]: «ومن أعظم ما يتقرب به إلى الله تعالى من النوافل كثرة تلاوة القرآن وسماعه بتفكر وتدبر وتفهم.

قال خباب بن الأَرَتِّ لرجل: تقرب إلى الله ما استطعت، واعلم أنك لن تتقرب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه.

لا شيء عند المحبين أحلى من كلام محبوبهم، فهو لذة قلوبهم، وغاية مطلوبهم.

قال عثمان: لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». اهـ.

وقال ابن أبي شيبة[4]: حدثنا ابن عُلَيّة، عن يونس قال: كان من خُلُق الأولين النظر في المصاحف.

---

(١) (١٣٤/١٠).

(٢) (٦٠٧/٣).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (ص ٣٤٢)

(٤) «المصنف» (٥٢٥/١٥، وفي مواضع أخر).

وقال يحي بن معاذ: أشتهي من الدنيا شيئين: بيتًا خاليًا، ومصحفًا جيد الخط أقرأ فيه القرآن[1].

فهذه يا نفس أماني الكبار ورغباتهم! فأين أنت منهم؟! والمصاحف بين يديك، بطبعاتها الكثيرة، وأحجامها المتنوعة، وخطوطها الجميلة المتقنة!

وقال الشاطبي في أول «لاميته»[2] الشهيرة:

وإنّ كتـــابَ اللهِ أوثـــقُ شـــافعٍ ... وأغـــنى غَنَـــاءٍ واهبًـــا مُتَفَضِّـــلَا
وخـــيرُ جلـــيسٍ لا يُمَـــلُّ حديثُـــهُ ... وتَـــرْدَادُهُ يَـــزدادُ فيـــه تَجَمُّـــلَا
وحيـــثُ الفـــتى يَرْتـــاعُ في ظُلُمَاتِـــهِ ... مـــن القـــبرِ يَلْقَـــاهُ سَـــنًا مُـــتَهَلِّلَا
هنالـــك يَهْنِيـــهِ مَقِـــيلًا وروضـــةً ... ومـــن أجلـــه في ذِرْوَةِ العِـــزِّ يُجْـــتُلَى
يُناشـــدُ في إرضـــائه لحبيبِـــهِ ... وأَجْـــدِرْ بـــه سُـــؤْلًا إليـــه مُوَصَّـــلَا
فيـــا أيهـــا القـــاري بـــه مُتَمَسِّـــكًا ... مُجِـــلًّا له في كل حـــالٍ مُـــبَجِّلَا
هنيئًـــا مريئًـــا والداك عليهمـــا ... ملابـــسُ أَنـــوارٍ مـــن التـــاجِ والحُـــلَا
فما ظـــنكمْ بالنَّجْـــلِ عنـــد جزائـــهِ ... أولئـــك أهـــلُ اللهِ والصـــفوةُ المَـــلَا
أُولُو البِرِّ والإحسانِ والصبرِ والتُّـقَى ... حُلَاهُمُ بهـا جـاء القُـرَانُ مُفَصَّـلَا
عليكَ بها ما عشـتَ فيهـا مُنَافِسًـا ... وَبِعْ نفسَكَ الدنيـا بأنفاسـها العُـلَا

فاقرئي القرآن يا نفس في جميع أوقاتك، وابذلي جهدك في ذلك، ولا تَدَعِنَّ يومًا يمر عليك أو ليلة دون قراءة أو سماع شيء من كتاب ربك، واقرئيه في طريقك وذهابك وإيابك، واقرئيه في مشيك وقيامك وجلوسك، وفي بيتك ومسجدك، وفي

---

(١) «التذكار» للقرطبي (ص ١٣٤).

(٢) المسماة: «حرز الأماني ووجه التهاني» في القراءات السبع، وهي المشهورة بالشاطبية، وأبياتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتًا.

مجلسك وسوقك، اقرئي ولو سورة قصيرة، ولو ثلاث آيات، ولو آيتين، ولو آية!

إياك أن تُخْلِي يومك أو ليلتك من النظر في كتاب الله عز وجل، فتفْقِدي البركة في كل أمور حياتك، بحسب ما تتركين من ذلك.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه، أو من حاجته، فاتكأ على فراشه، أن يقرأ ثلاث آيات من القرآن!![1].

وانظري يا نفس: أين أنت وأين محلك من قرّاء القرآن!!

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة. قال: فإما ذُكِرْتُ للنبي ﷺ، وإما أَرسلَ إلي فأَتيتُه، فقال لي:

«أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْرَ وَتَقْرَأُ الْقُرْآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ؟» فقلت: بلى، يا نبي الله، ولم أُرِدْ بذلك إلا الخير. الحديث. وفيه:

«وَاقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ». قال قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عِشْرِينَ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ عَشْرٍ». قال: قلت: يا نبي الله، إني أطيق أفضل من ذلك.

قال: «فَاقْرَأْهُ فِي كُلِّ سَبْعٍ، وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا». الحديث[2].

واعلمي أن أهل القرآن هم أهل الله وخاصته، ومَنْ أحق منهم بهذه المنزلة وهم أهل كلامه وكتابه العظيم؟! فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ». قالوا: يا رسول الله، من هم؟ قال:

«هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ»[3].

---

(١) «سنن الدارمي» (٣٣٣٦).

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢١٥) وغيره، وصححه الألباني.

فضل سور وآيات

وأعظم ما ينبغي أن تحافظي عليه يا نفس من التلاوة والسماع: سورة الفاتحة، فاقرئيها استهداء واستشفاء واسترقاء وتبركًا، فعن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ مِثْلَ أُمِّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَهِيَ مَقْسُومَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ، سَمِعَ نَقِيضًا من فوقه، فرفع رأسه فقال:

«هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ» فقال: «هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ، وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيتَهُ»(٢).

قال ابن القيم(٣): «فاتحة الكتاب، وأم القرآن، والسبع المثاني، والشفاء التام، والدواء النافع، والرقية التامة، ومفتاح الغنى والفلاح، وحافظة القوة، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن، لمن عرف مقدارها، وأعطاها حقها، وأحسن تنزيلها على دائه، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها، والسر الذي لأجله كانت كذلك.

ولما وقع بعض الصحابة على ذلك، رقى بها اللديغ، فبرأ لوقته، فقال له النبي ﷺ: «وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٢٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٦) وغيره.

(٣) «زاد المعاد» (٣١٨/٤-٣١٩). ولكلامه بقية.

(٤) بعض حديث، متفق عليه.

ومن ساعده التوفيق، وأُعين بنور البصيرة، حتى وقف على أسرار هذه السورة، وما اشتملت عليه من التوحيد، ومعرفة الذات والأسماء والصفات والأفعال، وإثبات الشرع والقدَر والمعاد، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية، وكمال التوكل والتفويض إلى من له الأمر كله، وله الحمد كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، والافتقار إليه في طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين، وعلم ارتباط معانيها بجلب مصالحهما، ودفع مفاسدهما، وأن العاقبة المطلقة التامة والنعمة الكاملة منوطة بها، موقوفة على التحقق بها، أغنته عن كثير من الأدوية والرقى، واستفتح بها من الخير أبوابه، ودفع بها من الشر أسبابه.

وهذا أمر يحتاج استحداث فطرة أخرى، وعقل آخر، وإيمان آخر، وتالله لا تجد مقالة فاسدة، ولا بدعة باطلة، إلا وفاتحة الكتاب متضمنة لردها وإبطالها بأقرب الطرق وأصحها وأوضحها، ولا تجد بابًا من أبواب المعارف الإلهية، وأعمال القلوب، وأدويتها من عللها وأسقامها، إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحه، وموضع الدلالة عليه، ولا منزلًا من منازل السائرين إلى رب العالمين إلا وبدايته ونهايته فيها». اهـ

وسورة البقرة، فإن فيها من الخير والهدى ما هي مشتملة عليه، مما لا يمكن الإحاطة به كثرة، ويظهر هذا جليًّا لأهلها المحافظين على تلاوتها والتأمل في آياتها وتدبرها، فما أسعدهم بها! وما أعظم البركة منها في نفوسهم وأهليهم وحياتهم! ولا يمكن التعبير عما يجدونه من ذلك، ولا يُقْدَر وصفه، فمن لزم هذه السورة وحافظ على تلاوتها وقف على ذلك وفهمه، وعرف شأنه وخطره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ»[1].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٨٠) وغيره.

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ[1]، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ». قال معاوية: بلغني أن البطلة: السحرة[2].

وعن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قال: قلت: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]. قال: فضرب في صدري وقال:

«وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ»[3].

وعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ قَرَأَ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ»[4].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَآنِ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرَبُهَا شَيْطَانٌ»[5].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ انْتُهِيَ به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السادسة، إليها يَنتهي ما يعرج به من

---

(١) الغياية: كل ما أظل الإنسان من فوق رأسه كالسحابة ونحوها. «قاموس».

(٢) أخرجه مسلم (٨٠٤) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (٨١٠) وغيره.

(٤) متفق عليه.

(٥) أخرجه الترمذي (٢٨٨٢) وغيره، وصححه الألباني.

الأرض فيُقْبَضُ منها، وإليها يَنتهي ما يُهْبَطُ به من فوقها فيُقْبَضُ منها، قال: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ [النجم:١٦]. قال: فَرَاشٌ من ذهب. قال: فأُعْطِيَ رسولُ الله ﷺ ثلاثًا: أُعْطِيَ الصلواتِ الخمسَ، وأُعْطِيَ خواتيمَ سورة البقرة، وغُفِرَ لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المُقْحِمَاتُ(١)(٢).

وعن عقبةَ بن عامر الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، فَإِنِّي أُعْطِيتُهُمَا مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ»(٣).

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَ تُرَابُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ، وَجُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَأُوتِيتُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَ مِنْهُ أَحَدٌ قَبْلِي، وَلَا أَحَدٌ بَعْدِي»(٤).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ بَيْتِ كَنْزٍ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»(٥).

وسورة هود وأخواتها من السور، اقرئيها استجلابًا للخوف، ووقوفًا على عقوبات الأمم الظالمة، واطّلاعًا على أهوال القيامة وأخطارها وزلازلها، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شِبْتَ! قال:

---

(١) معناه: الذنوب العظام الكبائر، التي تهلك أصحابها، وتوردهم النار، وتُقْحِمهم إياها، والتَّقَحُّم: الوقوع في المهالك. «نووي».

(٢) أخرجه مسلم (١٧٣) وغيره.

(٣) أخرجه أحمد (١٧٣٢٤) وغيره، وحسنه ابن كثير (٣٤١/١ - تفسيره)، والهيثمي في «المجمع» (٣١٢/٦).

(٤) أخرجه مسلم (٥٢٢)، وأحمد (٣٨٣/٥)، والبيهقي في «الكبرى» (١٠٢٣ و١٠٦١)، واللفظ له، وغيرهم.

(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٤٥، وفي مواضع أُخَر) وغيره، وصححه الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١٤٨٢).

«شَيَّبَتْنِي هُودٌ، وَالْوَاقِعَةُ، وَالْمُرْسَلَاتُ، وَعَمَّ يَتَسَاءَلُونَ، وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ رَأْيُ عَيْنٍ فَلْيَقْرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ، وَإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ»(٢).

وسورة الكهف، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن نبي الله ﷺ قال:

«مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ كَمَا أُنْزِلَتْ كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ مَقَامِهِ إِلَى مَكَّةَ». الحديث(٣).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكَهْفِ عُصِمَ مِنَ الدَّجَّالِ»(٤).

وسورة الملك، خصوصًا عند النوم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ثَلَاثُونَ آيَةً شَفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ، وَهِيَ سُورَةُ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«سُورَةُ تَبَارَكَ هِيَ الْمَانِعَةُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ»(٦).

وسورة الكافرون، والمعوِّذات، فعن فَرْوَةَ بن نَوْفَلٍ، عن أبيه، أن النبي ﷺ قال لنَوْفَلٍ:

«اقْرَأْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٣٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٦٥١).

(٤) أخرجه مسلم (٨٠٩) وغيره.

(٥) أخرجه أبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، واللفظ له، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (١٠/٤) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١١٤٠).

الشِّرْكِ»(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، وَ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ تَعْدِلُ رُبُعَ الْقُرْآنِ، وَكَانَ يَقْرَأُ بِهِمَا فِي رَكْعَتَي الْفَجْرِ»(٢).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟» قالوا: وكيف يقرأ ثلث القرآن؟ قال:

«﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»(٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقِيت رسول الله ﷺ فقال لي:

«يَا عُقْبَةُ بْنَ عَامِرٍ، أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ، لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وَ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾، وَ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾»(٤).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجانِّ وعَيْنِ الإنسان، حتى نزلت المُعَوِّذتان، فلما نَزَلتا أخذ بهما وترك ما سواهما(٥).

وعن معاذ بن عبد الله بن خُبَيْبٍ، عن أبيه، أنه قال: خرجنا في ليلةِ مَطَرٍ وظُلْمَةٍ شديدةٍ نطلب رسول الله ﷺ ليُصَلِّيَ لنا، فأدركناه فقال: «أَصَلَّيْتُمْ؟» فلم أقل شيئًا. فقال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ». فلم أقل شيئًا. ثم قال: «قُلْ».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٥٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣٤٩٣) وغيره. وهو في «صحيح الجامع» (٤٤٠٥).

(٣) أخرجه مسلم (٨١١) وغيره.

(٤) بعض حديث، أخرجه أحمد (١٧٤٥٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٨٦١).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وغيره، وصححه الألباني.

فقلتُ: يا رسول الله، ما أقول؟ قال:

«قُلْ: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾، وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ، حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»[1].

تدبر القرآن

هذا، واجعلي همك يا نفس في التلاوة فهم ما تقرئينه وتدبره، فإنه أنفع شيء لك في زكاتك وصلاحك وهدايتك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص:٢٩].

قال ابن سعدي: «﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾؛ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجلَّ كتاب طرق العالم.

﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾؛ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة تدرك بركته وخيره».

وقال الشنقيطي: «أي: يتفهموها ويتعقلوها ويُمْعِنوا النظر فيها، حتى يفهموا ما فيها من أنواع الهدى».

قال ابن كثير[2]: «قال الحسن البصري: والله ما تدبُّرُه بحفظ حروفه وإضاعة حدوده، حتى إن أحدهم ليقول: قرأت القرآن كله، [فما أسقطت منه حرفًا. وقد والله أسقطه كله]، ما يُرى له القرآن في خُلُق ولا عمل. رواه ابن أبي حاتم».

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «تفسيره» (٧/٥٤). والزيادة من «الزهد» لابن المبارك (رقم ٧٩٣).

وقال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤].

قال ابن القيم[١]: «فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته، من تدبر القرآن، وإطالة التأمل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته، فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما، وعلى طُرُقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما، ومآل أهلهما، وتَتُلُّ[٢] في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتُثَبِّتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيد بنيانه وتوطّد أركانه، وتريه صورة الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيام الله فيهم، وتبصره مواقع العبر، وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومصححاتها، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار، وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق، واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه».

وقال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء:٩].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الآية، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين جل وعلا، يهدي للتي هي أقوم؛ أي: الطريقة التي هي أسد وأعدل وأصوب، فـ «التي» نعت لموصوف محذوف، على حد قول ابن مالك في الخلاصة:

وما من المنعوت والنعت عُقِل ... يجوز حذفه وفي النعت يَقِل

وقال الزجاج والكلبي والفراء: للحال التي هي أقوم الحالات، وهي توحيد

(١) «مدارج السالكين» (١/٤٥١-٤٥٢).

(٢) أي: تضع.

الله والإيمان برسله.

وهذه الآية الكريمة أجملَ اللهُ جل وعلا فيها جميعَ ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، فلو تتبعنا تفصيلها على وجه الكمال لأتينا على جميع القرآن العظيم، لشمولها لجميع ما فيه من الهدى إلى خيري الدنيا والآخرة».

فصل

فبالإقبال على القرآن وتلاوته وتدبره ـ يا نفس ـ يحيا قلبك، ويستنير صدرك، ويذهب همك وغمك، ويحضر سرورك وفرحك، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجًا(١)».

قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمُها؟ فقال:

«بَلَى، يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا»(٢).

فانظري يا نفس إلى هذا السؤال ما أعظمه وما أجله! سأل الله تعالى بكل أسمائه الحسنى، ما علم منها وما لم يعلم، وما علَّمَه اللهُ عبادَه وما أخفاه عنهم، أن يجعل القرآن ربيع قلبه؛ أي: حياته، ونور صدره الذي به انشراحه وانفساحه، وبه ذهاب كل ظلمة فيه، من هم وغم وغفلة وجهل وفساد، وسائر الآفات.

---

(١) أو: «فَرَحًا» بالمهملة، لاختلاف نسخ «المسند» التي بين يدي.

(٢) أخرجه أحمد (٣٧٠٤ و٤٣٠٦)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٣٧٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٩/١)، وغيرهم. وهو في «الصحيحة» (رقم ١٩٩).

استماع القرآن

وليكن لكِ ورد من الاستماع للقرآن أيضًا، وما أشد الحاجة إليه في هذا الزمان المزدحم بالأشغال! بحيث لا يتسنى للعبد أحيانًا التلاوة من حفظه، بل ولا يتهيأ له أحيانًا رؤية المصحف فضلًا عن التلاوة فيه! مع تيسر الاستماع أيَّما تيسر.

واستمعي القرآن يا نفس طلبًا للخشوع، وإصلاح القلب، وتزكية النفس، وحرصًا على التوبة والإنابة، لا للتبرك والتحصن فقط! وما أسرع الرحمة إليكِ حينئذ!

قال أرحم الراحمين سبحانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

قال الليث: يقال: ما الرحمة إلى أحد بأسرع منها إلى مستمع القرآن، لقول الله جل ذكره: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾. و«لعل» من الله سبحانه وتعالى واجبة[1].

واحرصي يا نفس على الاستماع لمن إذا سمعتيه حسبتيه يخشى الله تعالى.

وبهذه المناسبة، أنصح بتعاهد الاستماع للقارئ الفذ محمد رفعت، فاسمعوا له سورة الجن، ومنها: ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ﴾ [الجن:١٣].

وسورة النبأ، ومنها: ﴿ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ۝ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴾ [النبأ:٢١-٢٣]، و﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴾ [النبأ:٣٩].

وسورة المزمل، ومنها، ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ

---

(١) «لمحات الأنوار» (١/١٣٤)، و«تفسير القرطبي» (١/٩).

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا * إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا * وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [المزمل:٨-١٣].

وأول سورة الأعراف، فلا تفوتنكم! والآيات ١٩-٢٢ منها، وهي قراءة مذهلة، ولولا أن أسرار تلاوات الشيخ رفعت وجمالها يفوق الخيال، ويصعب اكتشافها بسهولة، وتحتاج إلى خبير حاذق عارف في فن الأداء والمقامات وغيرها، لأقولن هي وأول الكهف أجمل ما قرأ!!

وسورة الأنعام، وقد أبدع فيها إلى الغاية، بحيث يعجز اللسان عن وصف مدى الاتقان والتأثير فيها، فمنها: الآيات ١٢٤-١٢٦.

ومنها: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

و﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام:١٠١].

و﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

والتوبة، ومنها: ﴿ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةٗ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ * فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ * فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [التوبة:٨٠-٨٢].

ومنها: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةٗ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةٗ وَلَا يَقۡطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ

لَهُمۡ لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [التوبة:١٢١]، وما بعدها.

وسورة إبراهيم، ومنها: ﴿ قَالَتۡ رُسُلُهُمۡ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ [إبراهيم:١٠].

واسمعوا الآيات آخرها، وهي من أندر النادر مما قرأ.

والكهف، ومنها: ﴿ نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى ۞ وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ إِذۡ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَن نَّدۡعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهٗاۖ لَّقَدۡ قُلۡنَآ إِذٗا شَطَطًا ۞ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ لَّوۡلَا يَأۡتُونَ عَلَيۡهِم بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ [الكهف:١٣-١٥].

وهي تلاوة في قمة الإبداع، وفوق الوصف.

وليت أني أستطيع أن أضعها هنا، لأعجل بها للقارئ، فيستمعها الآن!!

واسمعوا من الكهف: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا ﴾ [الكهف:٥٠].

واسمعوا له سورة مريم، وهي أشهر ما قرأ، وقد أبدع فيها أيما إبداع.

واسمعوا له الفرقان، واسمعوا منها: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ﴾ [الفرقان:٦١].

واسمعوا منها: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ﴾ [الفرقان:٦٣]. الآيات.

واسمعوا له سورة الرحمن الشهيرة، وهي ثلاث تسجيلات، منفردة، ومع الواقعة، ومع الحاقة، ولاحظوا الإبداع الفريد في السور الثلاث.

واسمعوا له الطور والإنسان التي معها، واسمعوا منها: ﴿ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ۞ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴾ [الإنسان:١١-١٢].

واسمعوا له الانشقاق والبروج والأعلى والغاشية والفجر وسائر قصار السور.

واسمعوا له سورة البقرة، من قول الله تعالى: ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٥].

واسمعوا له آل عمران، واسمعوا منها: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤]. و﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران:١٧].

واسمعوا له سورة النساء، ومنها: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

واسمعوا منها الآيات ١٧٠-١٧٣، وهي من أعجب ما قرأ.

واسمعوا له سورة هود، خصوصًا: ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود:١٠٨].

واسمعوا له سورة يوسف، وانظروا إلى إبداعه فيها وقوة أدائه، واسمعوا آخرها، وقفوا عندها، واستجلبوا الرقة والخشوع، فهي قراءة تأخذ بالقلب، وتفيض الدمع.

واسمعوا له آية النور، فهي منه في أعلى درجات الإبداع، ومؤثرة إلى الغاية، سمعتها منه لأول مرة نحو سنة ١٣٩٠ هـ، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، فما أن وصل إلى قوله تعالى: ﴿ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور:٣٥]، حتى وقع في قلبي من نور الهداية ما لا يوصف، وانقلب كياني، وكأنني بنفسي رجلٌ آخر، والله سبحانه وتعالى هو الهادي، وله الحمد أولًا وآخرًا.

ولا يزال أثر تلك الساعة في قلبي، ولا تزال هذه الآية حاديًا لنفسي في طريقها إلى الله تعالى، أُلقيها على مسامعها كلما تاقت إلى النور واشتاقت، وكلما وَنَت أو جمحت.

فيا نفس، كرري على مسامعك وقلبك كل ما كان له أثر في توبتك وهدايتك وصلاحك، من آية أو حديث، أو موعظة أو حكمة، أو نعمة أو محنة، أو غير ذلك.

هذا، وتفصيل ما أبدع فيه القارئ محمد رفعت يطول، فبالجملة اسمعوا له كل ما يقع في أيديكم مما قرأ.

واسمعوا بعده للمنشاوي، اسمعوا له سورة الفجر، وهي أشهر ما أبدع فيه، واسمعوا له سورة غافر والحشر وق، واسمعوا له سورة الروم التي قرأها بالكويت.

واسمعوا له سورة الانفطار التي قرأها بدمشق وما بعدها من قصار السور، وهي قراءة مبكية ومؤثرة جدًّا، وفي ضمنها سورة الفجر الشهيرة.

واسمعوا له المؤمنون، ومنها: ﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۝ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

وأما مصحفه المجود ـ نسخة الإذاعة (الأستوديو) ـ فغاية في الروعة، فلا يفوتنكم، خصوصًا سورة الطور والمدثر والروم، وهي ـ الثلاث ـ أجمل ما قرأ منه، ويوسف، والزخرف، ومنها: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، وما بعدها.

واسمعوا لمنصور الشامي الدمنهوري سورة الأنعام، خصوصًا الآيات: (٢٥-٣٥)، وهي في قمة الإبداع، واسمعوا له سورة سبأ ويس والصافات والطور والنجم والمدثر.

واسمعوا لشعيشع القصص، وقفوا عند: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص:٩]. واسمعوا له النجم والقمر، وآل عمران، واحرصوا على استماع سائر ما قرأ.

واسمعوا لمصطفى إسماعيل الفرقان والنجم والقمر والنبأ والنازعات وقصار السور، وما أجمل مصحفيه (الأستوديو): المرتل والمجود!

واسمعوا للبهتيمي سورة النجم والقمر، وهما فوق الوصف، واسمعوا له فصلت

التي قرأها بحضور مصطفى إسماعيل، واسمعوا له سورة إبراهيم، فلا تفوتنكم، واسمعوا له سورة مريم والأنبياء والفرقان والشعراء والنمل والأحزاب، واسمعوا له كل ما قرأ.

واسمعوا لعبد الرحمن الدَّرَوي سورة المائدة، والقصص والقيامة والانفطار، وهذه السور الثلاث أجمل ما قرأ، واسمعوا له الروم، وفصلت، والطور والمرسلات.

واسمعوا لعبد العزيز علي فرج يس والزمر والقمر والرحمن وقصار السور.

واسمعوا لعزت العناني، خصوصًا سورة الأنبياء.

واسمعوا لمحمود علي البنّا سورة الشعراء، وسورة الحج التي قرأها بالكويت.

واسمعوا للحصري سورة إبراهيم، وما قرأه في الحرم المكي من سورة النمل، كلاهما برواية ورش، واسمعوا له سورة ق وما بعدها من ختمة الأوقاف المرتلة برواية حفص بقَصْر المنفصل، وأما مصحفه المرتل برواية قالون فإنه في قمة الخشوع.

هذا، والحصري أكثر قراء مصر جمعًا وتسجيلًا للمصاحف! وبعدة قراءات!

ولعبد الباسط الأنعام ويوسف والروم وسبأ ويس والصافات وق والقلم والقيامة وقصار السور، وسائر مصحفه المجود (الأستوديو)، واسمعوا له سورة يوسف (الأستوديو) أيضًا، النسخة القديمة، التي قرأها نحو سنة ١٣٨٣ هـ، واسمعوها له أيضًا مجودة برواية ورش، وهما في قمة الروعة، وكذلك قصار السور المجودة برواية ورش، فلا تفوتنكم، وكل هذا في (الأستوديو)، وأما إبداعاته خارجه فلا تخفى!

وللطبلاوي سورة يوسف نسخة (الأستوديو)، وسورة الحجر النسخة المرئية (الفيديو)، وسورة الحشر والقلم والحاقة والمعارج المجودة، وقصار السور المجودة أيضًا، وسورتي سبأ ويس المرتلتين، وما أجمل سائر مصحفيه، المرتل والمجود (الأستوديو)! وما أندى صوته فيهما!

وأكتفي بما ذكرته مقتصرًا على قراء مصر، وعلى المتقدمين منهم، وإلا فإن القراء المبدعين أصحاب الأصوات الندية كثيرون، منها ومن غيرها.

وقد انتقيت من قراءاتهم العذبة ما انتقيت بقصد التمثيل لأجمل ما قرؤوه، مما سمعته وحضرني ذكره، لا بقصد الإعراض عن باقيه، فلا يعتبنّ علي أحد في ذلك.

وإنما سطرت هذا وفصلت فيه راجيًا من الله عز وجل أن يقع في يد من يهتم به، ويعرف قدره، فيستفيد منه ويفيد، ويتأثر به، ويكون قرة عين له في باب السماع.

وفي الحديث: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ». قال: فقلت: يا رسول الله، أَقْرَأُ عليك، وعليك أُنزل؟! قال: «إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١]. رفعت رأسي، أو غَمَزَني رَجُلٌ إلى جنبي، فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل[١].

فهذا يا نفس هو السماع الحق، سماع القرآن، لا سماع الموسيقى والألحان، وسماع السور والآيات، لا سماع الأناشيد وما يسمى بالشيلات.

قال ابن القيم[٢]: «هذا السماع حاد يحدو القلوب، إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح، إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات، إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قِبل فالق الإصباح: حي على الفلاح، حي على الفلاح».

وقال[٣]: «محبة كلام الله من علامة حب الله، وإذا أردت أن تعلم ما عندك وعند غيرك من محبة الله، فانظر إلى محبة القرآن من قلبك، والتذاذك بسماعه أعظمَ من التذاذ أصحاب الملاهي والغناء المطرب بسماعهم، فإن من المعلوم أن

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) «مدارج السالكين» (٤٨١/١-٤٨٢).

(٣) انظر «الداء والدواء» (ص ٥٤٩-٥٥٢- طبعة بكر أبو زيد).

من أحب محبوبًا كان كلامه وحديثه أحب شيء إليه».

قال: «فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني، فإذا رأيت الرجل، ذوقَه ووجدَه وطربَه ونشوتَه، إلى سماع الأبيات دون سماع الآيات، وسماع الألحان دون سماع القرآن، فهذا من أقوى الأدلة على فراغ قلبه من محبة الله وكلامه، وتعلقه بمحبة سماع الشيطان، والمغرور يعتقد أنه على شيء».

وقال[1]: «إنك لا تجد أحدًا عُنِيَ بالغناء وسماع آلاته، إلا وفيه ضلال عن طريق الهدى، علمًا وعملًا، وفيه رغبة عن استماع القرآن إلى استماع الغناء، بحيث إذا عرض له سماع الغناء وسماع القرآن عَدَل عن هذا إلى ذاك، وثقل عليه سماع القرآن، وربما حمله الحال على أن يُسْكِت القارئ ويستطيل قراءته، ويستزيد المُغَنِّي ويستقصر نوبته».

وقال[2]: «اطلب قلبك في ثلاثة مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة، فإن لم تجده في هذه المواطن فسل الله أن يمن عليك بقلب، فإنه لا قلب لك!». اهـ.

ومن قوله في ذم أهل السماع الشيطاني[3]:

تُلِيَ الكتابُ فأطرقوا لا خِيفَةً ... لكنه إطراقُ سَاهٍ لاهي
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا ... والله ما رقصوا من أجل اللهِ
دُفٌّ ومِزمارٌ ونَغمةُ شادٍ ... فمتى شهدْتَ عبادةً بملاهي

---

(١) «إغاثة اللهفان» (١/٢٤١).

(٢) «الفوائد» (ص ١٤٨-١٤٩).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٤٨٧).

ثَقُـلَ الكتـابُ علـيهم لمـا رَأَوْا تقييـــدَه بـــأوامرٍ ونـــواهي
سـمعوا له رعـدًا وبرقًـا إذ حـوى زجــرًا وتخويفًــا بفِعْــلِ منــاهي
ورأَوْهُ أعظـمَ قـاطعٍ للـنفس عـنْ شـــهواتها يــا ويحهــا المتنــاهي
وأتى السـماع موافقًـا أغراضَـها فلأجـل ذاك غـدا عظـيم الجـاهِ
أيـن المسـاعدُ للهـوى مـن قـاطعٍ أسـبابَه عنـد الجهـول السـاهي
إن لـم يَكُـنْ خمـرَ الجسـومِ فإنـهُ خمـرُ العقـولِ مماثـلٌ ومضـاهي
فـانظر إلى النَّشْـوانِ عنـد شرابـهِ وانظـر إلى النَّشْـوانِ عنـد مـلاهي
وانظـــر إلى تمزيـــق ذا أثوابَـــهُ مـن بعـد تمزيـق الفـؤاد الـلاهي
واحكم فأيُّ الخمرتين أَحقُّ بالتَّـ ـــحريم والتـــأثيم عنـــد اللَّهِ

ومن قوله:

واللهــو خَــفَّ علــيهمُ لمــا رأَوْا مـا فيـه مـن طَـرَبٍ ومـن ألحـانِ
ولذا تراه حـظَّ ذي النقصـان كالْــ ـــجهال والصـبيان والنســوانِ
وألذهــم فيــه أقلُّهــم مــن الْـــ ـعقل الصحيح فسَلْ أخا العرفانِ
يـا لَذَّةَ الفسـاق لسـتِ كلَـذَّةِ الْـــ أبـــرار في عقـــلٍ ولا قـــرآنِ

فيا نفس، إن أردت الانتفاع بما تسمعين من الآيات والذكر الحكيم، والحصول على ثمرته التي ترجين، من الخشوع والإنابة والتوبة، ففرغيه من الغناء والألحان، ثم اسمعيه بحضور قلب، وعدمِ انشغالٍ بشيء غيره، وتدبريه مستحضرة معانيه، ثم أعيدي بعد ذلك الاستماع له وكرريه، ولا تُطيلِنّ العهد به.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧].

التأثر بالذكر

واعتبري يا نفس بأحوال السالفين، من الأنبياء والصالحين، وكيف كان تأثرهم عند سماع كلام رب العالمين، كما قال الله تعالى في حق أنبيائه الكرام، عليهم الصلاة والسلام: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗاۤ وَبُكِيّٗا ﴾ [مريم:٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ [الزمر:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۞ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ۞ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾ {الإسراء:١٠٧-١٠٩}.

وقال سبحانه في حق من هدى من القسيسين والرهبان: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة:٨٣].

وقال سبحانه وتعالى في حق الجن: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الأحقاف:٢٩-٣٠]. الآيات.

وقال سبحانه حاكيًا عنهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا * يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ [الجن:١-٢].

الرشد: الحق والصواب والهدى، ويدخل فيه الإصابة في مصالح الدنيا والدين.

وعن نافع: كان ابن عمر إذا قرأ هذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦] يبكي حتى يغلبه البكاء[١].

فيا نفس، دعيني أكرر عليك وأعيد: أقبلي على كتاب ربك، وألقي السمع بقلب حاضر غير لاه، وتفهمي كلامه عز وجل، وتدبري آياته، فإن هذا هو الذي يوجب التأثر والخشوع، فإن لم يحصل لك، فراجعي إيمانك، وعالجي قسوة قلبك، فالعلة فيك أنتِ، يقول الله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

قال ابن القيم[٢]: «فيا عجبا! من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكر الرب تبارك وتعالى، فلا تلين ولا تخشع ولا تنيب، فليس بمستنكر على الله عز وجل ولا يخالف حكمته أن يخلق لها نارًا تذيبها، إذْ لم تَلِنْ بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يَلِنْ لله في هذه الدار قلبُه، ولم ينب إليه، ولم يُذِبْهُ بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلًا، فإن أمامه المُلَيِّنَ الأعظم، وسيُرَدّ إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم». اهـ.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد:٣١].

وجواب لو في هذه الآية محذوف، أي: لو أن قرآنًا فُعِل به ذلك لكان هذا

---

(١) ذكره ابن حجر في «الإصابة» (١٦٠/٤)، وجود إسناده.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٢١/١).

القرآن، أو لما آمنوا به، أو كلاهما، وما ذاك إلا لشدة عنادهم، ولقسوة قلوبهم، لما عليها من أقفال تمنع دخول الهدى ووصول الخير، وإلا فإن القرآن بذاته لا شيء أكثر تأثيرًا ولا أشد تذكيرًا منه، فإنه قد بلغ الغاية في التأثير، تخويفًا وإنذارًا وتذكيرًا وهديًا، كما قال سبحانه: ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾ [ص:١].

وللتوسع في هذا الباب عليك بكتاب «دموع القراء».

عظمة القرآن

ويُسَهِّل هذا عليك يا نفس وييسره، أن تستحضري في قلبك عند التلاوة والسماع عظمة القرآن وجلالة الآيات، وتستشعري أن الله الرحمن الرحيم، العلي العظيم، هو المتكلم، وهو الذي يأمرك فيه وينهاك، ويعظك ويرشدك، ويعهد إليك ويوصيك، ويعاتبك ويتحبب إليك، ويبشرك وينذرك، فما أعظم خيره! وما أكثر بركته! وما أجل عطاياه! وما أكبر فضله على عباده! بإنزال هذا القرآن المبارك العظيم على عبده ونبيه وصفيه محمد ﷺ يهديهم به ويعلمهم ويزكيهم ويرفعهم، ويُوصل لهم به الخيرات والبركات، ويدفع عنهم السيئات والبليات، ويتم عليهم النعمة والإيمان والنور، ويرفع عنهم المحنة والجهل والظلمة.

قال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

قال ابن سعدي: «﴿ تَبَارَكَ ﴾؛ أي: تعاظم وكملت أوصافه وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام والهدى والضلال وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين، ﴿ لِيَكُونَ ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾، ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن مَنْ قَبل نَذارته وعمل بها كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا

الفضل والإحسان شيء؟! فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته!». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

قال ابن سعدي[1]: «وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات والدلالات الباهرات شيء كثير، فإن إتيان الرسول به بمجرده وهو أمي من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته وتحديه إياهم آية أخرى، ثم ظهوره وبروزه جهرًا علانية يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول وهو في وقت قلَّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يُخْفِه ولم يَثْنِ ذلك عزمَه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟!

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونَفْي ما أُدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: ليته لم يأمر به، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته لم ينه عنه، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول.

ثم مسايرة إرشاداته وهدايته وأحكامه لكل حال وكل زمان، بحيث لا تصلح الأمور إلا به.

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى

(١) «تيسير الكريم الرحمن»، بحذف يسير.

فإنه خير له، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، وذلك لِـما يحصِّلون فيه من العلم الكثير والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية». اهـ.

قال ابن القيم[1]: «من قُرِئ عليه القرآن فليُقَدِّر نفسَه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به، فإذا حصل له ـ مع ذلك ـ السماعُ به وله وفيه ازدحمت معاني المسموعِ ولطائفه وعجائبه على قلبه، وازدلفت إليه، بأيها يبدأ، فما شئت من علم وحكمة وبصيرة وهداية!».

وعن سَلْمٍ الخَوّاص قال: قلت لنفسي: يا نفس، اقرئي القرآن كأنك سمعتيه من الله حين تكلم به، فجاءت الحلاوة[2].

وقال سبحانه وتعالى يمدح كتابه وكلامه: ﴿قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ [ق:١].

قال ابن سعدي: «المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه، كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه، وسرعة الانقياد له، وشكر الله على المنة به». اهـ.

وتقدم قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ [ص:١].

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾؛ أي: والقرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ونفع لهم في المعاش والمعاد.

قال الضحاك في قوله: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء:١٠]؛ أي: تذكيركم. وكذا قال قتادة، واختاره ابن جرير.

---

(١) «مدارج السالكين» (٥٠٤/١)، بحذف يسير.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١٨٠/٨).

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عيينة وأبو حصين، وأبو صالح، والسُّدي: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾: ذي الشرف؛ أي: ذي الشأن والمكانة.

ولا منافاة بين القولين، فإنه كتاب شريف، مشتمل على التذكير والإعذار والإنذار». اهـ.

وقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ * لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿حمٓ * وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف:١-٤].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٥٧].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢].

قال ابن القيم[(١)]: «و«من» هنا لبيان الجنس لا للتبعيض، فإن القرآن كله شفاء، كما قال في الآية المتقدمة، فهو شفاء للقلوب من داء الجهل والشك والريب، فلم ينزل الله سبحانه من السماء شفاء قط أعم ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع في إزالة الداء من القرآن».

وقال[(٢)]: «فالقرآن هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية، وأدواء الدنيا والآخرة، وما كل أحد يؤهَّل ولا يوفَّق للاستشفاء به، وإذا أحسن العليل التداوي به، ووضعه على دائه بصدق وإيمان، وقَبول تام، واعتقاد جازم،

(١) «الداء والدواء» (ص ٦ - طبعة بكر أبو زيد).

(٢) «زاد المعاد» (٤/٣٢٢-٣٢٣).

واستيفاءِ شروطه، لم يقاومه الداء أبدًا.

وكيف تقاوِم الأدواءُ كلامَ رب الأرض والسماء، الذي لو نزل على الجبال لصدّعها، أو على الأرض لقطّعها؟!! فما من مرض من أمراض القلوب والأبدان إلا وفي القرآن سبيل الدلالة على دوائه وسببه والحمية منه لمن رزقه الله فهما في كتابه».

ثم قال: «وأما الأدوية القلبية، فإنه يذكرها مفصلة، ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها، قال: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت:٥١]، فمن لم يشفه القرآن، فلا شفاه الله، ومن لم يكفه فلا كفاه الله». اهـ

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الْقُرْآنُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ[١]، مَنْ جَعَلَهُ إِمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ»[٢].

قلت: وهذا باب واسع يطول بسطه، فعظمة القرآن من عظمة الله تعالى، فإنه كلامه سبحانه، تكلم به صدقًا، وأنزله على نبيه ﷺ حقًّا.

قال شيخ الإسلام في آخر حياته وهو في السجن[٣]: «قد فتح الله عليّ في هذا الحصن في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن».

يقول هذا وهو هو في معرفة معاني القرآن، والغوص في دقائقها، والبراعة المسلمة إليه في ذلك!!

وعن أبي الأحوص قال: كان سفيان يقول: ليتني كنت اقتصرت على القرآن[٤].

وعن حَبيب بن صالح قال: سمعت مجاهدًا يقول: استفرغَ علميَ القرآنُ[٥].

---

(١) أي: شاهد ومجادل ومدافع.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٧٩٣ - موارد) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٠١٩).

(٣) «ذيل طبقات الحنابلة» (٥١٩/٤).

(٤) «تاريخ يحي بن معين» (١٥٩/٢).

(٥) «فضائل القرآن» لأبي عبيد (ص ١٠١).

وعن عبد الله [بن مسعود]: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين(١).

وقال الضياء المقدسي: وأوصاني (يعني: إبراهيم بن عبد الواحد المقدسي) وقت سفري، فقال: أكثر من قراءة القرآن، ولا تتركه، فإنه يتيسر لك الذي تطلبه على قدر ما تقرأ. قال: فرأيت ذلك وجربته كثيرًا، فكنت إذا قرأت كثيرًا تيسر لي من سماع الحديث وكتابته الكثير، وإذا لم أقرأ لم يتيسر لي(٢).

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: إني لأقرأ القرآن فأنظر في آية آية، فيحار عقلي فيها، وأعجب من حفاظ القرآن، كيف يهنيهم النوم، ويسيغهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا، وهم يتكلمون كلام الرحمن، أمَا لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واسْتَحْلُوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحًا بما رُزقوا ووُفِّقوا(٣).

وعن الحسن البصري: القرآنَ القرآنَ! فإنه شافع مشفَّع، وماحلٌ مصدَّق، والله ما دون القرآن من غِنى، وما بعد القرآن من فقر(٤).

الأذكار المقيدة

ولا تفوتنك يا نفس الأذكار المعيّنة في الصباح والمساء، وعند النوم والاستيقاظ، وفي سائر الأحوال، فإن فيها من الأجور العظيمة، والمنافع الجسيمة، ما لا يمكن حصره، فإن عجزت عن الإتيان بها جميعها، فأتي بما تيسر منها.

الأذكار المضاعفة

وإن خشيتِ الفَوْت فاستدركي بالأذكار المضاعفة، والأدعية الجامعة، خصوصًا في مواسم العبادة، وساعات الإجابة، كالعشر الأواخر من رمضان، وفيها

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (١/١٧).

(٢) انظر «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/٢٠٥).

(٣) «حلية الأولياء» (١٠/٢٢).

(٤) «مختصر قيام الليل» لابن نصر (ص ١٦٨).

ليلة القدر، وهي خير من ألف شهر، وكعشر ذي الحجة، وغيرها.

قال ابن رجب(١): «السعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات(٢)، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات». اهـ.

أما الأذكار، فكما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن جويرية [رضي الله عنها]، أن النبي ﷺ خرج من عندها بُكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال:

«مَا زِلْتِ عَلَى الْحَالِ الَّتِي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟». قالت نعم. قال النبي ﷺ:

«لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لَوْ وُزِنَتْ بِمَا قُلْتِ مُنْذُ الْيَوْمِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»(٣).

وعن أبي أُمامةَ رضي الله عنه قال: رآني النبي ﷺ وأنا أحرِّك شَفَتَيَّ، فقال: «مَا تَقُولُ يَا أَبَا أُمَامَةَ؟» قلت: أذكر الله. قال:

«أَفَلا أَدُلُّكَ عَلَى مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذِكْرِكَ اللهَ اللَّيْلَ مَعَ النَّهَارِ [وَالنَّهَارَ مَعَ اللَّيْلِ]؟ تَقُولُ:

الْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ، والْحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا خَلَقَ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ، [وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ](٤)،

---

(١) «بغية الإنسان» (ص ١٠).

(٢) يريد بهذا ـ وقد ذكره بعد ـ ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «اطلبوا الخير دهركم، وتعرضوا لنفحات رحمة ربكم، فإن لله نفحات من رحمته، يصيب بها من يشاء من عباده». الحديث ونحوه. ولا يصح.

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٢٦) وغيره.

(٤) زيادة تقتضيها ألفاظ الحديث، انظر الحاشية التالية.

وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ مَا أَحْصَى كِتَابُهُ، وَالْحَمْدُ للهِ عَدَدَ كُلِّ شَيْءٍ، وَالْحَمْدُ للهِ مِلْءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَتُسَبِّحُ اللهَ مِثْلَهُنَّ».

ثم قال: «تَعَلَّمْهُنَّ [وَعَلِّمْهُنَّ] عَقِبَكَ مِنْ بَعْدِكَ»(١).

وأما الأدعية، فكما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عَلَيَّ النبي ﷺ وأنا أصلي، وله حاجة، فأبطأْتُ عليه، قال:

«يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِجُمَلِ الدُّعَاءِ وَجَوَامِعِهِ».

فلما انصرفتُ قلتُ: يا رسول الله، وما جُمَلُ الدعاء وجوامعه؟ قال:

«قُولِي: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمُ.

وَأَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَأَسْأَلُكَ مِمَّا سَأَلَكَ بِهِ [عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ] مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَعُوذُ بِكَ مِمَّا تَعَوَّذَ مِنْهُ [عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ] مُحَمَّدٌ ﷺ.

وَمَا قَضَيْتَ لِي مِنْ قَضَاءٍ فَاجْعَلْ عَاقِبَتَهُ رُشْدًا»(٢).

وحديث طارق الأشجعي رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ وأتاه رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي» ـ ويَجْمَعُ أصابعَه إلا الإبهامَ ـ «فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ»(٣).

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨٥٧) وغيره، وانظر ألفاظ هذا الذكر في «صحيح الترغيب» (٢/٢٤٥-٢٤٦)، و«الصحيحة» (٢٥٧٨)، و«صحيح الجامع» (٤٣٨٠).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٩)، وابن ماجه (٣٨٤٦)، وغيرهما، وصححه الألباني.

وعند ابن ماجه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ».

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٩٧) وغيره.

ومن الأدعية الجامعة: عن رِفاعةَ بن رافع الأنصاري رضي الله عنه قال: قام أبو بكر الصديق، على المِنبر ثم بكى فقال: قام رسول الله ﷺ عامَ الأولِ على المِنبر ثم بكى فقال:

«اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ»(١).

وعن عبد العزيز بن صهيب قال: سأل قتادةُ أَنَسًا: أيُّ دَعوةٍ كان يدعو بها النبيُّ ﷺ أكثرَ؟ قال: كان أكثرُ دَعوةٍ يَدْعُو بها يقول:

«اللَّهُمَّ [رَبَّنَا] آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ».

قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يَدْعُوَ بدَعوةٍ دعا بها، فإذا أراد أن يَدْعُوَ بدعاء دعا بها فيه(٢).

قال النووي(٣): «وأظهر الأقوال في تفسير الحسنة في الدنيا أنها العبادة والعافية، وفي الآخرة الجنة والمغفرة».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(٤).

وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيِّ، عن الصُّنَابِحِيّ، عن معاذ بن جبل، أن رسول ﷺ أخذ بيده وقال:

«يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨) وغيره. وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٢) أخرجه البخاري، والزيادة له، ومسلم، واللفظ له، وغيرهما.

(٣) «شرح مسلم» (١٣/١٧).

(٤) أخرجه أحمد (٢٩٩/٢) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (رقم ٨٤٤).

وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن(١).

ومن الأدعية المستجابة: عن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، [الْوَاحِدُ]، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

فقال: «لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ»(٢).

وعن مِحْجَنِ بن الأَدْرَعِ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فإذا هو برجل قد قضى صلاته وهو يتشهد، وهو يقول:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاللهِ (وفي رواية: يَا أَللهُ)، الْوَاحِدِ، الْأَحَدِ، الصَّمَدِ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ.

قال: فقال نبي الله ﷺ:

«قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ»، ثلاثَ مِرَارٍ(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ جالسًا في الحَلْقَة، ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد فتشهد، ثم قال في دعائه:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، [وَحْدَكَ لَا شَرِيكَ لَكَ]، الْمَنَّانُ، يَا بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ [الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٩٣ و١٤٩٤)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦١٩)، والزيادة له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٩٧٤)، واللفظ له، وأبو داود (٩٨٥)، والرواية الثانية له، وغيرهما، وصححه الألباني.

فقال النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا اللّٰهَ؟».

قال: فقالوا: الله ورسوله أعلم. قال:

«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللّٰهَ بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى»[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«دَعْوَةُ ذِي النُّونِ إِذْ دَعَا وَهُوَ فِي بَطْنِ الْحُوتِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَدْعُ بِهَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا اسْتَجَابَ اللّٰهُ لَهُ»[2].

وفي لفظ[3]: قال رضي الله عنه: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ قال

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ (أو: أُحَدِّثُكُمْ) بِشَيْءٍ إِذَا نَزَلَ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ كَرْبٌ أَوْ بَلَاءٌ مِنْ بَلَاءِ الدُّنْيَا دَعَا بِهِ فُرِّجَ عَنْهُ؟» فقيل له: بلى. قال:

«دُعَاءُ ذِي النُّونِ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ، إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

ومن أعظم الأدعية: سؤال الفردوس الأعلى، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ فِيهَا»، قالوا: يا رسول الله، أفلا نُنَبِّئُ الناس بذلك؟ قال:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَط

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، والترمذي (٣٥٤٤)، والنسائي (٥٢/٣)، وابن ماجه (٣٨٥٨)، وأحمد (٢٤٥/٣، وفي مواضع أُخَر)، واللفظ والزيادة الأولى له، وابن حبان (٢٣٨٢ - موارد)، والحاكم (٥٠٤/١) والزيادة الثانية له، وغيرهم، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٦٥٥) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٧٤٤).

الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ»(١).

الاستغفار

وأكثري يا نفس من الاستغفار، في الليل والنهار، فإنه لا بد من التقصير والغفلة، وحق الله عظيم، ونعمه لا تحصى، وعبادات العبد لا تفي بشكر بعضها، ولا بشكر نعمة واحدة منها، كالسمع أو البصر أو النطق، فكيف إذا كان يعصي اللهَ بنعمه!! فما أحوجه إلى الاستغفار حينئذ!

وأعظم ما ورد في الاستغفار: ما في حديث شداد بن أوسٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ [قال له:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى] سَيِّدِ الْاسْتِغْفَارِ؟ أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ(٢) لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي، فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ». قال:

«وَمَنْ قَالَهَا مِنْ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ (وفي رواية: حِينَ يُمْسِي)، وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»(٣).

قال شيخ الإسلام(٤): «قوله: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي): اعتراف بإنعام الرب وذنب العبد، كما قال بعض السلف: إني أصبح بين نعمة تنزل من الله علي، وبين ذنب يصعد مني إلى الله، فأريد أن أحْدِث للنعمة

---

(١) أخرجه البخاري (١١/٦ و٤٠٤/١٣ - فتح) وغيره.

(٢) أبوء: أُقِرّ وأعترف. «منذري».

(٣) أخرجه البخاري (٥٨٣١ و٥٨٤٨)، والترمذي (٣٣٩٣)، والزيادة له، والنسائي (٥٥٢٣)، وغيرهم.

(٤) «مجموع الفتاوى» (٧٣/٨).

شكرًا، وللذنب استغفارًا». اهـ.

وأشهر ما ورد فيه: ما في حديث زيد مولى النبي ﷺ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الْحَيَّ الْقَيُّومَ، وَأَتُوبُ إِلَيْهِ، غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إنْ كنا لَنَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مِائة مرة:

«رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»[2].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صلى رسول الله ﷺ الضحى، ثم قال:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ»، حتى قالها مئة مرة[3].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رسول الله ﷺ ونحن جلوس فقال:

«مَا أَصْبَحْتُ غَدَاةً قَطُّ إِلَّا اسْتَغْفَرْتُ اللهَ فِيهَا مِئَةَ مَرَّةٍ»[4].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«وَاللَّهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً»[5].

ومن صيغ الاستغفار الجامعة: ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه كان يدعو بهذا الدعاء:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم ٦١٩)، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٤١) وغيره، وصححه الألباني تحت الحديث (٤٤١٠) من «الضعيفة»، وانظر ـ إن شئت ـ «السلسلة الصحيحة» (١٦٠٠).

(٥) أخرجه البخاري (٦٣٠٧) وغيره.

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي جِدِّي وَهَزْلِي، وَخَطَئِي وَعَمْدِي، وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»(١).

ومما علمه ﷺ للصديق الأكبر: ما ورد أنه رضي الله عنه قال لرسول الله ﷺ: علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال:

«قُلِ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَ[إِنَّهُ] لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي، إِنَّكَ أَنْتَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ»(٢).

فضل الاستغفار

وفي فضل الاستغفار قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:١١٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال:٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَـٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ [هود:٣].

وقال سبحانه حاكيًا عن نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾ [نوح:١٠-١٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه، والزيادة للطبراني في «الدعاء» (٦١٧).

وقال سبحانه حاكيًا عن هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود:٥٢].

وعن عبد الله بن بُسْرٍ رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«طُوبَى لِمَنْ وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارًا كَثِيرًا»(١).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه، أن رسول الله [ﷺ] قال:

«مَنْ أَحَبَّ أَنْ تُسِرَّهُ صَحِيفَتُهُ فَلْيُكْثِرْ فِيهَا مِنَ الْاسْتِغْفَارِ»(٢).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»(٣).

وعن أبي سعيد [القطان] قال: سمعت الحسن يقول: أكثروا من الاستغفار في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طرقكم، وفي أسواقكم، وفي مجالسكم، [و]أينما كنتم، فإنكم [لا] تدرون متى تنزل المغفرة(٤).

وقال ابن رجب(٥): «قال لقمان لابنه: يا بني عَوِّدْ لسانك الاستغفار فإن لله ساعات لا يَرُدّ فيهن سائلًا».

ونقل ابن عبد الهادي عن شيخ الإسلام أنه قال(٦): «إنه ليقف خاطري

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الضياء في «المختارة» (٨٩٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٢٩٩).

(٣) أخرجه الحاكم (٧٦٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٠٤).

(٤) انظر «التوبة» لابن أبي الدنيا (١٥٨)، و«شعب الإيمان» (٦٤٧).

(٥) «لطائف المعا ف» (ص ٢١٤).

(٦) انظر «العقود الدرية - الفقي» (ص ٢١-٢٢).

في المسألة أو الشيء أو الحالة التي تشكل علي، فأستغفر الله تعالى ألف مرة أو أكثر أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل، وأكون إذ ذاك في السوق أو المسجد أو الدرب أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر والاستغفار إلى أن أنال مطلوبي». اهـ.

وشُرِع الاستغفار ونُدِب بعد الصلوات المكتوبات، وبعد قيام الليل، وبعد الإفاضة من عرفات، وفي كل الساعات والأوقات، وتفصيله ليس هذا موضعه.

استغفار السحر

وما أجمل يا نفس أن يكون لك وقت من السحر تستغفرين الله تعالى فيه! فإن لم تكوني مع المتهجدين في صلاتهم وذكرهم ودعائهم فلا أقل من أن تكوني معهم في استغفارهم!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٥-١٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

قال الحسن: مَدُّوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم.

ولعبد الوهاب عزام:

قلتُ لليل كم بصدرك سر … أنبئني ما أروعُ الأسرارِ
قال ما ضاء في ظلامي سر … كدموع المنيب في الأسحارِ

الصلاة على النبي ﷺ

واحرصي يا نفس على الصلاة على النبي ﷺ، فإن بالمداومة عليها تُكشف الكروب، وتُغفر الذنوب، وتُنال الحسنات، وتُرفع الدرجات، ويصلي عليك رب الأرض والسموات، فعن عُمَيْرٍ الأنصاري رضي الله عنه ـ وكان بدريًّا ـ قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ صَلَّى عَلَيَّ مِنْ أُمَّتِي صَلَاةً مُخْلِصًا مِنْ قَلْبِهِ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَرَفَعَهُ بِهَا عَشْرَ دَرَجَاتٍ، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ، وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ»(١).

وعن أُبَيِّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

قال أُبَيٌّ: قلت: يا رسول الله، إني أُكْثِرُ الصلاة عليك، فكم أَجْعَلُ لك من صلاتي؟ فقال: «مَا شِئْتَ». قال: قلت: الرُّبُعَ. قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قلت: النصفَ. قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قال: قلت: فالثُّلُثين، قال: «مَا شِئْتَ، فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»، قلت: أَجْعَلُ لك صلاتي كلَّها قال:

«إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ»(٢).

وفي رواية: «إِذَنْ يَكْفِيَكَ اللهُ مَا أَهَمَّكَ مِنْ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ».

قوله: (كم أجعل لك من صلاتي؟)؛ أي: كم أجعل من دعائي صلاة

---

(١) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٦٤) وغيره. وهو في «الصحيحة» برقم (٣٣٦٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٥٧)، وأحمد (١٣٦/٥) بالرواية الثانية، وغيرهما، وحسنه الألباني.

عليك؟ قاله المنذري[1].

قلت: يعني من دعائه النافلة الذي يدعوه لنفسه خاصة، زيادة على ما أُمِر به وجوبًا أو استحبابًا.

وقول النبي ﷺ: (إذن تُكفى همَّك، ويُغفر لك ذنبُك)، قال المباركفوري[2]: «الهم: ما يقصده الإنسان من أمر الدنيا والآخرة، يعني: إذا صرفت جميع أزمان دعائك في الصلاة علي أُعطيت مرام الدنيا والآخرة».

وقال الشوكاني[3]: «في هاتين الخصلتين جماع خير الدنيا والآخرة، فإن من كفاه الله همه سلم من محن الدنيا وعوارضها، لأن كل محنة لا بد لها من تأثير الهم وإن كانت يسيرة، ومن غفر الله ذنبه سلم من محن الآخرة، لأنه لا يوبِقُ العبدَ فيها إلا ذنوبُه».

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ دُعَاءٍ مَحْجُوبٌ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ ﷺ»[4].

حضور القلب

ويا نفس، أحضري قلبك في الذكر، وتنبهي لما تتلفظينه، فإن الذكر النافع الذي يؤتي ثماره العظيمة الموعودة هو ما تواطأ عليه القلب واللسان، وأيقنتِ به، واستشعرتِ فيه جلالَ الله تعالى وعظمتَه.

قال ابن القيم[5]: «أفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يورث المعرفة، ويهيج المحبة، ويثير الحياء، ويبعث على المخافة، ويدعو إلى المراقبة، ويَزَع عن

(١) «الترغيب» (٢/٢٠٥).

(٢) «تحفة الأحوذي» (٧/١٥٤).

(٣) «تحفة الذاكرين» (ص ٣٠).

(٤) أخرجه ابن مَخْلَد في «المنتقى» (رقم ٤٠) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٢٠٣٥).

(٥) «الوابل الصيب» (ص ١١٥).

التقصير في الطاعات، والتهاون في المعاصي والسيئات، وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة».

وقال النووي[1]: «المراد من الذكر حضور القلب، فينبغي أن يكون هو مقصود الذاكر، فيحرص على تحصيله، ويتدبر ما يذكر، ويتعقل معناه، فالتدبر في الذكر مطلوب كما هو مطلوب في القراءة، لاشتراكهما في المعنى المقصود». اهـ.

وقد تقدم قبل قليل قوله ﷺ في «سيد الاستغفار»: «وَمَنْ قَالَهَا ... مُوقِنًا بِهَا».

وهاهنا **فائدة**: وهي أن التلاوة والذكر لا يحسب شيء منها إلا إذا تلفظتِ به وحركتِ لسانك، فتنبهي واحذري ولا تهملي، فإن هذا متفق عليه عند العلماء، لا خلاف فيه.

الذكر الكثير

وأكثري يا نفس من الذكر ما استطعت، واجتهدي فيه بقدر وسعك، ولا تكسلي فيه ولا تني، فإنه مأمور به، ومندوب إليه، في الليل والنهار، وفي العشي والإبكار، وفي جميع المناسبات والأحوال، قال الله تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وفي هذه الآية أن أهل الذكر الكثير هم الذين يوفقون للاقتداء والتأسي بالنبي ﷺ.

فيا نفس، يا من تدعين اتباع السنة والأثر! أين اقتداؤك بالنبي ﷺ في كثرة ذكره لله عز وجل؟ أين اقتداؤك به ﷺ فيما يخالف هواك؟!

وقال سبحانه بعدها في نفس السورة: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ

(١) «الأذكار» (ص ٩).

وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [الأحزاب:٣٥].

ثم قال سبحانه في نفس السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۞ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ۞ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗا﴾ [البقرة:٢٠٠].

قال القاسمي[١]: «أي: فأكثروا ذكر الله، وابذلوا جهدكم في الثناء عليه وشرح آلائه ونعمائه، كما تفعلون في ذكر آبائكم ومفاخرهم وأيامهم بعد قضاء مناسككم».

وقال ابن القيم[٢]: «ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة، لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥].

قال القاسمي[٣]: «في الآية إشعار بأن على العبد ألا يفتر عن ذكر ربه

---

(١) «محاسن التأويل» (٨/٧١).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٣٩).

(٣) «محاسن التأويل» (٨/٧١).

أشغل ما يكون قلبًا، وأكثر ما يكون همًّا، وأن يلتجئ إليه عند الشدائد، ويقبل إليه بكليته، فارغ البال، واثقًا بأن لطفه لا ينفك عنه في حال من الأحوال». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى حاكيًا عن كليمه عليه الصلاة والسلام:

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَٰرُونَ أَخِي * ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ [طه:٢٩-٣٤].

قال ابن سعدي[١]: «علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل وغيره من أنواع العبادات». اهـ.

وأمر سبحانه وتعالى نبيه زكريا عليه السلام بالذكر الكثير، وذلك بعد أن ذكر آيته في ترك مكالمة الناس ثلاثة أيام إلا رمزًا، فقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران:٤١].

قال محمد بن كعب: لو رخص الله لأحد في ترك الذكر لرخص لزكريا، لأنه منعه من الكلام[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة، فمر على جبل يقال له: جُمْدَانُ فقال:

«سِيرُوا هَذَا جُمْدَانُ سَبَقَ الْمُفَرِّدُونَ[٣]». قالوا: وما المُفَرِّدُونَ، يا رسول الله؟

---

(١) «تفسيره» (٣/٢٣٠).

(٢) «الإكليل» للسيوطي (ص ٦٩).

(٣) أي: المنفردون.

قال: «الذَّاكِرُونَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»[1].

قال ابن القيم[2]: «عُمّال الآخرة كلهم في مِضمار السباق، والذاكرون هم أسبقهم في ذلك المِضمار، ولكن القَتَرة والغبار يمنع من رؤية سَبقهم، فإذا انجلى الغبار وانكشف رآهم الناس وقد حازوا قَصَب السَّبْق».

أولو الألباب

فيا نفس، الزمي الذكر، وأكثري الفكر، الزمي الذكر في جميع أحوالك، وأكثري الفكر فيما يوجب لك الإيقان، ويزيد في قلبك الإيمان، وكوني من أولي الألباب الذين قال الله تعالى فيهم:

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١]. الآيات.

فانظري يا نفس ـ هداك الله ـ وتأملي: إلامَ أوصلهم الذكر الكثير، وعلامَ أوقفهم الفكر المنير!! أوصلهم إلى أن يقولوا موقنين، ويسألوا الله مشفقين: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ إلخ.

فتشبهي يا نفس بأولي الألباب أولئك، من الأنبياء وأتباعهم من المؤمنين والصالحين، وانظري إلى اشتغالهم بطاعة ربهم، وكثرة ذكرهم له عز وجل، فهم أعلم الخلق بالله، وأعلم الخلق بأنفسهم، وأعلمهم بمصالحها، وما يجلب لها السعادة، وما يدفع عنها الشقاوة، فبهم فاقتدي، وبهديهم فتمسكي، وإياك أن تعكسي الأمر فتتشبهي بالكفرة والضُّلّال والفساق، الذين يظنون أنهم متحضرون وعلماء،

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦) وغيره.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٩٨-٩٩).

ومبصرون وعقلاء، وما هم ـ والعياذ بالله ـ إلا كالبهائم، لا هَمَّ لهم إلا الدنيا الفانية، وقضاء شهواتهم منها: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم:٧].

قال ابن سعدي: «قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب! وأظهروا من العجائب الذرية والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأُعجِبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزًا عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ولو نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، وما حُرِموا من العقل العالي، لعرفوا أن الأمر لله والحكم له في عباده، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، ولخافوا ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه، ويَحِلّوا بساحته.

وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبُنيت عليه لأثمرت الرُّقِيّ العالي والحياة الطيبة، ولكنها لما بُنِي كثير منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير». اهـ

وفي «الدر المنثور»[١]: «عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾، يعرفون عُمران الدنيا، وهم في أمر الآخرة جهال.

(١) (٤٨٤/٦)، مختصرًا.

وعن قتادة قال: يعلمون تجارتها وحِرفتها وبَيعها.

وعن عكرمة رضي الله عنه قال: معايشهم وما يصلحهم.

وعن الحسن قال: لَيَبْلُغ من حذق أحدهم بأمر دنياه أنه يقلب الدرهم على ظفره، فيخبرك بوزنه! وما يحسن يصلي!». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٤].

وقال سبحانه في حق أولي الألباب: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:١٧-١٨].

وقال سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٢١].

قال الغزالي(١): «اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء

(١) «الإحياء» (٣٣٠/١)، بتصرف وحذف يسير.

الله تعالى، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محبًّا لله تعالى وعارفًا بالله سبحانه، وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه، وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر في أسمائه وصفاته وأفعاله، ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها، والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة، وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار».

فضل الذكر

وفضائل الذكر يا نفس من تلاوة وتسبيح وتحميد وتهليل وغيرها لا تخفاكِ، ولا يعجزك الوقوف عليها ومطالعتها دائمًا، لتكوني متنبهة باستمرار، ذاكرة على الدوام، لا غافلة ولا وانية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥].

وقال سبحانه: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢].

قال خالد الرَّبَعي[١]: «﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾، قف عندها ولا تعجل، فلو استقر يقينها في قلبك ما جفت شفتاك».

وقال ابن القيم[٢]: «ولو لم يكن في الذكر إلا هذه وحدها لكفى بها فضلًا وشرفًا».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ». الحديث[٣].

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٢/٦٥).

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٤٢).

(٣) متفق عليه.

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «وهذه المعية معية خاصة، غير معية العلم والإحاطة العامة، فهي معية بالقرب والولاية والمحبة والنصرة والتوفيق».

قال: «والمعية الحاصلة للذاكر معية لا يشبهها شيء، وهي أخص من المعية الحاصلة للمحسن والمتقي، وهي معية لا تدركها العبارة ولا تنالها الصفة، وإنما تُعلم بالذوق».

وقال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ [طه:١٤].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

ومن فضائل الذكر العظيمة: أنه يوجب الاستغفار، ويَحل عقدة الإصرار، قال الله تبارك وتعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ، وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ، فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟» قالوا: بلى. قال: «ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى»[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٨٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

وقال شيخ الاسلام[1] مجيبًا من سأله عن أفضل الأعمال بعد الفرائض: «وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد، لكن مما هو كالإجماع بين العلماء بالله وأمره أن ملازمة ذكر الله دائمًا هو أفضل ما شَغل العبدُ به نفسَه في الجملة» ـ إلى أن قال: ـ «والدلائل القرآنية والإيمانية بصرًا وخبرًا ونظرًا على ذلك كثيرة». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ». قال: «فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا». قال: «فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ، وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالُوا: يَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ». قال: «فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟» قال: «فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ، مَا رَأَوْكَ؟» قال: «فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا».

قال: «يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟» قال: «[قَالُوا:] يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً.

قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟» قال: «يَقُولُونَ: مِنَ النَّارِ». قال: «يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَا وَاللهِ يَا رَبِّ، مَا رَأَوْهَا». قال: «يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟» قال: «يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٦٦٠/١٠).

قال: «فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ». قال: «يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج معاوية على حَلْقَةٍ فِي المسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال آللهِ ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفْكُمْ تُهْمَةً لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقَلَّ عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حَلْقَةٍ من أصحابه، فقال:

«مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قالوا: جلسنا نذكر الله ونَحْمَده على ما هدانا للإسلام، ومَنَّ به علينا. قال: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال:

«أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[2].

قال النووي[3]: «قوله ﷺ: (إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة)؛ معناه: يُظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم، وأصل البهاء الحسن والجمال، وفلان يباهي بماله وأهله؛ أي: يفخر ويتجمل بهم على غيرهم، ويظهر حسنهم».

وقال ابن القيم[4]: «فهذه المباهاة من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده، ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال».

---

(١) متفق عليه. والسياق للبخاري، والزيادة لمسلم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٠١) وغيره.

(٣) «شرح مسلم» (١٧/٢٣).

(٤) «الوابل الصيب» (ص ٩٣).

وعن الأَغَرِّ أبي مسلم، أنه قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد الخدري، أنهما شهدا على النبي ﷺ أنه قال:

«لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»(١).

قال الشوكاني(٢): «(قوله: حفتهم الملائكة)؛ أي: أحدقت بهم واستدارت عليهم. ومعنى (غشيتهم الرحمة): سترتهم، أَخْذًا من التغشي بالثوب. و(السكينة): هي الطُّمَأنينة والوقار».

قال: «وفي الحديث ترغيب عظيم للاجتماع على الذكر، فإن هذه الأربع الخصائص في كل واحدة منها على انفرادها ما يثير رغبة الراغبين، ويقوي عزم الصالحين على ذكر رب العالمين».

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا قَطُّ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(٣).

قال الصنعاني(٤): «الحديث من أدلة فضل الذكر، وأنه من أعظم أسباب النجاة من مخاوف عذاب الآخرة، وهو أيضًا من المنجيات من عذاب الدنيا ومخاوفها».

وقال ابن القيم(٥): «ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠) وغيره.

(٢) «تحفة الذاكرين» (ص ١٢).

(٣) أخرجه أحمد (٢٣٩/٥). وهو في «صحيح الجامع» (٥٥٢٠).

(٤) «سبل السلام» (٢١٣/٤).

(٥) «الوابل الصيب» (ص ٧٧).

التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا». اهـ.

واعلمي يا نفس أن الذكر ييسر لك سائر العبادات، ويسهلها عليك، ويحببها إليك، فكلما رأيت من حالك كسلًا أو مللًا افتحي عليك بابًا من أبواب الذكر، فسرعان ما تنشطي في العبادة، وسرعان ما تتهيأ لك، فعن عبد الله بن بُسْر رضي الله عنه، أن رجلًا قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي، فأخبرني بشيء أتشبث به. قال:

«لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ»(١).

قال ابن القيم(٢): «فدله الناصح ﷺ على شيء يبعثه على شرائع الإسلام والحرص عليها والاستكثار منها، فإنه إذا اتخذ ذكر الله شعاره أحبه وأحب ما يحب، فلا شيء أحب إليه من التقرب بشرائع الإسلام، فدله ﷺ على ما يتمكن به من شرائع الإسلام، وتسهل به عليه، وهو ذكر الله عز وجل».

قال: «يوضحه: أن ذكر الله عز وجل من أكبر العون على طاعته، فإنه يحببها إلى العبد، ويسهلها عليه، ويلذذها له، ويجعل قرة عينه فيها، ونعيمه وسروره بها، بحيث لا يجد لها من الكُلْفة والمشقة والثِقَل ما يجد الغافل، والتجربة شاهدة بذلك».

قلت: وللذكر أثره في تخفيف الصعب من مشاغل الحياة، وتهوين الشاق من أعمالها الدنيوية، فعن ابن أبي ليلى قال: حدثنا علي، أن فاطمة اشتكت ما تلقى من الرَّحَى في يدها، وأتى النبيَّ ﷺ سَبْيٌ، فانطلقتْ فلم تجده، ولَقِيَتْ عائشةَ فأخبرتْها، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشةُ بمَجِيءِ فاطمةَ إليها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ٩٦-٩٧).

فجاء النبي ﷺ إلينا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم فقال النبي ﷺ: «عَلَى مَكَانِكُمَا». فقعد بيننا حتى وجدتُ بَرْدَ قدمه على صدري، ثم قال: «أَلَا أُعَلِّمُكُمَا خَيْرًا مِمَّا سَأَلْتُمَا؟ إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا: أَنْ تُكَبِّرَا اللهَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، وَتُسَبِّحَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَتَحْمَدَاهُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَهْوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ».

قال علي: ما تركته منذ سمعته من النبي ﷺ. قيل له: ولا ليلةَ صِفِّينَ؟ قال: ولا ليلةَ صِفِّينَ[1].

قال ابن القيم[2]: «الذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر ما لم يُظَن فعلُه بدونه، وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابه أمرًا عجيبًا، فكان يكتب في اليوم من التصنيف ما يكتبه الناسخ في جمعة وأكثر، وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمرًا عظيمًا».

قلت: واستشهد ابن القيم بالحديث المتقدم، ثم قال: «فقيل: إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم». اهـ.

وعن عبد الله بن شداد رضي الله عنه، أن نفرًا من بني عُذْرَةَ ثلاثة، أتَوْا النبي ﷺ فأسلموا، قال: فقال النبي ﷺ: «مَنْ يَكْفِينِيهِمْ؟» قال طلحة: أنا. قال: فكانوا عند طلحة، فبعث النبي ﷺ بعثًا فخرج فيه أحدهم فاستُشهد. قال: ثم بعث بعثًا فخرج فيه آخر فاستُشهد. قال: ثم مات الثالث على فراشه، قال طلحة: فرأيت هؤلاء الثلاثة الذين كانوا عندي في الجنة، فرأيت الميت على فراشه أمامهم، ورأيت الذي استُشهد أخيرًا يليه، ورأيت الذي استشهد أولهم آخرهم. قال: فدخلني من ذلك. قال: فأتيت النبي ﷺ

---

(١) متفق عليه.

(٢) «الوابل الصيب» (ص ١٩٦).

فذكرت ذلك له. قال: فقال رسول الله ﷺ:

«وَمَا أَنْكَرْتَ مِنْ ذَلِكَ؟! لَيْسَ أَحَدٌ أَفْضَلَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَمَّرُ فِي الْإِسْلامِ، لِتَسْبِيحِهِ وَتَكْبِيرِهِ وَتَهْلِيلِهِ»[1].

قال الصنعاني[2]: «فضيلة العمر لما فيها من الذكر الكثير لا لذاتها».

الاتباع في الذكر

واتبعي يا نفس في الذكر ولا تبتدعي، وعليك بما جاء عن النبي ﷺ، ففيه الكفاية والهداية، واحذري من الاشتغال بغيره مما اخترعه الناس، وتفويت أذكار مَنْ لا ينطق عن الهوى، ومن أُعطي مفاتيح الكلِم وجوامعه[3]، وقد بلغت من الكثرة بحيث لا وقت أصلًا للاشتغال بسواها والتزامه إلا مع تضييعها أو تضييع شيء منها.

وسئل شيخ الإسلام عمن يقول: أنا أعتقد أن من أحدث شيئًا من الأذكار غير ما شرعه رسول الله ﷺ وصح عنه أنه قد أساء وأخطأ، إذ لو ارتضى أن يكون رسول الله ﷺ نبيه وإمامه ودليله لاكتفى بما صح عنه من الأذكار، فعدوله إلى رأيه واختراعه جهل وتزيين من الشيطان، وخلاف للسنة، إذ الرسول ﷺ لم يترك خيرًا إلا دلنا عليه وشرعه لنا، ولم يدخر الله عنه خيرًا، بدليل إعطائه خير الدنيا والآخرة، إذ هو أكرم الخلق على الله، فهل الأمر كذلك أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، لا ريب أن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٣/١) وغيره، وصححه الألباني على شرط مسلم في «الصحيحة» (٢٥٨/٢/رقم ٦٥٤).

(٢) «التنوير» (٢٣٥/٩).

(٣) جاء في «صحيح البخاري» وغيره، عن النبي ﷺ قال: «أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الكَلِمِ». وفي «صحيح مسلم» وغيره: «أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». وفيهما: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ».

وقال ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (٥٩/١): «وأسرار كلماته وأدعيته صلى الله عليه وآله وسلم فوق ما يخطر بالبال».

والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبِّر عنه لسان ولا يحيط به إنسان، وما سواها من الأذكار قد يكون محرمًا، وقد يكون مكروهًا، وقد يكون فيه شرك، مما لا يهتدي إليه أكثر الناس، وهي جملة يطول تفصيلها.

وليس لأحد أن يسن للناس نوعًا من الأذكار والأدعية غير المسنون، ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداعُ دينٍ لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحيانًا من غير أن يجعله للناس سنة، فهذا إذا لم يعلم أنه يتضمن معنًى محرمًا لم يجز الجزم بتحريمه، لكن قد يكون فيه ذلك، والإنسان لا يشعر به، وهذا كما أن الإنسان عند الضرورة يدعو بأدعية تُفتح عليه ذلك الوقت، فهذا وأمثاله قريب.

وأما اتخاذ ورد غير شرعي واستنان ذكر غير شرعي فهذا مما يُنهى عنه، ومع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يَعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل أو مفرط أو متعدٍّ[1].

وقال[2]: «ومن أشد الناس عيبًا من يتخذ حزبًا ليس بمأثور عن النبي ﷺ ـ وإن كان حزبًا لبعض المشايخ ـ ويدع الأحزاب النبوية التي كان يقولها سيد بني آدم، وإمام الخلق، وحجة الله على عباده».

التحذير من الغفلة

وحذر الله تبارك وتعالى من الغفلة تحذيرًا شديدًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥١٠-٥١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٥٢٥).

﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡ﴾ [الحشر:١٩].

قال ابن القيم[١]: «فلما نسوا ذكره والثناء عليه وتحميده وتمجيده نسيهم من رحمته، وأنساهم مصالح نفوسهم، فلم يعرفوها ولم يطلبوها، بل تركوها مهملة معطلة مع نقصها وعيوبها». اهـ.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ﴾ [الزخرف:٣٦].

قوله تعالى: (يعش)، قال ابن كثير: «أي: يتعامى، ويتغافل، ويعرض».

وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ [الزمر:٢٢].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لَا يَذْكُرُونَ اللهَ فِيهِ، إِلَّا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ، وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً»[٢].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا فَلَمْ يَذْكُرُوا اللهَ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً[٣]، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مَشَى طَرِيقًا فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً، وَمَا مِنْ رَجُلٍ أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ

(١) «الصواعق» (١٤٨١/٤).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٥٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أي: نقصًا. وقيل: تَبِعة. وقيل: حسرة. هذا، والنقص والتَبِعة مسببان للحسرة.

يَذْكُرِ اللهَ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِ تِرَةً»(١).

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللهَ فِيهِ، وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ، إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً، فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»(٢).

OOOOO

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٣٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٠) وغيره، وصححه الألباني.

ويقول لها: أيا نفس، أين جهادك في سبيل الله تعالى؟! أيا نفس، كيف تتخاذلين عن ذروة سنام الدين، وتنكصين عن التأسي بسيد الأنبياء والمرسلين، وتتخلَّيْن عن الدفاع عن المسلمين، وتخذلين المظلومين والمستضعفين؟!

أيا نفس، ألم تسمعي قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

قال ابن القيم[١]: أفهمت الآية خطر النفس الإنسانية وشرفها وعظم مقدارها، فإن السلعة إذا خفي عليك قدرها فانظر إلى المشتري لها من هو؟ وانظر إلى الثمن المبذول فيها ما هو؟ وانظر إلى من جرى على يده عقد التبايع.

فالسلعة النفس، والله سبحانه المشتري لها، والثمن لها جنات النعيم، والسفير في هذا العقد خير خلقه من الملائكة وأكرمهم عليه، وخيرهم من البشر وأكرمهم عليه.

قد هيؤوك لأمرٍ لو فَطنتَ لهُ فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهملِ

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَأُخْرَىٰ

(١) «حادي الأرواح» (ص ١١٠-١١١).

﴿ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الصف:١٠-١٣].

وقول رسوله ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ[١] فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ.

وَمَنْ سَأَلَ اللَّهَ الْقَتْلَ مِنْ نَفْسِهِ صَادِقًا ثُمَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ فَإِنَّ لَهُ أَجْرَ شَهِيدٍ.

وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ نُكِبَ[٢] نَكْبَةً فَإِنَّهَا تَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَغْزَرِ مَا كَانَتْ، لَوْنُهَا لَوْنُ الزَّعْفَرَانِ، وَرِيحُهَا رِيحُ الْمِسْكِ.

وَمَنْ خَرَجَ بِهِ خُرَاجٌ[٣] فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ طَابَعَ الشُّهَدَاءِ[٤]»[٥].

(وفي رواية): «مَنْ سَأَلَ اللَّهَ الشَّهَادَةَ مُخْلِصًا أَعْطَاهُ اللَّهُ أَجْرَ شَهِيدٍ وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ».

فتأملي يا نفس كيف قد جعل الله هذا الثواب لمن سأل اللَّهَ تعالى الشهادة مخلصًا وإن مات على فراشه! فكيف بمن سعى نحو الشهادة على رجليه جاهدًا، وطلبها في مظانّها قاصدًا؟! فكيف بمن قضى دهره مجاهدًا في سبيل الله تعالى؟!

ويا نفس، أين تحديث رُوحك بالجهاد والغزو، وأنت ترَيْن الهوان والنكال في أهل الإسلام من أعدائهم؟!

ألم تسمعي قول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ»[٦].

---

(١) بالفتح والضم: قدر ما بين الحَلْبتين من الوقت، لأن الناقة تُحلب ثم تُترك سُوَيْعَةً يَرْضِعُها الفَصِيل لِتَدُرَّ، ثم تُحلب ثانية. «سندي».

(٢) نُكِب: أي أُصيب. والنَّكْبة: ما أصابه في سبيل الله من وقوعه عن دابته أو مركبه، أو وقوع سلاحه عليه أو ارتداده عليه أو تفجره في يده، أو من الحجارة، ونحو ذلك.

(٣) هي القروح والدمامل.

(٤) أي: هيئتهم وسماتهم.

(٥) أخرجه أبو داود (٢٥٤١) وغيره، والرواية الثانية لابن حبان في «صحيحه» (١٦١٥- موارد)، وصححه الألباني.

(٦) أخرجه مسلم (١٩١٠) وغيره.

قلت: لأن النفاق وضعف الإيمان ووَهَن الاعتقاد هو الذي يدعو إلى التمسك بالدنيا وزينتها، حتى يصل الأمر إلى ترك الغزو، بل حتى إلى عدم تحديث النفس به.

وسمعت شيخنا أبا محمد عبد الله عزام يقول: يبقى الداعية يحاضر في الناس، ويخطب فيهم، ويعظهم ويعلمهم، عشرات السنين، وقد يبلغ الخمسين، بل الستين، أو أكثر، ولم يَغْزُ يومًا في سبيل الله تعالى، ولم يقاتل ساعة، وأبواب الجهاد مفتوحة!!! اهـ.

وما هذا إلا من ضعف النفس، واتباعها هواها، واستجابتها لداعي الشيطان، وإعراضها عن داعي الرحمن، فعن سَبْرَةَ بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ:

فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ؟! فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ؟! وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ(١)، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ.

ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ».

فقال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ.

وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ.

---

(١) الطِّوَل والطِّيَل بالكسر: الحبل الطويل يُشَدُّ أحد طرَفيه في وتِد أو غيره، والطرَف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويَرْعَى ولا يَذْهَب لوجهه. «نهاية».

وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ.
أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»[1].

فيا نفس، إياك والتثاقل إلى الأرض إذا للنفير دُعِيتِ، وإلى القتال نُدِبْتِ، وعاتبي روحك إن فعلت، وخوفيها من الله وعقابه، وازجريها بتحذيره وعتابه، في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

وإياك يا نفس إياك والفرار، إذا زحف الكفار، ووقعت الأهوال، وثبت الأبطال، قال الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ۞ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

فيا لَلَّهِ ما أعظم هذا الوعيد! وما أشد هذا التهديد! فالحذر الحذر يا نفس! إن القتل في الإقبال مهما كان خطره، وعظم ألمه، أهون بكثير مما تضمنه هذا الوعيد مع الإدبار، كيف وقد وُعِدَ المقاتل في سبيل الله على كل حال بالأجر العظيم، والثواب الكريم؟!

كيف والشهيد لا يجد من مَسِّ القتل إلا كما يجد أحدنا من مَسِّ القرصة؟! فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه النسائي (٦/٢١-٢٢) وغيره. وهو في «صحيح الجامع» (١٦٤٨).

«مَـا يَجِـدُ الشَّـهِيدُ مِـنْ مَـسِّ الْقَتْـلِ إِلَّا كَمَـا يَجِـدُ أَحَـدُكُمْ مِـنْ مَـسِّ الْقَرْصَةِ»[1].

قال ابن النحاس بعد أن تكلم على شدة سكرة الموت وعظيم ألمه[2]: «يا هذا، انظر ما تختاره لنفسك وتفر إليه، أهو خير أم القتل في سبيل الله الذي لا يجد الإنسان من ألمه إلا كمسِّ قرصة؟ ولَمَا بعد الموت أفظع وأبشع، وأهم وأشنع، كضمة القبر ووحشته، وفتنة الملكين وسؤالهما، والصيحة، والبعث، والحشر، وكُربات القيامة وأهوالها، من تطاير الصحف، وجواز الصراط، ومناقشة الحساب على الجليل والحقير، والفتيل والقطمير، ووزن الخير والشر بموازين الذر، وأخذ القِصاص، وغير ذلك من أهوالٍ يطول ذكرها: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج:٢].

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ ... وإلا فـــإني لا إخالُـــك ناجيًـــا

كم بين هذا وبين من هم: ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩-١٧٠]؟!

قد أمِنوا من عظيم الأهوال والكُربات، وسكنوا بأجل المَحالّ في أعلى الغرفات، وكرعوا من النعيم أكوابًا، وادّرعوا من التنعيم أثوابًا، ومُتِّعوا بجنان الفردوس مستقرًّا ومآبًا، وتمتعوا بحور عين كواعب أترابًا.

أرواحهم في جوف طير خضر تجول في الجنان، تأكل وتشرب وتأوي إلى

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٨) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «مشارع الأشواق» (١/١٨٩-١٩١).

قناديل معلقة في عرش الرحمن.

يتمنون الرجوع إلى هذه الدار ليُقتلوا في سبيل الله عشر مرات، لِمَا بهرهم من ثواب الله الجزيل، للجريح في سبيله والقتيل.

فما أقبح العجز عن انتهاز هذه الفرص! وما أنجح الاحتراز بالجهاد من مقاساة تلك الغصص! وليت شعري! بأي وجه يَقْدُم على الله غدًا من فر اليوم من أعدائه، وماطله بتسليم نفسه بعد عقد شرائه، ودعاه إلى جنته ففَرّ وزهد في لقائه؟!

وبأي عذر يعتذر بين يديه من هو عن سبيله ناكب، وعما رغبه فيه من الفوز العظيم راغب؟!

اللــهم إليك يا من بيده أَزِمَّة القلوب نرغب في ثباتها، وعليك يا علام الغيوب نعتمد في تصحيح قصدها وإخلاص نياتها، وإلى غناك نَمُدّ أيدي الفاقة أن ترزقنا شهادة ترضاها، وأن تُنِيل نفوسنا من ثبات الأقدام في سبيلك مناها، فالحَراك والسكون إليك، والمُعَوَّل في كل خير عليك، وأنت على كل شيء قدير».

لا عمل يعدل الجهاد

واعلمي يا نفس وأيقني أنه لا شيء من الأعمال يعدل الجهاد في سبيل الله تعالى، وكيف يعدله شيء والمجاهد يقدم روحه لله تعالى، ويبذل مهجته لإعلاء كلمته؟!!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ

وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ: رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً(١) أَوْ فَزْعَةً(٢) طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ(٣).

أَوْ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ(٤) فِي رَأْسِ شَعَفَةٍ(٥) مِنْ هَذِهِ الشَّعَفِ، أَوْ بَطْنِ وَادٍ مِنْ هَذِهِ الْأَوْدِيَةِ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ الْيَقِينُ، لَيْسَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فِي خَيْرٍ»(٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ مَنْزِلًا؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال:

«رَجُلٌ آخِذٌ بِرَأْسِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يُقْتَلَ، وَأُخْبِرُكُمْ بِالَّذِي يَلِيهِ؟». قلنا: نعم يا رسول الله. قال:

«رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ، يُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَيَعْتَزِلُ شُرُورَ النَّاسِ، وَأُخْبِرُكُمْ بِشَرِّ النَّاسِ؟». قلنا: نعم يا رسول الله. قال:

«الَّذِي يُسْأَلُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلَا يُعْطِي بِهِ»(٧).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رجل من أصحاب رسول الله ﷺ بشِعْبٍ فيه عُيَيْنَةٌ من ماء عذبة، فأعجبته لطِيبها، فقال: لو اعتزلتُ الناس

---

(١) هي الصوت عند حضور العدو. «نووي».

(٢) هي النهوض إلى العدو. «نووي».

(٣) أي: يطلبه في مواطنه التي يرجى فيها، لشدة رغبته في الشهادة. «نووي».

(٤) تصغير الغنم؛ أي: قطعة منها. «نووي».

(٥) الشَّعَفَة: أعلى الجبل. «نووي».

(٦) أخرجه مسلم (١٨٨٩) وغيره.

(٧) أخرجه الترمذي (١٦٥٢)، والنسائي (٢٥٦٩)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

فأقمت في هذا الشِّعْبِ، ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ، فذَكَرَ ذلك لرسول الله ﷺ، فقال:

«لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ مُقَامَ أَحَدِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ سَبْعِينَ[1] عَامًا، أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، وَيُدْخِلَكُمُ الْجَنَّةَ، اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، مَنْ قَاتَلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَاقَ نَاقَةٍ[2] وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»[3].

وعنه رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلَّنِي على عمل يَعْدِلُ الجِهادَ. قال: «لَا أَجِدُهُ». قال:

«هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ وَلَا تَفْتُرَ وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ؟» قال: ومن يستطيع ذلك؟!

قال أبو هريرة: إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ في طِوَلِهِ فيُكْتَبُ له حسنات[4].

(وفي رواية): قال: قيل للنبي ﷺ: ما يَعْدِلُ الجهادَ في سبيل الله عز وجل؟ قال: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ». وقال في الثالثة:

«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى».

(وفي رواية): قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) المحفوظ: «سِتِّينَ سَنَةً»، انظر «صحيح الترغيب» (٢/١٠٣).

(٢) قَدْر ما بين الحَلْبتين من الوقت.

(٣) أخرجه الترمذي (١٦٥٠) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (٦/٤- فتح)، والنسائي (٦/١٩)، كلاهما بالرواية الأولى، ومسلم (١٨٧٨)، والترمذي (١٦١٩)، كلاهما بالرواية الثانية، والرواية الثالثة للنسائي (٦/١٨)، وقول أبي هريرة: «إن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ فِي طِوَلِهِ فيُكْتَبُ له حسنات» عند البخاري وحده.

«مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ـ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُجَاهِدُ فِي سَبِيلِهِ ـ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْخَاشِعِ الرَّاكِعِ السَّاجِدِ».

وعن خالد بن الوليد السَّكْسَكِي قال: سمعت رجلًا من أهل دمشق يحدث ابن أبي كبشة بالهند، زعم أنه أدرك رسول الله ﷺ قال: أقبل عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أريد أن أُبْتَعَثَ في هذا البعث الذي أمر به رسولُ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «نَعَمْ». قال: فإني أريد أن أخرج فأشتري جهازًا وظهرًا من الأحياء التي وراء المدينة، قال: فخرج، فما انصرف حتى بعث رسول الله ﷺ ذلك البعث، وأقبل عبد الرحمن فقال: يا رسول الله، فاتني ذلك البعث، وإنما كنت في جهازي، فأخبِرني بعمل أعمله بعدهم أبلغ به درجتهم، فقال له النبي ﷺ:

«هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!! لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ». قال: أوَ صيامٍ أوَ صلاةٍ أوَ صدقةٍ؟ قال: «تَسْتَطِيعُ أَنْ تَقُومَ فَلَا تَنَامَ، وَتَصُومَ وَلَا تُفْطِرَ، حَتَّى يَنْصَرِفُوا؟» قال: لا، فقال له رسول الله ﷺ:

«لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ مَا بَلَغْتَ دَرَجَاتِهِمْ»(١).

وعن معاذ بن سهل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أن امرأة أتته فقالت: يا رسول الله، انطلق زوجي غازيًا، وكنت أَقتدي بصلاته إذا صلى، وبفِعْلِهِ كُلِّهِ، فأخبرني بعمل يُبْلِغُنِي عَمَلَهُ حتى يرجع، فقال لها:

«أَتَسْتَطِيعِينَ أَنْ تَقُومِي وَلَا تَقْعُدِي، وَتَصُومِي وَلَا تُفْطِرِي، وَتَذْكُرِي اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَلَا تَفْتُرِي، حَتَّى يَرْجِعَ؟» قالت: ما أُطِيقُ هذا يا رسول الله. فقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ طُوِّقْتِيهِ مَا بَلَغْتِ الْعُشْرَ مِنْ عَمَلِهِ حَتَّى يَرْجِعَ»(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «كتاب الجهاد» (رقم ٦٩)، وفي «الآحاد والمثاني» (٢٤٤٩)، وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٥٢٠٦) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (١٣٢١).

قال ابن النحاس[1]: «فإذا كان أولو الهمم العلية، والنفوس الأبية، والشهامة الدينية، المضاعفة أجورهم بالصحبة النبوية، الفائزون بالسبق إلى كل كمال، الحائزون من رتب الاجتهاد كل مقام عال، لا يستطيعون عملًا يعدل الجهاد، فكيف تَقَرُّ أعين أمثالنا من غير اجتهاد؟! وكيف تسكن إلى الأعمال اليسيرة بالهمم الدنية الحقيرة، مع ما يشوبها من الرياء وعدم الإخلاص، والدسائس التي لا يكاد يرجى معها خلاص؟! اللـهم أيقظنا من هذه الغفلة، ووفقنا للجهاد في سبيلك قبل حلول النَّقلة، فأنت المرجو لكل خير، ولا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ.

فصل

يا نفس، فإن أبيت أن تكوني مع الأبطال، في ساح القتال، ومَيدان النزال، وجَبنت عن ذلك، وتقاعست عنه، فلا أقلَّ يا نفس من أن تكُفّي لسانك عن أعراض المجاهدين، ولا أقل من أن تسألي الله تعالى لهم النصر على أعدائهم والتمكين، أما أن تجلسي على الأرائك مع ربات الخدور، يطاف عليك بالطعام والشراب في الغدو والبكور، ثم تشيري من بعيد بالطعن على أهل الثغور!! فلا والله ما هذا بفعل الرجال! إنما هو فعل المتخنثين الأرذال!

نصيحة غالية
من ابن النحاس للمتخلف عن الجهاد

وهذه يا نفس نصيحة غالية مؤثرة من ابن النحاس، يخاطب فيها المتخلف عن الجهاد، فألقيها يا نفس عليك، وخاطبي بها قلبك، وشنِّفي أذنيك.

قال رحمه الله تعالى[2]: «اعلم أيها الراغب عما افترِض عليه من الجهاد،

(١) «مشارع الأشواق» (١٤٩/١).

(٢) «مشارع الأشواق» (١/١١٣-١٣٢)، مختصرًا.

الناكب عن سنن التوفيق والسداد، أنك قد تعرضت للطرد والإبعاد، وحرمت والله الإسعاد بنيل المراد، ليت شعري! هل سبب إحجامك عن القتال، واقتحامك معارك الأبطال، وبخلك في سبيل الله بالنفس والمال، إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل، أو فراق محبوب من أهل ومال، أو ولد وخدم وعيال، أو أخ لك شقيق، أو قريب عليك شفيق، أو ولي كريم، أو صديق حميم، أو ازدياد من صالح الأعمال، أو حب زوجة ذات حسن وجمال، أو جاه منيع، أو منصب رفيع، أو قصر مشيد، أو ظل مديد، أو ملبس بهي، أو مأكل هني؟!!

ليس غير هذا يقعدك عن الجهاد، ولا سواه يبعدك عن رب العباد، وتالله ما هذا منك أيها الأخ بجميل، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة:٣٨].

أصغ لما أملي عليك من الحجج القاطعة، واستمع ما ألقي عليك من البراهين الساطعة، لتعلم أنه ما يقعدك عن الجهاد سوى الحرمان، وليس لتأخرك سبب إلا النفس والشيطان.

أما سكونك إلى طول الأمل، وخوف هجوم الأجل، والاحتراز من الموت الذي لا بد من نزوله، والإشفاق من الطريق الذي لا بد من سلوك سبيله: فوالله إن الإقدام لا ينقص عمر المقدِمين، كما لا يزيد الإحجام عمر المستأخرين:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٤].

﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:١١].

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت:٥٧].

وإن للموت لسكرات أيها المفتون، وإن هول المطلع شديد، ولكن لا

تشعرون، وإن للقبر عذابًا لا ينجو منه إلا الصالحون، وإن فيه لسؤال الملكين الفاتنين: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

ثم بعد ذلك الخطر العظيم، إما سعيدًا فإلى النعيم المقيم، وإما شقيًّا فإلى عذاب الجحيم، والشهيد آمنٌ من جميع ذلك، لا يخشى شيئًا من هذه المهالك.

وقد قال رسول الله ﷺ: «لَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ أَلَم الْقَتْلِ إِلَّا كَمَسِّ الْقَرْصَةِ»(١).

فما يقعدك أيها الأخ عن انتهاز هذه الفرصة؟! ثم تُجَارُ في القبر من العذاب، وتفوز عند الله بحسن المآب، وتأمن من فتنة السؤال، وما بعد ذلك من الشدائد والأهوال، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فرحين بما آتاهم الله من فضله مستبشرين، أرواحهم في جوف طير خضر تسرح في عليين، فكم بين هذا القتل الكريم، وبين الموت الأليم؟!

وإن قلت: يعوقني عن الجهاد أهلي ومالي، وأطفالي وعيالي، فقد قال الله تعالى قولًا بينًا لا يخفى: ﴿ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ ﴾ [سبأ:٣٧].

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران:١٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٨) بنحوه. وقد تقدم (صفحة ٢٤٠).

ﭐلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

والآيات في مثل هذا كثيرة، والحُجَج واضحة منيرة.

وفي الحديث: «لَوْ أَنَّ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»(١).

وقال ﷺ: «موضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها، وغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، وخمار جارية من أهل الجنة خير من الدنيا وما فيها»(٢).

فكيف يصدك عن هذا الملك العظيم أهل عن قليل يكونون في الأموات؟! وتمزقهم أيدي الشتات، وتفرقهم نوازل الآفات، مع ما يصدر منهم من النكد والعداوات، والأخلاق السيئات، والحقد على ما عرّضت من حظوظهم منك للفوات، وهجرانهم إياك عند قلة المال، وتحولهم عن ودك عند تغيُّر الأحوال، وأعظم من ذلك فرارهم منك في المآل، ومحاسبتهم إياك على مثاقيل الذر في موقف السؤال، حتى يود كل واحد منهم لو نجا وحملك ما عليه من الذنوب والأثقال.

أم كيف يصدك ما هو في معرض الذهاب والزوال؟! ينفر عنك عند فقده الأخلاء وتتفرق العيال، ويهجرك كل صديق كان يكثر لك الوصال، ثم يوم القيامة تسأل عنه من أين اكتسبت، وفيم أنفقت؟ ويا له من سؤال، في يوم

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠) وغيره، ولفظه: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ» إلخ، وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (٦٨٦).

(٢) متفق عليه. وقد تقدم (صفحة ١٦٧)، وليراجَع لفظه.

تشيب فيه الأطفال، وتعظم فيه الأهوال، وتكثر فيه الزحام، ويشتد الخصام، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، من هول ذلك المقام، ويعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام، ويحاسب فيه الأغنياء على النقير والقطمير، والخطير والحقير، والناقص والتمام، ويسبق الفقراء الأغنياء إلى الجنة بخمس مائة عام، فيأكلون ويشربون ويتنعمون في دار السلام، وأنت أيها الغني محبوس عنهم بسبب مالك، تخشى أن يؤمر بك إلى مالك.

أفتحزن على فراق ما إن قلّ أكثرَ همَّك وعَنّاك، أو كَثُرَ فأغناك وأطغاك، وإن مت وتركته وراءك أرداك، وبين يديك موقف الحساب عليه وما أدراك؟! وهب أن لك الدنيا بحذافيرها، أليس إلى الفنا مصيرها؟! ولا بد من فراقك لها، وإن ركنت إلى غرورها.

وإن تذكرت ولدك الكريم، وحنوت عليه حنو الأب الشفيق الرحيم، فقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾ [التغابن:١٥].

وتاللَّهِ لَلَّهُ أرحم بالولد من أبيه وأمه، وأخيه وعمه، وكيف لا وهو قد رباه قبلهم برحمته، في ظلمات الأحشاء، وقلبه بلطفه ورأفته في أرحام الأمهات وأصلاب الآباء، فأين كانت شفقتك عليه إذ ذاك، وحنوك وبعدك عنه ودنوك؟!

وكيف يقعدك عن دار النعيم، وجوار الرب الكريم، ولد إن كان صغيرًا فأنت به مهموم، أو كبيرًا فأنت به مغموم، أو صحيحًا فأنت عليه خائف، أو سقيمًا فقلبك لضعفه واجف؟! إن أدبته غضب وشرد، أو نصحته حرد وحقد، مع ما تتوقعه من العقوق المعتاد، من كثير من الأولاد، إن أقدمت جَبَّنَك، وإن سمحت بَخَّلَك، وإن زهدت رغبك، عظمت به الفتنة، وأنت تعدها منة، وعم به البلاء، وأنت تراه من النعماء، تود سرورَه بهمك، وفرحَه بحزنك، وربحَه

بخسرانك، وزيادة درهمه وديناره بخفة ميزانك، تتكلف من أجله ما لا تطيق، وتدخل بسببه في كل مضيق.

ألقه يا هذا عن بالك إلى من خلقك وخلقه، وتوكل في رزقه بعدك على الذي رزقك ورزقه، أسلمت إلى الله تدبيره في الملك والملكوت، ولا تسلم إليه تدبير ولدك بعدما تموت! وهل إليك من تدبيره قليل أو كثير؟! ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

والله لا تملك له ولا لنفسك نفعًا ولا ضرًّا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تستطيع أن تزيد في عمره يسيرًا، ولا في رزقه نقيرًا، وقد تفترسك المنية بغتة، فتمسي في قبرك صريعًا وبعملك أسيرًا، ويصبح ولدك العزيز بعدك يتيمًا، ويقسم مالك وارثك عدوًّا كان أو رحيمًا، ويفترق عيالك ظاعنًا ومقيمًا، وتقول: يا ليتني كنت مع الشهداء فأفوز فوزًا عظيمًا، فيقال لك: هيهات هيهات، فات ما فات، وعظمت الحسرات، وخلوت بما قدمت من حسنات أو سيئات.

ألا واسمع قول الله العزيز الغفور، محذرًا لك ما أنت فيه من الغرور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

هذا، وإن كان ولدك من السعداء فستجمَع بينك وبينه الجنان، وإن كان من الأشقياء فليكن من الآن، لا يجتمع أهل الجنة مع أهل النار، ولا الأخيار مع الأشرار، ولعل الله يرزقك الشهادة فتشفع فيه، وتكون بفراقك له ساعيًا في أن تنجيه، احرص على ما ينجيك من العذاب واجهد فيه، فغدًا: ﴿يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۞ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۞ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۞ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٧]، إن هذا لهو البيان العظيم، ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣، والنور:٤٦].

وإن قلت: يشق على فراق الأخ والقريب، والصديق والحبيب، فكأنك بالقيامة وقد قامت على الخلق أجمعين: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧]، فإن كانت الصداقة لله، فستجمع بينكما عليّون، في نعيم أنتم فيه خالدون، وإن كانت الصحبة لغير الله، فالفراق الفراق، قبل أن يحشر الرفاق مع الرفاق، لأن المرء في الآخرة مع محبوبه، لمشاركته إياه في مطلوبه، فإن كان من الأتقياء نفع أخاه، وإن كان من الأشقياء ضره وأرداه، مع ما يتوقع في هذه الدار من الأقرباء والأصدقاء من الجفاء، والصد وقلة الوفاء، وكثرة الكدر وعدم الصفاء، وتغيّرهم لديك، وتلونهم عليك، وإساءتهم إليك، وهجرهم إياك عند فوات الأغراض، وما تَجُنُّهُ قلوبهم من العلل والأمراض، إن وقعتَ في شدة تخلَّوْا عنك، أو واقعت زلة تبرؤوا منك، إخوان السراء، وأعداء الضراء، صداقتهم مقرونة بالغِنا، وصحبتهم مشحونة بالعَنا، إن قل مالك مَلُّوك، وإن حال حالُك فما أخوك أخوك.

وإن شككت في شيء من هذا البيان، فسيظهر لك يقينًا عند الامتحان، وإن ظفرتْ يدك منهم بأخ من إخوان الصفا، وأين ذاك؟! أو خِلٍّ من خِلّان الوفا، وما أراك، فأنتما غدًا كما قال أصدق القائلين: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ [الحجر:٤٧].

ولا يقعدك يا هذا عن الجهاد حبيب أو قريب، فربما افترقتما قبل المغيب، ففاتك الثواب العظيم، وبان عنك الصديق الحميم، وحُرِمْتَ ما ترومُه من الدرجات، وندمت فلم يغنك الندم على ما فات.

وفي الحديث: «إن جبريل عليه السلام قال للنبي: يا محمد، إن الله يقول لك: عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت

فإنك مجزي به»[1].

فانظر ما اشتملت عليه هذه الكلمات اليسيرة، من ذكر الموت وفراق الأحبة، والجزاء على الأعمال، أَبَعْدَ هذا الإنذار إنذار؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣، والنور:٤٤].

وإن قلت: يقعدني منصبي وجاهي الرفيع، وعزي وحجابي المنيع، فليت شعري كم فارق منصبُك محبًّا له إلى أن وصل إليك، وكم زال ظله من مغبط نفسه به إلى أن ظلل عليك، وسيَبِين عنك كما عنهم بان، وكأنك بذلك وقد كان، فإذا أنت لفراقه ثكلان، وقلبك مغمور بالحسد، وصدرك معمور بالأحزان، فلم يدم لك ما أنت فيه من المنصب والجاه، ولم تفز بما أنت طالبه من أسباب النجاة، وإنّ لآخِرَ من يخرج من النار ويدخل بعد الداخلين مثل ملك أعظم [ملك] من ملوك الدنيا، وعشرة أمثاله معه أجمعين.

فما ظنك بمن يكون مع السابقين الأولين، من النبيين والصديقين، والشهداء والصالحين؟! مع ما لا يخفى عليك مما في المنصب من النصب والتعب، وشر العاقبة وسوء المنقلب، وما تكسب به من كثرة الأعداء والحساد، وما اشتملت عليه بواطنهم من الضغائن والأحقاد، وشماتتهم بك عند زواله، وتلهفك حزنًا على ما فات من إقباله، وزوال أكثر حشمك وخدمك، وإعراض من كان يُسَرُّ بتقبيل قدمك.

وإن قلت: يشق علي فراق قصري وظله، وبنائه المشيد وعلو محله، وحشمي فيه وخدمي، وسروري ونعمي، فليت شعري هل هو إلا بيت من طين وحجر

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨ و٤٨٤٥) وغيرُه، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه وغيره، وأحد لفظيه: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: «يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ». وحسن إسناده المنذري في «الترغيب»، وانظر «الصحيحة» (٨٣١).

وتراب، ومدر وحديد وخشب، وجريد وقصب، إن لم يكنس كثرت فيه القمامة، وإن لم يسرج فما أشد ظلامه، وإن لم يُتعاهد بالبناء فما أسرع انهدامه، وإن تعاهدته فمآله إلى الخراب، وعن قليل يصير كالتراب، يتفرق عنه السكان، وتنتقل عنه القُطَّان، ويعفو أثره، ويندرس خبره، ويُمحى رسمه، ويُنسى اسمه.

استبدِل أيها المغرور قصرك مع سرعة فنائه بدار باقية، قصورها عالية، وأنوارها زاهية، وأنهارها جارية، وقطوفها دانية، وأفراحها متوالية.

إن سألت عن بنائها، فلبنة فضة، ولبنة ذهب، ولا تعب فيها كلا ولا نصب، وإن سألت عن ترابها فالمسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فاللؤلؤ والجوهر.

وإن سألت عن أنهارها، فأنهار من لبن، وأنهار من عسل، ونهر الكوثر.

وإن سألت عن قصورها، فالقصر من لؤلؤة مجوفة، طولها سبعون ميلًا في الهواء، أو من زمردة خضراء، باهرة السناء، أو ياقوتة حمراء، عالية البناء، وللمؤمن في كل زاوية من زواياها أهل وخدم، لا يبصر بعضهم بعضًا لسعة الفِناء.

وإن سألت عن فرشها، فمن استبرق بطائنها، فما ظنك بظهائرها؟!

ليس عليها نوم ولا سِنة، بل هم عليها متكئون، مقبل: ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات:٢٧، وفي مواضع أُخر].

وإن سألت عن أكلها، فموائدها موضوعة، وأُكلها على الدوام، وثمارها لا ممنوعة ولا مقطوعة لطول المقام، بل فاكهة نضيجة، ﴿مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢٠-٢١]، ويسقون فيها: ﴿مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ * خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٥-٢٦].

لا يتغوط أهلها ولا يبولون، ولا يبصقون، ولا يمتخطون، أكلهم يرشح من جلودهم كالمسك ريحًا، ولونًا كالجمان، فإذا البطن قد ضمر كما كان.

وإن سألت عن خدمها، فالولدان المخلدون: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان:١٩-٢٢].

وبالجملة، فكل ما ذكرت لك هو كما جاء في الخبر، وإلا ففي الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[١].

وإن سألت عن مدة بقائهم في هذا النعيم العظيم، والمقام الكريم الجسيم، فهم أبدًا فيه خالدون، أحياء لا يموتون، شباب لا يهرمون، أصحاء لا يسقمون، فرحون لا يحزنون، راضون لا يسخطون، من خوف القطيعة والطرد أبدًا آمنين، في مقام أمين، ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۚ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

فقس بعقلك ما بين هذا الملك العظيم الخطير، وبين قصرك ذي العمر القصير، والقدر اليسير، وانظر إذا فارقته بالشهادة إلى ماذا تصير، إن المقام فيما أنت فيه لغرور، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر:١٤].

وإن قلت: أرغب في التأخير لإصلاح العمل، فهذا أيضًا ناتج من الغرور وطول الأمل، وتالله ما ثمَّ تأخير في الأجل المقدور، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر:٥-٦].

ليس هذا والله إلا من مصايد إبليس اللعين، لا من مقاصد الأولياء

---

(١) كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ». ثم قرأ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]». متفق عليه.

والصالحين، أليس الصحابة وأخيار التابعين، أولى منك بهذا القصد إن كنت من الصادقين؟! لو ركنوا إلى تأخير الآجال، لما ارتكبوا في الله عظيم الأهوال، ولما جاهدوا المشركين والكفار، واقتحموا البلاد والأمصار، ألا تصغي بأذنك يا هذا المفتون، إلى قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٤١]، ألا تلقي بالك إن كنت فطينًا فهيمًا، وتفكر في قوله تعالى: ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٥].

وفي الحديث: «إن قيام الرجل في الصف في سبيل الله أفضل من عبادته في أهله سبعين عامًا»(١).

وهب أنك صادق فيما تقول، أليس عملك متردّدًا بين الرد والقبول؟ أليس أمامك ما يُفْزِع ويَهُول؟ أليس قدامك يوم الحشر المهول؟ ولا والله تدري هل ينجيك عملك إن عملت أو يرديك؟

والله يعلم ما تخفون وما تعلنون، ﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [آل عمران:١٥٨].

وإن قلت: لا تطيب نفسي بفراق زوجتي وجمالها، وأُنسي بقربها، وسروري بوصالها، فهب أن زوجتك أحسن النسوان، وأجمل أهل الزمان، أليس أولها نطفة مذرة، وآخرها جيفة قذرة، وهي فيما بين ذلك تحمل العذرة؟ حيضها يمنعك شطر عمرها، وعقوقها لك أكثر من برها، إن لم تكتحل تعمشت عينها، وإن لم تتزين ظهر شَيْنُها، وإن لم تمتشط شعثت شعورها، وإن لم تدّهن طفا نورها، وإن لم تطيَّب تَفِلَتْ، وإن لم تتطهر نتنت، كثيرة العلل، سريعة الملل، إن كبرت أيست، وإن عجزت هرمت، تحسن إليها جهدك، فتنكر ذلك عند السخط.

---

(١) تقدم هذا الحديث (صفحة ٢٤٣)، فليُنظر تصويب لفظه.

كما قال ﷺ: «لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطُّ»[1].

تروم منها أقذر ما فيها، وتخاف هجرها وتخشى تجافيها، يحملك حبها على الكد والتعب، والشقاء الشديد والنصب، توردك الموارد المهلكة، وترضى في أدنى هواها بهلاكك وما أوشكه! تودك لمرادها منك، فإن فات أعرضت عنك، وهجرتك وطلبت سواك، وملتك وأظهرت قلاك، وقالت بلسان حالها، إن لم تفصح بمقالها: واصلني وأنفق، أو فارقني وطلق.

وبالجملة، لا يمكن أن تستمتع بها إلا على عوج، ولا تدوم صحبتك إياها إلا مع ضيق وحرج.

يا لَلَّهِ العجب! كيف يقعِدك حب هذه عن وصال من خلقت من النور، ونشأت في ظلال القصور، مع الولدان والحور، في دار النعيم والسرور، والله لا يجفُّ دم الشهيد حتى تلقاه، وتستمتع بشهود نورها عيناه، حوراء عيناء، جميلة حسناء، بكر عذراء، كأنها الياقوت، لم يطمثها إنس قبلك ولا جان، كلامها رخيم، وقدُّها قويم، وشعرها بهيم، وقدرها عظيم، جفنها فاتر، وحسنها باهر، وجمالها زاهر، ودلالها ظاهر، كحيل طرفها، جميل ظرفها، عذب نطقها، عجب خُلُقها، حسن خَلْقها، زاهية الحلى بهية الحلل، كثيرة الوداد عديمة الملل، قد قصرت طرفها عليك فلم تنظر سواك، وتحببت إليك بكل ما وافق هواك، لو برز ظفرها لطمس بدر التمام، ولو ظهر سوارها ليلًا لم يبق في الكون ظلام، ولو بدا معصمها لسبى كل الأنام، ولو اطلعت بين السماء والأرض لملأ ريحها ما بينهما، ولو تفلت في البحر المالح، عاد كأعذب الماء، كلما نظرت إليها ازدادت في عينك حسنًا، وكلما جالستها زادت إلى ذلك الحسن حسنًا.

---

(١) متفق عليه.

أيجمل بعاقل أن يسمع بهذه ويقعد عن وصالها، كيف وله في الجنة من الحور العين أمثال أمثالها؟!!

واعلم أن فراق زوجتك تلك لا بد منه، وكأن قد وقع، والجنة إن شاء الله تجمع بينكما ونعم المجتمع، وما بينك وبين وصلها إن كانت من الصالحات، إلا وقت لا بد من فراقك لها فيه وهو الممات، فتجدها في الآخرة أجمل من الحور العين، بما لا يعلمه إلا رب العالمين، قد ذهب ما تكره منها، وزال ما يسوء عنها، وحسُن خُلُقُها، وكمل خَلْقُها، كحلاء نجلاء، حسناء زهراء، بِكْرًا عذراء، قد طهرت من الحيض والنفاس، وكرمت منها الأنواع والأجناس، وزال اعوجاجها، وزاد ابتهاجها، وعظمت أنوارها، وجل مقدارها، وفضِّلت على الحور العين في الجمال والأنوار، كفضلهن عليها في هذه الدار، فأعرض عنها اليوم لله فسيعوضك الله عنها، وإن كانت من أهل الجنة فلابد لك منها.

ولا يلهينك يا هذا عن دار القرار الاغترار بشيء من زخرف هذه الدار، فوالله ما هي بدار مقام، ولا محل اجتماع والتئام، دار إن أضحكت اليوم أبكت غدًا، وإن سرت أعقب سرورها الردى، وإن جلَّت فيها النعم جميعًا، حلَّت فيها النقم سريعًا، إن أخصبت أجدبت، وإن جمعت فرَّقت، وإن ضمت شتتت، وإن نقصت نغصت، وإن أغنت عَنَّت، وإن زادت أبادت، وإن عقرت دمرت، وإن أسفرت أدبرت، وإن راقت أراقت، وإن صافت حافت، وإن عمَّت بنوالها غمَّت بوبالها، وإن جادت بوصالها جاءت بفصالها، قربها بعيد، وحبيبها طريد، شرابها سراب، وعذبها عذاب، دار الهموم والأحزان، والغموم والأشجان، والبَيْن والفراق، والشقاء والشقاق، والوصب والنصب، والمشقة والتعب، كثيرها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، وجليلها حقير، غزيرة الآفات، كثيرة الحسرات، قليلة الصفا، عديمة الوفا، لا ثقة بعهودها، ولا وفي لوعودها، محبها

تعبان، وعاشقها ولهان، والواثق بها خجلان، قد سترت معايبها، وكتمت مصائبها، وأخفت نوائبها، وخدعت بأباطيلها، وغرت ببراطيلها، ونصبت شباكها، ووضعت أشراكها، وبهرجت زيفها، وجردت سيفها، وأبدت ملامحها، وسترت قبائحها، ونادت الوصال الوصال أيها الرجال، فمن رام وصالها، وقع في حبالها، وبدا له سوء حالها، وعظم نكالها، ووقع في أسرها، لجهله بشرها، وحاق به مكرها، حيث لم يتبصر في أمرها، فعضّ يديه ندمًا، وبكى بعد الدمع دمًا، وأسلمه ما طلب، إلى سوء المنقلب، وجهد في الفرار فما أمكنه الهرب.

فتيقظ لنفسك يا هذا قبل الهلاك، وأطلق نفسك من أسرها قبل أن يعسر الفكاك، وانهض على قدم التوفيق والسعادة، عسى الله أن يرزقك من فضله الشهادة، ولا يقعدك عن هذا الثواب، سبب من الأسباب، فذو الحزم السديد، من جرد العزم الشديد، وذو الرأي المصيب، من كان له في الجهاد نصيب، ومن أخلد إلى الكسل، وغرَّه الأمل، زلت منه القدم، وندم حيث لا يغني الندم، وقرع السن على ما فرط وفات، إذا شاهد الشهداء في أعلى الغرفات، ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤]، و﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران:١٧٣]». اهـ.

OOOOO

النهي عن الفساد

ويقول لها: يا نفس، النجا النجا! انهَي عن الفساد فقد يقع العقاب اليوم أو غدًا! والوحا الوحا! ماذا ينتظر مَنْ منه يُتعلم وبه يُقتدى؟!

واعلمي أنه إذا وقع العذاب لم ينج منه إلا من كان ينهى الظالمين عن فسقهم وسوء أعمالهم، وإهمالهم لأمر الله تعالى، وتذكيره إياهم، وعهده إليهم، فالنجاة في الإصلاح لا في الصلاح وحده! فتدبري يا نفس!

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۞ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٦-١١٧].

وقال سبحانه في حق اليهود: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة:٦٣].

قال صدّيق حسن خان: «﴿لَوْلَا﴾؛ أي: هلّا، وهي هنا للتحضيض والتوبيخ لعلمائهم وعمادهم عن تركهم النهي عن المنكر».

وقال الزمخشري: «هذه الآية مما يَقُذّ السامع، وينعى على العلماء توانيهم. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: هي أشد آية في القرآن. وعن الضحاك: ما في القرآن آية أخوف عندي منها». اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥].

قال ابن سعدي: «﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ ﴾، بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغيَّر، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره، وتقوى هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يُمَكَّنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن». اهـ.

وفي الحديث: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ»(١).

وفيه: «مَا مِنْ قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، ثُمَّ يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا، ثُمَّ لَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ مِنْهُ بِعِقَابٍ»(٢).

وفيه: عن زينبَ بنت جحش، زوج النبي ﷺ قالت: خرج رسول الله ﷺ يومًا فَزِعًا مُحْمَرًّا وجهه، يقول:

«لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ»، وحَلَّق بإصبعه الإبهام، والتي تليها، قالت فقلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفينا الصالحون؟! قال: «نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ»(٣).

وفيه: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا»(٤).

فيا نفس، يا من تدعين التقوى والورع! وتنتسبين إلى العلم وأهله! وتنتمين إلى خير أمة أخرجت للناس! وتحرصين على الفوز والنجاة! أين محلك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٣٣٩) وغيره، وحسنه الألباني.

قال الله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

وقال بعدها: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [الحج:٤١].

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مقتصرًا على الأمر بسنن العبادات والنهي عن بدعها، وإشغال الأمة بنحو عشرين سنة وعشرين بدعة، كما يفعل جهلة المبتدئين من طلبة العلم! ولا هو الاقتصار على مسألتين أو ثلاث من المسائل الكبار في الاعتقاد أو الفقه أو غيره وإعطائها أكثر من حقها، كما يفعل جهلة العلماء، أعني جهلة في طريقة التعليم والدعوة، ولا من هم أسوأ منهم ممن يتقصدون ذلك، ليشغلوا المسلمين ويشغلوا تلاميذهم ـ خصوصًا ـ عن أمور الأمة الكبيرة، وليلهوهم ويسكتوهم عما يجري حولهم، من ضلالات كبار، ومخططات عظام، مرتبة مع أعداء الأمة.

فتراهم لا يفتؤون يشعلون فتيل التنازع والمراء والجدال العقيم بين أبناء الأمة، فتنشغل عن مصالحها، وتهمل أسباب رفعتها، فيَقِيض بنيانها، ويَنْخَر أساسها، فتفشل وتنهزم أمام قوة وتماسك أعدائها، وأمام عدتهم وتقدمهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ [الأنفال:٤٦].

فالتنازع يؤدي إلى التفرق والاختلاف، فيؤدي ذلك إلى الفشل وذهاب القوة، فتقع الهزيمة ويَعِزّ النصر.

هذا، وعلماء السلطان ومشايخ السوء إنما ينفذون ما يمليه عليهم شيخهم الأكبر، وهو إنما يُمْلَى عليه من أسياده من اليهود والنصارى.

فانتبهي يا نفس لهؤلاء الضلال، من علماء السلطان، ومشايخ الدرهم والدينار، الذين أُتِيَتِ الأمة من قِبَلهم، وهُزمت بسببهم، وما خبأتِ يا نفس من دعوة لعدو فاجعليها عليهم وعلى سلاطين الجَوْر!

انتبهي يا نفس لأمتك التي تُغزَى من عدوها دينيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا، انتبهي لها كيف أنها تُحكم من قبل المجوس أو اليهود أو النصارى، ويتدخل فيها فسادهم في كل نواحي حياتها، حتى في مساجدها ومنابرها وكتبها وخطبها ومواعظها.

انتبهي يا نفس، وحريّ بك أن تنتبهي، قبل أن يحل بنا سخط الله تعالى، وينزل بنا عقابه، ولا تستقِلِّي شأنك أمام علماء السوء فتتركي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي عطلوه ليملؤوا جيوبهم، وينفخوا بطونهم، ويُريحوا عجائزهم! وقولي كلمة الحق ولا تخشَي في الله لومةَ لائم، وقوليها بحسب ما تقتضيها الحكمة، وبحسب ما يمليه عليك العلم الصحيح، وما يرشدك إليه أصحابه العاملين به، الذين يتحركون بأمر الله، ويسيرون على هدي رسول الله ﷺ، لا أولئك الذين تَؤزّهم كهنتهم وأحبارهم ورهبانهم، وتُسَيِّرهم أهواؤهم.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وعن أبي نَضْرة، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال:

«أَلَا لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ إِذَا عَلِمَهُ».

قال: فبكى أبو سعيد وقال: قد واللهِ رأينا أشياء فهِبْنا(١).

وفي الحديث: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٩١)، وابن ماجه (٢٠٠٧)، وغيرهما. وهو في «الصحيحة» برقم (١٦٨).

وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[1].

فانتبهي يا نفس لذاتك، وانتبهي لأمتك، وانهَي عن المنكر قبل أن يستشري فيك وفي أمتك، وقبل أن تنطبع عليه النفوس، ويصير كأنه معروف يحرم التعرض له! أو الاعتراض عليه! فضلًا عن النهي عنه! لأنه ميراث الآباء! وسنة الأولين! ودين الآخِرين!! بل أكثر من ذلك! كما قال ربنا العليم الحكيم:

﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٨].

وانهَي يا نفس عن الفساد من البداية، فإنه يبدأ صغيرًا وينتهي كبيرًا، ويسير خطوة خطوة وينتهي إلى مفاوز وفلوات، فالله الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! والله الله في الغفلة عن ذلك!

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ[2]، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[3].

وفي رواية: «فَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَسْفَلِهَا وَصَارَ بَعْضُهُمْ فِي أَعْلاَهَا، فَكَانَ الَّذِي فِي أَسْفَلِهَا يَمُرُّونَ بِالْمَاءِ عَلَى الَّذِينَ فِي أَعْلاَهَا، فَتَأَذَّوْا بِهِ، فَأَخَذَ فَأْسًا فَجَعَلَ يَنْقُرُ أَسْفَلَ السَّفِينَةِ، فَأَتَوْهُ، فَقَالُوا: مَا لَكَ؟! قَالَ: تَأَذَّيْتُمْ بِي، وَلَا بُدَّ لِي مِنَ الْمَاءِ. فَإِنْ أَخَذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَنْجَوْهُ وَنَجَّوْا أَنْفُسَهُمْ، وَإِنْ تَرَكُوهُ أَهْلَكُوهُ وَأَهْلَكُوا أَنْفُسَهُمْ».

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) (استهموا على سفينة)؛ أي: اقترعوا علبها؛ أي: تقاسموها بالقرعة.

(٣) أخرجه البخاري وغيره.

وعن عبد الله (يعني: ابن مسعود) قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ». قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: «الَّذِينَ يَصْلُحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ»(١).

وقال شيخ الإسلام(٢): «ليس للإنسان أن يحضر الأماكن التي يشهد فيها المنكرات ولا يمكنه الإنكار، إلا لموجب شرعي، مثل أن يكون هناك أمر يحتاج إليه لمصلحة دينه أو دنياه لا بد فيه من حضوره، أو يكون مكرهًا، فأما حضوره لمجرد الفرجة، وإحضار امرأته تشاهد ذلك، فهذا مما يقدح في عدالته ومروءته إذا أصر عليه».

التحذير من المعاصي

واحذري يا نفس وحذري غيرك مما حذر الله عز وجل منه من المعاصي والآثام، قال سبحانه: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [المائدة:٩٢].

قال القاسمي: «وفيه تهديد عظيم ووعيد شديد في حق من خالف وأعرض عن حكم الله وبيانه».

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاءَ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَدْلَجُوا فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ

(١) أخرجه أبو عمرو الداني في «السنن الواردة في الفتن» (٢٨٨) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٣).
(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٣٩/٢٨).

الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهَا جَعَلَ الْفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، وَجَعَلَ يَحْجُزُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَتَقَحَّمْنَ فِيهَا». قال: «فَذَلِكُمْ مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ، أَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، فَتَغْلِبُونِي تَقَحَّمُونَ فِيهَا»[٢].

التحذير من البدع

يا نفس، واحذري البدع والمحدثات، فإنها أخطر أنواع المعاصي، إذ أن صاحبها يتخذها قربة إلى الله تعالى، ولأن فيها نوع استدراك على الدين والشريعة، ونوع اتهام لها بالنقص وعدم الكمال! والعياذ بالله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

قال ابن كثير: «قوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾؛ أي: عن أمر رسول الله ﷺ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله، كائنًا من كان، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[٣]؛ أي:

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) هذا لفظ مسلم، واللفظ المتفق عليه: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»، إلا أن البخاري قال: « مَا لَيْسَ فِيهِ».

فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾؛ أي: في الدنيا، بقتل أو حد أو حبس، أو نحو ذلك». اهـ.

قلت: وليس ثَم ما يمنع من كون المقصود بالعذاب الأليم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة أيضًا.

وقال ﷺ: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[(١)].

وعن عمرو بن زُرَارة قال: وقف عليَّ عبدُ الله[(٢)] وأنا أقص في المسجد، فقال: يا عمرو، لقد ابتدعتم بدعة ضلالة، أو إنكم لأهدى من محمد ﷺ وأصحابه. ولقد رأيتهم تفرقوا عني حتى رأيت مكاني ما فيه أحد[(٣)].

وعنه رضي الله عنه قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة، يربو فيها الصغير، ويهرم الكبير، وتُتَّخذ سنة مبتدعة، يجري عليها الناس، فإذا غُيِّرَ منها شيء قيل: قد غُيِّرَتِ السنة؟! قيل: متى ذلك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: إذا كثر قراؤكم، وقل فقهاؤكم، وكثر أمراؤكم، وقل أمناؤكم، والتُمست الدنيا بعمل الآخرة، وتُفُقِّهَ لغير الدين»[(٤)].

قال الشاطبي[(٥)]: «فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها. لأنه لو كان

---

(١) بعض حديث، أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا (صفحة ٧٢).

(٢) يعني: ابن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٦٣٧ و٨٦٣٩) وغيره، وقال المنذري في «الترغيب»: «رواه الطبراني في «الكبير» بإسنادين أحدهما صحيح». وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٥٩).

(٤) أخرجه الدارمي (١٩١ و١٩٢)، والحاكم (٨٥٧٠)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١١٣٥)، واللفظ له، وغيرهم، وصححه الألباني، انظر «تحريم آلات الطرب» (ص ١٦)، و«صحيح الترغيب» (رقم ١١١).

(٥) «الاعتصام» (٤٩/١).

معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع، ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا ﷺ خان الرسالة، لأن الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]. فما لم يكن يومئذ دينًا فلا يكون اليوم دينًا».

وقال الشاطبي: «المبتدع معاند للشرع ومشاقٌّ له، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طُرُقًا خاصة، على وجوه خاصة، وقَصَر الخلق عليها بالأمر والنهي، والوعد والوعيد، وأخبر أن الخير فيها، وأن الشر في تعديها إلى غيرها، لأن الله يعلم ونحن لا نعلم، وأنه إنما أرسل الرسول ﷺ رحمة للعالمين.

فالمبتدع رادٌّ لهذا كله، فإنه يزعم أن ثَمَّ طُرُقًا أُخَر، ليس ما حصره الشارع بمحصور، ولا ما عينه بمتعيَّن، وأن الشارع يعلم ونحن أيضًا نعلم، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع أنه علم ما لم يعلمه الشارع!!

وهذا إن كان مقصودًا للمبتدع فهو كفر بالشريعة والشارع، وإن كان غير مقصود فهو ضلال مبين». اهـ.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ»[١].

والمعنى: أنه سبحانه حجبها ومنعها عنه منعًا كونيًّا، إذ إنه يعتقد أنها قربة، فكيف يتوب منها؟! ولو تاب منها شرعًا فإنه سبحانه يتوب عليه، وهو التواب الرحيم، الذي يغفر أي ذنب تاب منه صاحبه مهما كان عظيمًا[٢].

وقال ابن القيم[٣]: «وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة، أو يظنها سنة،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٢٠٢) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (١٦٢٠).

(٢) وانظر كلام شيخ الإسلام على هذا في «مجموع الفتاوى» (١١/٦٨٤-٦٨٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٣٧٤).

فهو يدعو إليها، ويحض عليها؟! فلا تنكشف لهذا ذنوبه التي تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة، وكثرة اطلاعه عليها، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها، ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبدًا.

فإن السنة بالذات تمحق البدعة ولا تقوم لها، وإذا طلعت شمسها في قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة، وأزالت ظلمة كل ضلالة، إذ لا سلطان للظُّلمة مع سلطان الشمس.

ولا يُري العبدَ الفرق بين السنة والبدعة، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة، إلا المتابعة، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله بالاستعانة والإخلاص، وصدق اللَّجْأ إلى الله، والهجرة إلى رسوله، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته».

وقال ابن باديسَ[1]: «لا دواء للبدع الشيطانية إلا نشر السنة النبوية».

وقال شيخ الإسلام[2]: «البدع تكون في أولها شبرًا، ثم تكثر في الأتباع، حتى تصير أذرعًا وأميالًا وفراسخ».

وقال[3]: «البدع لا تزال تُخرج الإنسان من صغير إلى كبير، حتى تخرجه إلى الإلحاد والزندقة».

وقال[4]: «إنما يظهر من البدع أولًا ما كان أخف، وكلما ضَعُفَ مَنْ يقوم بنور النبوة قويت البدعة».

وقال[5]: «الشرائع هي غذاء القلوب وقوتها، ومن شأن الجسد إذا كان جائعًا

---

(١) «الآثار» (٢/٢٤٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٨/٤٢٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/٣٠٦).

(٤) «التدمرية» (ص ١٩٤ - مكتبة العبيكان).

(٥) انظر «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص ٥٤٢-٥٤٤).

فأخذ من طعامٍ حاجته استغنى عن طعام آخر، حتى لا يأكله إن أكل منه إلا بكراهة وتجشم، وربما ضره أكله، أو لم ينتفع به، ولم يكن هو المغذي له الذي يقيم بدنه، فالعبد إذا أخذ من غير الأعمال المشروعة بعض حاجته قَلّتْ رغبته في المشروع وانتفاعه به بقدر ما اعتاض من غيره، بخلاف من صرف نَهمته وهمته إلى المشروع، فإنه تَعْظُم محبته له ومنفعته به، ويتم دينه ويكمل إسلامه.

ولذا تجد مَنْ أكثر من سماع القصائد لطلب صلاح قلبه تنقص رغبته في سماع القرآن، حتى ربما كرهه، ومَنْ أكثر من السفر إلى زيارات المشاهد ونحوها لا يبقى لحج البيت الحرام في قلبه من المحبة والتعظيم ما يكون في قلب من وسعته السنة، ومن أدمن على أخذ الحكمة والآداب من كلام حكماء فارس والروم لا يبقى لحكمة الإسلام وآدابه في قلبه ذاك الموقع، ومن أدمن قصص الملوك وسيَرهم لا يبقى لقصص الأنبياء وسيَرهم في قلبه ذاك الاهتمام، ونظير هذا كثير.

ولهذا عظَّمت الشريعة النكير على من أحدث البدع، وكرهتها، لأن البدع لو خرج الرجل منها كَفافًا لا عليه ولا له لكان الأمر خفيفًا، بل لا بد أن يوجب له فسادًا، منه نقص منفعة الشريعة في حقه، إذ القلب لا يتسع للعِوَض والمُعَوَّض منه، فيبقى اغتذاء قلبه من هذه الأعمال المبتدعة مانعًا عن الاغتذاء ـ أو من كمال الاغتذاء ـ بتلك الأعمال الصالحة النافعة الشرعية، فيفسد عليه حاله من حيث لا يشعر، كما يفسد جسد المغتذي بالأغذية الخبيثة من حيث لا يشعر، وبهذا يتبين لك بعض ضرر البدع».

وقال الشوكاني في بدعة المولد (وهو مثال حيّ للبدع، يقع في كل عام في معظم الأزمان!)(١): «وسَريان البدع أسرع من سَريان النار، لا سيما بدعة المولد، فإن أنْفُس العامة تشتاق إليها غاية الاشتياق، لا سيما بعد حضور جماعة من

(١) «الفتح الرباني» (١٠٨٩/٢-١٠٩٠). ولكلامه بقية.

أهل العلم والشرف والرئاسة معهم، فإنه سيُخَيّل إليهم بعد ذلك أن هذه البدعة من آكد السن، وقد أحسن من قال:

فســـادٌ كبـــيرٌ عالـــمٌ مُتَهَتِّـــكُ ... وأفســـدُ منـــه جاهـــلٌ متنســـكُ
همـــا فتنـــةٌ للعـــالمين كبـــيرةٌ ... لمـــن بهمـــا في دينـــه متمســـكُ

ولا شك أن العامة أسرع الناس إلى كل ذريعة من ذرائع الفساد التي يتمكنون معها من شيء من المحرمات، كالمولد ونحوه، فإذا انضم إلى ذلك حضور مَنْ له شهرة في العلم والشرف والرئاسة فعلوا المحرمات بصورة الطاعات، وخبطوا في أودية الجهالات والضلالات، وتخلصوا من ورطة الإنكار بقولهم: حضر معنا سيدي فلان وفلان وفلان، دع عنك العامة، فإن بعض الخاصة المتميزين في طلب العلم قعد بين يدي لقراءة بعض علوم الاجتهاد، فأخبرني أنه حضر ليلةَ ذلك اليوم من هذا الشهر في بعض الموالد، فأنكرت عليه، وانقبضت منه، فقال: حضر معنا سيدي فلان وفلان وفلان، فسألته عن الصفة التي وقعت بحضرة أولئك الأعيان، فقال في جملة شرح تلك القضية: إنه قرأ المولد رجل سُوقِيّ، وأولئك الأعيان يطربون ويسمعون، حتى بلغ إلى بعضه، ثم قام كأنما نشط من عِقال، وهو يقول: مرحبًا يا نور عيني مرحبًا!! وقام بقيامه جميع الحاضرين من الأعيان وغيرهم، وصار ينهق قائمًا، وهم كذلك، فتعب بعض الحاضرين فقعد، فصاح عليه بعض أولئك الأعيان، وقال له وقد ظهرت عليه سَوْرة الغضب: قم، ما هي مِلْعابَهْ! هذا اللفظ، وهم لا يشكّون أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وَصَلَ إليهم تلك الساعة! ثم تصافحوا، وأقبل جماعة من العامة بأيديهم أنواع من الطِّيب معاجلين مسرعين، كأنهم ينتهزون فرصة بقائه صلى الله عليه وآله وسلم! فإنا لله وإنا إليه راجعون! أين عزة الدين؟! فإن ذهبت! فأين الحياء والمروءة والعقل؟!».

محقرات الذنوب

ويقول لها: إياك يا نفس وصغائر الذنوب، فلا تَسْتَهِينِنَّ بها، ولا تَسْتَخِفِّنَّها، فإنها مع طول المدة تصبح جبالًا، وتصير كُثَارًا، وتتعودين عليها، وتأنسين بها، فعند ذلك لا تستطيعين تركها، ولا التوبة منها، بل وتنسينها، وتنسين أنها عند الله مكتوبة مسطورة، أحصاه الله ونسوه.

قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة:٦].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ * وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ * وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [القمر:٥١-٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وقال سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال:

«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبَ، فَإِنَّ مَثَلَ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا بِبَطْنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ وَذَا بِعُودٍ، حَتَّى جَمَعُوا مَا أَنْضَجُوا بِهِ خُبْزَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ:

(١) أخرجه الطبراني في «معاجمه» الثلاثة (٩٠٤ و٧٣٢٣ و٥٨٧٢) وغيره. وهو في «الصحيحة» (٣٨٩).

«يَا عَائِشَةُ إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ[(٢)] قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا، حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين: ١٤]»[(٣)].

ولابن المعتز:

خَلِّ الذنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهْو التقى
واصنع كماشٍ فوق أر ض الشوك يحذر ما يرى
لا تَحقرنّ صغيرةً إن الجبال من الحصى

ولغيره:

لا تحقرنّ من الذنوب صغيرًا إن الصغير غدًا يعود كبيرًا
إن الصغير وإن تقادم عهدهُ عند الإله مسطرٌ تسطيرًا
فازجر هواك عن البطالة لا تكنْ صَعْبَ القِياد وشَمِّرَنْ تشميرًا

خطوات الشيطان

ويقول لها: يا نفس، احذري خطوات الشيطان، وإياك أن يوقعك بالإثم والعدوان، ويسير بك خطوة خطوة، ويتدرج بك معصية معصية، من صغيرة إلى مثلها، ثم إلى ثالثة، ثم إلى كبيرة فأختها، فتقعي في شِراكه، وأنت لا تشعرين،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) سُقل لغة في صُقل؛ أي: جُلِي ولُمِّع وهُذِّب وأُزيل صدؤه، كما يصقل الإناء والسيف، فيصير أملس مصقولًا.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤) وغيره، وحسنه الألباني. وانظر الأحاديث الآتية في ذكر الفتن وعرضها على القلوب (صفحة ٥٤٦ - ٥٤٨).

فتحاولي الرجوع فلا تقدري، فاحذري يا نفس، وعجلي بحَلِّ نفسك من قيوده، وسارعي بالهروب من سجنه، وتوبي قبل أن يستحوذ عليك فلا تستطيعي أن تتوبي!

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور:٢١].

قال ابن سعدي: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾؛ أي: طرقه ووساوسه، وخطوات الشيطان يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى أن بين الحكم وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهي بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضي والداعي لتركه، فقال: ﴿وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ﴾؛ أي: الشيطان ﴿يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ﴾؛ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه، ﴿وَٱلۡمُنكَرِ﴾، وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنَهْي الله عنها العباد نعمة منه، عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالرذائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها».

وعن النَّواس بن سَمعان الكِلَابي رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، عَلَى كَتِفَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ، فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ، وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ، وَعَلَى الصِّرَاطِ دَاعٍ يَدْعُو يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اسْلُكُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعْوَجُّوا، وَدَاعٍ يَدْعُو عَلَى الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ أَحَدُكُمْ فَتْحَ شَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ قَالَ: وَيْلَكَ! لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ، فَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ، وَالسُّتُورُ: حُدُودُ اللَّهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ

مَحَارِمُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي الَّذِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللَّهِ، وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقُ: وَاعِظُ اللَّهِ يُذَكِّرُ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»(١).

والشاهد في الحديث: أن فتح الباب يؤدي إلى ولوجه، فهو باب إلى المعصية، وخطوة من خطوات الشيطان.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خَطَّ لنا رسول الله ﷺ خطًّا فقال: «هَذَا سَبِيلُ اللهِ». ثم خَطَّ خطوطًا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثم تلا: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣] إلى آخر الآية(٢).

قال ابن القيم(٣): «ولا يمكن حصر أجناس شر [الشيطان] فضلًا عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحدًا منها أو أكثر:

الشر الأول: شر الكفر والشرك ومعاداة الله ورسوله، فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد، فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صيره من جنده وعسكره واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونوابه، فإذا يئس منه من ذلك وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى:

المرتبة الثانية من الشر: وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي، لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر مُتَعَدٍّ، وهي ذنب لا يتاب منه،

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٥٩)، والحاكم (٧٣/١)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٧٤١ - موارد، ولعله في مواضع أخرى)، وغيره. وقال الألباني: «حسن صحيح». ونص الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسۡتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

(٣) «بدائع الفوائد» (٢٦٠/٢-٢٦٢)، بحذف يسير.

وهي مخالفة لدعوة الرسل ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة وجعله من أهلها بقي أيضًا نائبه وداعيًا من دعاته، فإن أعجزه من هذه المرتبة وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة ومعاداة أهل البدع والضلال نقله إلى:

المرتبة الثالثة من الشر: وهي الكبائر على اختلاف أنواعها، فهو أشد حرصًا على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالمًا متبوعًا، فهو حريص على ذلك لينفر الناس عنه، ثم يشيع من ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تدينًا وتقربًا بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فإن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم، هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها! فكيف إذا تولَّوا هم إشاعتها وإذاعتها؟! لا نصيحة منهم ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه، كل ذلك لينفر الناس عنه وعن الانتفاع به، وذنوب هذا ولو بلغت عنان السماء أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه إذا استغفر الله وتاب إليه قبل الله توبته وبدل سيئاته حسنات، وأما ذنوب أولئك فظلم للمؤمنين وتتبع لعورتهم وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد لا تخفى عليه كمائن الصدور ودسائس النفوس، فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالًا منه، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها، فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظًا لوقته شحيحًا به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها

من النعيم والعذاب، نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهو أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول ويحضه عليه ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقَلَّ مَنْ يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًّا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة، فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان، فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله، وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير! إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوِّت بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل، وهذا لا يُتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه وأرضاها له وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله تعالى ولرسوله ولكتابه ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك فلا يخطر بقلوبهم، والله تعالى يمُنّ بفضله على من يشاء من عباده.

فإن أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعيا عليه سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع والتحذير منه وقصد إخماله وإطفائه، ليشوش عليه قلبه ويشغل بحربه فِكْرَه، ولِيمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، ولا يفتر ولا يني، فحينئذ يلبس المؤمن لامة الحرب ولا يضعها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسر أو أُصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله».

عقوبات المعاصي

يا نفس، فاحذري المعاصي كلها، واعلمي أنها سبب كل بلاء وشقاء، وهم وغم، ونكد وضنك، فما من مصيبة تقع إلا بذنب، وما من فساد وشر وعقوبة في الدنيا والآخرة إلا منها، قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴾ [الشورى: ٣٠].

قال ابن القيم[1]: «فما سُلِّط على العبد مَنْ يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشْرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ»[2].

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سُلِّط عليه مؤذٍ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه، ثم خرج إليه، فقال له: ما صنعت؟! فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به علي».

ثم قال ابن القيم: «ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بُغِي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح، وعلامة سعادته أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه، والله يتولى نصرته وحفظه والدفع عنه ولا بد، فما أسعده من عبد! وما أبركها من نازلة نزلت به!

---

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٤٢).

(٢) بعض حديث، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧١٦) وغيره، وصححه الألباني. وانظر ما تقدم (صفحة ١٠٢).

وما أحسن أثرها عليه! ولكن التوفيق والرشد بيد الله، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فما كل أحد يوفق لهذا، لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله». اهـ.

وعن الفضيل بن عِيَاض قال: إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق حماري وخادمي(١).

قال ابن رجب(٢): «يعني: أن خادمه يسوء خُلُقه عليه ولا يطيعه، وحماره يستعصي عليه فلا يواتيه لركوبه».

قال: «فالخير كله مجموع في طاعة الله والإقبال عليه، والشر كله مجموع في معصية الله والإعراض عنه». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

قال ابن القيم(٣): «ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جَوِّه ونباته وحيوانه وأحوال أهله حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تُحْدِث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين، والقحوط والجدوب، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها، وسلب منافعها أو نقصانها، أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضًا.

فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾، ونَزِّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها،

---

(١) انظر «حلية الأولياء» (١٠٩/٨). وذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٠٠/١٠ - طبعة دار الفكر) بلفظ: «إني لأعصي الله فأعرف ذلك في خُلُق حماري وخادمي وامرأتي وفأر بيتي».

(٢) «مجموع رسائل ابن رجب» (١٠٣/٣).

(٣) «زاد المعاد» (٣٣٢/٤).

وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت، في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أُخَر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخَلْقهم، وصورهم وأشكالهم وأخلاقهم، من النقص والآفات ما هو مُوجَب أعمالهم وظلمهم وفجورهم.

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم، وقد روى الإمام أحمد بإسناده، أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر، مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصة ذكرها في «مسنده»[1] على إثر حديث رواه.

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عُذِّبت به الأمم السالفة، ثم بقيت منها بقية مرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا وقضاء عدلًا، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: «إنه بَقِيَّةُ رِجْزٍ أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ»[2].

وكذلك سلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣].

قال ابن القيم[3]: «فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غَيَّر غَيَّر عليه، جزاء وفاقًا، ﴿وَمَا

(١) انظر (١٣/٣٣١/٧٩٤٩ - طبعة الرسالة).

(٢) بعض حديث، متفق عليه بنحوه.

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٨٦). وانظر الفصل الآتي بعنوان «المعاصي تزيل النعم» (صفحة ٣٤٣).

رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [فصلت:٤٦]. فإن غَيَّر المعصية بالطاعة غَيَّر الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز».

ثم قال: وقد أحسن من قال:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن الذنوب تزيل النعمْ
وحُطْها بطاعة رب العبا ... دِ فرب العباد سريع النِّقَمْ
وإياك والظلم مهما استطعـ ... ـتَ فظلم العباد شديد الوَخَمْ
وسافر بقلبك بين الورى ... لتبصر آثار مَنْ قد ظَلمْ
فتلك مساكنهم بعدهمْ ... شهودٌ عليهم ولا تُتَّهَمْ
وما كان شيء عليهم أضرَّ ... من الظلم وهو الذي قد قَصَمْ
فكم تركوا من جنانٍ ومِنْ ... قصور وأخرى عليهم أَطَمْ
صُلُوا بالجحيم وفات النعيـ ... ـم وكان الذي نالهم كالحُلُمْ

وقال(١): «فإذا حَبس [اللهُ فضلَه] عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما: أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك وأنت المُعَوِّق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك، وهذا هو الأغلب على الخليقة، فإن الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عُوِّقَتْ وامتُنِعت بغير معصيته.

وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فإنه لم يسلبها لبخل منه ولا استئثار بها عليك، وإنما أنت المسبب في سلبها عنك، فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الرعد:١١]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الأنفال:٥٣]، فما أزيلت نعم الله بغير معصيته.

---

(١) انظر «طريق الهجرتين» (ص ٦٤- ٦٥ - طبعة قطر).

فآفتك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

مــا يَبلــغ الأعــداءُ مــن جاهــلٍ ... مــا يَبلــغ الجاهــلُ مــن نفســهِ

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك، وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها! فقد ضيعت فرصتك وفرطت في حظك، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال، فأنت المَعْنِيُّ بقول القائل:

وعاجــزُ الــرأي مِضــياعٌ لفرصــتهِ ... حتى إذا فــات أمــرٌ عاتــب القــدَرا

ولو شعرت برأيك وعلمت من أين دُهِيت ومن أين أُصبت لأمكنك تدارك ذلك، ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوى مصابيحَ العلم والإيمان منه، فأعرضت عمن هو أصل بلائك ومصيبتك منه، وأقبلت تشكو مَنْ كلُّ إحسانٍ دقيق أو جليل وصل إليك فمنه!!».

وقال[1]: «إن الذنوب تزيل النعم ولا بد، فما أذنب عبد ذنبًا إلا زالت عنه نعمة من الله بحسب ذلك الذنب، فإن تاب وراجع رجعت إليه أو مثلها، وإن أصر لم ترجع إليه، ولا تزال الذنوب تزيل عنه نعمة نعمة حتى تسلب النعم كلها». اهـ.

وقيل: إن عمر بن عبد العزيز عهد إلى بعض عماله: عليك بتقوى الله في كل حال ينزل بك، فإن تقوى الله أفضل العُدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، ولا تكن في شيء من عداوة عدوك أشدّ احتراسًا لنفسك ومَنْ معك من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا ونستنصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم، لأن عددنا

(١) «طريق الهجرتين» (ص ٢٧٠-٢٧١ – طبعة محب الدين الخطيب).

ليس كعددهم، ولا قوتنا كقوتهم[1].

وقد قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [آل عمران:١٥٥].

قال ابن كثير: «﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْ ﴾؛ أي: ببعض ذنوبهم السابقة، كما قال بعض السلف: إن من ثواب الحسنةِ الحسنةَ بعدها، وإن من جزاء السيئةِ السيئةَ بعدها».

وقال ابن سعدي: «يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم أُحد، وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان». اهـ.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ كان يقول:

«الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ». ويقول:

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا». الحديث[2].

قال المناوي[3]: «فيكون التفريق عقوبة لذلك الذنب، ولهذا قال موسى الكاظم: إذا تغير صاحبك عليك فاعلم أن ذلك من ذنب أحدثته، فتب إلى الله من كل ذنب يَستقمْ لك وُدُّه.

وقال المُزَني: إذا وجدت من إخوانك جفاء فتب إلى الله، فإنك أحدثت ذنبًا، وإذا وجدت منهم زيادةَ وُدٍّ فذلك لطاعة أحدثتها، فاشكر الله تعالى». اهـ.

---

(١) «حلية الأولياء» (٥/٣٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (٥٣٥٧) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٢٢١٩).

(٣) «فيض القدير» (٥/٤٣٧).

وعنه رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال:

«يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ:

لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا.

وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ، وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ.

وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، إِلَّا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا.

وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ.

وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ، إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ»(١).

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا، يُعْزَفُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ وَالْمُغَنِّيَاتِ، يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ»(٢).

وقال ابن الجوزي(٣): «اعلموا إخواني، ومن يقبل نصيحتي! أن للذنوب تأثيرات قبيحة، مرارتها تزيد على حلاوتها أضعافًا مضاعفة، والمُجازي بالمرصاد، لا يسبقه شيء ولا يفوته.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ ابن ماجه (٤٠٢٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٨٩)، بتصرف يسير.

فوا أسفا لمضروب بالسياط ما يحس بالألم! ولمُثخن بالجراح وما عنده من نفسه خبر! ولمتقلب في عقوباتٍ ما يدري بها! وإن أعظم العقوبة أن لا يدري بالعقوبة.

فوا عجبا للمغالط نفسه! يُرضي ربه بطاعة، ثم يرضي نفسه بشهوة، ويقول: حسنة وسيئة!

ويحك! من كيسك تنفق، ومن بضاعتك تهدم، ووجه جاهك تشين! رُب جراحة قتلت، ورُب عثرة أهلكت، ورُب فارط لا يُستدرك.

ويحك! انتبه لنفسك، ما الذي تنتظر بأوبتك؟ وماذا تترقب بتوبتك؟ المشيب؟ فها هو ذا أوهن العظم! وهل بعد رحيل الأهل والأولاد والأقارب إلا اللَّحاق؟!

قَدِّر أن ما تؤمِّله من الدنيا قد حصل، فكان ماذا؟! ما هو عاجل فشَغَلك عاجلًا، ثم آخر جُرعة اللذة شَرقة! وإما أن تفارق محبوبك أو يفارقك، فيا لها جُرعة مريرة تود عندها أن لو لم تره!

آه لمحجوب العقل عن التأمل! ولمصدود عن الورود وهو يرى المنهل! أما في هذه القبور نذير؟! أما في كرور الزمان زاجر؟!

أين من ملك وبلغ المنى فيما أمل؟! نادهم في ناديهم! هيهات! صُمُّوا عن مناديهم! فلو أن ما بهم الموت! إنما هُنَيْهَةٌ ثم القبور!

العملَ حصِّل يا معدومًا بالأمس! يا متلاشي الأشلاء في الغد! بأي وجه تلقى ربك؟! أيساوي ما تناله من الهوى لفظ عتاب؟!».

وقال ابن رجب(١): «الحذر الحذر من المعاصي! فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نِقم؟! وكم خربت من ديار؟! وكم أخلت ديارًا من أهلها فما بقي منهم ديار؟! كم أخذت من العصاة بالثار؟! كم محت لهم من آثار؟!».

---

(١) «لطائف المعارف» (ص ١٥٤).

وقال ابن القيم[1]: «قلة التوفيق، وفساد الرأي، وخفاء الحق، وفساد القلب، وخمول الذكر، وإضاعة الوقت، ونفرة الخلق، والوحشة بين العبد وبين ربه، ومنع إجابة الدعاء، وقسوة القلب، ومحق البركة في الرزق والعمر، وحرمان العلم، ولباس الذل، وإهانة العدو، وضيق الصدر، والابتلاء بقرناء السوء الذين يفسدون القلب ويضيعون الوقت، وطول الهم والغم، وضنك المعيشة، وكسف البال، تتولد من المعصية والغفلة عن ذكر الله كما يتولد الزرع عن الماء، والإحراق عن النار، وأضداد هذه تتولد عن الطاعة».

هذا، ومن أخوف عقوبات المعاصي على العبد ـ كما قال ابن القيم[2] ـ: «أنها تُضعِف القلبَ عن إرادته، فتقوى إرادة المعصية وتضعف إرادة التوبة شيئًا فشيئًا، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية، فلو مات نصفه لما تاب إلى الله، فيأتي من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشيء كثير، وقلبه معقود بالمعصية، مُصِرّ عليها، عازم على مواقعتها متى أمكنَتْه، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك».

قال: «ومنها: أن الذنوب إذا تكاثرت طُبِع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤]، قال: هو الذنب بعد الذنب.

وقال الحسن: هو الذنب على الذنب حتى يعمى القلب.

وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم.

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإن زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة

---

(١) «الفوائد» (ص ١٤٧).

(٢) «الداء والدواء» (ص ١٤١ - طبعة بكر أبو زيد).

وغلاف، فإن حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد».

وذكر رحمه الله أن المعاصي تُخرِج العبد من دائرة الإحسان، ثم بين كيف أنها تخرجه بعد ذلك من دائرة الإيمان، ثم قال: «فإن استمر على الذنوب وأصر عليها خِيف عليه أن يَرين على قلبه، فيخرجه عن الإسلام بالكلية، ومن هنا اشتد خوف السلف».

سوء الخاتمة

وتنبهي يا نفس إلى أمر خطير، جدير بك أن تتنبهي إليه وتعقليه وتفهميه: وهو أنكِ إن سلمتِ مما تقدم ذكره فلتعلمي أن كثرة المعاصي والاستمرار عليها والحب لها والشغف بها والتعود عليها، غالبًا ما يؤدي بصاحبها إلى سوء الخاتمة، والعياذ بالله تعالى.

قال صديق حسن خان[1]: «فطول الإلف بالمعاصي يقتضى تذكرها عند الموت، وعَودها في القلب، وتمثّلها فيه، وميل النفس إليها، وإن قُبض روحه في تلك الحالة يختم له بالسوء».

وقال الغزالي[2]: «اعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين، إحداهما أعظم من الأخرى:

فأما الرتبة العظيمة الهائلة: فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك وإما الجحود، فتُقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابًا بينه وبين الله تعالى أبدًا، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد.

---

(١) «يقظة أولي الاعتبار» (ص ٢١٢).

(٢) «الإحياء» (٤/١٧٣-١٧٤).

والثانية وهي دونها: أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه، حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره، فيتفق قبض روحه في تلك الحال، فيكون استغراق قلبه به منكِّسًا رأسه إلى الدنيا وصارفًا وجهه إليها.

ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب، ومهما حصل الحجاب نزل العذاب، إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه».

وقال ابن القيم[1]: «وإذا كان العبد في حال حضور ذهنه وقوته وكمال إدراكه قد تمكن منه الشيطان، واستعمله فيما يريده من معاصي الله، وقد أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى، وعطل لسانه عن ذكره، وجوارحه عن طاعته، فكيف الظن به عند سقوط قواه، واشتغال قلبه ونفسه بما هو فيه من ألم النزع؟! وجمع الشيطان له كل قوته وهمته، وحشد عليه بجميع ما يقدر عليه لينال منه فرصته، فإن ذلك آخر العمل، فأقوى ما يكون عليه شيطانه ذلك الوقت، وأضعف ما يكون هو في تلك الحال! فمن ترى يسلم على ذلك؟

فهناك ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فكيف يوفق لحسن الخاتمة من أغفل الله سبحانه قلبه عن ذكره، واتبع هواه وكان أمره فرطا؟! فبعيدٌ مِنْ قلبٍ بعيدٍ من الله تعالى، غافلٍ عنه، متعبد لهواه، أسير لشهواته، ولسانه يابس من ذكره، وجوارحه معطلة من طاعته، مشتغلة بمعصيته، أن يوفق للخاتمة بالحسنى»[2].

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٢١٨-٢١٩).

(٢) وقد تقدم أهم الأدعية الواردة في سؤال التثبيت والمتضمنة الاستعاذة من سوء الخاتمة (صفحة ١١١-١١٢).

عذاب الأقوام

وتفكري يا نفس في عقوبات الأقوام ممن مضَوا، وانظري كيف أخذهم الله بذنوبهم، وعاقبهم بظلمهم، وتذكري ما حل في ديارهم من أنواع العذاب، وأصناف العقاب، من خسف ومسخ وإغراق، وأخذِ بعضهم بالصيحة، وبعضهم بالرجفة، وغير ذلك، والقرآن قد امتلأ بذكر هذا، وخوّف به وهدد، وأنذر وتوعد، فسِيري في الأرض وانظري كيف خلت منهم الديار، وتعطلت الآبار، وسقطت القصور، وتهدمت الدور!

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ ۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ * فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ * وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ * وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٢-٤٨].

قال ابن كثير: «﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾؛ أي: كم من قرية أهلكتها، ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾؛ أي: مكذبة لرسولها، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾؛ قال الضحاك: سقوفها. أي: قد خربت منازلها، وتعطلت حواضرها. ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾؛ أي: لا يُستقى منها، ولا يَرِدها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها.

﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾؛ قال عكرمة: يعني المُبيَّض بالجِص. وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المُنيف المرتفع. وقال آخرون: الشديد المنيع الحصين.

وكل هذه الأقوال متقاربة، ولا منافاة بينها، فإنه لم يَحْمِ أهلَه شدةُ بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم، كما قال تعالى: ﴿أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖ﴾ [النساء:٧٨]». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَكَمۡ قَصَمۡنَا مِن قَرۡيَةٖ كَانَتۡ ظَالِمَةٗ وَأَنشَأۡنَا بَعۡدَهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ * فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأۡسَنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَرۡكُضُونَ * لَا تَرۡكُضُواْ وَٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتۡرِفۡتُمۡ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡـَٔلُونَ * قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ * فَمَا زَالَت تِّلۡكَ دَعۡوَىٰهُمۡ حَتَّىٰ جَعَلۡنَٰهُمۡ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾ [إبراهيم:٥].

قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأياديه ونعمه فيها على أقوام، وعقوباته ونِقَمه من أقوام.

قال القاسمي: «﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾؛ أي: في التذكير بها، ﴿لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ﴾؛ أي: يصبر على بلائه ويشكر نعماءه، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال عن قوم نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ لَّمَّا كَذَّبُواْ ٱلرُّسُلَ أَغۡرَقۡنَٰهُمۡ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ لِلنَّاسِ ءَايَةٗۖ وَأَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا﴾ [الفرقان:٣٧].

وقال عن قوم هود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

وقال عن قوم صالح عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَـٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود:٦٦-٦٨].

وقال سبحانه منذرًا المعرضين بمثل ما عاقب به عادًا وثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ * إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ * فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ * وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَـٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَـٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٣-١٧].

قال ابن كثير(١): «يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين، ﴿صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ أي: ومن شاكلهما ممن فعل كفعلهما.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: بغَوْا وعتَوْا وعصَوْا، ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾؛ أي: مَنُّوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم

---

(١) «تفسيره» (١٦٨/٧-١٦٩)، مختصرًا.

يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ﴾؛ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟ فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، فبارزوا الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾. قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحًا شديدة قوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدًّا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ﴾ [الحاقة:٦]؛ أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج.

وقوله: ﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ﴾؛ أي: متتابعات، ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة:٧]، كقوله: ﴿فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ﴾ [القمر:١٩]؛ أي: ابتدؤوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام، حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰ﴾؛ أي: أشد خزيًا لهم، ﴿وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ﴾؛ أي: في الآخرة، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب، ويدرأ عنهم النكال.

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ﴾؛ أي: بصَّرناهم وبينَّا لهم ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ﴾؛ أي: بعث الله عليهم صيحة ورجفة وذلًّا وهوانًا وعذابًا ونكالًا، ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ أي: من التكذيب والجحود». اهـ.

وقال عن قوم لوط عليه الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ۞ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾: في هذه الآية الكريمة ثلاثة أوجه من التفسير للعلماء: اثنان منها كلاهما يشهد له القرآن، وواحد يظهر أنه ضعيف.

أما الذي يظهر أنه ضعيف: فهو أن المعنى: أن تلك الحجارة ليست بعيدة من قوم لوط؛ أي: لم تكن تخطئهم. قاله القرطبي، وغيره. لأن هذا يكفي عنه قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً ﴾، ونحوها من الآيات.

أما الوجهان اللذان يشهد لكل واحد منهما قرآن:

فالأول منهما: أن ديار قوم لوط ليست ببعيدة من الكفار المكذبين لنبينا، فكان عليهم أن يعتبروا بما وقع لأهلها إذا مروا عليها في أسفارهم إلى الشام، ويخافوا أن يوقع اللهُ بهم بسبب تكذيب نبينا محمد ﷺ مثل ما وقع من العذاب بأولئك، بسبب تكذيبهم لوطًا عليه الصلاة والسلام، والآيات الدالة على هذا كثيرة جدًّا، كقوله: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۞ وَبِٱلَّيْلِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨]. وقوله: ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ۞ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٧٦-٧٧]. وقوله: ﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾ [الذاريات:٣٧]. وقوله: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت:٣٥]. إلى غير ذلك من الآيات. وعلى هذا القول فالضمير في قوله: ﴿وَمَا هِيَ ﴾ راجع إلى ديار قوم لوط المفهومة من المقام.

الوجه الثاني: أن المعنى: وما تلك الحجارة التي أُمطرت على قوم لوط ببعيد من الظالمين الفاعلين مثل فعلهم، فهو تهديد لمشركي العرب كالذي قبله، ومن الآيات

الدالة على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ [محمد:١٠]. فإن قوله: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ ظاهر جدًّا في ذلك، والآيات بنحو ذلك كثيرة». اهـ

وقال عن قوم شعيب عليه الصلاة السلام: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ❋ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٩٤-٩٥].

وقال عن فرعون: ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل:١٦].

وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِي ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات:٤٠].

وقال عن أصحاب الفيل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ❋ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ❋ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ❋ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ❋ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

وهذا باب واسع، والحديث فيه يطول، وقد نبهنا على طرف منه.

وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [الرعد:٣١].

وتفكري يا نفس في أنواع العقوبات التي تقع في هذا الزمان، من حروب وزلازل وصواعق وغيرها.

ومرري على فكرك ما يحصل منه مما هو بعيد عنك، أو حولك قريب منك،

واتعظي به، ولا تنتظري أن يقع العذاب عليك لتتعظي وترجعي، وتتوبي وتتضرعي! فالسعيد من وعظ بغيره[١].

نسأل الله العافية والسلامة ودفع البلاء، وأن يمن علينا بالتوبة النصوح والإنابة، قبل زوال النِّعم، وحلول النِّقَم، بمنه وكرمه.

الأمن من مكر الله تعالى

ويقول لها: يا نفس، إياك أن تأمني مكر الله تعالى! وإياك أن تأمني عقابه، وتنسَي ما جنت يداك! يا نفس، إياك أن تقيمي على معصيته، وتتكلي مع ذلك على رحمته وعفوه! إياك وهذا الغرور!

يا نفس، أطيعي الله تعالى أولًا وتوبي إليه، ثم اتكلي على عفوه وكرمه، وثقي دائمًا أنه لن ينجيك إلا رحمته، فلولاها لما تبت وأنبت، ولما استقمت وأطعت.

واعلمي يا نفس، أن الله عز وجل كما وصف نفسه بالغفور الرحيم وصف عذابه بالعذاب الأليم، فقال سبحانه وتعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر:٤٩-٥٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ [فصلت:٤٣].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٩٨].

وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج:١٢].

قال الرازي: «البطش: هو الأخذ بالعنف، فإذا وُصِف بالشدة فقد تضاعف وتفاقم. ونظيره: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]».

---

(١) وانظر ما سيأتي ذكره في فصل «الشكر» (صفحة ٣٣٨).

ويا نفس، تفكري في حال المؤمنين المتقين، وكيف أنهم يأتون بالحسنات الكثيرة، والطاعات الكبيرة، ويخافون مع هذا أن لا تقبل منهم أعمالهم، لعلمهم بقصورهم عن أداء حق الله تعالى عليهم، فتراهم بعدها يستغفرون، ومن عذاب جهنم يتعوذون، عكس ما عليه المغرورون الجاهلون، كما قال سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ * وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ * وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٥-٦١].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون:٦٠]. قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:

«لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا تُقْبَلَ مِنْهُمْ، ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٦١]»[1].

وقال تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ * وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

فانظري بالله يا نفس: كابدوا قيام الليل إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله ربهم لذنوبهم!!

وقال تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمۡ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا * وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتۡ مُسۡتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٦٣-٦٦].

وقال جل جلاله: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتًا وَهُمۡ نَآئِمُونَ * أَوَأَمِنَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥) وغيره، وصححه الألباني.

﴿أَهَلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۞ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٧-٩٩].

قال ابن كثير[١]: «﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم، وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف! والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن!».

وقال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ۞ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ۞ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

قال ابن كثير[٢]: «قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِى تَقَلُّبِهِمْ﴾؛ أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها، من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾؛ أي: أو يأخذهم الله في حال خوفهم من أخذه لهم، فإنه يكون أبلغ وأشد حالةَ الأخذ، فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد، ولهذا قال العَوْفي، عن ابن عباس: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾، يقول: إن شئتُ أخذته على أثر موت صاحبه وتخوفه بذلك. وكذا رُوي عن مجاهد والضحاك وقتادة وغيرهم».

وعن محمد بن يونس قال: كنا عند زهير البابي، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، توصي بشيء؟ فقال: نعم، احذر! لا يأخذْك الله وأنت على غفلة[٣].

---

(١) «تفسيره» (٢٣٤/٢).

(٢) انظر «تفسيره» (٥٧١/٢).

(٣) «شعب الإيمان» (٦٨٣٨/٣٨٧/٩).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأۡتِيَهُمۡ غَٰشِيَةٞ مِّنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوۡ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴾ [يوسف:١٠٧].

فيا نفس، لا تغتري بطول حلم الله تعالى عنك، واحذري أن ينزل بك عقابه وأنت في غرتك، فلا ينفع عندها الندم، ولا تقال زلة القدم.

الاستدراج

ويا نفس، إياك أن تغتري بما يمددك الله به من النعم، من المال والولد، والبيوت والدور، والمراكب والقصور، وسائر الأرزاق والنعم، إياك يا نفس أن تغتري بشيء من ذلك، وأنت مقيمة على معصية الله عز وجل، واحذري أن يكون ذلك منه استدراجًا لك، ليأخذك بالعذاب فجأة، ويسلبك ما أنت فيه بغتة!

قال تبارك وتعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ * وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].

وقال: ﴿ فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [القلم:٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَبۡوَٰبَ كُلِّ شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [النمل:٤].

وعن عقبة بن عامر الجُهَنِيِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مَا يُحِبُّ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعَاصِيهِ، فَإِنَّمَا ذَلِكَ لَهُ

مِنْهُ اسْتِدْرَاجٌ». ثم نَزَعَ بهذه الآية: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۞ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنعام:٤٤-٤٥][1].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود:١٠٢].

الاغترار بمدح الناس

ويقول لها: يا نفس، لا يغرنك مدح المادحين لك بالطاعة والورع والزهد والعلم وغيره، فإن مدحهم لن يفيدك عند الله شيئًا، ولن يقربك إليه زلفى، إذا كنت أنت بخلاف ذلك، ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۞ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ [القيامة:١٤-١٥].

يا نفس، لن ينفعك مدحهم وثناؤهم وأنت عند خالقك ومليكك وولي نعمتك مذمومة، فليس أحد مدحه يزين وذمه يشين إلا رب العالمين[2].

يا نفس، احذري عاقبة التزين للخلق والمراءاة لهم بالأعمال أو الأقوال أو الأحوال، وأنت في الحقيقة خلاف ذلك في خلوتك، بينك وبين ذاتك، فكيف إذا كنت على معصية الله تختلين، وبخلاف ظاهرك تعملين!

واتعظي يا نفس بما رواه ثوبانُ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال:

«لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا،

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩١٣)، و«الأوسط» (٩٢٧٢)، وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (٤١٣).

(٢) كما في حديث البراء بن عازبٍ رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الحجرات:٤]. قال: قام رجل فقال: يا رسول الله، إن حمدي زَيْنٌ، وإن ذمي شَيْنٌ. فقال النبي ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ». أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وغيره، وصححه الألباني.

فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قال ثوبانُ: يا رسول الله، صِفهم لنا، جَلِّهِمْ لنا، أن لا نكون منهم ونحن لا نعلم. قال:

«أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ، وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»(١).

القنوط من رحمة الله تعالى

ومع هذا، إياك يا نفس أن تقنطي من رحمة الله تعالى! وإياك أن تيأسي من رَوْحه! فتظلمي نفسك، وتخسري حياتك، وتقعي فيما لعله أحظر من ذنبك! وأخطر من معصيتك!

وتوبي يا نفس وأنيبي، فإن الله يغفر ذنوبك مهما عظمت، ويمحو سيئاتك مهما كثرت، أليس سبحانه يغفر الكفر والشرك، وهي أعظم الذنوب؟! إذًا فهو سبحانه يغفر ما دون ذلك من باب أولى.

يا نفس، ويكِ! أي شيء هي ذنوبك في جنب عفو ربك الكريم ورحمته؟! ثم أي شيء هي في جنب ندمك واستغفارك وتوبتك؟!

قال الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٣-٥٤].

فيا نفس، عجلي بالإنابة إلى ربك، وأسلمي له، ودعي القنوط جانبًا، فإنه لا محل له مع العلم بسعة رحمة الله تعالى، وعظيم مغفرته، وهو القائل للكليم وأخيه عليهما الصلاة والسلام لما أرسلهما لمن قال: أنا ربكم الأعلى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه:٤٤].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥) وغيره، وصححه الألباني.

وقال تقدست أسماؤه بعدما ذكر قصة مَنْ عذّب عباده، وحرّق أولياءه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [البروج:١٠].

فتأملي!! ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾.

ثم تأملي أيضًا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤]!!

فالله سبحانه يقبل توبة عبده، ويغفر له بسببها، ويَوَدّه ويحبه عليها! بل ويفرح بها أيضًا، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

فيا ألله ما أعظم كرمه! وما أكثر جوده! وما أوسع رحمته! مما يوجب محبته، والشكر له، وكثرة الثناء عليه، فالحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا، مباركًا فيه، مباركًا عليه، كما يحب ربنا ويرضى.

وفي الحديث القدسي: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أُبَالِي، يَا بْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠) وغيره، وصححه الألباني.

«لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»[1].

فأي قنوط ـ يا نفس ـ هذا الذي تتحدثين عنه!! وأي يأس هذا الذي تُخطرين ببالك!!

قال البخاري في «صحيحه»[2]: «وكان العلاء بن زياد يُذَكِّرُ النارَ، فقال رجل: لِمَ تُقَنِّطِ الناسَ؟ قال: وأنا أقدر أن أُقَنِّطَ الناسَ، واللهُ عز وجل يقول: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٥٣]، ويقول ﴿وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر:٤٣]؟! ولكنكم تحبون أن تُبَشَّروا بالجنة على مساوئ أعمالكم، وإنما بَعث اللهُ محمدًا ﷺ مبشِّرًا بالجنة لمن أطاعه، ومنذرًا بالنار من عصاه».

ooooo

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٢) (١٢٦/٦/تفسير سورة المؤمن).

ويقول لها: يا نفس، مالك إذا دُعِيت إلى الله تعالى وطاعته وعبادته، من صلاة وصيام وقيام وتلاوة وذكر وغيرها، تكاسلت وضَعُفت، وإذا دُعِيت إلى شهوات الدنيا وحظوظها نَشِطْت وقوِيت؟! ثم تتعذرين للطاعة بعدم القدرة والاستطاعة، فكيف إذًا نَشِطْت للدنيا، وكدحت من أجلها، وطوّعت جسدك لها، ولم تشعري بالتعب، ولم تشْكِي النَّصَب؟!

مالك تكثرين الشغل بالنهار، وتطيلين السهر بالليل، فيما يوافق هواك؟! ثم إذا جاءت الصلاة وحضر القيام كسِلت ونمت!! فوا عجبا منك يا نفس! ووا عجبا مما تتعذرين به لكسلك! وتبرِّرين به لضعفك!

يا نفس، الجسد عندك واحد، فلِمَ ينشط للدنيا ويكسل للآخرة؟! إنه والله من ضعف القلب ومرضه وعدم صحته، فلو صَلَح وحَيِيَ لبادرتِ إلى ما ينفعك، ولاجتنبتِ ما يضرك.

قال رسول الله ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(١).

فحاذري يا نفس! أن تشابهي المنافقين في مرض قلوبهم وكسل أجسادهم، كما قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [النساء:١٤٢].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

واستعيذي بالله من الكسل، وأكثري من ذلك في كل أوقاتك، فعن أنس رضي الله عنه قال: كان لرسول الله ﷺ دعواتٌ لا يَدَعُهُنَّ:

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْبُخْلِ وَالْجُبْنِ، وَالدَّيْنِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ»(١).

علاج الكسل

ويا نفس، عالجي كسلك بذكر الموت وغصته، وكربه وشدته، وعذاب القبر وفتنته، وضيقه وظلمته، وحسرة فوات الدنيا، وهول ما أنت قادمة عليه، فإن في ذكر ذلك ـ كما قيل(٢) ـ لتنبيهًا من الغفلة، وتنشيطًا من الكسل، وحلًّا من عِقال البطالة، وصرفًا عن اللذات، وردعًا عن نيل الشهوات، بل فيه ما يذهل النفوس ويرعد القلوب، ويوجب ـ ولا بد ـ قِصَرَ الأمل الموجبَ لدفع الكسل.

قال ابن حجر(٣): «يتولد من طول الأمل الكسل عن الطاعة، والتسويف بالتوبة، والرغبة في الدنيا، والنسيان للآخرة، والقسوة في القلب، لأن رقته وصفاءه إنما يقع بتذكير الموت والقبر والثواب والعقاب وأهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد:١٦]. وقيل: من قَصُر أمله قَلّ همه ورضي بالقليل».

ومن علاج الكسل: ترك الشِّبَع وفضول الطعام، فإنه ـ كما قال ابن القيم(٤) ـ: «يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا، فكم من معصية جلبها الشِّبَع وفضول الطعام! وكم من طاعة حال دونها! فمن وُقِيَ شر بطنه فقد وُقِيَ شرًّا عظيمًا».

وقال(٥): «إن البطن إذا امتلأ من الطعام ضاق عن الشراب، فإذا ورد عليه

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي (٢٥٧/٨)، وهو في «الصحيحين»، وغيرهما.

(٢) انظر «العاقبة في ذكر الموت» (ص ٣٥٣).

(٣) «فتح الباري» (٢٣٧/١١).

(٤) «بدائع الفوائد» (٢٧٣/٢). وقد تقدم.

(٥) «زاد المعاد» (١٧/٤).

الشراب ضاق عن النفَس، وعَرَض له الكرب والتعب بحَمله، بمنزلة حامل الحِمل الثقيل، هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب، وكسل الجوارح عن الطاعات، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشِّبَع».

وذكر السُّلَمي في «عيوب النفس»[1] الكسلَ ثم قال: «وهو ميراث الشِّبَع، فإن النفس إذا شبعت قويت، فإذا قويت أخذت بحظها وغلبت القلب بوصلها إلى حظها، ومداواتها: التجويع[2]، فإنها إذا جاعت عدمت حظها وضعفت، فغلب عليها القلب، فإذا غلب عليها حملها على الطاعة وأسقط عنها الكسل، ولذلك قال النبي ﷺ: «مَا مَلَأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ»[3]». اهـ.

ولرضي الدين الغَزّي:

في كثرة الأكل يا ذا العقل والنَّظَر خمسون آفةً كُنْ منها على حَذَر

ومن علاج الكسل ـ كما قال ابن الجوزي[4] ـ: «تحريك الهمة بخوف فوات القصد، وبالوقوع في عقاب اللوم، أو بالحصول في بِيد التأسف، فإن أسف المفرط إذا عاين أجر المجتهد أعظم من كل عقاب.

وليفكر العاقل في سوء مغبة الكسل، فرب راحة أوجبت حسراتٍ وندمًا، ومن رأى جاره قد سافر ثم عاد بالأرباح زادت حسرة أسفه على لذة كسله أضعافًا، وكذلك إذا برع أحد الرفيقين في العلم وتكاسل الآخر.

والمقصود أن ألم الفوات يربو على لذة الكسل.

---

(١) (ص ١٤).

(٢) ويكون بالصوم، أو بما ذكر في الحديث الآتي.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وغيره، وقال: «حسن صحيح». وصححه الألباني.

(٤) «الطب الروحاني» (ص ٥٢).

وقد أجمع الحكماء على أن الحكمة لا تدرك بالراحة، فمن تلمح ثمرة الكسل اجتنبه، ومن مد فطنته إلى ثمرات الجد نسي مشاقّ الطريق.

ثم إن اللبيب يعلم أنه لم يخلق عبثًا، وإنما هو في الدنيا كالأجير أو كالتاجر.

ثم إن زمان العمل بالإضافة إلى مدة البقاء في القبر كلحظة، ثم إن إضافة ذلك إلى البقاء السرمدي إما في الجنة وإما في النار ليس بشيء».

وقال[1]: «وأي عيش لمن ساكن الكسل إذا رأى أقرانه قد برزوا في العلم وهو جاهل، أو استغنوا بالتجارة وهو فقير؟! فهل يبقى للالتذاذ بالكسل والراحة معنى؟!».

وقال[2]: «إذا كانت الهمة الدنية طبعًا لم ينجع فيها العلاج، فإن كانت مكتسبة بصحبة الأدنياء أو لغلبة الطبع والهوى فعلاجها قريب، وذلك من وجوه:

منها: مقاطعة أهل الدناءة أنفة منهم، ومواصلة أرباب الهمم العالية، ثم التفكر بالعواقب ومآل الدناءة ومصير أولي الجد والاجتهاد، ومن تفكر في المرتفعين في الهمم علم أنهم كهُوَ من حيث الأصلية والآدمية، غير أن حب البطالة والراحة جَنَيَا عليه فأوثقاه، فساروا وهو قاعد، ولو حرك قدم العزم لوصل، قال الشاعر:

إذا أعجبتك خصال امرئٍ ... فكُنْهُ تكن مثلَ ما أعجبك

فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجبًا يحجبك

ومن نظر في أخبار السلف رأى عموم الفقهاء والعلماء وأكثر المشار إليهم بذلك من الموالي ومن الضعفاء وأهل الحرف الدنية، إلا أن الهمم أَثَّرَتْ فأثارتْ عن موطن.

ولو تفكر أرباب الهمم الدنية في عواقبها وما يجيء عليهم لرأوا البطالة

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣١٤).

(٢) «الطب الروحاني» (ص ٥٥-٥٦).

عدوًّا، وإنما صحبوا دناءة الهمة تعجلًا للراحة، وما يلقونه من الحسرات على فوت الفضائل والسقوط من أعين الناس والإهانة منهم أعظم من كل كرب وشدة، وما يناله أرباب التعب من الراحة في تعظيم الخلق لهم وارتفاع قدرهم في الدنيا والآخرة يُنسي مرارة كل نصَب، فكأنه ما تعب من استراح ولا استراح من تعب.

بسنده إلى أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا بْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»(١).

وبيان هذا: أن التعب ينقضي وتبقى الراحة، والراحة تذهب وتبقى الحسرة، والمقام موسم، والفوات معترض، والاستلاب عاجل، وفي بعض هذا إزعاج للمتواني».

وقال(٢): «الحِذار الحِذار، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر:٥٦]. الحازم يتزود لما به، قبل أن يصير لمآبه. شجرة الحزم أصلها إحكام النظر، وفروعها المشاورة في المُشكل، وثمرها انتهاز الفرص، وكفى بذهاب الفرص ندمًا، وكم فرصة فاتت فأصبح ربها يَعَضّ عليها الكف أو يقرع السِّنّ! وا عجبا لمضيع العمر في التواني! فإذا جاء متقاضي الروح قال: ﴿إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔنَ﴾ [النساء:١٨]، ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ:٥٢]!».

وقال(٣): «... وأهم الكل أن يحترز بأخذ العدة وتحقيق التوبة قبل أن يهجم ما لا

---

(١) أخرجه مسلم (٨٠٧) وغيره، ومن «صحيحه» نقلت لفظه.

(٢) «اللطف في الوعظ» (ص ٢١).

(٣) «صيد الخاطر» (ص ٣٨٣-٣٨٤).

يؤمن هجومه، وليحذر من لص الكسل، فإنه محتال على سرقة الزمان».

وفي «لطائف المعارف»[١]: «غاية أمنية الموتى في قبورهم حياة ساعة، يستدركون فيها ما فاتهم من توبة وعمل صالح، وأهل الدنيا يُفَرِّطون في حياتهم، فتذهب أعمارهم في الغفلة ضياعًا، ومنهم من يقطعها في المعاصي.

قال بعض السلف: أصبحتم في أمنية ناس كثير».

قال ابن رجب: يعني أن الموتى كلهم يتمنون حياة ساعة ليتوبوا فيها ويجتهدوا في الطاعة، ولا سبيل لهم إلى ذلك.

لو قيل لقومٍ ما مناكمُ طلبوا ... حياةَ يومٍ ليتوبوا فاعلمِ
ويحكِ يا نفسُ ألا تيقظٌ ... ينفع قبل أن تَزِلَّ قدمي
مضى الزمانُ في توانٍ وهوًى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي

ومن علاج الكسل: قطع التعلق بالأماني الباطلة، والآمال الكاذبة.

قال يحي بن معاذ[٢]: لا يزال العبد مقرونًا بالتواني، ما دام مقيمًا على وعد الأماني.

وقال ابن الجوزي[٣]: «من التوفيق رفض الأماني، ومن الخِذلان مسامرة الأماني».

ولله در أبي تمام إذ يقول:

مَنْ كان مَرعى عزمِهِ وهمومِهِ ... روضُ الأماني لم يَزَلْ مهمومًا

وقال ابن القيم[٤]: «أخس الناس همة وأوضعهم نفسًا من رضي من الحقائق

---

(١) (ص ٣٥٥).

(٢) «تاريخ بغداد» (١٨٤/٥).

(٣) «التبصرة» (١٦٩/٢).

(٤) «الجواب الكافي» (ص ١٠٧).

بالأماني الكاذبة، واستجلبها لنفسه، وتَحَلَّى بها، وهي لعمر الله رؤوس أموال المفلسين، ومتاجر البطالين، وهي قوت النفس الفارغة التي قد قنعت من الوصل بزورة الخيال، ومن الحقائق بكواذب الآمال، وهي أضر شيء على الإنسان، وتتولد من العجز والكسل، وتولِّد التفريط والإضاعة والحسرة والندامة».

وقال[1]: «الأماني الباطلة هي رؤوس أموال المفاليس، بها يقطعون أوقاتهم، ويلتذون بها كالتذاذ من زال عقله بالمسكر، أو بالخيالات الباطلة، ولا يرضى بالأماني عن الحقائق إلا ذوو النفوس الدنيئة الساقطة، كما قيل:

واترك منى النفس لا تحسبْه يُشْبِعها　　　إن المـــنى رأسُ أمـــوال المفـــاليسِ

وأمنيّة الرجل تدل على علو همته وخستها».

وقال ـ وهو يَعُدّ مفسدات القلب[2] ـ: «ركوبه بحر التمني: وهو بحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل:

إن المُـــنى رأسُ أمـــوال المفـــاليسِ

وبضاعة ركّابه مواعيد الشيطان، وخيالات المحال والبهتان، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة والخيالات الباطلة تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية، ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية، وكل بحسب حاله من متمنٍّ للقدرة والسلطان، وللضرب في الأرض والتطواف في البلدان، أو للأموال والأثمان، أو للنسوان والمردان، فيمثل المتمني صورة مطلوبه في نفسه، وقد فاز

(١) انظر «مدارج السالكين» (٣/٩٤).

(٢) ومفسدات القلب التي تكلم عليها هي: كثرة الخلطة، والتمني الكاذب، والتعلق بغير الله، وكثرة الأكل، وكثرة النوم. انظر ـ إن شئت ـ «مدارج السالكين» (١/٤٥١-٤٥٧).

بوصلها والتذ بالظفر بها، فبينا هو على هذه الحال إذ استيقظ فإذا يده والحصير!

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان والعمل الذي يقربه إلى الله ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خدع وغرور».

وفي «المدهش»(١): «يا أبناء الدنيا، إنها مذمومة في كل شريعة، والولد عند الفقهاء يتبع الأم، يا من هو في حديثها أنطق من سَحبان(٢)، وفي انتقاد الدنانير أنسب من دَغْفَل(٣)، فإذا ذكرت الآخرة فأبله من باقل(٤)، حيلتك في تحصيلها أدق من الشَّعَر، وأنت في تدبيرها أصنع من النحل، وعَيْن حرصك عليها أبصر من العُقاب، وبطن أملك أعطش من الرمل، وفم شَرَهك أشرب من الهِيم، تجمع فيها الدُّرّ جمع الذَّرّ، يا رفيقًا في البَلَه لدود القز، ما انتفعت بموهبة العقل:

كَدُودٌ كدُودِ القَزِّ ينسج دائمًا ... ويهلك غمًّا وسط ما هو ناسجه

ويحك! إن سرورها أقتل من السم، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أبقي عمر؟ يا أبرد من الثلج! يا من هو عن نجاته أنوم من فهد، ضيّعت عمرًا أنفس من الدر، أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج، تسعى إلى العاجل سعي رُخٍّ، وتمشي في الآجل مشي فِرزان(٥).

الزكاة عليك أثقل من أُحُد، والصلاة عندك كنقل صخر على ظهر،

---

(١) (ص ٢٦٠-٢٦١).

(٢) هو سَحبان وائل، يُضرب به المثل في البلاغة والخطابة والفصاحة.

(٣) هو دَغْفَلُ بن حنظلة النَّسّابة.

(٤) رجل من إياد يُضرب به المثل في العِيّ، فيقال: «أعيا من باقل».

(٥) الفِرزان: من أحجار الشطرنج، وهو في الرقعة: الملك، ومشيه فيها خطوة خطوة. والرّخّ: من أحجار الشطرنج أيضًا، وهو في الرقعة: القلعة، ويمشي فيها في خط مستقيم، خطوة أو خطوات.

وطريق المسجد في حسبان كسلك كفَرْسَخي دَيْر كعب، صدرك عن حديث الدنيا أوسع من البحر، ووقت العبادة أضيق من تسعين[1].

معاصيك أشهر من الشمس، وتوبتك أخفى من السُّهَا[2]، إن عَرضتْ خطيئة وثبت وثوب النَّمِر، فإذا لاحت طاعة رغت رَوَغان الثعلب، تقدم على الظلم إقدام السبع، وتخطف الأمانة اختطاف الحِدَأة[3].

يا أظلم من الجُلُنْدَى[4] ما تأمنك غزلان الحرم، يا كنعان الأمل، يا نمرود الحِيَل، يا نُعمان الزلل، أنت في حب المال شبه الحُبَاحِب[5]، وفي تبذير العمر رفيق حاتم، تمشي في الأمل على طريق أشعب، وستندم ندامة الكُسَعِي[6].

يا عذري الهوى في حب الدنيا، يا كوفي الفقه في تحصيلها، يا بصري الزهد في طلب الآخرة، إنما يُتْعَب في تعليم البازيّ ليصيد ما له قَدْر، ولما تَعَلَّمَ بازيُّ فكرِك أرسلتَه على الجِيَف!».

وفيه[7]: «يا عجبا لك! تتسمى باسم تاجر، وتخاصم على الدرهم وتشاجر، وتصابر لربح القيراط الهواجر، وتغضب لأجل الحبة وتهاجر، وترضى بأفعالك باسم فاجر، أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟ يا من نومه كثير وانتباهه نادر، إن دُعِيتَ إلى التوبة سوَّفتَها، وإن قمتَ إلى الصلاة سففتها، وإن لاح وجهُ الدنيا ترشفتها، أما هي دار بلغة لضيفها تضيفتها؟ أوَليس قد شبت وما عرفتها؟ كم

---

(١) عقد التسعين: أن تجعل أنمل السبابة في أصل الإبهام.

(٢) السها: كوكب خفي يمتحن الناسُ به أبصارَهم.

(٣) الحِدَأَة: طائر يَصيد الجِرْذان.

(٤) من ملوك عُمان، على ما قيل، يُضرب به المثل في الظلم.

(٥) رجل عُرِف بشدة البخل.

(٦) رجل يُضرب به المثل في الندامة. راجع ذلك في «اللسان».

(٧) (ص ٥١٤).

بادية في أرباح غير بادية تعسفتها؟ لقد استشعرت محبتها إي والله والتحفتها، تالله لو علمت جناياتها لعفتها، أنسيت تلك الذنوب التي أسلفتها؟ آهٍ لبضائع عمرٍ بذَّرْتَ فيها وأتلفتها، كم تَعِدُ بالإنابة؟ وكل الوعود أخلفتها».

وفيه(١): «يا نفس، عند ذكر الصالحين تبكين، وعند شرح جِدِّهم تأنين، وإذا تصورت طيب عيشهم تحنين، فإذا عرفت قيامهم [بالطاعة] تنكُبين!».

الاستعانة بالصبر والصلاة

واستعيني يا نفس على جميع أمورك بالصبر والصلاة، وأكثري من ذكر الله تعالى، فإنه ـ كما تقدم ـ ييسر عليك الطاعات، ويسهل العبادات، ويهون عليك العسير، ويقرب لك البعيد.

ولا يتم لك أمرك يا نفس حتى تجعلي الآخرة نُصْبَ عينيك، والفكرَ في نعيمها وعذابها شغلَ عقلك، والتهيؤَ للقاء الله تعالى والقيام بين يديه همَّ قلبك.

قال الله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۞ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

OOOOO

(١) (ص ١٨٠).

عظمة الله تعالى

ويقول لها: يا نفس، ويحك! مالك لا تعظِّمين مولاك تبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره! يا نفس، مالك لا ترجين لله وقارًا! أجَهْلٌ منك بقَدْره؟! أم غفلة منك مع علمك بذلك؟!

يا نفس، اسمعي وعي، اسمعي قول الحق جل وعلا:

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر:٦٧].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد (أو: يا أبا القاسم)، إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ، فَيَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْمَلِكُ».

فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر، تصديقًا له، ثم قرأ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية ذاتَ يومٍ على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾، ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده، ويحركها، يُقْبِل بها ويُدْبِر:

---

(١) متفق عليه.

«يُمَجِّدُ الرَّبُّ نَفْسَهُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَنَا الْمُتَكَبِّرُ، أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الْعَزِيزُ، أَنَا الْكَرِيمُ».

فرَجَفَ برسول الله ﷺ المِنْبَرُ حتى قلنا: لَيَخِرَّنَّ به(١).

وفي لفظ: قال رسول الله ﷺ:

«يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟».

وقال الله تعالى مثنيًا على نفسه، معظمًا لها، واصفًا جلاله وكماله، في أعظم آية من كتابه الكريم:

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال رسوله ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»(٢).

وقال ﷺ: «رُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»(٣).

وانظري يا نفس إلى عظمة بعض مخلوقات الله تعالى، مما هو في محيطك،

---

(١) أخرجه أحمد (٥٥١٤ و٥٦٠٨)، وصحح إسناده على شرط مسلم الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (٣١٩٦)، واللفظ الثاني لمسلم (٢٧٨٨). والحديث في «صحيح البخاري» (٧٤١٢)، مختصرًا.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «العرش» (رقم ٥٨). وهو في «الصحيحة» (١٠٩).

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

وتشاهدينه في كل يوم، فالشمس مثلًا ـ هذا القرص الذي يبدو لبعده بحجم الرغيف ـ، قال العلماء: يبعد عنا ١٥٦ مليون كيلومتر، وهي أكبر من الأرض بمليون و٣٠٠,٠٠٠ مرة[١]، ولسان اللهب الذي يخرج من الشمس يزيد طوله على مليون كيلومتر، ودرجة حرارة سطحها ٥,٥٠٠ درجة مئوية، ودرجة حرارة مركز نواتها ١٥ مليون درجة مئوية، وإن الأرض إذا ألقيت في الشمس تبخرت في ثانية واحدة، هذا، وهي والقمر يلقيان في جهنم يوم القيامة، فكم تكون حرارة جهنم إذًا؟!! ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا * إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان:٦٥-٦٦].

ففي الحديث: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ثَوْرَانِ مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

وقالوا: إن في برج العقرب نجمًا متألقًا يُرى من الأرض، اسمه قلب العقرب، هذا النجم المتألق الذي يقع في الوسط الهندسي لبرج العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما!!

والمسافة بيننا وبين الشمس تقدر لبعدها بسرعة الضوء، والضوء يقطع في الثانية الواحدة ٣٠٠,٠٠٠ كيلومتر، يعني المسافة بيننا وبين الشمس (وهو ما يحتاجه الضوء لقطعها) تساوي بعد التحويل حوالي ٨ دقائق و١٧ ثانية ضوئية، ويقدر بعد أبعد نجم من المجموعة الشمسية عن الأرض بـ ١٣ ساعة ضوئية، وهي لا شيء بالنسبة إلى المسافة الهائلة بين الأرض وبين أقرب نجم من غير

---

(١) هذه الأرقام وما بعدها فيها اختلاف، والعهدة فيها على المنقول عن علماء هذا الشأن، وهو قابل للأخذ والرد، والقبول والجحد! إلا أنه مهما كانت الأرقام الحقيقية دون ما ذكرنا، فإنها تبقى هائلة جدًّا، وفوق تصور العقل واستيعابه، بل وإن الاكتشافات كلما تطورت وتجددت تخبرنا غالبًا بأن الأرقام والأعداد والمسافات والأحجام والأوصاف فوق ما ذكر وأعظم بكثير.

(٢) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (١/٦٦ - ٦٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٢٤). وأخرجه البخاري بلفظ: «الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُكَوَّرَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

المجموعة الشمسية، وهو نجم القطب، فبعده عن الأرض ٤٠٠ سنة ضوئية، وبين الأرض وبين أقصى نجم في درب التبانة[١] ١٥٠,٠٠٠ سنة ضوئية.

هذا، وبعض المجرات تبعد عنا ١٨,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سنة ضوئية، وكل هذا وغيره وما بعده من السموات السبع وما فيها، وما لا يقدر قدره إلا الله تعالى، ما هو إلا كحلقة في أرض فلاة بالنسبة إلى الكرسي، والكرسي بالنسبة إلى العرش كذلك!!!

فهل عرفت يا نفس الآن معنى تنزيهك الله تعالى وتحميده زنة عرشه؟! إذ تقولين: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته. وهل عرفت قدر قولك: عدد خلقه؟!

فكيف بقولك: رضا نفسه، ومداد كلماته؟! فإن هاتين فوق تَينِك وأعظم، ولا مقارنة بما هو صفة لله لا نهاية له في العظمة، ولا يفنى ولا ينفد، بما هو مخلوق يبقى بحَدّ وعَدّ، مهما كثر عدده وعظم شأنه!

وتفكري يا نفس في هذه السعة العظيمة للكون، وقارني بالمقابل مع عظمة أحد الملائكة التي أذن الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يكشف عن شأنه ويبلغ عن عظمته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ دِيكٍ قَدْ مَرَقَتْ رِجْلَاهُ الْأَرْضَ، وعُنُقُهُ مُنْثَنِي تَحْتَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَكَ مَا أَعْظَمَكَ رَبَّنَا فَرَدَّ عَلَيْهِ: مَا يَعْلَمُ ذَلِكَ مَنْ حَلَفَ بِي كَاذِبًا»[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) درب التبانة: هو اسم مجرتنا التي تنتمي إليها المجموعة الشمسية. والمجرة: عبارة عن تجمعات هائلة الحجم، تحتوي على مليارات النجوم والكواكب والأقمار والكويكبات والنيازك، وتحتوي كذلك على الغبار الكوني، والمادة المظلمة، وبقايا النجوم، وتتخللها مجالات مغناطيسية مروِّعة.

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٣٢٤) وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (١٥٠).

«أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ»[1].

وهذه المسافات الهائلة التي لا يتصورها العقل، والتي تحتاج لقطعها إلى ملايين السنين، بل ملايين السنين الضوئية، قطعها النبي ﷺ ليلة المعراج في ساعات قليلة، ومن ضمن هذه الساعات الوقت الذي استغرقته كل الأحداث وما أكثرها التي أخبر بها ﷺ أنها جرت له في تلك الليلة العظيمة، فلو حُسبت مدةُ الأحداث وفرضناها بوقتنا الحالي وبساعاتنا المعهودة، وطُرحت من وقت المعراج، ثم قلت: إن النبي ﷺ قطع تلك المسافات الشاسعة العظيمة في دقائق لما أبعدت النُّجعة!

قال النبي ﷺ: «ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ، يُقَالُ لَهُ: الْبُرَاقُ، فَوْقَ الْحِمَارِ، وَدُونَ الْبَغْلِ، يَقَعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ، فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ انْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا». الحديث[2].

وقال ﷺ: «ثُمَّ عَرَجَ بِي حَتَّى ظَهَرْتُ لِمُسْتَوًى أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلَامِ!»[3].

أي: علوت وارتقيت لمستوًى أسمع فيه صوت الأقلام وهي تكتب!

هذا، وكل هذه المخلوقات: الشمس والكواكب والنجوم والأرض والجبال والبحار، على عظمتها وجمالها وبهائها ستُدَمَّر!! كما قال الله سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ * وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ﴾ [المعارج:٨-٩].

وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا * وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ [الطور:٩-١٠].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٢٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

(٣) بعض حديث، متفق عليه.

وقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ﴾ [الرحمن:٣٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ﴾ [التكوير:١١].

وقال: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ﴾ [الانفطار:١-٣].

وقال: ﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ * وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ * وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ﴾ [التكوير:١-٣].

وقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ وَعۡدًا عَلَيۡنَآۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٤].

وقال سبحانه: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم:٤٨].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: ﴿ يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ﴾ [إبراهيم:٤٨]. فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله؟! فقال: «عَلَى الصِّرَاطِ»(١).

عَوْد

وقال العلماء: إن مجرتنا التي تسمى درب التبانة يوجد فيها أكثر من ٢٠٠ مليار نجم، وعدد المجرات حسب الإحصاءات الجديدة ١٠٠٠ مليار مجرة (يعني: مليون مليون مجرة)، والمجرة العملاقة منها تحتوي ١٠٠ ترليون نجم!!! ويقدَّر ما يُرى بالعين المجردة من النجوم بحوالي ٦٠٠٠ نجم.

هذا، ويقول العلماء: إن الكون يكبر ويتسع باستمرار دون توقف، وقد قال الله سبحانه في كتابه العظيم: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات:٤٧]!!

أي: خلقناها بقوة، وإنا لذو سعة بخلقها، قد جعلناها ذات سعة كبيرة هائلة.

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩١) وغيره.

فصل

وانظري يا نفس في عالمك القريب، وتفكري في ذاتك وصفاتك وتكوينك، وما أودعه الله عز وجل فيك من عجائب وغرائب، وأكتفي هنا خشية الاستطراد والإطالة بذكر شيء مختصر عما يسمى بالحَمْض النووي (DNA)، يقول العلماء: أجسامنا فيها حوالي ٢١٠ أنواع مختلفة من الخلايا، وكل خلية تقوم بعمل مختلف لمساعدة الجسم على القيام بوظائفه، حيث توجد خلايا الدم وخلايا العظام وغيرها، والخلايا تحصل على التعليمات المطلوبة للقيام بوظائفها من الحَمْض النووي (DNA)، ويعتبر هنا الحَمْض النووي مثل برنامج الحاسوب (الكمبيوتر)، وتعتبر الخلية هي (الكمبيوتر)، فالبرنامج (DNA) هو من يُعطي التعليمات (للكمبيوتر): الخلية، ويوعز إليها كيف تتصرف وكيف تقوم بوظائفها.

وبعيدًا عن الإطالة، فهاك معلومات يسيرة عن أعظم ما اكتشف العلم الحديث في النصف الثاني من القرن الماضي، وتوسعت المعلومات وزادت وعظمت في الوقت الحالي، قال العلماء: الـ (DNA) عبارة عن حلقات متصلة، مكونة من مجموعتين، كل مجموعة كسلسلة ملتفة، تُشَبَّه بضفيرة شعر المرأة، إلا أنها ملتفة بطريقة معقدة جدًّا، يحار فيها العقل، وهاتان السلسلتان موضوعتان في نواة الخلية، والخلية صغيرة جدًّا، فقطرها عبارة عن جزء من مئة جزء من المليمتر.

فانظري يا نفس وتمعني، فمع هذا الحجم المتضائل جدًّا في الصغر، فإن طول سلسلة الـ (DNA) (الضفيرة) يبلغ مترين!!! إذًا كم تكون رقة هذا السلسلة وصغر سمكها؟!! هذا مما يطيش العقل لمجرد المحاولة في التفكير فيه وتصوره!!!

وقال العلماء: إن عدد الخلايا في جسم كل إنسان ١٠٠ ترليون خلية (١٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠)، يعني لو قدرنا أننا وصلنا سلاسل الـ (DNA) التي في جسم إنسان واحد بعضها ببعض، لبلغ طولها أكثر من ١٣٠٠ مرة من طول المسافة بين

الأرض والشمس!!! وهذا في جسم إنسان واحد!! وهذا يذكرنا (مع الفارق) بما ذكروه في طول الشرايين في جسم الإنسان، وأنه يبلغ ١٠٠,٠٠٠ كيلومتر، يعني أنه لو قدِّر مدها وبسطها فإنها ستحيط بالكرة الأرضية مرتين ونصف المرة!!

هذا، وقالوا: إن الـ (DNA) في نواة الخلية أشبه بمكتبة فيها كتب كثيرة، يبلغ عدد أحرف محتواها نحو ثلاثة مليارات من الحروف، وهي عبارة عن أحرف من الأوامر الوظيفية المتحكمة في هيئة الإنسان، وأعضائه الخارجة والداخلة، وخصائصه وصفاته وأخلاقه!![1].

وأقول للملحدين المنكرين لوجود الخالق: هل هذا من فعل الصدفة والطبيعة؟! إن سقوط ترليونات الأحرف من طائرة على ورق في متسع من الأرض ليتألف منها «قاموس الفيروزبادي» أو «Oxford English Dictionary» أهون من قولهم وأيسر!! لا جرم تخلى كثير من الملحدين عن نظرية التطور والصدفة الساقطة لمجرد اكتشاف الـ (DNA).

فهذا فقط مثال واحد مما في النفس، وما تقدم أمثلة مما في الآفاق، وما هي إلا تنبيه على ما سواها، مما يطول سرده، ويصعب تعداده، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت:٥٣].

فيا نفس، قولي: تبارك الله رب العالمين!

واسمعي وتدبري وتعقلي قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف:٥٤].

﴿تَبَارَكَ﴾، أي: تعالى وتعاظم؛ علا وعظم في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله،

---

(١) هذا، وليس فيها إلا الفطرة السليمة، من قبول الحق، والرغبة في الأخلاق الحسنة دون السيئة، والاعتراف بالإله العظيم، بحسب ما يقوله العلم الحديث في آخر ما توصل إليه، خلافًا لما يدعيه الملاحدة المفترون.

وعلا وعَظُم على كل أحد سواه، وكثر خيره وفضله وإحسانه، وعم من في السموات ومن في الأرض، وشمل الدنيا والآخرة، ولا مثل له في هذا كله. هذا ما تقتضيه صيغة «تفاعل»؛ أعني: أن من مقتضياتها المشاركة، وبالتفصيل المتقدم.

وقوله سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان:٦١].

وقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء:٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر:٦٤].

وقوله سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف:١٠٥].

وقوله سبحانه: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا * وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا * لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴾ [النبأ:٦-١٦].

وقوله سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ ﴾ [المؤمنون:١٢-١٧]. الآيات.

ويا نفس، قولي: سبحان الله العظيم وبحمده، عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته!!!

وإننا نشهد يا ربنا أنك كما وصفت نفسك، وكما وصفك رسولك ﷺ، وأنك كما تقول، وفوق ما نقول، سبحانك وبحمدك، تعجز الألسن عن التعبير عن عظيم قدرك، وكبير شأنك، لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، نقولها موقنين بها، مقتدين فيها بنبي الهدى ﷺ، أعلم الخلق بالله تعالى، وأشدهم له خشية، وأعظمهم له ثناء، وأكثرهم له ذكرًا، كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها قالت:

فَقَدْتُ رسول الله ﷺ ليلة من الفراش، فالتمسته، فوقعتْ يَدِي على بطن قدميه، وهو في المسجد، وهما منصوبتان، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[(١)].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أن رسول ﷺ كان يقول في آخر وتره:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَ[أَعُوذُ] بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[(٢)].

فيا ألله! ما أعظمها من كلمات! تشهد لقائلها ﷺ بسيادة النبوة، وكمال العلم والمعرفة بالله العظيم.

قال ابن الجوزي[(٣)]: «عَرَض لي في طريق الحج خوف من العرب، فسرنا على طريق خيبر، فرأيت من الجبال الهائلة والطرق العجيبة ما أذهلني، وزادت عظمة الخالق عز وجل في صدري، فصار يَعرِض لي عند ذكر تلك الطرق نوع تعظيم لا أجده عند ذكر غيرها، فصحت بالنفس: ويحك! اعبري إلى البحر

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره.

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٢٧)، والترمذي (٣٥٦٦)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) «صيد الخاطر» (ص ١٦٩-١٧٠).

وانظري إليه وإلى عجائبه بعين الفكر تشاهدي أهوالًا هي أعظم من هذه، ثم اخرجي إلى الكون والتفتي إليه فإنك ترينه بالإضافة إلى السموات والأفلاك كذرة في فلاة، ثم جولي في الأفلاك، وطوفي حول العرش، وتلمحي ما في الجنان والنيران، ثم اخرجي عن الكل والتفتي إليه، فإنك تشاهدين العالم في قبضة القادر، الذي لا تقف قدرته عند حد.

ثم التفتي إليك، فتلمحي بدايتك ونهايتك، وتفكري فيما قبل البداية وليس إلا العدم، وفيما بعد البِلى وليس إلا التراب!

فكيف يأنس بهذا الوجود من نظر بعين فكره المبدأ والمنتهى؟! وكيف يغفل أرباب القلوب عن ذكر هذا الإله العظيم؟! وبالله، لو صَحَتِ النفوس من سكر هواها لذابت من خوفه! أو لغابت في حبه!».

جحد الحق

وانظري يا نفس وتعجبي من هؤلاء المسمَّين علماء طب وفلك وجيولوجيا وغيرها! كيف على كثرتهم أفنَوا الأعمار في البحث في خلق الكون والإنسان والحيوان والنبات، وكيف تحيروا دهرهم، واندهشوا عمرهم، في عجيب صنع ذلك! وما جهلوه بعد أكثر وأعظم مما عرفوه! انظري إليهم وتعجبي! كيف لا يزالون بعد كل ما عرفوه من عظمة المخلوقات، الدالة ـ ولا بد ـ على الخالق العظيم، كيف لا يزالون على عنادهم وكفرهم! وكيف لا يزالون يجادلون في آيات الله بغير سلطان، وفي الحق بالباطل! وكيف تنصرف عقولهم عن الهدى الواضح الأبلج إلى الضلال المظلم اللجلج! كما قال الله تعالى في وصف أمثالهم وأشباههم في الكفر والعناد: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر:٦٩].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ

أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام:٢٥-٢٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ۝ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴾ [الرعد:١٣-١٦].

وعن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي ﴿ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ﴾، ثم يقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض(١). اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء:٤١-٤٤].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [فصلت:٩-١٢].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب» (٧٢٣) وغيره، وصححه الألباني.

وقال سبحانه: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴾ [الطور:٣٥-٣٧]. الآيات.

فانظري يا نفس إلى جدالهم وعنادهم وجحدهم وكفرهم! لينبئك هذا كله بشأن تزكية النفس وأهمية علاجها من أمراضها، التي هي سبب ضلالها وكفرها ومعصيتها وهلاكها، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل:١٤].

فكما تحرصين يا نفس على علاجك من الجهل بالعلم والمعرفة، احرصي على علاجك وتطهيرك من الظلم والكبر والعناد والحسد، بالعدل والإنصاف وقبول الحق والتواضع له والرضا به، وإلا فإن العلم والمعرفة لن تنفع دون ذلك، فها هم قد جحدوا بعد اليقين، وعاندوا بعد العلم، وأنكروا بعد المعرفة، ظلمًا من أنفسهم وعلوًّا، كما يفعل أكثر هؤلاء العلماء والمكتشفين الجُدد تمامًا!!

قال شيخ الإسلام[١]: «فإن الإنسان قد يعرف أن الحق مع غيره ومع هذا يجحد ذلك لحسده إياه، أو لطلب علوه عليه، أو لهوى النفس، ويحمله ذلك الهوى على أن يعتدي عليه، ويرد ما يقول بكل طريق، وهو في قلبه يعلم أن الحق معه، وعامة من كذب الرسل علموا أن الحق معهم، وأنهم صادقون، لكن إما لحسدهم، وإما لإرادتهم العلو والرياسة، وإما لحبهم دينهم الذي كانوا عليه، وما يحصل لهم به من الأغراض، كأموال ورياسة وصداقة أقوام وغير ذلك، فيرَوْن في اتباع الرسل ترك الأهواء المحبوبة إليهم، أو حصول أمور مكروهة إليهم، فيكذبونهم ويعادونهم، فيكونون من أكفر الناس، كإبليس وفرعون، مع علمهم بأنهم على الباطل والرسل على الحق».

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٩١/٧).

الكبر

واعلمي يا نفس أن أعظم أسباب العناد والمجادلة في الحق ورفض التواضع له هو الكبر، كما قال الله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ * لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [غافر:٥٦-٥٧].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: إن الذين يخاصمونك يا محمد فيما أتيتهم به من عند ربك من الآيات، ﴿بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ﴾، يقول: بغير حجة جاءتهم من عند الله بمخاصمتك فيها، ﴿إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ﴾، يقول: ما في صدورهم إلا كبر يتكبرون من أجله عن اتباعك، وقبول الحق الذي أتيتهم به، حسدًا منهم على الفضل الذي آتاك الله، والكرامة التي أكرمك بها من النبوّة، ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾، يقول: الذي حسدوك عليه أمر ليسوا بمدركيه ولا نائليه، لأن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وليس بالأمر الذي يدرك بالأماني.

وقد قيل: إن معناه: إن في صدورهم إلا عظمة ما هم ببالغي تلك العظمة لأن الله مُذِلُّهم». اهـ.

قلت: وهذا القول الثاني هو الصواب إن شاء الله، لأن الأَولى بالضمير أن يرجع إلى المنطوق المصرح به لا إلى المفهوم! ناهيك من أن المنطوق هو أقرب مذكور.

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ * ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴾ [الحج:٨-١٠].

قوله تعالى: ﴿ ثَانِيَ عِطْفِهِۦ ﴾؛ أي: لاوي جانبه وعنقه استكبارًا وإعراضًا.

وقال سبحانه: ﴿ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل:٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴾ [النحل:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [القصص:٨٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة! قال:

«إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ(١)، وَغَمْطُ النَّاسِ(٢)»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«الْعِزُّ إِزَارُهُ، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَاؤُهُ، فَمَنْ يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»(٤).

وعن أبي هريرة وحده رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»(٥).

---

(١) هو دفعه ورده. «منذري».

(٢) هو احتقارهم وازدراؤهم. «منذري».

(٣) أخرجه مسلم (٩١) وغيره.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٢٠) وغيره.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠) وغيره، وصححه الألباني.

وتدبري يا نفس قول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

وقول رسوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[١].

وكان ﷺ يقول في سجوده وركوعه: «سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ، وَالْمَلَكُوتِ، وَالْكِبْرِيَاءِ، وَالْعَظَمَةِ»[٢].

واسمعي يا نفس ما يُيَقِّظ إيمانك، ويحرك إيقانك، يقول الله تعالى عن نفسه الكريمة: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ۝ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٥-١٦].

قوله: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، قال ابن كثير[٣]: «أي: الذي ذل كل شيء لعز جلاله وعظمة سلطانه».

وقال[٤]: «أي الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب».

ويقول عز وجل: ﴿حمٓ ۝ عٓسٓقٓ ۝ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ

(١) أخرجه مسلم (١٧٩) وغيره.

(٢) انظر «سنن أبي داود» (٨٧٣)، وصححه الألباني.

(٣) «تفسيره» (٤/٣٣٣).

(٤) «تفسيره» (٤/٤٤٧).

﴿ٱلۡحَكِيمُ ۝ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشورى:١-٥].

قال القاسمي[(١)]: «﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾؛ أي: يتشققن لتأثرهن من تجليات عظمته، ويَتلاشَين من علو قهره وسلطنته، يدل عليه مجيئه بعد العلي العظيم».

وقال ابن كثير[(٢)]: «﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، والسُّدي، وكعب الأحبار: أي فَرَقًا من العظمة».

فاسمعي يا نفس، وتمعني فيما يُلقى إليك، وتدبري ما يتلى عليك، واعلمي أنه لا شيء مثل معرفة عظمة الله تعالى، واستشعار القلب بها، ينير طريقك، ويكون رفيقك، ويوجب لك الخشوع والخضوع، والتوبة والرجوع، ويعالجك من شرورك وأمراضك، ويصلح لك أعمالك وأحوالك، ويعينك على التغلب على هواك وشهواتك، وهي أنجع طريق وأقربها وأسهلها وأقصرها.

وتكون ـ كما تقدمت الإشارة إليه ـ: بمعرفة أسمائه وصفاته، وعظمتها وسعتها، وما تُطْلِعُكِ عليه من جلال الله تعالى وجماله، وعظمته وكماله، وعلو ذاته وشانه، وذلك عن طريق تدبر وذِكر ما ورد في ذلك في الكتاب والسنة، وهي الأدلة المكتوبة المسطورة.

قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم:٦٥].

وتكون ثانيًا: بمعرفة عظمة مخلوقاته، وذلك عن طريق النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، والتفكر في عجيب صنعها

(١) «تفسيره» (٨/٣٥١).

(٢) «تفسيره» (٧/١٩٠).

وتدبيرها، وكيف خلقت؟! وهي الأدلة المنظورة المنشورة.

فهذان طريقا أولي الألباب في معرفة رب الأرباب، كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ * ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة:١٦٤].

فصل

واسمعي ويكِ يا نفس! وتعقلي، وتدبري وتفهمي، وشاهدي بقلبك العظمة والكمال، والمجد والجلال:

قال الله تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٧-٢٨].

قال ابن كثير: «يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه وجلاله، وأسمائه الحسنى وصفاته العلا، وكلماته التامة التي لا يحيط بها أحد، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها، كما قال سيد البشر وخاتم الرسل: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ،

أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»[1]. فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: ولو أن جميع أشجار الأرض جُعلت أقلامًا، وجُعل البحر مدادًا، ومَدَّه سبعةُ أبحر معه، فكُتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله، لتكسرت الأقلام، ونفد ماء البحر، ولو جاء أمثالها مددًا.

وإنما ذُكرت «السبعة» على وجه المبالغة، ولم يُرد الحصر، ولا أن ثَمّ سبعة أبحر موجودة تحيط بالعالم، كما يقوله من تلقاه من كلام الإسرائيليين التي لا تصدَّق ولا تكذَّب، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾. فليس المراد بقوله: ﴿بِمِثْلِهِۦ﴾ آخَرُ فقط، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله، ثم هَلُمّ جَرًّا، لأنه لا حصر لآيات الله وكلماته.

وقال الحسن البصري: لو جُعل شجر الأرض أقلامًا، وجُعل البحر مدادًا، وقال الله: إن من أمري كذا، ومن أمري كذا، لنفد ما في البحور، وتكسرت الأقلام.

وقال قتادة: قال المشركون: إنما هذا كلام يوشك أن ينفد. فقال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ ﴾؛ أي: لو كان شجر الأرض أقلامًا، ومع البحر سبعة أبحر، ما كان لتنفد عجائب ربي وحكمته وخلقه وعلمه.

وقال الربيع بن أنس: إن مَثَل علم العباد كلهم في علم الله كقطرة من ماء البحور كلها، وقد أنزل الله ذلك: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ ﴾. الآية. يقول: لو كان البحر مدادًا لكلمات الله والأشجار كلها أقلامًا، لانكسرت الأقلام، وفَنِي

---

(١) بعض حديث، أخرجه مسلم (٤٨٦) وغيره. وقد تقدم قريبًا.

ماء البحر، وبقيت كلمات الله قائمة لا يُفنيها شيء، لأن أحدًا لا يستطيع أن يَقْدُر قَدْره، ولا يثني عليه كما ينبغي، حتى يكون هو الذي يثني على نفسه، إن ربنا كما يقول، وفوق ما نقول.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ أي: عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه، فلا مانع لما أراد ولا مخالف، ولا مُعَقِّب لحكمه، ﴿حَكِيمٌ﴾، في خلقه وأمره، وأقواله وأفعاله، وشرعه وجميع شؤونه.

وقوله: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾؛ أي: ما خَلْق جميع الناس وبعثهم يوم المعاد بالنسبة إلى قدرته إلا كنسبة خَلْق نفس واحدة، الجميع هين عليه، و﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]؛ أي: لا يأمر بالشيء إلا مرة واحدة، فيكون ذلك الشيء لا يحتاج إلى تكرره وتوكده، ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾؛ أي: كما هو سميع لأقوالهم بصير بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة كذلك قدرته عليهم كقدرته على نفس واحدة، ولهذا قال: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾». اهـ

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]. الآيات.

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ

ٱلْغَيْبِۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ:٣].

فصل

وانظري يا نفس ماذا يقول سبحانه عن ملائكته: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل:٥٠].

ويقول: ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧-٢٨].

وقال سبحانه وتعالى عن كبيرهم عليه السلام: ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم:٥-٦].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير:١٩-٢٠].

وقال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، عَلَيْهِ سِتُّ مِائَةِ جَنَاحٍ، يَنْتَثِرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاوِيلُ[(١)] [وَ]الدُّرُّ وَالْيَاقُوتُ»[(٢)].

ومع هذا قال رسول الله ﷺ: «مَرَرْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي بِالْمَلَإِ الْأَعْلَى، وَجِبْرِيلُ كَالْحِلْسِ الْبَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ!!»[(٣)].

هذا يا نفس، وهم: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

والسر في ذلك أن الخشية والتعظيم تكون على قدر العلم والمعرفة، لا على قدر المعاصي والمخالفة!

ooooo

(١) أي: الأشياء المختلفة الألوان. ومنه يقال لما يخرج في الرياض من ألوان الزَّهْر: التهاويل، وكذلك لِمَا يُعَلَّق على الهوادج من ألوان العِهْن والزينة. وكأن واحدَها تَهْوَالٌ. وأصلها مما يَهُول الإنسانَ ويُحَيّره. «نهاية».

(٢) متفق عليه، مختصرًا، وأخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣٩١٥، وفي مواضع أُخَر) وغيره.

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٦٧٩) وغيرُه. وهو في «الصحيحة» (٢٢٨٩).

ويقول لها: يا نفس، متى تتوبين إلى الله تعالى توبة نصوحًا صادقة، خالصة لوجه الله تعالى، محبة له وإجلالًا، لا ترجين من ورائها إلا ثوابه ورضاه، ولا تخافين إلا عقابه وسخطه؟!

يا نفس، متى تجودين بهذه التوبة، وتفكين بها رقبتك من العبودية للشهوات، وتطْلِقينها من سجن التعلق بالملذات؟!

كفاك يا نفس ظلمًا لذاتك، وحرمانًا لها من الخيرات، ومنعًا لها من الباقيات الصالحات، كفاك يا نفس! كفاك!

يا نفس، متى تتوبين إلى الله تعالى توبة تعم كل المعاصي، وتشمل كل الذنوب، وتنالين بها سعادتك وراحتك في الدنيا والآخرة؟!

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا

فسارعي يا نفس إلى أمر ربك، وتدبري ثوابه لك على ندمك وتوبتك، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم:٨].

قال ابن سعدي: «قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيائه، ويتمتعون برَوحه وراحته، ويشفقون إذا طفئت الأنوار التي تُعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم لهم نورهم، فيستجيب

الله دعوتهم، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله». اهـ.

قال ابن القيم(1): «النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوّم ولا انتظار، بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاءَ حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عز وجل». اهـ.

وقال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [النور:31].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات:11].

فعجلي يا نفس بفعل ما أُمرت به من الطاعات، من صلاة وزكاة وصيام، وبر والدَين وصلة أرحام، وأداء أمانات وعدل وإحسان، وسائر ما أُمرت به، وعجلي بترك المعاصي والسيئات، الظاهرات منها والباطنات، ولا تؤخري التوبة، ولا تظلمي ذاتك بذلك، فإنك ما تقيمي على ذنب إلا وتكوني قد مَنعت عنك

(1) «مدارج السالكين» (1/311).

خيرًا وسعادة بقدره، وأي ظلم أعظم من أن يظلم العبد نفسه، ويحرمها سعادتها ورضا الله عنها، ويوقعها في شقاوتها وسخط الله عليها؟!

واسألي الله يا نفس أن يتقبل توبتك، وأن يمحو زلتك، وأن يقيل عثرتك.

وأبشري ما دمت قد تبت إلى ربك ورجعت، بالفرح والسرور، وقرة العين وتيسير الأمور، واستعدي لتنزّل الرحمات والبركات، فأنت في مقام عظيم، وحال كريم، فقد رجعت إلى حمى الله القوي المتين، وقمت على صراطه المستقيم، فبشراك! بشراك!

واعلمي يا نفس أن يوم توبتك النصوح هو أفضل أيام عمرك، وهو يوم سعدك وهنائك، فإياه فعظمي! وعليه فاستمري! فما أعظمه في حقك! وما أجله في عمرك!

وجاء في قصة غزوة تبوك في توبة كعب بن مالك رضي الله عنه وتلقي الناس له فوجًا فوجًا يهنئونه بتوبة الله عليه: قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يَبْرُقُ وجهه من السرور:

«أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»[١].

قال ابن القيم وهو يتكلم عن فرح القلب[٢]: «وله فرحة أخرى عظيمة الوقع عجيبة الشأن، وهي الفرحة التي تحصل له بالتوبة، فإن لها فرحة عجيبة لا نسبة لفرحة المعصية إليها البتة، فلو علم العاصي أن لذة التوبة وفرحتها تزيد على لذة المعصية وفرحتها أضعافًا مضاعفة لبادر إليها أعظم من مبادرته إلى لذة المعصية.

وسر هذا الفرح إنما يعلمه من علم سر فرح الرب تعالى بتوبة عبده أشد فرح يُقدَّر، ولقد ضرب له رسول الله ﷺ مثلًا ليس في أنواع الفرح في الدنيا أعظم منه، وهو فرح رجل قد خرج براحلته التي عليها طعامه وشرابه في سفر، ففقدها في أرض دَوِّيَّة[٣] مَهْلِكَة، فاجتهد في طلبها فلم يجدها، فيئس منها،

---

(١) متفق عليه.

(٢) «الروح» (ص ٢٤٨-٢٤٩).

(٣) هي البرّية لا نبات فيها ولا ماء.

فجلس ينتظر الموت، حتى إذا طلع البدر رأى في ضوئه راحلته وقد تعلق زمامها بشجرة، فقال من شدة فرحه: اللهـم أنت عبدي وأنا ربك! أخطأ من شدة الفرح[(١)].

فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته، فلا يُنْكَر أن يحصل للتائب نصيب وافر من الفرح بالتوبة». اهـ.

قلت: وقد ذكرت في كتابي «الفرار إلى الله تعالى» فضائل التوبة، وما يعين عليها، والعوائق في طريقها، وكيفية التغلب عليها، وأحكام وفوائد كثيرة تتعلق بها، فلينظره من أحب.

الصبر

ويقول لها: يا نفس، اصبري على طاعة الله تعالى، ففيها سعادتك وصلاح بالك، واصبري عن معصيته، ففي تركها طُهرك وزكاتك ورفعتك، واصبري على أقداره عز وجل، فإنها لا مرد لها، فلا يفوتنك الأجر، وليس مع التسخط إلا الوزر وألم القلب وسوء المنقلب.

يا نفس، اصبري، فعاقبة الصبر الفرج والراحة والسكينة ونيل المراد، وتلمحي ذهاب التعب وزوال النَّصَب، وحصول الأجر العظيم والثواب الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر:١٠].

وقال سبحانه: ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان:١٢].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح:٥-٦].

قال ابن رجب[(٢)]: «ومن لطائف أسرار اقتران الفرج بالكرب واليسر بالعسر: أن الكرب إذا اشتد وعظم وتناهى وحصل للعبد الإياس من كشفه من

(١) هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ لفرح الله جل جلاله بتوبة عبده، أخرجه البخاري (٦٣٠٨، وفي مواضع أخرى)، ومسلم (٢٧٤٤، وفي مواضع أخرى)، وغيرهما، وقد تقدم بأحد ألفاظ مسلم (صفحة ٣٠٠).

(٢) انظر «جامع العلوم والحكم» (ص ١٨٧).

جهة المخلوقين تعلق قلبه بالله وحده، وهذا هو حقيقة التوكل على الله، وهو من أعظم الأسباب التي تُطلب بها الحوائج، فإن الله يكفي من توكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣].

وأيضًا، فإن المؤمن إذا استبطأ الفرج، وأيس منه بعد كثرة دعائه وتضرعه، ولم يظهر عليه أثر الإجابة، رجع إلى نفسه باللائمة وقال لها: إنما أُتيتُ من قِبلكِ، ولو كان فيكِ خير لأُجبتُ! وهذا اللوم أحب إلى الله من كثير من الطاعات، فإنه يوجب انكسار العبد لمولاه، واعترافه له بأنه أهل لما نزل به من البلاء، وأنه ليس بأهل لإجابة الدعاء، فلذلك تسرع إليه حينئذ إجابة الدعاء وتفريج الكرب». اهـ.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال:

«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»(١).

فيا نفس، اصبري وصابري، وجاهدي وحاولي، ولا تضعفي ولا تيأسي.

قال ابن القيم(٢): «إذا قام العبد بالصبر كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالى على العبد عبودية في الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره، كما له عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره، ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى».

---

(١) متفق عليه.

(٢) انظر «الوابل الصيب» (ص ٦).

وقال الشاعر:

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمسًا بالضِّيق في لُجَجٍ تهوي إلى لُجَجِ
وإن تضايقَ بابٌ عنك مُرْتَتِجٌ فانظر لنفسك بابًا غيرَ مُرْتَتِجِ[1]
لا تيأسنّ إذا ما ضِقْتَ من فرجٍ يأتي به الله في الرَّوحات والدُّلَجِ
فما تجرعَ كأسَ الصبر معتصمٌ بالله إلا أتاه الله بالفرجِ

الشكر

ويقول لها: يا نفس، أين شكرك لله عز وجل على نعمه الكثيرة، وما أسبغه عليك من الخيرات العميمة؟! التي لا تُعَدّ ولا تحصى، كما قال جل ثناؤه: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [النحل:١٨].

وقال سبحانه: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ﴾ [إبراهيم:٣٤].

وقال تبارك اسمه: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل:٥٣].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ ﴾ [لقمان:٢٠].

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ * ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ * فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴾ [الانفطار:٦-٨].

وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ [الملك:٢٣].

وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [النحل:٧٨].

---

(١) أي: مغلق.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨-٩].

قال ابن رجب[١]: «قال مجاهد: هذه نِعَمٌ من الله متظاهرةٌ يقرِّرُكَ بها كيما تَشكُر[٢].

وقرأ الفضيل ليلة هذه الآية، فبكى، فسئل عن بكائه، فقال: هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله أن جعل لك عينين تبصر بهما؟ هل بِتَّ ليلة شاكرًا لله أن جعل لك لسانًا تنطق به؟ وجعل يعدد من هذا الضرب».

وقال صالح بن جناح الدمشقي لابنه[٣]: يا بني، إذا مر بك يوم وليلة قد سَلِم فيها دينك وجسمك ومالك وعيالك فأكثر الشكر لله تعالى، فكم من مسلوب دينُه ومنزوع ملكه ومهتوك ستره ومقصوم ظهره في ذلك اليوم وأنت في عافية! وفيه أقول:

لو أنني أُعطيتُ سؤلي لما ... سألت إلا العفو والعافيهْ

فكم فتًى قد بات في نعمةٍ ... فسُلَّ منها الليلةَ الثانيهْ

وعن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال:

«يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا مِنَ الضُّحَى»[٤].

قوله: (على كل سلامى)، قال النووي[٥]: «أصله عظام الأصابع وسائر الكف،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٧٠٩/٢).

(٢) هو في «تفسير الطبري»: «عن قتادة، قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾: نِعَمٌ من الله متظاهرة، يقررك بها كيما تشكره».

(٣) «تاريخ دمشق» (٣٢٥/٢٣-٣٢٦).

(٤) أخرجه مسلم (٧٢٠).

(٥) «شرح مسلم» (٢٣٣/٥).

ثم استُعْمِل في جميع عظام البدن ومفاصله».

وقال ابن رجب[1]: «معنى الحديث: أن تركيب هذه العظام وسلامتها من أعظم نعم الله على عبده، فيحتاج كل عظم منها إلى صدقة يتصدق ابن آدم عنه، ليكون ذلك شكرًا لهذه النعمة». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ يعني: الْعَبْدَ مِنَ النَّعِيمِ ـ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيَكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟»[2].

وفي لفظ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ النَّعِيمِ أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ أُصِحَّ لَكَ الْجِسْمَ، وَأُرْوِكَ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ؟».

قال الصنعاني[3]: «وخَصّ هاتين بالأولية لأنهما أم النعم، فإن الصحة هي نعمة مفردة تأتي بكل جمع، فإن كل نعمة في ضمنها، والتروية من الماء نعمة يَقصر اللسانُ عن وصفها، فإن إيجاد الماء من عجائب نعم الله، فإنه جسم رقيق لطيف سيّال، متصل الأجزاء كأنه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القَبول للطبع، مُسَخَّرٌ للتصرف، قابل للاتصال والانفصال، فيه حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شَربة ماء ومُنِع منها لبذل جميع ما في الأرض في إخراجها[4]، والعجب من الآدمي يستعظم الدينار

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧٠٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٥٨) وغيره. واللفظ الثاني لعبد الله بن أحمد في «زوائد الزهد» (رقم ١٦٧). وصححه الألباني.

(٣) «التنوير» (٣/٦٠٥).

(٤) كذا في الأصل المطبوع من «التنوير»، ويظهر أن فيه سقطًا. ثم عثرت على النص في «موعظة المؤمنين» (ص ٣١٨) تامًّا هكذا: «فلو احتاج العبد إلى شَرْبة ماء ومُنِع منها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلْكَ الدنيا في تحصيلها لو مَلَكَ ذلك، ثم لو شربها ومُنِع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلْكَ الدنيا في إخراجها». فالحمد لله على توفيقه.

والدرهم، ونفيس الأحجار من الجواهر، وينسى نعمة الله في هذا الشيء المبذول الذي مَنَّ الله به على عباده».

فصل

وتفكري يا نفس في أهل البلاء، وما حل في ديارهم من الوباء والغلاء، والخوف والجوع، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والقلق والفتن، وقارني بما أنت فيه من النعمة العظيمة، والعافية المستديمة، مما يحملك على شكر الله عز وجل واللهج بذكره، فانظري على سبيل المثال، واجلبي إلى فكرك أمثاله، مما تشاهدين وتسمعين في الليل والنهار:

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» في حوادث سنة ٢٨١ هـ[١]: «غَلت الأسعار جدًّا، وجهد الناس حتى أكل بعضهم بعضًا، فكان الرجل يأكل ابنه وابنته، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

وقال في حوادث سنة ٣٣٤ هـ[٢]: «وقع غلاء شديد ببغداد، حتى أكلوا الميتة والكلاب والسنانير، وكان من الناس من يسرق الأولاد فيشويهم ويأكلهم، وكثر الموت في الناس حتى كان لا يدفن أحد أحدًا، بل يتركون على الطرقات، فيأكل كثيرًا منهم الكلاب».

وقال في حوادث سنة ٤٤٩ هـ[٣]: «أكل الناس الجيف والنتن من قلة الطعام، ووجد مع امرأة فخذ كلب قد اخضرّ، وشوى رجل صبية في الأتون وأكلها، فقتل، وسقط طائر ميت من حائط فاحتوشه خمسة أنفس فاقتسموه وأكلوه.

ووقع وباء بالأهواز وبُوَاطٍ وأعمالها وغيرها حتى طبق البلاد، وكان أكثر

---

(١) (٨١/١١ - طبعة دار هَجَر).

(٢) (١٧٠/١٥).

(٣) انظر (٧٤١/١٥).

سبب ذلك الجوع، كان الفقراء يشوون الكلاب، وينبشون القبور ويشوون الموتى ويأكلونهم، وليس للناس شغل في الليل والنهار إلا غسل الأموات وتجهيزهم ودفنهم، فكان يُحفر الحفير فيُدفن فيه العشرون والثلاثون».

وقال في حوادث سنة ٤٦٢ هـ[١]: «ضاقت يد أمير مكة فأخذ الذهب من أستار الكعبة والميزاب وباب الكعبة، فضرب ذلك دراهم ودنانير، وكذا فعل صاحب المدينة بالقناديل التي في المسجد النبوي.

وفي هذه السنة كان غلاء شديد وقحط عظيم بديار مصر، بحيث أنهم أكلوا الجِيَف والميتات والكلاب، فكان يباع الكلب بخمسة دنانير، وماتت الفِيَلة فأُكلت، وأُفنيت الدواب فلم يبق لصاحب مصر سوى ثلاثة أفراس بعد العدد الكثير منها.

ونزل الوزير يومًا عن بغلته فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع، فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فأُخذوا فصُلبوا، فأصبحوا فإذا عظامهم بادية قد أكل الناس لحومهم.

وظُهِر على رجل يقتل الصبيان والنساء، ويدفن رؤوسهم وأطرافهم ويبيع لحومهم، فقُتل، [وأُكل لحمه].

وكانت الأعراب يقدمون بالطعام يبيعونه في ظاهر البلد، لا يتجاسرون يدخلون لئلا يُخطف ويُنهب منهم، وكان لا يجسر أحد أن يدفن ميته نهارًا، وإنما يدفنه ليلًا خُفية لئلا يُنبش فيؤكل».

وقال في حوادث سنة ٧١٨ هـ[٢]: «وصلت الأخبار في المحرم من بلاد الجزيرة وبلاد الشرق سَنْجار[٣] والموصل وماردين وتلك النواحي بغلاء عظيم، وفناء

(١) (٢١/١٦-٢٢). والزيادة من طبعة دار إحياء التراث.

(٢) (١٨/١٧٥). والزيادة من طبعة دار إحياء التراث.

(٣) مدينة بالعراق، وهي معروفة الآن.

شديد، وقلة الأمطار، وخوف التتار، وعدم الأقوات، وغلاء الأسعار، وقلة النفقات، وزوال النعم، وحلول النقم، بحيث إنهم أكلوا ما وجدوه من الجمادات والحيوانات والميتات، وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبِيع الولد بخمسين درهمًا وأقل من ذلك، حتى إن كثيرًا [من الناس] كانوا لا يشترون من أولاد المسلمين [تأثُّمًا]، وكانت المرأة تصرح بأنها نصرانية ليُشترى منها ولدها لتنتفع بثمنه، ويحصل له من يُطعمه فيعيش، وتأمن عليه من الهلاك، فإنا لله وإنا إليه راجعون».

قلت: فتأملي يا نفس تلك الأحداث العظام، وما حل بأهل ذاك الزمان، مما تقشعر منه الأبدان!!

وتأملي ما يحدث من مثله أو يشابهه فيما مضى وفي هذه الأوقات، من قتلى الحروب والزلازل والحرائق والفيضانات! وقابليه بما أنت فيه من النعم والخيرات، والدَّعة والراحة والأمن والمسرات، فليكن ذلك يا نفس حاثًّا لك على شكر الله تعالى وداعيًا إلى طاعته، وأبشري عندها بدوام النعم وحفظها وزيادتها، كما قال الله تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧].

المعاصي تزيل النعم

واحذري يا نفس من المعاصي والإعراض عن أمر الله تعالى، والكفر بأنعمه وجحدها أو ترك شكرها، فإن ذلك سبب لزوال النعم، وحلول النِّقَم(١)، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۞ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۞ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥-١٧].

(١) وراجع ما تقدم في فصل «عقوبات المعاصي» (صفحة ٢٧٧).

وقال سبحانه: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾ [النحل:١١٢].

وقال سبحانه في فرعون وقومه: ﴿ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ * وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان:٢٥-٢٩].

وقال سبحانه: ﴿ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ * وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ * كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء: ٥٧-٥٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَص وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَص فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ».

قال: «فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ (أو قال: الْبَقَرُ ـ شكَّ إسحقُ ـ إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما: الإبل. وقال الآخر: البقر)».

قال: «فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا».

قال: «فَأَتَى الْأَقْرَعَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ».

قال: «فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ:

بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا».

قال: «فَأَتَى الْأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ».

قال: «فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ.

قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ. فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا».

قال: «فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قال: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ[١]، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ».

قال: «وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ».

قال: «وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ

(١) أي: في الصورة التي كان عليها لما اجتمع به وهو أبرص، ليكون ذلك أبلغ في إقامة الحجة عليه. «فتح». وقيل: الضمير يرجع إلى الأبرص. أي: أتاه في صورة الأبرص وهيئته الأولى يوم كان أبرص. قلت: وهو الأقرب إلى السياق.

عَنْكَ، وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[١].

واستعيذي بالله من ذلك، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ»[٢].

وفي «الفوائد» لابن القيم[٣]: «يا مُكْرَمًا بحُلة الإيمان بعد حُلة العافية، وهو يُخْلِقهما[٤] في مخالفة الخالق، لا تُنْكِرِ السَلَب، يستحق من استعمل نعمة المنعِم فيما يَكره أن يُسْلَبَها».

وفي «بدائع الفوائد»[٥]: «من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنــــتَ في نعمــــةٍ فارْعَهـــا ... فـــإنّ المعـــاصي تُزيـــلُ النِّعَـــمْ

فما حُفِظَتْ نعمةُ الله بشيء قَطُّ مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره، ولا زالت عن العبد بمثل معصيته لربه، فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس».

وفي «الفوائد»[٦]: «قاعدة جليلة. قد فكرت في هذا الأمر، فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نعم الطاعات ونعم اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزعك شكرها، قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤)، وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).

(٣) (ص ٤٢-٤٣).

(٤) أي: يبليهما، أخلق فلانٌ ثوبَه: أبلاه، أي: لبسه حتى بَلِيَ.

(٥) (٢/٢٠٦)

(٦) (ص ١٩٨). ولكلامه بقية.

تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل:٥٣]. وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال: ﴿وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤]. وكما أن تلك النعم منه، ومن مجرد فضله، فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه، والذنوب من خِذلانه وتَخَلِّيه عن عبده، وتَخْلِيته بينه وبين نفسه، وإن لم يَكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له إلى كشفه عن نفسه، فإذًا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن تُدفع عنه أسبابُها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها، فلا ينفك العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح».

فصل

وإياكِ إياكِ!! أيتها النفس المعافاة، أن تَستقلّي شيئًا مما أنعم الله عليك، فإن ما أنتِ فيه من صحة البدن، والسلامة من السُّقْم، هو أجل النعم، وأفضل العطايا، بعد الإيمان، وعبادة الرحمن.

ومما يعينك على ذلك: النظرُ ـ فيما أُوتيتِ من نعم ـ إلى مَنْ هو دونك، فإنه أدعى ألا تَستقلّي شيئًا مما وهبك الله تعالى، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«انْظُرُوا إِلَى مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ»(١).

وفي لفظ: «إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْهُ».

---

(١) متفق عليه، وهذا اللفظ لمسلم.

قال النووي[1]: «معنى (أجدر): أحق، و(تزدروا): تَحقِروا. قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير، لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّل عليه في الدنيا طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى، وحَرِص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس، وأما إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه فيها ظهرت له نعمة الله تعالى عليه، فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير.

قال العراقي: ومن هنا ينبغي للإنسان اجتناب الاختلاط بأهل الدنيا والتوسع منها ومن كسبها ونعيمها، لأنه قد يؤدي إلى هذه المفسدة. وقال بعضهم: جالست الأغنياء فاحتقرت لباسي إلى لباسهم ودابتي إلى دوابّهم، وجالست الفقراء فاسترحت».

وقيل[2]:

إذا ما كساك الله سِربال صحةٍ ... ولم تَخْلُ من قُوتٍ يَحِلُّ ويَعْذُبُ

فلا تَغْبِطنّ المكثرين فإنما ... على قَدْرِ ما يكسوهمُ الدهرُ يَسْلُبُ

وقال قَبِيصَةُ بن ذُؤَيْبٍ: كنا نسمع نداء عبد الملك من وراء الحجرة في مرضه: يا أهل النعم، لا تَستقلّوا شيئًا من النعم مع العافية.

وروي أنه لما حضرته الوفاة أَمَرَ فصُعِد به إلى أعلى سطح في داره، فقال: يا دنيا، ما أطيبَ ريحَك! يا أهل العافية، لا تَستقلّوا منها شيئًا[3].

وما أحسن ما قال أبو الأزهر[4]:

ما أنعم الله على عبدهِ ... بنعمة أوفى من العافيهْ

(١) «شرح مسلم» (٩٧/١٨).

(٢) «ربيع الأبرار» (١٦٢/٣).

(٣) «التذكرة الحمدونية» (٢٩/٢).

(٤) «خريدة القصر» (١٧٥/١).

وكلُّ مَـــنْ عُـــوفيَ في جســـمهِ فإنـــه في عيشـــة راضـــيهْ

وقيل: جاء رجل إلى يونس بن عُبَيْدٍ يشكو ضِيق حاله، فقال له يونس: أيَسُرُّك ببَصَرك هذا الذي تُبصر به مِائة ألف درهم؟ قال الرجل: لا. قال: فبيَدَيْك مِائة ألف؟ قال الرجل: لا. قال: فبرِجْلَيك؟ قال الرجل: لا. قال: فذَكَّره بنعم الله عليه. وقال يونس: أَرى عندك مِئِينَ أُلُوفٍ وأنت تشكو الحاجة؟![1].

كيفية الشكر

والشكر يا نفس يكون باللسان: بأن تحمدي الله سبحانه وتعالى على ما أولاك من النعم الظاهرة والباطنة، وتتحدثي بما أنعم به عليك، من باب الشكر والمدح لا من باب الفخر والخيلاء، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ على هذه الأعواد، أو على هذا المنبر:

«مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ». الحديث[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا»[3].

وعن معاذ بن أنس رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) «الشكر» لابن أبي الدنيا (رقم ١٠١).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٣٩٢/٣٠، وفي مواضع أخرى ـ طبعة الرسالة) وغيره، وهو في «صحيح الترغيب» (٩٧٦).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) وغيره.

«مَنْ أَكَلَ طَعَامًا ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا الطَّعَامَ وَرَزَقَنِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

قال: «وَمَنْ لَبِسَ ثَوْبًا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي كَسَانِي هَذَا الثَّوْبَ وَرَزَقَنِيهِ، مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

ويكون بالجوارح: ببذل الجهد في طاعة الله تعالى، من صلاة وصيام وصدقة وغيرها، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ﴾ [الكوثر:١-٢].

وقال سبحانه: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تَفَطَّر رجلاه، قالت عائشة: يا رسول الله، أتصنع هذا وقد غُفِر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال:

«يَا عَائِشَةُ، أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»(٢).

وتقدم قبل قليل حديث ركعتي الضحى.

ويكون مع قول اللسان وعمل الأركان متواطِئًا عليه بالجَنان، خضوعًا واستكانة ومحبة لمن أنعم عليكِ ورزقك من أصناف النعم، وصرف عنك من أنواع البلايا والمحن، سبحانه ما أعظم نعمه! وما أكثر مننه! وما أجزل عطاياه!

ويكون الشكر أيضًا باجتناب ضد ذلك، من معاصي القلب واللسان والجوارح.

قال ابن القيم(٣): «عبودية النعم: معرفتها والاعتراف بها أولًا، ثم العياذ به أن يقع في قلبه نسبتُها وإضافتها إلى سواه، وإن كان سببًا من الأسباب فهو مسببه

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٢٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

(٣) «الفوائد» (ص ١١٣-١١٤).

ومقيمه، فالنعمة منه وحده بكل وجه واعتبار، ثم الثناء بها عليه، ومحبته عليها، وشكره، بأن يستعملها في طاعته.

ومن لطائف التعبد بالنعم: أن يستكثر قليلها عليه، ويستقل كثير شكره عليها، ويعلم أنها وصلت إليه من سيده من غير ثمن بذله فيها، ولا وسيلة منه توسل بها إليه، ولا استحقاق منه لها، وأنها لله في الحقيقة لا للعبد، فلا تزيده النعم إلا انكسارًا وذلًّا وتواضعًا ومحبة للمنعم، وكلما جدد له نعمة أحدث لها عبودية ومحبة وخضوعًا وذلًّا».

الدعاء بالإعانة على الشكر

واسألي الله يا نفس أن يعينك على شكره، واجتهدي في ذلك، فما من عبادة ولا غيرها إلا وأنت محتاجة فيها إلى إعانة الله عز وجل، واجعلي سؤالك هذا مما تكنزين إذا رأيت الناس يكتنزون الذهب والفضة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَتُحِبُّونَ أَنْ تَجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ؟ قُولُوا: اللَّهُمَّ أَعِنَّا عَلَى شُكْرِكَ، وَذِكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»(١).

وعن أبي عبد الرحمن الحُبُلِيُّ، عن الصُّنَابِحِيّ، عن معاذ بن جبل، أن رسول ﷺ أخذ بيده وقال:

«يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فقال: «أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ».

وأوصى بذلك معاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وأوصى به الصُّنَابِحِيُّ أبا عبد الرحمن(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ يدعو يقول:

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٢٩٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني في «الصحيحة» (رقم ٨٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود (١٥٢٢) وغيره، وصححه الألباني.

«رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَى لِي، وَانْصُرْنِي عَلَى مَنْ بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي»(١).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ، وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَحُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ»(٢).

التعرف إلى الله في الرخاء

ويقول لها: يا نفس، تعرفي إلى الله وأنت في الرخاء والنعمة والراحة والصحة والفراغ، ليتعرف إليك وأنت في الشدة والبلاء، تعرفي إليه سبحانه بطاعته وذكره، تعرفي إليه باجتناب معصيته، ليعرفك في الشدة بتفريج همك، واستجابة دعوتك، وتولي أمرك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ

(١) أخرجه أبو داود (١٥١٠ و١٥١١)، والترمذي (٣٥٥١)، وقال: «حسن صحيح»، وغيرهما، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧١٣٥) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).

تُجَاهَكَ، [تَعَرَّفْ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ، يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ]، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»[(١)].

قال المناوي[(٢)]: «(تعرف إلى الله)؛ أي: تحبب وتقرب إليه بطاعته، والشكر على سابغ نعمته، والصبر تحت مر أقضيته، وصدق الالتجاء الخالص، قبل نزول بليته. (في الرخاء)؛ أي: في الدَّعة والأمن والنعمة وسعة العمر وصحة البدن، فالزم الطاعات والإنفاق في القربات، حتى تكون متصفًا عنده بذلك معروفًا به. (يعرفك في الشدة)، بتفريجها عنك، وجعله لك من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، بما سلف من ذلك التعرف، كما وقع للثلاثة الذين آوَوْا إلى الغار، فإذا تعرفت إليه في الرخاء والاختيار، جازاك عليه عند الشدائد والاضطرار، بمدد توفيقه وخفي لطفه، كما أخبر تعالى عن يونس عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ [الصافات:١٤٣-١٤٤]؛ يعني: قبل البلاء، بخلاف فرعون لما تنكر إلى ربه في حال رخائه، لم ينجه اللَّجَأ عند بلائه، قال: ﴿ ءَآلْـَٔـنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ ﴾ [يونس:٩١].

وقيل: ينبغي أن يكون بين العبد وبين ربه معرفة خاصة بقلبه، بحيث يجده قريبًا للاستغناء له منه، فيأنس به في خلوته، ويجد حلاوة ذكره ودعائه ومناجاته وطاعته، ولا يزال العبد يقع في شدائد وكرب في الدنيا والبرزخ والموقف، فإذا كان بينه وبين ربه معرفة خاصة كفاه ذلك كله».

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وغيره، والزيادة لأحمد في «المسند» (٢٨٠٣)، وصححه الألباني. وانظر «التوسل أنواعه وأحكامه» (ص ٣٥).

(٢) «فيض القدير» (٢٥١/٣)، باختصار وتصرف يسير.

وقال ابن رجب(١): «(تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة)؛ يعني: أن العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربه معرفة خاصة، فعرَفه ربه في الشدة، ورعى له تعرفَه إليه في الرخاء، فنجاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبته له، وإجابته لدعائه.

فمعرفة العبد لربه نوعان: أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه عامة للمؤمنين.

والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع إليه، والأنس به، والطُّمَأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون، كما قال بعضهم: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عز وجل.

وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي: أحب أن لا أموت حتى أعرف مولاي، وليس معرفته الإقرار به، ولكن المعرفة إذا عرفته استحييت منه.

ومعرفة الله أيضًا لعبده نوعان: معرفة عامة، وهي علمه سبحانه بعباده، واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه، كما قال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥ﴾ [ق:١٦]، وقال: ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النجم:٣٢].

والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده، وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد، وهي المشار إليها بقوله ﷺ فيما يحكي عن ربه: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَلَئِنْ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (ص ٤٧٢-٤٧٤).

سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[(١)]». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[(٢)].

قال المناوي[(٣)]: «(فليكثر الدعاء في الرخاء)؛ أي: في حال الرفاهية والأمن والعافية، لأن من شيمة المؤمن الشاكر الحازم أن يَريش السهم[(٤)] قبل الرمي، ويلتجئ إلى الله قبل الاضطرار، بخلاف الكافر الشقي والمؤمن الغبي، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر:٨].

فتعين على من يريد النجاة من ورطات الشدائد والغموم أن لا يغفل بقلبه ولسانه عن التوجه إلى حضرة الحق ـ تقدس ـ بالحمد والابتهال إليه والثناء عليه، إذ المراد بالدعاء في الرخاء ـ كما قاله الإمام الحليمي[(٥)] ـ دعاء الثناء والشكر والاعتراف بالمنن، وسؤال التوفيق والمعونة والتأييد، والاستغفار لعوارض التقصير، فإن العبد وإن جَهِد لم يوف ما عليه من حقوق الله بتمامها.

ومن غفل عن ذلك ولم يلاحظه في زمن صحته وفراغه وأمنه كان صَدَق عليه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:٦٥]». اهـ.

---

(١) أخرجه البخاري، وسيأتي بلفظه تامًّا (صفحة ٤١٦).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) «فيض القدير» (٦/١٥٠).

(٤) أي: يضع عليه الريش.

(٥) انظر «المنهاج» (١/٥٣١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَيْنَمَا ثَلاَثَةُ نَفَرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ، إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلاَءِ، لاَ يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ، فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ، وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَسُقْهَا، فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ، فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ، فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ فَسَاقَهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً، فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لاَ أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا، وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا، فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا، فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ، مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ، إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ، فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلاَ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ المِائَةَ دِينَارٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَخَرَجُوا»(١).

---

(١) متفق عليه، وهذا اللفظ للبخاري (٣٤٦٥).

وفي رواية[1]: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه: «فَلَمَّا كَشَفْتُهَا وَهَمَمْتُ بِهَا ارْتَعَدَتْ مِنْ تَحْتِي، فَقُلْتُ: مَا لَكِ؟ قَالَتْ: أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ، فَقُلْتُ لَهَا: خِفْتِ اللَّهَ فِي الشِّدَّةِ، وَلَمْ أَخَفْهُ فِي الرَّخَاءِ، فَتَرَكْتُهَا، وَأَعْطَيْتُهَا مَا يَحِقُّ عَلَيَّ بِمَا كَشَفْتُهَا».

عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، وذكر حديث الغار، وقال في آخره: فقال رسول الله ﷺ:

«مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ خَبِيئَةٌ[2] مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَلْ»[3].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»[4].

تثبيت المؤمنين

وأعظم الشدائد التي يَعرف الله تعالى فيها عباده لسابق تعرفهم إليه بإيمانهم وجميل إحسانهم: شدة الموت وما بعده من شدائد الآخرة، كما قال سبحانه:

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم:٢٧].

فللمؤمنين التثبيت والحفظ والمعية وحسن الخاتمة وحسن المآب، وللظالمين الإضلال والخِذلان والترك وسوء الخاتمة وسوء المآب.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ

---

(١) أخرجها الطبراني في «الأوسط» (٢٣٠٧) وغيره، وحسنها الحافظ في «الفتح» (٥٠٦/٦).

(٢) أي: شيء مُخَبّأ مستور مُخْفَى من عمل صالح، خالص لوجه الله تعالى لا يعلمه أحد إلا هو.

(٣) أخرجه القُضاعي في «مسند الشهاب»، وصححه الألباني تحت الحديث (٢٣١٣) من «السلسلة الصحيحة».

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٠١٤) وغيرُه. وهو في «صحيح الترغيب» (٨٨٩).

ﭐلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ۝ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ [فصلت:٣٠-٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ [الأنعام:١١٠].

وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [يونس:٧٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: ثم بعثنا من بعد نوح رسلًا إلى قومهم، ﴿ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾؛ أي: بالحجج والأدلة والبراهين على صدق ما جاؤوهم به، ﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُ ﴾؛ أي: فما كانت الأمم لتؤمن بما جاءتهم به رسلهم، بسبب تكذيبهم إياهم أول ما أُرسلوا إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ ﴾.

وقوله: ﴿ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾؛ أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء فما آمنوا بسبب تكذيبهم المتقدم، هكذا يطبع الله على قلوب من أشبههم ممن بعدهم، ويختم على قلوبهم، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

ooooo

ويقول لها: يا نفس، إن زِينتك هو التخلق بالأخلاق الحسنة الحميدة، وإن شِينتك هو التخلق بالأخلاق السيئة المذمومة.

فاحرصي على أن تتخلقي بهذه، من الصدق وطيب الكلام والتواضع والجود والإحسان والرحمة والعفو وسلامة الصدر، وسائر الصفات التي أُمر بها في الكتاب والسنة، أو مدحها الله عز وجل، أو أثنى على أهلها، أو وعد عليها بالأجر والثواب.

واحرصي على أن تتخلَّيْ عن تلك، من الكذب وخبث الكلام والكبر والشح والبخل والقسوة والحقد وغِلّ الصدر، وسائر الصفات التي نُهي عنها في الكتاب والسنة، أو ذمها الله عز وجل، أو ذم أهلها، أو توعد عليها بالعقوبة والعذاب.

وقد قال الله تعالى في حق رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤].

وعن مسروق قال: كنا جلوسًا مع عبد الله بن عمرو يحدثنا، إذ قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وإنه كان يقول:

«إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»(٢).

قال الشوكاني(٣): «قوله: (أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ) إلخ، فيه دليل على أن من ثبت له مزية حسن الخُلُق كان من أهل الإيمان الكامل، فإن كان أحسن الناس خُلُقًا كان أكمل الناس إيمانًا، وإن خصلة يختلف حال الإيمان باختلافها لخليقة بأن ترغب إليها نفوس المؤمنين.

قوله: (وَخِيَارُكُمْ خِيارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ)، وكذلك قوله في الحديث الآخر:

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذي (١١٦٢)، واللفظ له، وغيرهما، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٣) «نيل الأوطار» (٦/٢٤٥-٢٤٦).

«خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ»[1]، في ذلك تنبيه على أعلى الناس رتبة في الخير، وأحقهم بالاتصاف به، هو من كان خير الناس لأهله، فإن الأهل هم الأحقاء بالبِشر وحسن الخُلُق والإحسان وجلب النفع ودفع الضر، فإذا كان الرجل كذلك فهو خير الناس، وإن كان على العكس من ذلك فهو في الجانب الآخر من الشر، وكثيرًا ما يقع الناس في هذه الورطة، فترى الرجل إذا لقي أهله كان أسوأ الناس أخلاقًا وأشحهم نفسًا وأقلهم خيرًا، وإذا لقي غير الأهل من الأجانب لانت عريكته وانبسطت أخلاقه وجادت نفسه وكثر خيره، ولا شك أن من كان كذلك فهو محروم التوفيق، زائغ عن سواء الطريق، نسأل الله السلامة». اهـ.

قال مالك: ينبغي للرجل أن يحسن إلى أهل داره حتى يكون أحب الناس إليهم[2].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«مَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيَبْلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِبِ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ»[4].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟». فسكت القوم، فأعادها مرتين أو ثلاثًا، قال القوم: نعم يا رسول الله. قال: «أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا»[5].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ:

---

(١) بعض حديث، أخرجه الترمذي (٣٨٩٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) «المنتقى شرح الموطأ» (٧/٢١٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩)، والترمذي (٢٠٠٣)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) أخرجه البخاري في «الأدب» (٢٧١) وغيره، وصححه الألباني.

«اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ، وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»[2].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ، عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ سَهْلٍ»[3].

قال الماوردي[4]: «حسن الخلق أن يكون سهل العريكة، لَيّن الجانب، طليق الوجه، قليل النفور، طيب الكلمة».

وقال: «لمحاسن الأخلاق حدود مقدرة، ومواضع مستحقة، فإن تجاوز بها الحد صارت مَلَقًا[5]، وإن عدل بها عن مواضعها صارت نفاقًا، والمَلَق ذل، والنفاق لؤم، وليس لمن وُسِمَ بهما وُدٌّ مبرور، ولا أَثَرٌ مشكور».

وقال ابن القيم[6]: «الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخُلُق زاد عليك في الدين».

وقال[7]: «الأخلاق مواهبُ، يهب الله منها ما يشاء لمن يشاء، ويَجْبل خَلْقه على ما يريد منها». اهـ.

وقال الغزالي[8]: «حسن الخُلُق هو الإيمان، وسوء الخُلُق هو النفاق».

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٧) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٨٨) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٩٣٨).

(٤) «أدب الدنيا والدين» (ص ٢٤٣).

(٥) المَلَق: التذلل. وقد يكون معه عكس ما يضمر القلب.

(٦) «مدارج السالكين» (٢/٢٩٤).

(٧) «الفروسية» (ص ٤٩٩).

(٨) «الإحياء» (٣/٦٩).

وقال[1]: «الأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدامغة، والمخازي الفاضحة، والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله تعالى الموقدة، التي تطلع على الأفئدة، كما أن الأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان، وجوار الرحمن».

وعن أبي حازم قال: السَّيئ الخُلُق أشقى الناس به نفسه التي بين جنبيه، هي منه في بلاء، ثم زوجته، ثم ولده، حتى إنه ليدخل بيته وإنهم لفي سرور، فيسمعون صوته فينفرون عنه فَرَقًا منه، وحتى إن دابته تحيد مما يرميها بالحجارة، وإن كلبه ليراه فينزو على الجدار، حتى إن قطه ليفر منه[2].

وقال وهب: مثل السَّيئ الخُلُق كمثل الفَخّارة المكسورة، لا تُرقع ولا تعاد طينًا[3].

وقال الفضيل: لأن يصحبني فاجر حسن الخُلُق أحب من أن يصحبني عابد سيئ الخُلُق[4].

وصحب ابن المبارك رجلًا سيئ الخُلُق في سفر، فكان يحتمل منه ويداريه، فلما فارقه بكى، فقيل له في ذلك، فقال: بكيته رحمة له، فارقته وخُلُقه معه لم يفارقه[5].

وقال الحسن: من ساء خُلُقه عَذّب نفسَه[6].

طريق تحصيل الأخلاق

وطريق ذلك يا نفس يكون بالعلم بفضل كل خُلُق من هذه الأخلاق، والعلم بمنفعته، وبالترغيب فيه، ومجالسة أهله، وبالمقابل العلم بدناءة ضده من

---

(١) «الإحياء» (٣/٤٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٦/٩٩).

(٣) «موعظة المؤمنين» (ص ٧٦).

(٤) «موعظة المؤمنين» (ص ٧٦).

(٥) «الإحياء» (٣/٥٢).

(٦) «الإحياء» (٣/٥٢).

الأخلاق، والعلم بضرره، وبالترهيب منه، ومجانبة أهله، ثم العمل على تكلف الاتصاف بهذه الأخلاق الحسنة، حتى تصير هيئات راسخة في النفس، وصِبْغات دائمة، والعمل على تكلف اجتناب تلك الأخلاق السيئة، حتى يجتنبها وينبذها بالكلية.

وهذا هو العلاج الذي يصفونه بأنه مركب بمعجون من العلم والعمل، فمنهما (أعني: العلم والعمل) تُرَكّب الأدوية لأمراض القلوب كلها، وهو بإذن الله تعالى صالح وناجع في علاج كل الأخلاق، تحصيلًا لحَسَنها، وتخلصًا من سَيّئها.

ويدل على ما ذكرنا، ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يُوقَهُ»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال:

«مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللَّهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[2].

وقال الغزالي[3]: «الخُلُق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر ورَوِيَّة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سُمِّيَتْ تلك الهيئة خُلُقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سُمِّيَتْ الهيئة التي هي المصدر خُلقًا سيئًا، وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لأن مَنْ يصدر منه بذل المال على الندور

(١) أخرجه الخطيب في «تاريخ بغداد» (١٠/١٨٥/ ٤٦٩٧) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢).

(٢) متفق عليه.

(٣) «الإحياء» (٣/٥٣).

لحاجة عارضة لا يقال: خُلُقه السخاء، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ، وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رَوِيَّة لأن مَنْ تَكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد ورَوِيَّة لا يقال: خُلُقه السخاء والحلم».

وأنصحكِ يا نفس في هذا الباب ـ بعد كتاب الله عز وجل وتفسير ميسر له كتفسير ابن سعدي ـ بما صح من أحاديث في كتاب «الأدب المفرد» للبخاري[1]، وكتاب «الترغيب والترهيب» للمنذري، وأنصحك أيضًا بكتاب «مختصر منهاج القاصدين»، وبمهذبٍ لـ«مدارج السالكين»، وبالاستفادة من «أخلاق القرآن» للشرباصي.

الصدق والكذب

وليكن أول اهتمامك يا نفس فيما تتخلقين به وتتصفين به هو الصدق، فإنه الخُلُق الأعظم الهادي إلى سائر الأخلاق الحسنة، واجتناب الكذب، فإنه الخُلُق الأرذل الهادي إلى سائر الأخلاق السيئة، كما في حديث عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»[2].

وعن جوّابٍ التيمي قال: جاءت أخت الربيع بن خُثَيْمٍ عائدة إلى بُنَيٍّ له، فانكبت عليه، فقالت: كيف أنت يا بني؟ فجلس ربيع، فقال: أَرْضعتيه؟ قالت: لا. قال: ما عليك لو قلت: يا بن أخي، فصَدَقْتِ[3].

قلت: وهذا نوع من الورع يحذرك من الوقوع فيما هو أكبر مما ذكر، وإلا

(١) وانظر كلام المُعَلِّمِي الآتي (صفحة ٥٦٥ - ٥٦٦).
(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(٣) «الصمت» لابن أبي الدنيا (رقم ٥٢٩).

فإن قولك للطفل من غير ولدك: يا بني، ليست من الكذب في شيء! وإنما هي من لطف العبارة ورقة القلب وعطفه وحنانه.

وعن مالك بن أنس قال: قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: ما كذبتُ كذبة منذ شددت عليّ إزاري[1].

وعن الأحنف بن قيس قال: ما كذبت منذ أسلمت إلا مرة واحدة، فإن عمر سألني عن ثوب: بكم أخذته؟ فأسقطتُ ثلثي الثمن[2].

وقيل لخالد بن صُبَيْح: أيسمَّى الرجل كاذبًا بكذبة واحدة؟ قال: نعم[3].

قلت: وأعظم الكذب الكذب على الله تعالى والكذب على رسوله ﷺ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل:١١٦].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٣].

وعن المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[4].

حفظ اللسان

واحفظي لسانك على ذكر الله تعالى وما والاه، واحبسيه عن الغيبة والنميمة والفحش والسباب ونحوها، ولا تستقلي أمره، ولا تستهيني بما يقع منه

---

(١) «الصمت» (رقم ٤٨٣).

(٢) «الصمت» (رقم ٥٢٢).

(٣) «الإحياء» (١٣٦/٣).

(٤) متفق عليه.

من طاعة أو معصية.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال:

«لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الخَيْرِ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قلت: بلى يا نبي الله، فأخذ بلسانه قال: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». فقلت: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ (أو: عَلَى مَنَاخِرِهِمْ) إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ، لاَ يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني.

بِهَا فِي جَهَنَّمَ»[1].

وتقدم قبل قليل أن النبي ﷺ سئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ».

وعن عمر بن الخطاب أنه دخل على أبي بكر الصديق وهو يجبذ[2] لسانه، فقال له عمر: مَهْ[3]! غفر الله لك. فقال أبو بكر: إن هذا أوردني الموارد[4].

واعلمي يا نفس أن استقامة اللسان أساس استقامة القلب، كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ». الحديث[5].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، رفعه، قال:

«إِذَا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ فَإِنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ، فَتَقُولُ: اتَّقِ اللَّهَ فِينَا، فَإِنَّمَا نَحْنُ بِكَ، فَإِنْ اسْتَقَمْتَ اسْتَقَمْنَا، وَإِنْ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا»[6].

قال الصنعاني[7]: «وقوله: (تكفر اللسان)، في «النهاية»: أي تذل وتخضع، والتكفير أن ينحني الإنسان ويطأطئ رأسه قريبًا من الركوع، كما يفعل من يريد تعظيم أحد. انتهى. قلت: ولا يلائمه قوله: (فتقول اتق الله فينا)، فإنه ورد

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري (٦٤٧٨) وغيره.

(٢) أي: يجذب.

(٣) اسم فعل أمر، معناه: اكْفُفْ.

(٤) أخرجه مالك (٢/٩٨٨) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٢٨٧٣).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٠٤٨) وغيره. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٤١).

(٦) أخرجه الترمذي (٢٤٠٧) وغيره، وحسنه الألباني.

(٧) «التنوير شرح الجامع الصغير» (١/٥٧٤-٥٧٥).

كالتفسير للتكفير، والأقرب أنه من التكفير: التغطية؛ أي: الأعضاء تغطي ستر اللسان بما تعظه به من قولها: (اتق الله). وظاهره أنه قول حقيقي، ولا مانع منه وإن لم نعلمه، ويحتمل التمثيل وأن الأعضاء لما كانت متابعة للسان في الخير والشر وفي الاستقامة والاعوجاج كانت بمثابة من يناصح مَنْ أمْرُه بيده. (فإنما نحن بك)، الفاء للتعليل، والباء للسببية؛ أي: إنما نعاقَب ونثاب بسببك، (فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا). وفائدة الخبر النبوي إعلام الإنسان أنه لا يأتيه الخير والشر إلا من قبل لسانه فليحذره». انتهى كلام الصنعاني.

قال المناوي[1]: «فنُطق اللسان يؤثر في أعضاء الإنسان بالتوفيق والخذلان، فلله دره من عضو ما أصغره وأعظم نفعه وضره!».

وقال ابن القيم[2]: «وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاصٍ لله، مراءٍ مداهن، إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته، فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط ـ وهم أهل الصراط المستقيم ـ كَفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله وما اتصل به».

---

(١) «التيسير بشرح الجامع الصغير» (٧٥/١).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ١٦١).

الجود والبخل

ومن أعظم ما يجب أن تُولِيه يا نفس اهتمامَك من الأخلاق: الجود والكرم والإنفاق، فإنها أعظم ما يتحلى به المؤمن من الخصال، وبالمقابل اجتناب البخل والشح[1] والحرص، فإنها أرذل الأخلاق وأشدها إهلاكًا للنفس.

قال الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤].

وقال سبحانه: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفي الجود والكرم الفلاح والخَلَف، وفي البخل والحرص الهلاك والتَّلَف.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

(١) الشح: أشد البخل، وهو أبلغ في المنع منه، لأن الشح بخل مع حرص. وقيل: الشح بالمال والمعروف، والبخل بالمال. وقيل العكس.

خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [الحشر:٩].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [التغابن:١٦].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا»[١].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال:

«إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالْبُخْلِ فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ فَفَجَرُوا»[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»[٣].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ سَيِّدُكُمْ يَا بَنِي سَلِمَةَ؟». قلنا: جُدُّ بن قيسٍ، على أنّا نُبَخِّلُهُ. قال: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟!». الحديث[٤].

فعوِّدي نفسك ومن هم تحت رعايتك على الجود والإنفاق، واجتناب البخل والشح، ودرِّبيها على ذلك، ورغبيها فيه، وما أسهل تحقيق ذلك لمن عرف قدره، وسلك طريقه، واستعان بربه عز وجل، وسأله من فضله!

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (١٦٩٨) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٨) وغيره.

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب» (٢٩٦) وغيرُه، وصححه الألباني.

الحياء

واعلمي يا نفس أن خُلُق الإسلام هو الحياء، فتعاهديه منك، والزميه، واعملي بما يمليه عليك، من ترك القبائح والابتعاد عن المنكرات والفواحش، وما يحملك عليه، من الخيرات والفضائل والمعالي، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(٢).

وقال السَّفِيري(٣): «إنما أفرد ﷺ هذه الخصلة من خصال الإيمان في هذا الحديث، وخصها بالذكر دون غيرها من باقي شعب الإيمان، لأن الحياء كالداعي إلى باقي الشعب، فإن صاحب الحياء يخاف فضيحة الدنيا والآخرة فيأتمر وينزجر، فلما كان الحياء كالسبب لفعل باقي الشعب خُصّ بالذكر ولم يذكر غيره معه».

وقال ابن سعدي(٤): «ولعل ذكر الحياء لأنه السبب الأقوى للقيام بجميع شعب الإيمان، فإن من استحيا من الله لتواتر نعمه، وسوابغ كرمه، وتجليه عليه بأسمائه الحسنى، ـ والعبد مع هذا كثير التقصير مع هذا الرب الجليل الكبير، يظلم نفسه ويجني عليها ـ أوجب له هذا الحياء التوقِّي من الجرائم، والقيام بالواجبات والمستحبات».

وعن أبي السَّوَّارِ العَدَوي قال: سمعت عمران بن حُصَيْنٍ قال: قال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) متفق علبه، وهذا لفظ مسلم.

(٣) «المجالس الوعظية» (٣/٣٦٥).

(٤) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ١٧٩).

«الحَيَاءُ لاَ يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ».

فقال بُشَيْرُ بن كعب: مكتوب في الحكمة: إن من الحياء وقارًا، وإن من الحياء سكينة. فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صحيفتك![1].

قال ابن بطال[2]: «قوله عليه السلام: (الحياء لا يأتي إلا بخير) معناه: أن من استحيا من الناس أن يروه يأتي الفجور ويرتكب المحارم، فذلك داعية له إلى أن يكون أشد حياء من ربه وخالقه، ومن استحيا من ربه فإن حياءه زاجر له عن تضييع فرائضه وركوب معاصيه، لأن كل ذي فطرة صحيحة يعلم أن الله تعالى النافع له والضار والرزاق والمحيي والمميت، فإذا علم ذلك فينبغي له أن يستحي منه عز وجل».

وقال ابن رجب[3]: «اعلم أن الحياء نوعان: أحدهما: ما كان خُلُقًا وجِبِلَّة غير مكتسب، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها، ولهذا قال ﷺ: (الحياء لا يأتي إلا بخير)، فإنه يكف عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها، فهو من خصال الإيمان بهذا الاعتبار.

وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: من استحيا اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وُقي.

وقال الجراح بن عبد الله الحَكَمي ـ وكان فارس أهل الشام ـ: تركت الذنوب حياء أربعين سنة، ثم أدركني الورع.

وعن بعضهم قال: رأيت المعاصي نذالة، فتركتها مروءة، فاستحالت ديانة.

النوع الثاني: ما كان مكتسبًا من معرفة الله ومعرفة عظمته، وقربه من

---

(١) متفق عليه.

(٢) «شرح صحيح البخاري» (٢٩٨/٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٥٠١/١).

عباده واطلاعه عليهم، وعلمه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهذا من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان».

وقال ابن القيم[1]: «تنبيه: ثم تأمل هذا الخُلُق الذي خُصّ به الإنسان دون جميع الحيوان، وهو خُلُق الحياء، الذي هو من أفضل الأخلاق وأجلها، وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فمن لا حياء فيه ليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدم وصورتهم الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء، ولولا هذا الخُلُق لم يُقْرَ الضيف، ولم يُوفَ بالوعد، ولم تؤدَّ أمانة، ولم يُقْض لأحد حاجة، ولا تحرى الرجلُ الجميلَ فآثره، والقبيح فتجنبه، ولا ستر له عورة، ولا امتنع من فاحشة، وكثير من الناس لولا الحياء الذي فيه لم يؤد شيئًا من الأمور المفترضة عليه، ولم يَرْعَ لمخلوق حقًّا، ولم يصل له رحمًا، ولا بَرّ له والدًا، فإن الباعث على هذه الأفعال إما ديني، وهو رجاء عاقبتها الحميدة، وإما دنيوي عادي، وهو حياء فاعلها من الخَلق، فقد تبين أنه لولا الحياء إما من الخالق أو من الخلائق لم يفعلها صاحبها».

وسيأتي في «خاتمة الكتاب» ذكر حديث: «اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الحَيَاءِ». وحديث: «أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ».

سلامة القلب

واعلمي يا نفس، أن أفضل ما تأتين الله عز وجل به يوم القيامة، وأفضل ما تَقْدَمين به على الدار الآخرة، هو سلامة القلب ونظافته وطهره، سلامته من الكفر والشرك والمعصية والبدعة، وسلامته من الغش والغل والحسد والحقد على المسلمين، وأكثر الناس في غفلة عن هذه!

قال الله تعالى حاكيًا عن الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/٧٨٨-٧٨٩- طبعة بكر أبو زيد).

وقال سبحانه: ﴿ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات:٨٤].

قال ابن القيم[١]: «القلب السليم هو الذي سلم من الشرك، والغل، والحقد، والحسد، والشح، والكبر، وحب الدنيا والرياسة، فسلم من كل آفة تبعده من الله، وسلم من كل شبهة تعارض خبره، ومن كل شهوة تعارض أمره، وسلم من كل إرادة تزاحم مراده، وسلم من كل قاطع يقطع عن الله.

فهذا القلب السليم في جنة معجلة في الدنيا، وفي جنة في البرزخ، وفي الجنة يوم المعاد.

ولا تتم له سلامته مطلقًا حتى يسلم من خمسة أشياء: من شرك يناقض التوحيد، وبدعة تخالف السنة، وشهوة تخالف الأمر، وغفلة تناقض الذكر، وهوًى يناقض التجريد والإخلاص.

وهذه الخمسة حُجُبٌ عن الله، وتحت كل واحد منها أنواع كثيرة تتضمن أفرادًا لا تنحصر.

ولذلك اشتدت حاجة العبد بل ضرورته إلى أن يسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم، فليس العبد أحوج منه إلى هذه الدعوة، وليس شيء أنفع له منها».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال:

«كُلُّ مَخْمُومِ الْقَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مَخْمُومُ القلب؟ قال:

«هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ، لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ، وَلَا غِلَّ، وَلَا حَسَدَ»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) «الداء والدواء» (ص ٢٨٣-٢٨٤ – طبعة بكر أبو زيد).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦) وغيره، وصححه الألباني.

«مَنْ يَأْخُذُ عَنِّي هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ، فَيَعْمَلُ بِهِنَّ أَوْ يُعَلِّمُ مَنْ يَعْمَلُ بِهِنَّ؟». فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعَدّ خمسًا، وقال:

«اتَّقِ الْمَحَارِمَ تَكُنْ أَعْبَدَ النَّاسِ، وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ، وَأَحْسِنْ إِلَى جَارِكَ تَكُنْ مُؤْمِنًا، وَأَحِبَّ لِلنَّاسِ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ تَكُنْ مُسْلِمًا، وَلَا تُكْثِرِ الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»(٢).

قال ابن رجب(٣): «أفضل الأعمال سلامة الصدر من أنواع الشحناء كلها، وأفضلها السلامة من شحناء أهل الأهواء والبدع، التي تقتضي الطعن على سلف الأمة، وبغضهم والحقد عليهم، واعتقاد تكفيرهم أو تبديعهم وتضليلهم، ثم يلي ذلك سلامة القلب من الشحناء لعموم المسلمين، وإرادة الخير لهم ونصيحتهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، وقد وصف الله تعالى المؤمنين عمومًا بأنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠]».

وقال شيخ الإسلام(٤): «ومن أعظم خبث القلوب أن يكون في قلب العبد غِلٌّ لخيار المؤمنين وسادات أولياء الله بعد النبيين».

وقال ابن العربي(٥): «لا يكون القلب سليمًا إذا كان حقودًا حسودًا معجَبًا

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٠٥) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) متفق عليه.

(٣) «لطائف المعارف» (ص ١٣٩).

(٤) «منهاج السنة» (٢٢/١).

(٥) «أحكام القرآن» (٤٥٩/٣).

متكبرًا، وقد شرط النبي ﷺ في الإيمان: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»[١].

وعن حماد بن زيد قال: قال أيوب[٢]: إني أُخْبَر بموت الرجل من أهل السنة وكأني أفقد بعض أعضائي[٣].

وقال قاسم الجُوعي: أصل الدين الورع، وأفضل العبادة مكابدة الليل، وأقصر طرق الجنة سلامة الصدر[٤].

وعن سفيان بن دينار قال: قلت لأبي بشير ـ وكان من أصحاب علي ـ: أخبرني عن أعمال من كان قبلنا. قال: كانوا يعملون يسيرًا، ويؤجرون كثيرًا. قال: قلت: ولم ذاك؟ قال: لسلامة صدورهم[٥].

وعن الفضيل قال: لم يدرك عندنا من أدرك بكثرة صيام ولا صلاة، وإنما أدرك بسخاء الأنفس، وسلامة الصدر، والنصح للأمة[٦].

وقال السَّقَطي: من أجل أخلاق الأبرار: سلامة الصدر للإخوان، والنصيحة لهم[٧].

وقال المحاسبي[٨]: «لا طريق أقرب من الصدق، ولا دليل أنجح من

---

(١) متفق عليه.

(٢) يعني: أيوب السَّخْتِيَانِيّ.

(٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للّالْكائي (٦٦/١).

(٤) «تاريخ دمشق» (١٢٣/٤٩).

(٥) «الزهد» لهناد (٦٠٠/٢).

(٦) «شعب الإيمان» (٣١٦/٣٤).

(٧) «آداب العشرة» للغَزّي (ص ٢١).

(٨) «رسالة المسترشدين» (ص ١٦١-١٦٢).

العلم، ولا زاد أبلغ من التقوى، وما رأيت أنفى للوسواس من ترك الفضول، ولا أنور للقلب من سلامة الصدر». اهـ.

وقال شيخ الإسلام[1]: «لا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين، بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه، واتباعهم ما يحبه، ما لا يفتح به على غيرهم». اهـ.

قلت: وهي وصف أهل الجنة، كما قال ربنا جل وعلا: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧].

وعن زيد بن أسلم قال: دُخِل على أبي دجانة وهو مريض، وكان وجهه يتهلل، فقيل له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: ما من عملي شيءٌ أوثقَ عندي من اثنتين: أمّا إحداهما: فكنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وأمّا الأخرى: فكان قلبي للمسلمين سليمًا[2].

ومن أسباب سلامة القلب من غله وغشه: إخلاص العمل لله تعالى، والنصيحة للمسلمين، عامتهم وخاصتهم، ولزوم جماعتهم، كما قال النبي ﷺ:

«ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ»[3].

قال الزمخشري في «الفائق»: «والمعنى أن هذه الخلال يُستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الدَّغَل[4] والفساد. و(عليهن): في موضع الحال؛ أي: لا يغل كائنًا عليهن قلب مؤمن». اهـ.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٣/٢٤٥).

(٢) «طبقات ابن سعد» (٤/٥١٦)، و«سير أعلام النبلاء» (١/٢٤٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٠٥٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا (صفحة ١٠٠).

(٤) الدَّغَل: الخيانة والرِّيبة والفساد.

ومن أسباب سلامة القلب: الرضا بعطاء الله لعباده، والقناعة بما قسم للعبد منها.

وتقدم قبل قليل قول النبي ﷺ: «وَارْضَ بِمَا قَسَمَ اللَّهُ لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ[2]، وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[3].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَرَى كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَى؟» قلت: نَعَمْ، يا رسول الله. قال: «فَتَرَى قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الْفَقْرُ؟» قلت: نَعَمْ، يا رسول الله. قال:
«إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ، وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ». الحديث[4].

قال ابن القيم[5]: «الرضا يفتح له باب السلامة، فيجعل قلبه سليمًا نقيًّا من الغِش والدَّغَل والغِل، ولا ينجو من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، كذلك وتستحيل سلامة القلب مع السخط وعدم الرضا، وكلما كان العبد أشد رضًا كان قلبه أسلم، فالخَبَث والدَّغَل والغِش قرين السخط، وسلامة القلب وبره ونصحه قرين الرضا، وكذلك الحسد هو من ثمرات السخط، وسلامة القلب منه من ثمرات الرضا».

وعن عبد الله [بن مسعود] رضي الله عنه قال: لأن أَعَضَّ على جمرة حتى

(١) أخرجه مسلم (١٠٥٤) وغيره.

(٢) متفق عليه.

(٣) العَرَضِ: متاع الدنيا.

(٤) أخرجه ابن حبان (٢٥٢١ - موارد) وغيره، وصححه الألباني.

(٥) «مدارج السالكين» (٢٠١/٢).

تبرد أحب إلي من أن أقول لشيء قد قضاه الله: ليته لم يكن[1].

هذا يا نفس، واعلمي أن صلاح الجسد والجوارح والأعمال تابع لصلاح القلب والنيات والعقائد، كما قال رسول الله ﷺ:

«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[2].

فلا شيءَ قط مثلُ حسن الخلق وطهارة القلب وسلامة الصدر، ولا شيء أثقل في الميزان، ولا أحب إلى الرحمن سبحانه منها، فهي التي تبلغ بالعبد كل مبلغ، وترفع درجته في أعلى الجنة.

فيا نفس، يا من تنظفين جسدك، وتزينين ظاهرك، من جُمَّة وثياب ونعل، هلّا طهرت قلبك، وزينت باطنك، وحسنت أخلاقك!

يا صاحب الجسد الحسن، والوجه الجميل، هلّا أشفقت عليه من النار! فحسنت باطنك بالإيمان، والأخلاق الحسنة، والصفات الطيبة.

يا نفس، كلما رأيتِ من حسن ظاهرك، وأعجبك جمال مظهرك، تذكري باطنك فاعملي على تحسينه، وتذكري قلبك فاحرصي على تطهيره، كما نبه إلى ذلك النبي ﷺ في عدة أحاديث، فمن ذلك:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقول:

«اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي»[3].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ

---

(١) «الزهد» لأبي داود (ص ١٣٧).

(٢) بعض حديث، متفق عليه. وقد تقدم.

(٣) أخرجه أحمد (٢٤٣٩٢ و٢٥٢٢١) وغيره، وصححه الألباني في «الإرواء» (١/١١٥).

لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ، فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»(١).

والشاهد قوله ﷺ: «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِنَ التَّوَّابِينَ، وَاجْعَلْنِي مِنَ الْمُتَطَهِّرِينَ»، فجمع بين الطهارة من الذنوب والعيوب والطهارة من الأنجاس والأحداث.

وهذا بعينه الذي دل عليه قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فيا نفس، يا من تهتمين بزخرفة بيتك، وترتيب مكتبتك، وأناقة مظهرك، هلّا اهتممت بباطنك! فطهرت قصدك، وأخلصت نيتك، وجمعت شتات قلبك، وهلّا اهتممت بمسكنك وبيتك في الدار الآخرة! فاشتريت فيها القصور والدور، وهيأت الخيام للحور، هلّا فعلت ذلك! أم أنك نسيت أو تناسيت الآخرة!

يا نفس، يا من تحبين الجمال والأناقة والترتيب، وتدبرين وتجمعين في هذه الدنيا لمستقبلك ومستقبل أولادك فيها! وتخافين عليهم وتقلقين، وتخشَين وتشفقين، وقد جعلت ذلك همَّك الماثل، وشغلَك الشاغل، هلّا جمّلت قلبك، وأنّقت أخلاقك، ورتبت عباداتك لله تعالى!! وهلّا نظرت في أعمالك، ونظرت ماذا قدمت لمستقبلك ومستقبلهم في الآخرة!! مما يحفظك ويحفظهم في الدنيا قبل الآخرة، من التقوى وما والاها، وهلّا تدبرت قول مولاك عز وجل:

﴿ وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء:٩]!!

يا نفس، ما فائدة صلاح الجسد وجماله والحرص على قوته وبنيته وسمعه وبصره والروح خاوية على عروشها، والقلب أعمى أصم أبكم؟! يا نفس، أنت

(١) أخرجه الترمذي (٥٥) وغيره، وصححه الألباني، وأخرجه مسلم (٢٢٤) دون جملة الدعاء.

حية بالجسد والروح، فكما أن الجسد يحيا بالطعام والشراب وسائر مقومات حياته ويمرض أو يموت بنقصها أو عدمها، فكذلك الروح تحيا بعبادة الله تعالى وذكره وتمرض أو تموت دونها، فكم من مبصر أعمى القلب لا بصيرة له!! وكم من صحيح السمع أصم القلب لا يسمع الحق ولا يستجيب له!! كما قال الله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

وقال سبحانه: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

«مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»[1].

ولله در القائل:

يا خادمَ الجسم كم تشقى بخدمتـهِ | أتطلـبُ الـربحَ ممـا فيـه خسـرانُ
أقبلْ على النفس واستكمل فضائلَها | فأنـت بـالنفس لا بالجسـم إنسـانُ

وقال ابن القيم[2]: «وكما أن الجمال الباطن من أعظم نعم الله تعالى على عبده فالجمال الظاهر نعمة منه أيضًا على عبده يوجب شكرًا، فإنْ شَكَرَه بتقواه وصيانته ازداد جمالًا على جماله، وإن استعمل جماله في معاصيه سبحانه قَلَبَه له شينًا ظاهرًا في الدنيا قبل الآخرة، فتعود تلك المحاسن وحشة وقبحًا وشينًا،

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) انظر «روضة المحبين» (ص ٢٢٢-٢٢٣).

وينفر عنه من رآه، فكل من لم يتق الله عز وجل في حسنه وجماله انقلب قبحًا وشينًا يشينه به بين الناس، فحسن الباطن يعلو قبح الظاهر ويستره، وقبح الباطن يعلو جمال الظاهر ويستره.

يـا حَسَـنَ الوجـه تَـوَقّ الخَنـا لا تبـدلن الـزَّين بالشَّـينِ
ويـا قبـيح الوجـه كـن محسـنًا لا تجمعـن بـين قبيحـينِ

وقال بعض الحكماء: ينبغي للعبد أن ينظر كل يوم في المرآة، فإن رأى صورته حسنة لم يَشنها بقبيح فعله، وإن رآها قبيحة لم يجمع بين قبح الصورة وقبح الفعل».

الدعاء بحسن الخلق

واحرصي يا نفس دائمًا على الدعاء بالهداية لأحسن الأخلاق والأعمال وصالحها[1]، واحرصي على ذلك في دبر كل صلاة، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ما دنوت من رسول الله ﷺ في دبر صلاة مكتوبة ولا تطوع إلا سمعته يقول:

«اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَخَطَايَايَ كُلَّهَا، اللَّهُمَّ أَنْعِشْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ وَالْأَخْلَاقِ، إِنَّهُ لَا يَهْدِي لِصَالِحِهَا، وَلَا يَصْرِفُ سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»[2].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال:

«وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، حَنِيفًا [مُسْلِمًا]، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». الحديث. وفيه: «وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ، لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا

---

(١) وقد امتلأت الأدعية النبوية بذلك، مجملًا ومفصلًا، وما أيسر الوقوف عليها في كتب «الأذكار» وغيرها.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٨١١، وفي مواضع أخر)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (١١٦)، وغيرهما. وهو في «صحيح الجامع» (١٢٦٦).

أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا، لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»[1].

وعن قُطْبَةَ بن مالك رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ»[2].

وتقدم قبل قليل دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي، فَأَحْسِنْ خُلُقِي».

وتقدم أيضًا[3] قوله ﷺ: «يَا شَدَّادُ بْنَ أَوْسٍ، إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ قَدِ اكْتَنَزُوا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ فَاكْنِزْ هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ». وفيها: «وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا».

ooooo

فصل

وهذا باب يطول جدًّا[4]، فلو استطردتُ فيه على هذا المنوال، وذهبت أضرب الأمثلة على هذا النحو، لخرج الموضوع في عدة مجلدات.

وما ذكرته إنما هو مفاتيح وضعتها في يد لبيب يغنيه الإيجاز عن الإسهاب، وأريب يقنعه الاختصار عن الإطناب، وعاقل تكفيه الإشارة عن طويل العبارة، فدونكها أخي القارئ أبوابًا بيدك مفاتيحها فلِجْها، وانظر ما وراءها مما ينشرح به الصدر، ويُتَمِّمُ لك الأمر، واستعن بالله تعالى على تحصيلها، وسله الهداية والسداد والقوة في أخذها، فهو سبحانه المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوة إلا به.

ooooo

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١)، وأبو داود (٧٦٠)، والزيادة له، وغيرهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٩١) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) (صفحة ٣٥٢).

(٤) أعني: باب الأمثلة في معاتبة النفس.

الدنيا امتحان

هذا، ولا يفوتني أن أنبه إلى أمر، عطفًا على ما ذكرته من صدود النفس عن الدين والاستقامة، بسبب تعلقها بالدنيا الفانية، وشهواتها الزائلة، فأقول، ومن يقبل نصيحتي!:

يا نفس، مهما كانت الدنيا في كثرة ملذاتها، وكثرة متاعها، وحلو ما فيها من شهوات، من نساء وبنين وذهب وفضة وقصور ومراكب وسائر المتاع، ومهما ملكتِ منها يا نفس، فاعلمي أن هذا كله قد جعله الله لك في هذه الدار امتحانًا، وابتلى العباد به لينظر من يعبده ويعمل بطاعته، ومن يأبى ويعمل بمعصيته(١).

وهذا الأمر وإن كان لسامعه كأنه بَدَهِيٌّ معروف، وللناظر فيه شيء معلوم مألوف، إلا أنه عند الفعل والتحقيق يبدو كأنه مشكوك فيه، فمن يرى انشغال العباد بالدنيا، وتمسكهم الشديد بها، واستغراقهم في عِمارتها، بما يُذهِل العقول، ويستغرب منه الناظر، ويتعجب منه كل من شاهده وعاينه، يكاد لا يصدِّق أن أصحابه يؤمنون بأن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، ويكاد يجزم أنهم ما سمعوا بهذا ولا درَوْه من قبل!

فتدبري يا نفس قول الله تعالى: ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

وتدبري قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۞ وَإِنَّا لَجَـٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف:٧-٨].

واجعليه منك على بال، ولا يصدنك عنه صاد، ولا تغتري بكثرة الغافلين عنه، المشار إليهم آنفًا، فتخيبي وتخسري.

قال ابن سعدي: «يخبر تعالى أنه جعل جميع ما على وجه الأرض، من مآكل لذيذة

---

(١) تقدمت الإشارة إلى هذا عند فصل «الحور العين» (صفحة ١٥٨).

ومشارب ومساكن طيبة، وأشجار وأنهار وزروع وثمار، ومناظر بهيجة ورياض أنيقة، وأصوات شجية وصور مليحة، وذهب وفضة وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار فتنة واختبارًا، ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات فانية مضمحلة وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا، قد ذهبت لذاتها وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها.

هذه حقيقة الدنيا، قد جلّاها الله لنا كأنها رَأْيُ عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغّبنا في دار يدوم نعيمها ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغترّ بزخرف الدنيا وزينتها مَنْ نظر إلى ظاهر الدنيا دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم ولا يهتمون لمعرفته، بل همهم تناول الشهوات من أي وجه حصلت وعلى أي حالة اتفقت، فهؤلاء إذا حضر أحدَهم الموتُ قلق لخراب ذاته وفوات لذاته، لا لما قدمت يداه من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها ما يستعين به على ما خُلِقَ له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشُقَّة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه وتنفيذ أوامره وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا حين نظر المغترّ إلى ظاهرها، وعمل لآخرته حين عمل البطال لدنياه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!». اهـ.

وقال الشنقيطي[1]: «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

قلت: ويذكر أهل العلم عند تفسير هذه الآية ما رواه أبو سعيد الخدري

(١) «أضواء البيان» (٣/١١).

رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»(١).

فتأملي يا نفس قوله ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»، فهي حلوة خضرة، ولكنها ابتلاء وامتحان!!

وقال ﷺ: «وَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه:١٣١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»(٣).

قال الحافظ(٤): «قوله: (حفت)، من الحِفاف، وهو ما يحيط بالشيء حتى لا يُتوصَّل إليه إلا بتخطيه، فالجنة لا يُتوصَّل إليها إلا بقطع مفاوز المكاره، والنار لا يُنجَى منها إلا بترك الشهوات».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، ثُمَّ حَفَّهَا بِالْمَكَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٢) وغيره.

(٢) بعض حديث، متفق عليه.

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٢٢) وغيره.

(٤) «الفتح» (١١/٣٢٠-٣٢١).

وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ».

قال: «فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ النَّارَ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ، ثُمَّ قَالَ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ، وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»(١).

ولابن عبد القوي(٢):

خُذوا أُهْبَـةً في الـزاد فـالموت كائـنٌ ... فما منه من مَنْجَـا وَلا عَنْـهُ عُنْـدَدِ
فمــا داركــم هــذه بــدار إقامــةٍ ... ولكنهــــا دار ابْــــتِلًا وتَـــــزَوُّدِ
أَمَا جاءكم مـن ربكـم وتـزودوا ... فمـا عـذرُ مَـنْ وافـاهُ غـيرَ مُـزَوَّدِ
ومــا هــذه الأيــام إلا مراحــلٌ ... تُقَــرِّبُ مــن دار اللِّقَــا كلَّ مُبْعَــدِ
ومَنْ سـار نحـو الدار سـتينَ حِجَّـةً ... فقد حـان منـه المُلـتقَى وَكـأَنْ قَـدِ

لماذا خلقت؟

فيا نفس، أتحسبين أنك خُلقتِ عبثًا، وأنك ستُتركين سدًى، لا حساب ولا عتاب، ولا ثواب ولا عقاب؟! تعالى الله عن ذلك! ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۞ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦].

يا نفس، لقد خلقت لأمر جليل، ونبأ عظيم، لو عقلتيه لعلمت أنك كنت قبله من الغافلين اللاهين اللاعبين، ولتحسرت على ساعة مضت من عمرك دون التنبه له والعمل من أجله!

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٤٤)، والترمذي (٢٥٦٠)، وغيرهما، وجود إسناده الألباني في تعليقه على «التنكيل» (١٧٧/٢).

(٢) «عقد الفرائد وكنز الفوائد» (أول كتاب الجنائز). ومعنى ولا عنه عُنْدَد؛ أي: لا بد منه؛ أي: لا مهرب منه.

يا نفس، لقد خُلقتِ لعبادة الله تعالى، يا نفس، أتدرين ما هي العبادة؟! إنها الذل لله جل جلاله، إنها الخضوع له سبحانه، يا نفس، أتدرين ما هي؟! إنها الحب لله تعالى!!

قال شيخ الإسلام[1]: «القلب إنما خلق لأجل حب الله تعالى».

فتأملي يا نفس في هذا! يا من تدعين الفطنة والمعرفة والتذوق للحب والجمال! وتتباهَين بذلك! وتترفعين به على أقرانك! يا من ضيعت عمرك في محبة الفاني المنغص! تأملي وتفكري في هذا! تفكري بجد، وانظري أي شيء يفوتك من الرب العظيم، الجميل الكريم، بسبب غفلتك عن معالي الأمور وعِظامها، واشتغالك بسَفْسافها وحطامها!!

يا نفس، إنما خُلقتِ لتعرفي الله سبحانه بأسمائه وصفاته، وكماله وجلاله وجماله، فتخافي منه وترجيه وتحبيه، وتذلي له وتعظميه، فتسارعي إلى عبادته وطاعته، بفعل ما يحبه ويرضاه عز وجل، واجتناب ما يكرهه تعالى ويسخطه، مما فيه نجاتك وفوزك وسعادتك وراحتك في الدنيا والآخرة.

بل وما خلق الله سبحانه السموات والأرض، ولا أنزل الكتب، ولا أرسل الرسل، إلا من أجل أن يَعلم عبادُه قدره وعظمته، فيعبدوه ويتقوه حق تقاته، كما قال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ [الطلاق:١٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٩٧].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/١٣٤).

وغاية ذلك ونهايته: أن يُعبد سبحانه وتعالى وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ [الذاريات:٥٦-٥٨].

قال ابن القيم(١): «فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكنْ خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح».

قال شيخ الإسلام في تعريف العبادة(٢): «هي اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته، وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخَلِيُّ عن ذل والذل الخَلِيُّ عن حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين، ولهذا كانت العبادة لا تصلح إلا لله، وهي وإن كانت منفعتها للعبد والله غني عن العالمين فهي له من جهة محبته لها ورضاه بها».

وقال(٣): «هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك، من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه، والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه، وأمثال ذلك، هي من العبادة لله، وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها،

---

(١) «طريق الهجرتين» (ص ١٣٥ - طبعة دار السلفية).

(٢) «أمراض القلوب» (ص ٤٤).

(٣) «العبودية» (ص ٤٤).

كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦]».

ولابن القيم:

وعبـادة الـرحمن غايـة حبـهِ مـع ذلِّ عابـدِه همـا قطبـانِ

وعليهمـا فَلَـكُ العبـادة دائـرٌ مـا دارَ حـتى قامـتِ القطبـانِ

فإذًا يا نفس ها أنت قد علمتِ أنك في كل يوم تناجين الله تعالى مولاك قائلة مرارًا وتكرارًا: إني أحبك وحدك، وأذل لك وأخضع، وأطيعك وأصلي لك وأخشع، وأستعينك وحدك في جميع أموري، وذلك حين تقولين في صلاتك: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة:٥]!!

قال عبد اللطيف آل الشيخ في «نواة الإيمان»(١): «وأما المحبة الخاصة التي لا تصلح إلا لله وحده، والتي إن أحب العبد بها غيره كان شركًا لا يغفره الله، فهي محبة العبودية المستلزمة للذل والخضوع والتعظيم وكمال الطاعة، وإيثار رضا المحبوب على رضا غيره، فهذه المحبة لا يجوز تعلقها بغير الله أصلًا، وهي التي سَوَّى المشركون فيها بين آلهتهم وبين الله، وهي أول دعوة الرسل، وآخر كلام العبد المؤمن الذي إذا مات عليه دخل الجنة، باعترافه وإقراره بهذه المحبة وإفراد الرب بها.

فهي أول ما يدخل بها في الإسلام، وآخر ما يخرج به المؤمن من الدنيا إلى الله، وجميع الأعمال كالأدوات والآلات لها، وجميع المقامات وسائل إليها، وأسباب لتحصيلها وتكميلها وتحصينها من الشوائب والعلل.

فهي قطب رحى السعادة، وهي روح الإيمان، وساق شجرة الإسلام، ولأجلها خُلِق الإنس والجن، ولأجلها أُنزل الكتاب والحديد، فالكتاب هاد إليها

---

(١) وهي عشر ورقات تكتب بماء الذهب على صحائف الفضة، لا، بل بماء العينين على صحائف القلب.

ودال عليها ومفصل لها، والحديد لمن خرج عنها وأشرك مع الله غيره فيها.

ولأجلها خُلقت الجنة والنار، فالجنة دار أهلها الذين أخلصوها لله وحده، فأخلصهم لها، والنار دار من أشرك فيها مع الله غيره وسَوّى بينه وبين الله فيها.

فالقيام بها علمًا واعتقادًا وعملًا وحالًا وتصحيحًا هو تصحيح شهادة أن لا إله إلا الله.

فحقيق بمن نصح نفسه وأحبها، وأحب سعادتها ونجاتها، أن يتيقظ لهذه المسألة أشد التيقظ، وتكون أهم الأشياء عنده، وأجل علومه وأعماله، فإن الشأن كله فيها، والمدار كله عليها، والسؤال عنها يوم القيامة، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩]، كل السلامة، من أي علة ومرض من أمراض حب غير الله، وتقديم طاعته ومرضاته على طاعته ومرضاته.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣].

قال غير واحد من السلف: هو السؤال عن قول «لا إله إلا الله». وهذا حق، فإن السؤال كله عنها وعن أحكامها وحقوقها.

قال أبو العالية: كلمتان يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فالسؤال عن (ماذا كانوا يعبدون؟) هو السؤال عنها نفسها، والسؤال عن (ماذا أجابوا المرسلين؟) هو السؤال عن الوسيلة والطريق المؤدية إلى تحقيقها، هل سلكوها وأجابوا الرسل لما دَعَوْهم إليها أم لا؟ فعاد الأمر كله إليها.

وأمر هذا شأنه حقيق بأن تُثْنَى عليه الخناصر، ويُعض عليه بالنواجذ،

ويُقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يُطلب على فضلة، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنما يطلب على الفضلة.

والله المسؤول أن يمن علينا بتحقيق ذلك علمًا واعتقادًا وعملًا وحالًا، ونعوذ بالله أن يكون حظنا من ذلك مجرد حكايته». اهـ.

فصل

فيا نفس، يا عاقلة! انظري: أين حبك لله تعالى؟! أين عبادتك وذُلُّك وخضوعك لعظمته؟! أين خوفك؟! أين رجاؤك؟! وأين أنت من ذلك؟!

قال الله عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة:١٦٥].

يا نفس، أين رغبتك في القرب منه عز وجل؟! وأين حرصك على نيل الزلفى لديه؟! وأين جِدّك في ابتغاء الوسيلة إليه؟!

قال الله تعالى في حق الذين يُدْعَوْن من دونه من الملائكة والأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ [الإسراء:٥٧].

فجمع سبحانه في الآية عباداتهم الثلاث: الحب والرجاء والخوف.

وقال جل وعلا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة:٣٥].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة:٥٤].

ووصفهم بالشدة على الكفار والرحمة فيما بينهم في قوله تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ

ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح:٢٩].

قال ابن كثير: «وهذه صفة المؤمنين: أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيما برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةً﴾ [التوبة:١٢٣]».

فتأملي يا نفس في هذه الآيات! لتعلمي أن محبة الله تعالى لا تكون بالدعوى المجردة عن العمل، وإنما تكون بالاجتهاد في عبادته، والتنافس في قربه، والحرص على رضاه، والجهاد في سبيله، رضي من رضي، وسخط من سخط، وتكون مقرونة دائمًا بالخوف والرجاء، وتكون باتباع النبي ﷺ في هديه في جميع أقواله وأفعاله، وصفاته وأحواله، ما استطاع العبد إلى ذلك سبيلًا.

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ﴾ [الصف:٢-٤].

قال ابن كثير: «فهذا إخبار منه تعالى بمحبة عباده المؤمنين إذا اصطفوا مواجهين لأعداء الله في حومة الوغى، يقاتلون في سبيل الله من كفر بالله، لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر العالي على سائر الأديان». اهـ.

وعن عبد الله بن عبد الرحمن، أخبرنا محمد بن كثير، عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن عبد الله بن سلام قال: قعدنا نفرًا من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله لعملناه، فأنزل الله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾.

قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ.

قال أبو سلمة: فقرأها علينا ابن سلام.

قال يحي: فقرأها علينا أبو سلمة.

قال ابن كثير: فقرأها علينا الأوزاعي.

قال عبد الله: فقرأها علينا ابن كثير(١).

قلت: يعني: أن أحب الأعمال إلى الله تعالى هو القتال في سبيله، كما في الآية التالية: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

قال ابن كثير: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(٢). ولهذا قال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾؛ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشأن أن تحِب، إنما الشأن أن تحَب. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾».

وقال ابن سعدي: «وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها،

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٠٩) وغيره، وصحح إسناده الألباني.

(٢) متفق عليه. وقد تقدم (صفحة ٢٦٥)، فلتُنظر ألفاظه.

وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾؛ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسوله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محبًّا لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص». اهـ.

وقال ابن القيم(١): «ليس الشأن في أن تحب الله، بل الشأن في أن يحبك الله، ولا يحبك الله إلا إذا اتبعت حبيبه ظاهرًا وباطنًا، وصدّقته خبرًا، وأطعته أمرًا، وأجبته دعوة، وآثرته طوعًا، وفنِيت عن حكم غيره بحكمه، وعن محبته غيره من الخلق بمحبته، وعن طاعة غيره بطاعته، وإن لم يكن ذلك فلا تَتَعَنَّ، وارجع من حيث شئت فالتمس نورًا، فلست على شيء.

وتأمل قوله: ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: الشأن في أن الله يحبكم لا في أنكم تحبونه، وهذا لا تنالونه إلا باتباع الحبيب ﷺ».

وقال(٢): فجعل سبحانه متابعة رسوله سببًا لمحبته لهم، وكون العبد محبوبًا لله أعلى من كونه محبًّا لله، فليس الشأن أن تحب الله، ولكن الشأن أن يحبك الله، فالطاعة للمحبوب عنوان محبته، كما قيل:

تعصي الإله وأنت تزعم حبهُ ... هذا محال في القياس بديعُ

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٣٣).

(٢) «روضة المحبين» (ص ٣٧٤ - طبعة بكر أبو زيد).

لــو كان حبــك صــادقًا لأطعتــهُ		إن المحـــب لمـــن يحـــب مطيـــعُ

وقال شيخ الإسلام[1]: «﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾، فإن الرسول لا يأمر إلا بما يحب الله، ولا ينهى إلا عما يبغضه الله، ولا يفعل إلا ما يحبه الله، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به، فمن كان محبًّا لله لزم أن يتبع الرسول، فيصدقه فيما أخبر، ويطيعه فيما أمر، ويتأسَّى به فيما فعل، ومن فعل هذا فقد فعل ما يحبه الله، فيحبه الله.

وقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتباع الرسول، والجهاد في سبيله، وذلك لأن الجهاد حقيقةُ الاجتهاد في حصول ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح، ومِنْ دفع ما يبغضه الله من الكفر والفسوق والعصيان». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

ولعبد الفتاح مصطفى:

مولاي حبي شفيعي وقد رجوتُ قَبولَك		وآيةُ الحب مـني أني اتبعـتُ رسـولَك

الولاء والبراء

ومحبة الله يا نفس تكون بمحبة أوليائه المؤمنين المتقين، وبمحبة أشهر المحبين له، الذين يبذلون أرواحهم في سبيله، لإعلاء كلمته، ونصر دينه، والدفاع عن عباده، وتكون ببغض أعدائه، الذين يصدون عن سبيله، ويحاربون دينه، ويقتلون أولياءه، ويسومونهم سوء العذاب، كما قال سبحانه:

﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ

(١) «العبودية» (ص ٩٤).

ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢].

يا نفس، فانظري أين أنت من هذا؟! وزني نفسك بميزان المحبة لله تعالى، وميزان المحبة فيه والبغض فيه، فالولاء الولاء يا نفس لله عز وجل ولرسوله ﷺ وللمؤمنين! والبراء البراء من الطاغوت وأوليائه من الشياطين والكافرين والمنافقين!

قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة:١].

وقال سبحانه في نفس السورة: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة:٤].

وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [آل عمران:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة:٥١].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود:١١٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «أَيُّ

عُرَى الْإِيمَانِ ـ أظنه قال: ـ أَوْثَقُ؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «الْمُوَالَاةُ فِي اللهِ، وَالْمُعَادَاةُ فِي اللهِ، وَالْحُبُّ فِي اللهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللهِ»[1].

قال شيخ الإسلام[2]: «ولْيُعلمْ أن المؤمن تجب موالاته وإن ظلمك واعتدى عليك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه والإهانة لأعدائه، والثواب لأوليائه والعقاب لأعدائه».

قال ابن مفلح[3]: «قال ابن عَقيل: إذا أردت أن تعلم مَحَلَّ الإسلام من أهل الزمان فلا تنظر إلى زحامهم في أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم في الموقف بلَبَيْكَ، وإنما انظر إلى مواطأتهم أعداء الشريعة!

عاش ابن الرَّاوَنْدِيِّ والمَعَرِّيُّ[4] عليهما لعائن الله يَنْظِمون ويَنْثرون، هذا يقول: حديث خرافة! والمَعَري يقول:

تَلَــوْا بــاطلًا وجَلَــوْا صــارمًا   وقــالوا صَــدَقْنا فقلنــا نَعَــمْ

يعني بالباطل: كتاب الله عز وجل!

وعاشوا سنين، وعُظِّمَتْ قبورهم، واشتُريت تصانيفهم، وهذا يدل على برودة الدين في القلب».

قال ابن مفلح: «وهذا المعنى قاله الشيخ تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى». اهـ

فطوبى لك يا نفس إن كنت ممن أحبهم الله تعالى وأَحَبُّوه، ورضي عنهم ورضوا عنه، فكنتِ من حزب الله المفلحين، وعباده الفائزين، الذين نالوا شرف الدنيا وشرف الآخرة.

وفي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٧٢٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠٩/٢٨).

(٣) انظر «الآداب الشرعية» (٢٤٧/١).

(٤) هما أشهر زنادقة الإسلام.

«إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ»[١].

محركات القلوب إلى الله تعالى

قال شيخ الإسلام[٢]: «اعلم أن محركات القلوب إلى الله عز وجل ثلاثة: المحبة والخوف والرجاء، وأقواها المحبة، وهي مقصودة تراد لذاتها، لأنها تراد في الدنيا والآخرة، بخلاف الخوف فإنه يزول في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، والخوف المقصود منه الزجر والمنع من الخروج عن الطريق.

فالمحبة تلقي العبد في السير إلى محبوبه، وعلى قدر ضعفها وقوتها يكون سيره إليه، والخوف يمنعه أن يخرج عن طريق المحبوب، والرجاء يقوده.

فهذا أصل عظيم يجب على كل عبد أن يتنبه له، فإنه لا تحصل له العبودية بدونه، وكل أحد يجب أن يكون عبدًا لله لا لغيره.

فإن قيل: فالعبد في بعض الأحيان قد لا يكون عنده محبة تبعثه على طلب محبوبه، فأي شيء يحرك القلوب؟ قلنا: يحركها شيئان:

أحدهما: كثرة الذكر للمحبوب، لأن كثرة ذكره تعلق القلوب به، ولهذا أمر الله عز وجل بالذكر الكثير فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب:٤١-٤٢] الآية.

والثاني: مطالعة آلائه ونعمائه، قال الله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ

(١) متفق عليه.

(٢) «مجموع الفتاوى» (١/٩٥-٩٦).

تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣]. وقال تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾ [لقمان:٢٠]. وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ﴾ [النحل:١٨].

فإذا ذكر العبد ما أنعم الله به عليه من تسخير السماء والأرض، وما فيها من الأشجار والحيوان، وما أسبغ عليه من النعم الباطنة من الإيمان وغيره، فلا بد أن يثير ذلك عنده باعثًا(١).

وكذلك الخوف تحركه مطالعة آيات الوعيد والزجر والعرض والحساب ونحوه، وكذلك الرجاء يحركه مطالعة الكرم والحلم والعفو وما ورد في الرجاء».

حاجة العبد إلى العبادة

قال ابن القيم(٢): «اعلم أَن حاجة العبد إِلى أن يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا، في محبته ولا في خوفه ولا في رجائه ولا في التوكل عليه، ولا في العمل له، ولا في الحلف به ولا في النذر له، ولا في الخضوع له ولا في التذلل والتعظيم والسجود والتقرب، أَعظم من حاجة الجسد إِلى روحه والعين إِلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظير تقاس به، فإِن حقيقة العبد روحه وقلبه ولا صلاح لها إِلا بإلهها الذي لا إِله إِلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إِليه كدحًا فملاقيته، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بمحبتها وعبوديتها له ورضاه وإكرامه لها، ولو حصل للعبد من اللذات والسرور بغير الله ما حصل لم يدم له ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت ثم يتعذب به ولا بد في وقت آخر، وكثيرًا ما يكون ذلك الذي يتنعم به ويلتذ به غير منعِّم له ولا مُلِذ، بل قد يؤذيه

(١) وانظر أيضًا الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله تعالى في «مدارج السالكين» (١٨/٣- ١٩).
(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٥٧-٥٨).

اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك، وإنما يحصل له بملابسته من جنس ما يحصل للجَرِب من لذة الأظفار التي تحكه، فهي تدمي الجلد وتخرقه وتزيد في ضرره، وهو يؤْثر ذلك لما له في حكها من اللذة، وهكذا ما يتعذب به القلب من محبة غير الله هو عذاب عليه ومضرة وألم في الحقيقة لا تزيد لذته على لذة حك الجَرَب، والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤْثر أرجحهما وأنفعهما».

الدعاء هو العبادة

فأقبلي يا نفس على إلهك وربك ومليكك عز وجل وعلى عبادته، محبة له وذلًا وخضوعًا وتعظيمًا، واستجيبي له، واسأليه حاجاتِك، ومصالحَ دينك ودنياك، اسأليه وحده، فإنه سبحانه الواحد الأحد الصمد، الغني المقتدر، وإنه سبحانه قريب مجيب، يسمع نجواك، ويعلم شكواك، ويجيب دعوتك، ويعطيك سُؤْلك، وهو بك رؤوف رحيم، كما قال تبارك اسمه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ». ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠](١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩ و٣٢٤٧ و٣٣٧٢)، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠) وغيره، وحسنه الألباني.

قال الصنعاني[1]: «وهو يتضمن حقيقة العبودية، والاعتراف بغنى الرب وافتقار العبد، وقدرته تعالى وعجز العبد، وإحاطته تعالى بكل شيء علمًا، فالدعاء يزيد العبد قربًا من ربه، واعترافًا بحقه».

وقال ابن سعدي[2]: «مما ينبغي لمن دعا ربه في حصول مطلوب أو دفع مرهوب: أن لا يقتصر في قصده ونيته على حصول مطلوبه الذي دعا لأجله، بل يقصد بدعائه التقرب إلى الله بالدعاء وعبادته التي هي أعلى الغايات، ليكون على يقين من نفع دعائه، فإن الدعاء مخ العبادة وخلاصتها، فإنه يجذب القلب إلى الله، وتلجئه حاجته للخضوع والتضرع لله، الذي هو المقصود الأعظم في العبادة، ومَنْ كان هذا قصده في دعائه (التقرب إلى الله بالدعاء، وحصول مطلوبه) فهو أكمل بكثير ممن لا يقصد إلا حصول مطلوبه فقط، كحال أكثر الناس، فإن هذا نقص وحرمان لهذا الفضل العظيم، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون، وهذا من ثمرات العلم النافع، فإن الجهل مَنَعَ الخلقَ الكثيرَ من مقاصد جليلة ووسائل جميلة، لو عرفوها لقصدوها، ولو شعروا بها لتوسلوا إليها». اهـ.

واعلمي يا نفس أن أعجز الناس من عجز عن الدعاء، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ فِي الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ»[3].

وادعي مولاك يا نفس وأنت موقنة بالإجابة، ولا تستعجلي، وادعيه بقلب حاضر غير لاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ

---

(١) «سبل السلام» (٢١٢/٤).

(٢) «مجموع الفوائد» (فائدة ٥٧).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٩١) وغيره، وهو في «الصحيحة» (٦٠١).

قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»[1].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ:

«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو، لَيْسَ بِإِثْمٍ وَلَا بِقَطِيعَةِ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ دَعْوَتَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا».

قال: إِذًا نُكْثِرُ. قال: «اللهُ أَكْثَرُ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال:

«لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةِ رَحِمٍ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ، فَلَمْ أَرَ يَسْتَجِيبُ لِي. فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَيَدَعُ الدُّعَاءَ»[3].

قال ابن الجوزي: اعلم أن دعاء المؤمن لا يُرَدّ، غير أنه قد يكون الأولى له تأخير الإجابة، أو يعوض بما هو أولى له عاجلًا أو آجلًا، فينبغي للمؤمن أن لا يترك الطلب من ربه، فإنه متعبد بالدعاء كما هو متعبد بالتسليم والتفويض[4].

وقوله ﷺ: (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ)، قال الصنعاني[5]: «المراد الحث على حضور القلب والإقبال عليه تعالى بالكلية عند الدعاء».

وقال النووي[6]: «اعلم أن مقصود الدعاء هو حضور القلب، والدلائل عليه أكثر من أن تُحصر، والعلم به أوضح من أن يذكر».

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب» (٧١٠) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه بهذا السياق مسلم (٢٧٣٥) وغيره. وهو في «الصحيحين»، مختصرًا، وقد تقدم اللفظ المختصر (صفحة ٣٨).

(٤) نقلًا عن «فتح الباري» (١١/١٤١).

(٥) «التنوير» (١/٤٧٢).

(٦) «الأذكار» (ص ٣٥٦).

الاستعانة

يا نفس، وكما أنك في أشد الحاجة إلى عبادة الله تعالى فإنك أيضًا في أشد الحاجة إلى الاستعانة به عز وجل، فلا حول لك ولا قوة إلا به.

قال سبحانه وتعالى معلمًا عباده ومرشدًا إياهم إلى ما يقولونه في صلاتهم في كل ركعة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

وقال سبحانه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

قال شيخ الإسلام[١]: «والقلب فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة: وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل: وهي العلة الفاعلة، فالقلب لا يصلح ولا يفلح ولا ينعم ولا يسر ولا يلتذ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطُّمَأنينة.

وهذا لا يحصل له إلا بإعانة الله له، فإنه لا يقدر على تحصيل ذلك له إلا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، فإنه لو أعين على حصول كل ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده، ولم يحصل له عبادة الله، فلن يحصل إلا على الألم والحسرة والعذاب، ولن يخلص من آلام الدنيا ونكد عيشها إلا بإخلاص الحب لله، بحيث يكون الله هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكل ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئًا لذاته إلا الله، ومتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقق حقيقة «لا إلٰه إلا الله»، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة لله، وكان فيه من نقص التوحيد والإيمان بل من

(١) «العبودية» (ص ٩٧-٩٨).

الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

ولو سعى في هذا المطلوب ولم يكن مستعينًا بالله متوكلًا عليه مفتقرًا إليه في حصوله لم يحصل له، فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فهو مفتقر إلى الله من حيث هو المطلوب المحبوب المراد المعبود، ومن حيث هو المسؤول المستعان به المتوكل عليه، فهو إلهه الذي لا إله له غيره، وهو ربه الذي لا رب له سواه، ولا تتم عبوديته لله إلا بهذين».

وقال[1]: «وقد يكون الرجل من أذكياء الناس وأحدّهم نظرًا ويعميه [الله] عن أظهر الأشياء، وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا ويهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به، فمن اتكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذِل».

وقال: «إن العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغّض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤]».

السير إلى الله تعالى

فيا نفس، سيري إلى الله تعالى مولاك، واسلكي سبل رضاه، واعبديه حق عبادته، واستعيني به على ذلك.

يا نفس، سيري إلى الله تعالى بقلبك وهمتك وجوارحك، وعجلي بذلك، وانتهزي فرصة الحياة الدنيا القصيرة قبل فواتها، وبادري بالأعمال قبل انقطاعها، وسابقي بالخيرات في زمن الإمكان[2]، لتفوزي بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، برفقة الأنبياء والمرسلين، وصحبة الصديقين والشهداء

(١) انظر «درء التعارض» (٩/٣٤ و٣٥).

(٢) وسيأتي بيان ذلك في الفصل الآتي بعنوان «المبادرة بالخيرات».

والصالحين، ﴿فِي مَقَامٍ أَمِينٍ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾، ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠].

وقال سبحانه حاكيًا عن كليمه ﷺ: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤].

قال ابن الجوزي[١]: «اعلم أن الطريق الموصلة إلى الحق سبحانه ليست مما يُقطع بالأقدام، وإنما يُقطع بالقلوب، والشهوات العاجلة قطاع الطريق، والسبيل كالليل المُدْلَهِم، غير أن عين الموفَّق بَصَرُ فرسٍ، لأنه يَرى في الظلمة كما يَرى في الضوء، والصدق في الطلب منار، أين وُجد يدل على الجادّة، وإنما يَتعثر من لم يخلص، وإنما يمتنع الإخلاص ممن لا يراد، فلا حول ولا قوة إلا بالله».

وقال ابن القيم[٢]: «قاعدة: السائر إلى الله تعالى والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية.

فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق، ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب، وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي به في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر.

وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها، وأبصر المعاثر والوهاد

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٦٧).

(٢) «طريق الهجرتين» (ص ٣٣٢-٣٣٤ - طبعة قطر).

والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر.

وكلما سكنت نفسه من كَلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أَبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت السير وصلت حميدة مسرورة جَذِلة، وتلقتك الأحبة بأَنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من دَرج تلك الساعة، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازة! فهو والله الهلاك والعطَب لو كنت تعلمين!

فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أَمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء، فإن رجعت فإلى أعدائها رجوعها، وإن تقدمت فإلى أحبابها مصيرها، وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤها، فإنهم وراءها في الطلب، ولا بد لها من قسم من هذه الأقسام الثلاثة فلتختر أَيها شاءت.

وليجعل حديث الأحبة حاديها وسائقها، ونور معرفتهم وإرشادهم هاديها ودليلها، وصدق ودادهم وحبهم غذاءها وشرابها ودواءها، ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين فألم انقطاعه وبعاده واصل إليه دونهم، وحظه من القرب والكرامة مختص به دونهم، فما معنى الاشتغال بهم والانقطاع معهم؟! وليعلم أن هذه الوحشة لا تدوم، بل هي من عوارض

الطريق، فسوف تبدو له الخيام، وسوف يخرج إليه الملتقون يهنئونه بالسلامة والوصول إليهم، فيا قرة عينه إذ ذاك! ويا فرحته إذ يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦- ٢٧]!».

وقال[1]: «النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عز وجل، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل، فلا بد أن ينتهي إليه، ولكن منهم من هو شاق عليه، ومنهم من هو سهل عليه، وإنه ليسير على من يسره الله عليه.

وفي ذلك الجبل أودية وشعوب، وعقبات ووهود، وشوك وعوسج، وعُلَّيق وشَبْرق، ولصوص يقطعون الطريق على السائرين، ولا سيما أهل الليل المدلجين، فإذا لم يكن معهم عُدد الإيمان، ومصابيح اليقين تتقد بزيت الإخبات، وإلا تعلقت بهم تلك الموانع، وتشبثت بهم تلك القواطع، وحالت بينهم وبين السير، فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم لما عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته.

والشيطان على قُلَّة ذلك الجبل يُحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه، ويخوفهم منه، فيتفق مشقة الصعود وقعود ذلك المخوِّف على قُلَّته، وضعف عزيمة السائر ونيته، فيتولد من ذلك الانقطاع والرجوع، والمعصوم من عصمه الله.

وكلما رَقِيَ السائر في ذلك الجبل اشتد به صياح القاطع، وتحذيره وتخويفه، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته انقلبت تلك المخاوف كلهن أمانًا، وحينئذ يسهل السير، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقة عقباتها، ويرى طريقًا واسعًا آمنًا، يفضي به إلى المنازل والمناهل، وعليه الأعلام، وفيه الإقامات، قد أُعِدَّتْ لركب الرحمن.

فبين العبد وبين السعادة والفلاح قوة عزيمة، وصبر ساعة، وشجاعة نفس، وثبات قلب، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/٧-٨).

شواهد السائر إلى الله تعالى

يا نفس، واجعلي لك شواهد تحثك على السير في طاعة الله تعالى، وتأخذ بيدك في طريقك إليه عز وجل، وتكون حاديك في سفرك إلى الدار الآخرة، وكرري هذه الشواهد كلما كسلت أو ضعفت أو استوحشت، فما تلبثين أن تقومي بهمتك، وتسيري بعَزمتك، بل وتدأبي في السير على عجل، وتفِري إلى الله تعالى على وجل.

قال ابن القيم لله دره[1]: «أول شواهد السائر إلى الله والدار الآخرة أن يقوم به شاهد من الدنيا وحقارتها، وقلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها، وسرعة انقضائها، ويرى أهلها وعشاقَها صرعى حولها، قد بدّعت بهم، وعذبتهم بأنواع العذاب، وأذاقتهم أمر الشراب، أضحكتهم قليلًا، وأبكتهم طويلًا، سقتهم كؤوس سمها، بعد كؤوس خمرها، فسكروا بحبها، وماتوا بهَجرها.

فإذا قام بالعبد هذا الشاهد منها ترحل قلبه عنها، وسافر في طلب الدار الآخرة، وحينئذ يقوم بقلبه شاهد من الآخرة ودوامها، وأنها هي الحيوان حقًّا، فأهلها لا يرتحلون منها، ولا يظعنون عنها، بل هي دار القرار، ومحط الرحال، ومنتهى السير، وأن الدنيا بالنسبة إليها كما قال النبي ﷺ: «مَا الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ تَرْجِعُ؟»[2].

ثم يقوم بقلبه شاهد من النار، وتوقدها واضطرامها، وبعد قعرها، وشدة حرها، وعظيم عذاب أهلها، فيشاهدهم وقد سيقوا إليها سود الوجوه، زرق العيون،

---

(١) «مدارج السالكين» (٢٣٥/٣-٢٤٠)، مختصرًا. وقد تقدم التنبيه إلى محتوى كلامه والإشارة إليه مرارًا، إلا أنني آثرت أن أنقله هنا جملة واحدة، لأهميته، ولإعجابي به، ولعلمي أنه أقرب الوسائل في إيقاظ النفس، وحثها على العزوف عن الدنيا، وسلوك طريق الآخرة، والعمل من أجل حياتها الباقية.

(٢) تقدم (صفحة ١٥٢).

والسلاسل والأغلال في أعناقهم، فلما انتهوا إليها فتحت في وجوههم أبوابها، فشاهدوا ذلك المنظر الفظيع، وقد تقطعت قلوبهم حسرة وأسفًا، ﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣].

فأراهم شاهد الإيمان وهم إليها يدفعون، وأتى النداء من قبل رب العالمين: ﴿ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤]. ثم قيل لهم: ﴿ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۞ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الطور:١٤-١٦]. فأراهم شاهد الإيمان وهم في الحميم على وجوههم يسحبون، وفي النار كالحطب يسجرون، ﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ﴾ [الأعراف:٤١]، فبئس اللحاف! وبئس الفراش! وإن استغاثوا من شدة العطش ﴿ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا شربوه قطّع أمعاءهم في أجوافهم، وصهر ما في بطونهم، شرابهم الحميم، وطعامهم الزقوم، ﴿ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ۞ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [فاطر:٣٦-٣٧].

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، وأخصب قلبه من مطر أجفانه، وهان عليه كل مصيبة تصيبه في غير دينه وقلبه، وعلى حسب قوة هذا الشاهد يكون بعده من المعاصي والمخالفات، فيذيب هذا الشاهد من قلبه الفضلات والمواد المهلكة، وينضجها ثم يخرجها، فيجد القلب لذة العافية وسرورها.

فيقوم به بعد ذلك شاهد من الجنة، وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فضلًا عما وصفه الله لعباده على

لسان رسوله من النعيم المفصل، الكفيل بأعلى أنواع اللذة، من المطاعم والمشارب، والملابس والصور، والبهجة والسرور، فيقوم بقلبه شاهد دار قد جعل الله النعيم المقيم الدائم بحذافيره فيها، تربتها المسك، وحصباؤها الدر، وبناؤها لبن الذهب والفضة، وقصب اللؤلؤ، وشرابها أحلى من العسل، وأطيب رائحة من المسك، وأبرد من الكافور، وألذ من الزنجبيل، ونساؤها لو برز وجه إحداهن في هذه الدنيا لغلب على ضوء الشمس، ولباسهم الحرير من السندس والإستبرق، وخدمهم ولدان كاللؤلؤ المنثور، وفاكهتهم دائمة، لا مقطوعة ولا ممنوعة، وفرش مرفوعة، وغذاؤهم لحم طير مما يشتهون، وشرابهم عليه خمرة لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون، وخضرتهم فاكهة مما يتخيرون، ومشاهدهم حور عين، كأمثال اللؤلؤ المكنون، فهم على الأرائك متكئون، وفي تلك الرياض يحبرون، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

فإذا انضم إلى هذا الشاهد شاهدُ يوم المزيد والنظر إلى وجه الرب جل جلاله وسماع كلامه منه بلا واسطة، وانضم هذا الشاهد إلى الشواهد التي قبله، فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها، فلا يلتفت في طريقه يمينًا ولا شمالًا.

هذا وفوق ذلك شاهد آخر تضمحل فيه هذه الشواهد، ويغيب به العبد عنها كلها، وهو شاهد جلال الرب تعالى، وجماله وكماله، وعزه وسلطانه، وقيوميته وعلوه فوق عرشه، وتكلمه بكتبه وكلمات تكوينه، وخطابه لملائكته وأنبيائه.

فإذا شاهده شاهد بقلبه قيومًا قاهرًا فوق عباده، مستويًا على عرشه، منفردًا بتدبير مملكته، آمرًا ناهيًا، مرسلًا رسله، ومنزلًا كتبه، يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويحب ويبغض، ويرحم إذا استُرحم، ويغفر إذا استُغفر، ويعطي إذا سئل، ويجيب إذا دُعي، ويُقيل إذا استُقيل، أكبر

من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأعز من كل شيء، وأقدر من كل شيء، وأعلم من كل شيء، وأحكم من كل شيء، فلو كانت قوى الخلائق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم على تلك القوة، ثم نسبت تلك القوى إلى قوة الله تعالى لكانت أقل من قوة البعوضة بالنسبة إلى قوة الأسد، ولو قدر جمال الخلق كلهم على واحد منهم، ثم كانوا كلهم بذلك الجمال، ثم نسب إلى جمال الرب تعالى، لكان دون سراج ضعيف بالنسبة إلى عين الشمس، ولو كان علم الأولين والآخرين على رجل منهم، ثم كان كل الخلق على تلك الصفة، ثم نسب إلى علم الرب تعالى، لكان ذلك بالنسبة إلى علم الرب كنقرة عصفور في بحر، وهكذا سائر صفاته، كسمعه وبصره، وسائر نعوت كماله، فإنه يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، فلا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة، يرى دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، ويرى نياط عروقها، ومجاري القوت في أعضائها، يضع السماوات على إصبع من أصابع يده، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، ويقبض سماواته بإحدى يديه، والأرضين باليد الأخرى، فالسماوات السبع في كفه كخردلة في كف العبد، ولو أن الخلق كلهم من أولهم إلى آخرهم قاموا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله عز وجل، لو كشف الحجاب عن وجهه لأحرقت سبحاته ما انتهى إليه بصره من خلقه.

فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد اضمحلت فيه الشواهد المتقدمة من غير أن تعدم، بل تصير الغلبة والقهر لهذا الشاهد، وتندرج فيه الشواهد كلها، ومَنْ هذا شاهده فله سلوك وسير خاص، ليس لغيره ممن هو عن هذا في غفلة، أو معرفة مجملة.

فصاحب هذا الشاهد سائر إلى الله في يقظته ومنامه، وحركته وسكونه،

وفطره وصيامه، له شأن وللناس شأن، هو في واد والناس في واد.

خليليَّ لا والله ما أنا منكما إذا عَلَمٌ من آل ليلى بدا لِيا

فلا تزال شواهد الصفات قائمة بقلبه، توقظه إذا رقد، وتذكره إذا غفل، وتحدو به إذا سار، وتقيمه إذا قعد:

إن قام بقلبه شاهد من الربوبية والقيومية رأى أن الأمر كله لله، ليس لأحد معه من الأمر شيء.

وإن قام بقلبه شاهد من الإلهية رأى في ذلك الشاهد الأمر والنهي، والنبوات، والكتب والشرائع، والمحبة والرضا، والكراهة والبغض، والثواب والعقاب، وشاهد الأمر نازلًا ممن هو مستو على عرشه، وأعمال العباد صاعدة إليه ومعروضة عليه، يجزي بالإحسان منها في هذه الدار، وفي العقبى نضرة وسرورًا، ويَقدِم إلى ما لم يكن على أمره وشرعه منها فيجعله هباء منثورًا.

وإن قام بقلبه شاهد من الرحمة رأى الوجود كله قائمًا بهذه الصفة، قد وسع مَنْ هي صفته كل شيء رحمة وعلمًا، وانتهت رحمته إلى حيث انتهى علمه، فاستوى على عرشه برحمته لتسع كل شيء، كما وسع عرشه كل شيء.

وإن قام بقلبه شاهد العزة والكبرياء والعظمة والجبروت فله شأن آخر.

وهكذا جميع شواهد الصفات، فما ذكرناه إنما هو أدنى تنبيه عليها».

الدعاء بالأسماء الحسنى

هذا يا نفس، ولا يمكن لشواهد الأسماء والصفات أن تقوم بقلبك على الوجه المطلوب، ولا أن تؤتي ثمارها المرجوّة، من التعبد لله تعالى، والسير إليه عز وجل، والسلوك في طريق مرضاته، وبذل الجهد في التقرب إليه، إلا بمعرفة هذه الأسماء والصفات، ومعرفة معانيها، وإثباتها على وجه الكمال، اللائق بذي

الجلال، ثم دعائه بها، كما أمر تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال ابن سعدي(١): «قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ إلى آخر الآية، أصل التوحيد إثبات ما أثبته الله لنفسه، أو أثبته له رسوله من الأسماء الحسنى، ومعرفة ما احتوت عليه من المعاني الجليلة، والمعارف الجميلة، والتعبد لله بها ودعاؤه بها.

فكل مطلب يطلبه العبد من ربه من أمور دينه ودنياه فليتوسل إليه باسم مناسب له من أسماء الله الحسنى، فمن دعاه لحصول رزق فليسأله باسمه الرزاق، ولحصول رحمة ومغفرة فباسمه الرحيم الرحمن البر الكريم العفو الغفور التواب، ونحو ذلك.

وأفضل من ذلك أن يدعوه بأسمائه وصفاته دعاء العبادة، وذلك باستحضار معاني الأسماء الحسنى وتحصيلها في القلوب حتى تتأثر القلوب بآثارها ومقتضياتها، وتمتلئ بأجل المعارف.

فمثلًا أسماء العظمة والكبرياء والمجد والجلال والهيبة تملأ القلوب تعظيمًا لله وإجلالًا له.

وأسماء الجمال والبر والإحسان والرحمة والجود تملأ القلب محبة لله وشوقًا له وحمدًا له وشكرًا.

وأسماء العز والحكمة والعلم والقدرة تملأ القلب خضوعًا لله وخشوعًا وانكسارًا بين يديه.

وأسماء العلم والخبرة والإحاطة والمراقبة والمشاهدة تملأ القلب مراقبة لله في الحركات والسكنات، وحراسة للخواطر عن الأفكار الردية والإرادات الفاسدة.

---

(١) «القول السديد» (ص ١٥٧-١٥٩).

وأسماء الغنى واللطف تملأ القلب افتقارًا واضطرارًا إليه، والتفاتًا إليه كل وقت في كل حال.

فهذه المعارف التي تحصل للقلوب بسبب معرفة العبد بأسمائه وصفاته، وتعبده بها لله لا يحصِّل العبد في الدنيا أجل ولا أفضل ولا أكمل منها، وهي أفضل العطايا من الله لعبده، وهي رُوح التوحيد ورَوحه.

ومن انفتح له هذا الباب انفتح له باب التوحيد الخالص، والإيمان الكامل، الذي لا يحصل إلا للكُمَّل من الموحدين».

وقال[1]: «ينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله وصفاته وتقديسه، ويجعل هذه المسألة أهم المسائل عنده، وأولاها بالإيثار، وأحقها بالتحقيق؛ ليفوز من الخير بأوفر نصيب».

قال: «وطريق ذلك: أن يجمع العبد الأسماء الحسنى الواردة في القرآن، وهي قريب من ثمانين اسمًا، وفي السنة زيادة على ذلك، فيتدبرها، ويعطي كل اسم منها عموم ذلك المعنى وكماله وأكمله»[2].

وقال ابن القيم[3]: «وأكمل الناس عبودية المتعبد بجميع الأسماء والصفات التي يَطَّلع عليها البشر، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر، كمن يحجبه التعبد باسمه القدير عن التعبد باسمه الحليم الرحيم، أو يحجبه عبودية اسمه المعطي عن عبودية اسمه المانع، أو عبودية اسمه الرحيم والعفو والغفور

---

(١) «المواهب الربانية» (ص ٦٢).

(٢) ولكلامه بقية، ينبغي أن تنظر، وهو فريد في بابه، عزيز في فوائده.

وقد من الله تعالى علي بجمع الأسماء الحسنى ـ تباركت ـ، وأودعتها في كتابي المسمى «الطريقة المثلى في إحصاء أسماء الله الحسنى»، فمن أحب فليطلع عليها.

ولي كتاب آخر في الباب جمعت فيه شرح الأسماء لعلامة القصيم ابن سعدي رحمه الله، فليسعد به من أراد أن يمتثل ما نصح به الإمام، فقد تُلَّتْ في يده الأسماء ومعانيها، ولله النعمة والفضل والثناء الحسن.

(٣) «مدارج السالكين» (١/٤٢٠).

عن اسمه المنتقم[1]، أو التعبد بأسماء التودد والبر واللطف والإحسان عن أسماء العدل والجبروت والعظمة والكبرياء، ونحو ذلك.

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن، قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

والدعاء بها يتناول دعاء المسألة، ودعاء الثناء، ودعاء التعبد، وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته، ويثنوا عليه بها، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها».

التقرب بالنوافل بعد الفرائض

يا نفس، فقد عرفت أنك إنما خلقت لعبادة الله تعالى ومحبته والذل له، وعرفت الأسباب التي تعينك على القيام بما خلقت له، وأيقنت أنك ستحاسبين على ما قدمتيه في حياتك الدنيا من الإيمان والأعمال، وأن الآخرة قادمة قريبة، فما بقي عليك إلا أن تشمري وتشدي المئزر، وتبدئي بالتقرب إلى الله تعالى بفرائض العبادات والمعاملات ومندوباتها، واجتناب المحرمات والمكروهات بأنواعها.

واعلمي أن قَدْرَك عند الله تعالى، ومنزلتك في الجنة، وجزاءك في الدنيا والآخرة، من محبة الله تعالى ورضاه وتأييده وتوليه لك ودفاعه عنك وتوفيقك واستجابة دعائك، والحياة الطيبة والسعادة، والنضرة والسرور، والفرح والحبور، والقرب من الرب الغفور، بقدر ما تقدمينه من ذلك خالصًا لوجه الله تعالى، وعلى هدي رسوله ﷺ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي

---

(١) المنع والانتقام صفات ثابتة لله عز وجل، وأما كون المانع والمنتقم أسماء له سبحانه فهذا يفتقر إلى دليل.

بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ[1] حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[2].

قال ابن القيم[3]: «إن المحب يشرع أولًا في التقربات بالأعمال الظاهرة، وهي ظاهر التقرب، ثم يترقى من ذلك إلى حال التقرب، وهو الانجذاب إلى حبيبه بكليته بروحه وقلبه، وعقله وبدنه، ثم يترقى من ذلك إلى حال الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، فيتقرب إليه حينئذ من باطنه بأعمال القلوب، من المحبة والإنابة والتعظيم والإجلال والخشية، فينبعث حينئذ من باطنه الجود ببذل الروح، والجود في محبة حبيبه بلا تكلف، فيجود بروحه ونفسه، وأنفاسه وإرادته، وأعماله لحبيبه حالًا لا تكلفًا، فإذا وجد المحب ذلك فقد ظفر بحال التقرب وسره وباطنه، وإن لم يجده فهو يتقرب بلسانه وبدنه وظاهره فقط، فليدم على ذلك، وليتكلف التقرب بالأذكار والأعمال على الدوام، فعساه أن يحظى بحال القرب.

ووراء هذا القرب الباطن أمر آخر أيضًا، وهو شيء لا يعبر عنه بأحسن من عبارة أقرب الخلق إلى الله ﷺ عن هذا المعنى، حيث يقول حاكيًا عن ربه تبارك وتعالى: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا

---

(١) النوافل: هي ما عدا الفرائض التي افترضها الله سبحانه على عباده من جميع أجناس الطاعات، من صلاة وصيام وحج وصدقة وأذكار، وكل ما نَدَب اللهُ سبحانه إليه ورغّب فيه من غير حَتْمٍ وافتراض. «قَطْر الولي».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٢). قال شيخ الإسلام: «وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء». «مجموع الفتاوى» (١٨/١٢٩).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/٢٥٣-٢٥٤).

تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»[1]. فيجد هذا المحب في باطنه ذوق معنى هذا الحديث ذوقًا حقيقيًّا.

فذَكَر من مراتب القرب ثلاثة، ونبه بها على ما دونها وما فوقها، فذكر تقرب العبد إليه بالشبر، وتقربه سبحانه إلى العبد ذراعًا، فإذا ذاق العبد حقيقة هذا التقرب انتقل منه إلى تقرب الذراع، فيجد ذوق تقرب الرب إليه باعًا.

فإذا ذاق حلاوة هذا القرب الثاني أسرع المشي حينئذ إلى ربه، فيذوق حلاوة إتيانه إليه هرولة، وهاهنا منتهى الحديث، منبها على أنه إذا هرول عبده إليه كان قرب حبيبه منه فوق هرولة العبد إليه، فإما أن يكون قد أمسك عن ذلك لعظيم شاهد الجزاء، أو لأنه يدخل في الجزاء الذي لم تسمع به أذن، ولم يخطر على قلب بشر، أو إحالة له على المراتب المتقدمة، فكأنه قيل له: وقس على هذا، فعلى قدر ما تبذل منك متقربًا إلى ربك يتقرب إليك بأكثر منه، وعلى هذا فلازم هذا التقرب المذكور في مراتبه أن من تقرب إلى حبيبه بروحه وجميع قواه، وإرادته وأقواله وأعماله، تقرب الرب منه سبحانه بنفسه في مقابلة تقرب عبده إليه». اهـ.

قلت: ولله در من قال:

وإذا كانت النفوسُ كبارًا ... تعبت في مرادها الأجسامُ

وبمناسبة ذكر هذا الحديث (حديث الولي)، أوصيك يا نفس بأن تسألي الله تعالى حبه، وأن تكثري من ذلك، وأن تتعاهدي الدعاء به، كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: احْتُبِسَ عنا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نَتراءى عين الشمس، فخرج سريعًا فثُوِّبَ بالصلاة،

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ مسلم.

فصلى رسول الله ﷺ وتَجَوَّزَ في صلاته، فلما سلم دعا بصوته فقال لنا: «عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ». ثم انفتل إلينا فقال:

«أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمُ الْغَدَاةَ: إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي، فَاسْتَثْقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ. قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ. قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: لَا أَدْرِي رَبِّ». قالها ثلاثًا.

قال: «فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ، وَعَرَفْتُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ. قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَبِّ. قَالَ: فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟ قُلْتُ: فِي الْكَفَّارَاتِ. قَالَ: مَا هُنَّ؟ قُلْتُ: مَشْيُ الْأَقْدَامِ إِلَى الجَمَاعَاتِ، وَالْجُلُوسُ فِي الْمَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي الْمَكْرُوهَاتِ. قَالَ: ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ: سَلْ. قُلْتُ:

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ الْمُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ الْمَسَاكِينِ، وَأَنْ تَغْفِرَ لِي، وَتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وَأَسْأَلُكَ حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ».

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهَا حَقٌّ، فَادْرُسُوهَا، ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا»[1].

وكذلك أوصيك يا نفس أن تسألي الله عز وجل أن يتولاك فيمن تولى، وأن تحرصي على ذلك، كما جاء في دعاء قنوت الوتر، وما أجله من دعاء! وما أعظم ما احتواه من مطالب! فعن الحسن بن علي رضي عنهما قال: علمني رسول الله ﷺ كلمات أقولهن في قنوت الوتر:

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٣٥) وغيره، وصححه الألباني.

«اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ، [لَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ]»[1].

قال ابن القيم في قوله ﷺ: (إنه لا يذل من واليت)[2]: «فإنه منصور عزيز غالب بسبب توليك له، وفي هذا تنبيه على أن من حصل له ذل في الناس فهو بنقصان ما فاته من تولي الله، وإلا فمع الولاية الكاملة ينتفي الذل كله، ولو سُلِّط عليه بالأذى مَن في أقطارها فهو العزيز غير الذليل».

○○○○○

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥) وغيره، وصححه الألباني. والزيادة لابن مندة في «التوحيد» (١٩١/٢) وغيره، كما في «صفة الصلاة».

(٢) «شفاء العليل» (ص ١١).

حياة السعادة

يا نفس، ألست تريدين في هذه الدنيا أن تعيشي حياة الراحة والأمن والطُّمَأنينة والسعادة، وتسعَين في تحصيل أسبابها، وتجتهدين بفكرك وجوارحك في سبيل تحقيق ذلك؟! بلى يا نفس، إنك لكذلك، وإن مطلبك حق وفطري وصحيح، ومن ذا يجرؤ أن يعترض عليك، أو يقول بخلاف ذلك؟!

لكن يا نفس! أتدرين أن طريق السعادة في الدنيا ـ فضلًا عن الآخرة ـ إنما هي في عبادة الله تعالى؟! بأن تسلكي طريق الهدى والإيمان والعمل الصالح، هكذا جعلها الله تعالى، ولم يجعل طريقًا إلى السعادة الحقيقية إلا بها، وهو العليم الحكيم، اللطيف الخبير، الذي خلق العباد ويعلم ما يصلحهم مما يفسدهم، ويعلم ما يسعدهم مما يشقيهم.

وقد بين الله تعالى ذلك من أول الطريق، عندما أُهبط الأبوان عليهما الصلاة والسلام من الجنة، فقال سبحانه: ﴿ قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ۞ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا ﴾ [طه:١٢٣-١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ [البقرة:٣٨].

فيا نفس، إن في القلب وَحشة وغربة، وهمًّا وغمًّا، وضِيقًا وضَنْكًا، لا يزيله شيء من متاع الحياة الدنيا، لا مالٌ ولا بنون، ولا دور ولا قصور، ولا أي متعة دنيوية، ولا أي شهوة نفسانية، لا يزيله إلا ذكر الله تعالى، والأنس به، والإقبال عليه، ومناجاته.

وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

قال القاسمي[1]: «هذا وعد منه تعالى لمن عمل صالحًا، وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله، من ذكر أو أنثى، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة.

قال المهايمي: أي فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعساره، إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته، والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه، إذ يزداد حرصًا وخَوْفَ فوات، ويُجزون بالأحسن في الآخرة، فلا يقال لهم: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأحقاف:٢٠]. بل يُكَمَّل جزاءُ أعمالهم الأدنى بحيث يُلحق بالأعلى. انتهى.

وعندي أن الحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة اليقين، وحلاوة الإيمان، والرغبة في الموعود، والرضا بالقضاء، وعتق الروح مما كانوا يُستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد، والتنوّر بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها، هذا في الدنيا، وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن، والثواب الأوفى». انتهى كلام القاسمي.

وقال ابن سعدي[2]: «فأخبر تعالى ووعد من جمع بين الإيمان والعمل الصالح بالحياة الطيبة في هذه الدار، وبالجزاء الحسن في هذه الدار وفي دار القرار.

وسبب ذلك واضح، فإن المؤمنين بالله الإيمان الصحيح، المثمر للعمل الصالح، المصلح للقلوب والأخلاق، والدنيا والآخرة، معهم أصول وأسس يَتَلَقَّوْن فيها جميعَ ما يَرِدِ عليهم من أسباب السرور والابتهاج، وأسباب القلق والهم والأحزان.

---

(١) «محاسن التأويل» (١٠/١٥٦).

(٢) أول رسالة «الوسائل المفيدة للحياة السعيدة».

يَتَلَقَّوْن المحابّ والمسارّ بقَبول لها، وشكر عليها، واستعمال لها فيما ينفع، فإذا استعملوها على هذا الوجه أحدث لهم من الابتهاج بها، والطمع في بقائها وبركتها، ورجاء ثواب الشاكرين، أمورًا عظيمة تفوق بخيراتها وبركاتها هذه المسرات التي هي ثمراتها.

ويَتَلَقَّوْن المكاره والمضارّ والهم والغم بالمقاومة لما يمكنهم مقاومته، وتخفيف ما يمكنهم تخفيفه، والصبر الجميل لما ليس لهم عنه بد، وبذلك يحصل لهم من آثار المكاره من المقاومات النافعة والتجارب والقوة ومن الصبر واحتساب الأجر والثواب أمور عظيمة تضمحل معها المكاره، وتحل محلها المسار والآمال الطيبة، والطمع في فضل الله وثوابه». اهـ.

وقال الرازي[1]: «اعلم أن عيش المؤمن في الدنيا أطيب من عيش الكافر لوجوه:

الأول: أنه لما عرف أن رزقه إنما حصل بتدبير الله تعالى، وعرف أنه تعالى محسن كريم لا يفعل إلا الصواب، كان راضيًا بكل ما قضاه وقدره، وعلم أن مصلحته في ذلك، أما الجاهل فلا يعرف هذه الأصول، فكان أبدًا في الحزن والشقاء.

وثانيها: أن المؤمن أبدًا يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن، ويقدر وقوعها، وعلى تقدير وقوعها يرضى بها، لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بخلاف الجاهل، فإنه يكون غافلًا عن تلك المعارف، فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه.

وثالثها: أن قلب المؤمن منشرح بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف لم يتسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، أما قلب الجاهل فإنه خالٍ عن معرفة الله تعالى، فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا.

---

(١) «التفسير الكبير» (١٠/١١٥).

ورابعها: أن المؤمن عارف بأن خيرات الحياة الجسمانية خسيسة، فلا يَعظم فرحُه بوجدانها وغمه بفقدانها، أما الجاهل فإنه لا يعرف سعادة أخرى تغايرها، فلا جرم يَعظم فرحُه بوجدانها وغمُّه بفقدانها.

وخامسها: أن المؤمن يعلم أن خيرات الدنيا واجبة التغير، سريعة التقلب، فلولا تغيرها وانقلابها لم تصل من غيره إليه.

واعلم أن ما كان واجب التغير فإنه عند وصوله إليه لا تنقلب حقيقته، ولا تتبدل ماهيته، فعند وصوله إليه يكون أيضًا واجب التغير، فعند ذلك لا يَطبع العاقلُ قلبَه عليه، ولا يُقيم له في قلبه وزنًا، بخلاف الجاهل، فإنه يكون غافلًا عن هذه المعارف، فيَطبع قلبَه عليها، ويعانقها معانقة العاشق لمعشوقه، فعند فوته وزواله يحترق قلبه، ويَعظم البلاء عنده.

فهذه وجوه كافية في بيان أن عيش المؤمن العارف أطيب من عيش الكافر». اهـ

وقال ابن القيم[1]: «وقد جعل الله الحياة الطيبة لأهل معرفته ومحبته وعبادته، فقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٧].

وقد فُسِّرت الحياة الطيبة بالقناعة والرضا، والرزق الحسن، وغير ذلك، والصواب: أنها حياة القلب ونعيمه، وبهجته وسروره، بالإيمان، ومعرفة الله، ومحبته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، فإنه لا حياة أطيب من حياة صاحبها، ولا نعيم فوق نعيمه إلا نعيم الجنة، كما كان بعض العارفين يقول: إنه لتمر بي أوقات أقول فيها: إنْ كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

وقال غيره: إنه ليمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/٢٥٩).

وإذا كانت حياةُ القلب حياةً طيبةً تَبِعَتْهُ حياةُ الجوارح، فإنه مَلِكُها.

ولهذا جعل الله المعيشة الضَّنْك لمن أعرض عن ذكره، وهي عكس الحياة الطيبة.

وهذه الحياة الطيبة تكون في الدور الثلاث، أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، والمعيشة الضَّنْك أيضًا تكون في الدور الثلاث، فالأبرار في النعيم هنا وهنالك، والفجار في الجحيم هنا وهنالك، قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

فذِكْر الله سبحانه وتعالى ومحبته وطاعته والإقبال عليه ضامنٌ لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه والغفلة ومعصيته كفيل بالحياة المنغصة والمعيشة الضَّنْك في الدنيا والآخرة». اهـ.

وقال[1]: «الإحسان له جزاء معجل ولا بد، والإساءة لها جزاء معجل ولا بد، ولو لم يكن إلا ما يجازى به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره ولذته بمعاملة ربه عز وجل وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه، وما يجازى به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته

---

(١) «الوابل الصيب» (ص ٤٧-٤٩).

وحزازته وغمه وهمه وحزنه وخوفه.

وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضا به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير. ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللـهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك، ما شاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حُبِس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد:١٣].

وعَلِم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرُّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطُمَأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه! وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا! خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها. قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره. أو نحو هذا.

وقال آخر: إنه لتمر بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا.

وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب[(١)].

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره، والسكون إليه والطُّمَأنينة إليه، وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة، بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين».

وقال[(٢)]: «فالمؤمن المخلص لله من أطيب الناس عيشًا، وأنعمهم بالًا، وأشرحهم صدرًا، وأسرُّهم قلبًا، وهذه جنة عاجلة قبل الجنة الآجلة».

وقال لله دره[(٣)]: «الزاهد أروح الناس بدنًا وقلبًا، فإن كان زهده وفراغه

(١) تقدم هذان القولان قبل قليل.

(٢) «الجواب الكافي» (ص ١٩٧).

(٣) «عدة الصابرين» (ص ٢٦٥).

من الدنيا قوة له في إرادة الله والدار الآخرة، بحيث فرّغ قلبه لله، وجعل حرصه على التقرب إليه، وشحه على وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضى لله وأحب إليه، كان من أنعم الناس عيشًا، وأقرهم عينًا، وأطيبهم نفسًا، وأفرحهم قلبًا، فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب، وتبدد الشمل، وتطيل الهم والغم والحزن، فهي عذاب حاضر يؤدي إلى عذاب منتظر أشد منه، وتُفَوِّت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا».

وقال(١): فلو فرضت لذات أهل الدنيا بأجمعها حاصلة لرجل لم يكن لها نسبة إلى لذة جمعية قلبه على الله، وفرحه به، وأنسه بقربه، وشوقه إلى لقائه، وهذا أمر لا يصدق به إلا من ذاقه، فإنما يصدقك من أشرق فيه ما أشرق فيك، ولله در القائل:

أيا صاحبي أما ترى نارهم فقال تريني ما لا أرى
سقاك الغرام ولم يسقني فأبصرتَ ما لم أكن مبصرًا

وقال ابن رجب(٢): «الإيمان القائم بالقلوب أصل كل خير، وهو خير ما أُوتيه العبد في الدنيا والآخرة، وبه يحصل له سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة من شقاوة الدنيا والآخرة، ومتى رسخ الإيمان في القلب انبعثت الجوارح كلها بالأعمال الصالحة، واللسان بالكلام الطيب، كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»(٣). ولا صلاح للقلب بدون الإيمان بالله وما يدخل في مسماه، من معرفة الله وتوحيده وخشيته ومحبته ورجائه وإجابته والإنابة إليه والتوكل عليه».

(١) «مدارج السالكين» (١٥٥/٣).
(٢) «لطائف المعارف» (ص ٢٤٠).
(٣) بعض حديث، متفق عليه.

وقال ابن سعدي[1] في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل:٣٠]: «﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾، في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾؛ رزق واسع، وعيشة هنية، وطُمَأنينةُ قلب، وأمن وسرور». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس:٦٢-٦٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

قال ابن سعدي[2]: «ذكر أن أهل القرى لو آمنوا بقلوبهم إيمانًا صادقًا، صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم ﴿بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾، فأرسل السماء عليهم مدرارًا، وأنبت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نَصَب».

قال سيد قطب[3]: «فهي البركات بكل أنواعها وألوانها، وبكل صورها وأشكالها، ما يعهده الناس وما يتخيلونه، وما لم يتهيأ لهم في واقع ولا خيال».

---

(١) «تفسيره» (٥٧/٣).

(٢) «تفسيره» (١٣٧/٢).

(٣) «الظلال» (٥٨٧/٣-٥٨٨).

فصل

فالسعادة الحقيقية يا نفس إنما تكون بما مَنّ الله به على عباده من إنزال الكتاب على نبيه ﷺ، يعلمهم ما فيه ويزكيهم به، وبما هداهم إليه من الإسلام والإيمان، مما يضمن لهم الهداية إلى مصالح الدنيا والدين، وسعادة الأولى والآخرة، وهو أعظم مننه سبحانه عليهم، وأجل نعمه، وأكبر عطاياه لهم، فبه فليفرحوا.

قال تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس:٥٨].

قال ابن سعدي: «﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ ﴾، الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة وفضل تفضل الله به على عباده، ﴿وَبِرَحْمَتِهِۦ﴾: الدين والإيمان وعبادة الله ومحبته ومعرفته، ﴿ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾، من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضله ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منهما». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦].

قال شيخ الإسلام(١): «أرفع درجات القلوب فرحها التام بما جاء به الرسول ﷺ وابتهاجها وسرورها، كما قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ [الرعد:٣٦]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ [يونس:٥٨].

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/٤٩).

الآية. ففضل الله ورحمته: القرآن والإيمان، مَنْ فرح به فقد فرح بأعظم مفروح به، ومَنْ فرح بغيره فقد ظلم نفسه، ووضع الفرح في غير موضعه». اهـ.

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت:٥١].

وقال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف:١].

وقال سبحانه: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١].

وقال تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ * وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه:١٣٠-١٣٢].

فالتسبيح والصلاة والمداومة على عبادة الله هو خير ما يُرْزَقُه العباد، وهو الموجب لرضاهم وسعادتهم وطُمَأنينتهم، وهو الذي يبقى ثوابه ولا يزول، وغيره من شهوات الدنيا لم يجعله الله إلا بلغة إلى الآخرة، وفتنة يختبر به عباده، كما تقدم، فيأخذون منه ما أحله لهم دون إسراف ولا تعدٍّ ولا ظلم، ويذرون ما حرمه عليهم.

وقوله تعالى: ﴿ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ﴾، قال ابن كثير: «يعني: إذا أقمت الصلاة أتاك الرزق من حيث لا تحتسب».

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ * لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر:٨٧-٨٨].

فسورة يؤتاها العبد من كتاب الله عز وجل أو آية خير من الدنيا وما فيها، وركعتان يصليهما لله تعالى خير من الدنيا وما فيها، ولأن يقول: سبحان الله،

والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، خير من الدنيا وما فيها، كما تقدم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا﴾ [الكهف:٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٞ مَّرَدًّا﴾ [مريم:٧٦].

فأي شيء هي الدنيا يا نفس؟! وأي شيء هي في جنب جنة الدنيا من العلم والإيمان، والتنعم بطاعة الرحمن؟!! ثم أي شيء هي في جنب جنة الآخرة والفوز بالرضوان؟!!! فانظري بالله يا نفس: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ، كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ، تَخَافُونَ عَلَيْهِ»(١).

فصل

أرأيت يا نفس؟! فتلك هي السعادة التي تنشدين، وتلك هي اللذة التي عنها تبحثين، فاسلكي سبيلها، وعَضِّي على أسبابها بالنواجذ!

هذا، وأمامك السعادة الأخروية الأبدية، في جنات النعيم المقيم، عند الرب الكريم، برفقة صفوة الخلق وساداتهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء:٦٩].

وما هاهنا ما هو إلا نموذج مصغر بالنسبة إلى ما هنالك، قال ربنا جل وعز: ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٧].

فيا نفس، أفلا تتذكرين؟!! أفلا تعقلين؟!!

---

(١) أخرجه الحاكم (٢٣١/٤) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٣١٧٩).

حلاوة الإيمان

وإذا أردت يا نفس أن تتعجلي تذوق هذه الحياة فلا يكونن شيء عندك أحب إليك من الله تعالى ورسوله ﷺ، والإيمان به، وذكره تعالى وما والاه، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[١].

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

وفي لفظ: «لَا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

قال ابن بطال[٢]: «معنى وجود حلاوة الإيمان: هو استلذاذ الطاعات، وتحمل المشقات، فيما يرضي الله تعالى ورسوله ﷺ، وإيثار ذلك على عَرَض الدنيا، رغبة في نعيم الآخرة الذى لا يبيد ولا يفنى.

وروي عن عتبة الغلام أنه قال: كابدت الصلاة عشرين سنة، ثم تلذذت بها باقي عمري».

قال ابن رجب[٣]: «فهذه الثلاث خصال من أعلى خصال الإيمان، فمن كمّلها فقد وجد حلاوة الإيمان وطَعِمَ طَعْمَه، فالإيمان له حلاوة وطَعم يذاق بالقلوب كما يذاق حلاوة الطعام والشراب بالفم، فإن الإيمان هو غذاء

---

(١) متفق عليه. واللفظ الثالث لمسلم.

(٢) «شرح صحيح البخاري» (٦٦/١).

(٣) «فتح الباري» (٥٠/١).

القلوب وقُوتُها كما أن الطعام والشراب غذاء الأبدان وقُوتُها، وكما أن الجسد لا يجد حلاوة الطعام والشراب إلا عند صحته فإذا سَقم لم يجد حلاوة ما ينفعه من ذلك، بل قد يستحلي ما يضره وما ليس فيه حلاوة لغلبة السَّقْم عليه، فكذلك القلب إنما يجد حلاوة الإيمان إذا سلم من أسقامه وآفاته، فإذا سلم من مرض الأهواء المضلة والشهوات المحرمة وجد حلاوة الإيمان حينئذ، ومتى مرض وسَقم لم يجد حلاوة الإيمان، بل يستحلي ما فيه هلاكه من الأهواء والمعاصي».

وقال النووي(١): «قوله ﷺ: (لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين)، وفي الرواية الأخرى: (من ولده ووالده والناس أجمعين)، قال الإمام أبو سليمان الخَطّابي: لم يُرِد به حب الطبع، بل أراد به حب الاختيار، لأن حب الإنسان نفسه طبع ولا سبيل إلى قلبه. قال: فمعناه لا تَصْدُقُ في حبي حتى تُفني في طاعتي نفسك، وتُؤْثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك. هذا كلام الخَطّابي.

وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم: المحبة ثلاثة أقسام: محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته.

قال ابن بطال رحمه الله: ومعنى الحديث: أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به ﷺ استُنقِذنا من النار، وهُدينا من الضلال.

قال القاضي عياض رحمه الله: ومن محبته ﷺ نصرة سنته، والذب عن

---

(١) «شرح صحيح مسلم» (٢/١٥-١٦).

شريعته، وتمني حضور حياته، فيبذل ماله ونفسه دونه.

قال: وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا تتم إلا بذلك، ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن. هذا كلام القاضي رحمه الله». انتهى كلام النووي.

وقال شيخ الإسلام[١]: «محبة الله ورسوله من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجل قواعده، بل هي أصل كل عمل من أعمال الإيمان والدين».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْ أَشَدِّ أُمَّتِي لِي حُبًّا، نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَآنِي بِأَهْلِهِ وَمَالِهِ»[٢].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا»[٣].

قال ابن القيم[٤]: «هذا الحديث عليه مدار مقامات الدين وإليه ينتهي، وقد تضمن الرضا بربوبيته سبحانه، وألوهيته، والرضا برسوله والانقياد له، والرضا بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة فهو الصدِّيق حقًّا، وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها من ذلك، تبين أن الرضا كان لسانه به ناطقًا، فهو على لسانه لا على حاله.

---

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٤٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٣٢) وغيره.

(٣) أخرجه مسلم (٣٤) وغيره.

(٤) انظر «مدارج السالكين» (٢/١٧٢-١٧٣).

فالرضا بإلهيته يتضمن الرضا بمحبته وحده، وخوفه، ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فِعْلَ الراضي بمحبوبه كل الرضا، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضا بربوبيته: يتضمن الرضا بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به، والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يؤمر به. والثاني: يتضمن رضاه بما يقدَّر عليه.

وأما الرضا بنبيه رسولًا: فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه، بحيث يكون أولى به من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته، ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره البتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواق حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكام ظاهره وباطنه، لا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه، فإن عجز عنه كان تحكيمه غيرَه من باب غذاء المضطر إذا لم يجد ما يُقيته إلا من الميتة والدم! وأحسن أحواله أن يكون من باب التراب الذي إنما يتيمم به عند العجز عن استعمال الماء الطهور!

وأما الرضا بدينه: فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يبق في قلبه حرج من حكمه وسلم له تسليمًا، ولو كان مخالفًا لمراد نفسه أو هواها، أو قول مُقَلَّده وشيخه وطائفته.

وهاهنا يوحشك الناس كلهم إلا الغرباء في العالم، فإياك أن تستوحش من الاغتراب والتفرد، فإنه والله عين العزة، والصحبة مع الله ورسوله، وروح الأنس به، والرضا به ربًّا، وبمحمد ﷺ رسولًا، وبالإسلام دينًا.

بل الصادق كلما وجد مس الاغتراب وذاق حلاوته وتنسم روحه قال: اللهم زدني اغترابًا ووحشة من العالم وأُنسًا بك. وكلما ذاق حلاوة هذا

الاغتراب وهذا التفرد رأى الوحشةَ عينَ الأنس بالناس، والذلَّ عينَ العز بهم، والجهلَ عينَ الوقوف مع آرائهم وزُبالة أذهانهم، والانقطاعَ عينَ التقيد برسومهم وأوضاعهم، فلم يُؤْثر بنصيبه من الله أحدًا من الخلق، ولم يبع حظه من الله بموافقتهم فيما لا يجدي عليه إلا الحرمان، وغايته مودةُ بينِهم في الحياة الدنيا، فإذا انقطعت الأسباب، وحقت الحقائق، وبُعثر ما في القبور، وحُصِّل ما في الصدور، وبُلِيت السرائر، ولم يجد من دون مولاه الحق من قوة ولا ناصر، تبين له حينئذ مواقع الربح والخسران، وما الذي يخف أو يرجح به الميزان، والله المستعان، وعليه التكلان». اهـ.

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، بِأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ فِي كُلِّ عَامٍ، وَلَمْ يُعْطِ الْهَرِمَةَ وَلَا الدَّرِنَةَ وَلَا الْمَرِيضَةَ، وَلَكِنْ مِنْ أَوْسَطِ أَمْوَالِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَسْأَلْكُمْ خَيْرَهَا، وَلَمْ يَأْمُرْكُمْ بَشَرِّهَا، وَزَكَّى نَفْسَهُ». فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: «أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَعَهُ حَيْثُ كَانَ»(١).

وقال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ، وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

يا بني، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٨٢)، والطبراني في «الصغير» (٥٥٥ - الروض)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٠٠) وغيره، وصححه الألباني.

تنبيه: قال شيخ الإسلام[1]: «الناس فيما يجده أهل الإيمان ويذوقونه من حلاوة الإيمان وطعمه على ثلاث درجات:

الأولى: من علم ذلك، مثل من يخبره به شيخ له يصدقه، أو يبلغه ما أخبر به العارفون عن أنفسهم، أو يجد من آثار أحوالهم ما يدل على ذلك.

والثانية: من شاهد ذلك وعاينه، مثل أن يعاين من أحوال أهل المعرفة والصدق واليقين ما يعرف به مواجيدهم وأذواقهم، وإن كان هذا في الحقيقة لم يشاهد ما ذاقوه ووجدوه، ولكن شاهد ما دل عليه، لكن هو أبلغ من المُخبَر والمستدِل بآثارهم.

والثالثة: أن يحصل له من الذوق والوجد في نفسه ما كان سمعه، كما قال بعض الشيوخ: لقد كنت في حال أقول فيها: إن كان أهل الجنة في الجنة في مثل هذا الحال إنهم لفي عيش طيب. وقال آخر: إنه ليمر على القلب أوقات يرقص منها طربًا. وقال الآخر: لَأهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم.

والناس فيما أُخبروا به من أمر الآخرة على ثلاث درجات:

إحداها: العلم بذلك، لِـما أخبرتهم الرسل، وما قام من الأدلة على وجود ذلك.

الثانية: إذا عاينوا ما وُعِدوا به من الثواب والعقاب والجنة والنار.

والثالثة: إذا باشروا ذلك، فدخل أهل الجنة الجنة، وذاقوا ما كانوا يوعدون، ودخل أهل النار النار وذاقوا ما كانوا يوعدون.

فالناس فيما يوجد في القلوب وفيما يوجد خارج القلوب على هذه الدرجات الثلاث.

وكذلك في أمور الدنيا: فإن من أُخبر بالعشق أو النكاح ولم يره ولم يذقه كان له علم به، فإن شاهده ولم يذقه كان له معاينة له، فإن ذاقه بنفسه كان له ذوق وخبرة به.

(١) «مجموع الفتاوى» (١٠/٦٤٦-٦٤٨).

ومن لم يذق الشيء لم يعرف حقيقته، فإن العبارة إنما تفيد التمثيل والتقريب، وأما معرفة الحقيقة فلا تحصل بمجرد العبارة إلا لمن يكون قد ذاق ذلك الشيء المُعَبَّر عنه وعرفه وخَبَره».

وقال[(١)]: «ليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة».

وقال ابن القيم[(٢)]: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إذا لم تجد للعمل حلاوة في قلبك وانشراحًا فاتهمه، فإن الرب تعالى شكور.

يعني: أنه لا بد أن يثيب العامل على عمله في الدنيا، من حلاوة يجدها في قلبه، وقوة انشراحٍ، وقرة عين، فحيث لم يجد ذلك فعمله مدخول». اهـ.

وعن الحسن قال: تفقدوا الحلاوة في الصلاة، وفي القرآن، وفي الذكر، فإن وجدتموها فامضوا وأبشروا، وإن لم تجدوها فاعلموا أن الباب مغلق[(٣)].

وعن أبي العالية قال: يأتي على الناس زمان تخرب صدورهم من القرآن، ولا يجدون له حلاوة ولا لذاذة، إن قَصَّروا عما أُمروا به قالوا: إن الله غفور رحيم، وإن عملوا بما نُهوا عنه قالوا: سيُغفر لنا، إنا لم نشرك بالله شيئًا. الأثر[(٤)].

قلت: وهذه فصول من أجل فصول الكتاب وأنفعها[(٥)].

○○○○○

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٣١/٢٨).

(٢) «مدارج السالكين» (٦٨/٢).

(٣) «حلية الأولياء» (١٧١/٦ و١٤٦/١٠)، و«مدارج السالكين» (٣٩٦/٢).

(٤) «الزهد» لأحمد (رقم ١٧٤١).

(٥) أعني: من فصل «الدنيا امتحان» إلى هاهنا.

تقوى الله تعالى

وأخيرًا، يا نفس، فإني أوصيك بتقوى الله تعالى، فخافيه، وأطيعي أمره، واجتنبي نهيه، والتزمي وصيته لك وعهده إليك بالتقوى، وهي وصيته عز وجل للأولين والآخرين، رحمة ورأفة بهم، وهو سبحانه وتعالى الغني عنهم، كما قال:

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء:١٣١].

واحرصي يا نفس أن لا يأتيك الموت إلا وأنت من المتقين المسلمين لله عز وجل، فاستقيمي على ذلك مع كل نفَس وطرفة عين، قال سبحانه:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: «تَقْوَى اللهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ».

وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»(١).

واعلمي يا نفس، أن في التقوى جماع كل خير في الدنيا والآخرة، فإن الله عز وجل مع المتقين، ويحبهم، ويرحمهم، ويدفع عنهم السوء والمخاوف والأحزان، ويرد عنهم كيد الأعداء من الإنس والجان، ويجعل لهم من كل هم فرجًا، ومن كل ضيق مخرجًا، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون، ويجعل لهم فرقانًا، ويفتح عليهم بركات من السماء والأرض، ويصلح لهم أعمالهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، ويغفر لهم ذنوبهم، وييسر لهم الأمور، ويُعْظِم لهم الأجور، ويوفقهم لخيري الدنيا والآخرة، ويجعل لهم البشرى في الحياة الدنيا: من التوفيق، والهداية، والثناء الحسن، والمودة في القلوب،

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٠٤) وغيره، وحسنه الألباني.

والرؤى الصالحة، والبشرى في الآخرة: من النعيم المقيم، والفوز العظيم، وصحبة الأبرار، ومنازل الأخيار، والقرب من الرحمن، والفوز بالرضوان، وهذا كله وأكثر منه قد جاءت به الدلائل الواضحات، وصرحت به الآيات البينات.

وقد ابتدأ الله عز وجل كتابه بعد أن افتتحه بأم القرآن بأن أخبر أنه هدًى للمتقين، فقال الرحمن الرحيم سبحانه:

﴿الٓمٓ ۞ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:١-٢].

هذا، والجنة وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، قد أعدها الله تبارك وتعالى للمتقين، وسماها باسمهم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ كَذَٰلِكَ يَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلۡمُتَّقِينَ ۞ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النحل:٣٠-٣٢].

وقال سبحانه: ﴿تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

والتقوى هي الميزان الذي يوزن به العباد عند الله عز وجل، وبقدرها يَشرف العبد ويَكرم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات:١٣].

قال الطبري(١): «قوله: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾؛ يقول تعالى ذكره: إن أكرمكم أيها الناس عند ربكم أشدكم اتقاء له، بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، لا أعظمكم بيتًا ولا أكثركم عشيرة».

---

(١) «تفسيره» (١١/٣٩٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: سُئل رسول الله ﷺ: من أكرمُ الناس؟ قال: «أَتْقَاهُمْ لِلَّهِ». الحديث[١].

وعن سَمُرَةَ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«الحَسَبُ الْمَالُ، وَالْكَرَمُ التَّقْوَى»[٢].

قال شيخ الإسلام[٣]: «ليس في كتاب الله آية واحدة يَمدح فيها أحدًا بنسبه، ولا يَذم أحدًا بنسبه، وإنما يَمدح بالإيمان والتقوى، ويَذم بالكفر والفسوق والعصيان».

وقال أبو النعمان البصري للإمام أحمد: يا أبا عبد الله، بلغني أنك رجل من العرب، فمن أي العرب أنت؟ فقال لي: يا أبا النعمان، نحن قوم مساكين، وما نصنع بهذا؟![٤].

ولأبي العتاهية:

ألا إن تقوى الله أكرمُ نِسبةٍ ... تَسَامَى بها عند الفَخَار كريمُ

وله:

ألا إنما التقوى هي العز والكرمْ ... وحُبُّك للدنيا هو الذل والعَدَمْ

وليس على عبدٍ تقيٍّ نقيصةٌ ... إذا صحح التقوى وإن حاك أو حَجَمْ

فيا نفس، لتكن التقوى عدتك للموقف العظيم بين يدي الله تعالى، حيث لا ينجو هناك إلا المتقون، ولا يأمن من العذاب سواهم، فأشفقي على ذاتك يا نفس من يوم عبوس قمطرير، يومٍ يقوم الناس فيه لرب العالمين،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٨٣، وفي مواضع أُخَر).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٢٧١) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٦/٢٣٠).

(٤) انظر «طبقات الحنابلة» (١/٢٥٩).

حفاة، عراة، غرلًا، فيقررهم بأعمالهم، ويوقفهم على أفعالهم، ويحاسبهم على الصغير والكبير، والقليل والكثير، والنقير والقطمير، قد أحصاها عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولو كانت مثقال ذرة، كما قال سبحانه: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران:٣٠].

وقال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء:٤٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:١-٦].

وعن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: بلغني حديث عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ، فاشتريت بعيرًا، ثم شددتُ عليه رَحْلي، فسِرتُ إليه شهرًا، حتى قدمتُ عليه الشامَ، فإذا عبد الله بن أُنَيْسٍ، فقلت للبواب: قل له: جابر على الباب. فقال: ابن عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج يطأُ ثوبَه، فاعتنقني واعتنقته، فقلت: حديثًا بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله ﷺ في

القِصاص، فخشِيتُ أن تموت أو أموت قبل أن أسمعه.

قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ـ أو قال: الْعِبَادُ ـ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا».

قال: قلنا: وما بُهْمًا؟ قال: «لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ».

«ثُمَّ يُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعُدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ: أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ، وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ».

قال: قلنا: كيف وإنا إنما نأتي الله عز وجل عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟!

قال: «بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ»(١).

صحبة الأخيار

ويا نفس، صاحبي المؤمنين، وخاللي المتقين، وجالسي الصالحين، واستفيدي من العلماء الربانيين، ففي ذلك عون لك على الصلاح، والاهتمام بأمر الدين وأمر الآخرة، والثبات على الحق دون وحشة ولا ملل ولا كسل، وإياك وصحبة الفاسقين والفاسدين والبطالين، وإياك ومجالستهم، ففي ذلك الشر كله، وعاقبته الحسرة والندم.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا * يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

---

(١) أخرجه بهذا السياق أحمد (٤٩٥/٣)، وصححه الألباني بمجموع طرقه في «ظلال الجنة» (٢٢٦/١). وسيأتي حديث المفلس وغيره في فصل «الإعداد ليوم المعاد» (صفحة ٥٢٣).

وقال تعالى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف:٦٧].

واعلمي أن المرء على دين خليله، وخُلُقه من خُلُق قرينه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»(٢).

وعن أبي موسى رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ(٣)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»(٤).

قال النووي(٥): «فيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والورع والعلم والأدب، والنهي عن مجالسة أهل الشر وأهل البدع ومن يغتاب الناس أو يكثر فجره وبطالته، ونحو ذلك من الأنواع المذمومة».

وقال المناوي(٦): «قال الراغب: نبه بهذا الحديث على أن حق الإنسان أن يتحرى بغاية جهده مصاحبة الأخيار ومجالستهم، فهي قد تجعل الشرير خيرًا، كما أن صحبة الأشرار قد تجعل الخير شريرًا.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أي: يهبك ويعطيك.

(٤) متفق عليه.

(٥) «شرح مسلم» (١٧٨/١٦).

(٦) انظر «فيض القدير» (٥٠٧/٥).

ومن المشاهد أن الماء والهواء يفسدان بمجاورة الجيفة، فما الظن بالنفوس البشرية التي موضعها لقبول صور الأشياء خيرها وشرها؟!».

وقال المباركفوري[1]: «قال الغزالي: مجالسة الحريص ومخالطته تحرك الحرص، ومجالسة الزاهد ومخاللته تزهد في الدنيا، لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء، بل الطبع من حيث لا يدري».

وقال ابن القيم[2]: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب، ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها، ولكن فيه ثلاث آفات: إحداها: تزين بعضهم لبعض. الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة. الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة، فالاجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة، والنتيجة مستفادة من اللقاح، فمن طاب لقاحه طابت ثمرته، وهكذا الأرواح الطيبة لقاحها من الملَك، والخبيثة لقاحها من الشيطان، وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات، وعَكْسَ ذلك».

وقال الشاعر:

أنـــت في النـــاس تقـــاسُ ... بـــالذي اخـــترتَ خلـــيلا
فاصـــحب الأخيـــار تعـــلُ ... وتَنَـــلْ ذكـــرًا جمـــيلا

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٤٩/٧).

(٢) «الفوائد» (ص ٥١-٥٢).

وقال غيره:

نــافس إذا نافســت في حكمــةٍ ... آخِ إذا آخيــتَ أهـــلَ التُّـــقى

مــا خــيرُ مَــنْ لا يُــرتجى نفعُــهُ ... يومًــا ولا يُـــؤمَن منـــه الأذى

ولأبي إسحاق الغَزّي:

ما لي أرى الشـمعَ يـبكي في مواقـدهِ ... من حُرقة النار أم من فُرقة العسـلِ

فجاء الجواب معجِبًا منه أو من غيره:

من لم تجانسْـه فاحـذر أن تجالسَـهُ ... مـا ضَرَّ بالشـمع إلا صـحبةُ الفَتَـلِ

فصل

يا نفس، فإن خلت الديار ـ ولن تخلو ـ من أخي مودة وتقًى، وقَوِيَتْ من صاحب صلاحٍ وهدًى، فعليك ببطون الكتب، فطالعي فيها أخبار الصحابة والتابعين، وسِيَر الأتقياء والصالحين، والنبلاء والزاهدين، والأبطال والمجاهدين، فإنك ستجدين فيها ضالتك، وستقعين فيها على طُلبتك.

قال ابن مفلح[(١)]: «قيل لعبد الله بن المبارك: كيف لا تستوحش في مكانك وحدك؟! فقال: كيف يستوحش من هو مُجالس للنبي عليه السلام والصحابة والتابعين رضي الله عنهم؟! يعني: الكتب التي فيها الأخبار والسِّيَر، والله أعلم. ذكره المعافى بن زكريا في مجالسه». اهـ.

وعن سفيان بن عيينة قال: اسلكوا سبيل الحق ولا تستوحشوا من قلة أهله[(٢)].

وقال ابن القيم[(٣)]: «قال بعض السلف: عليك بطريق الحق، ولا تستوحش

---

(١) «الآداب الشرعية» (٣/٦٠٧).

(٢) «التمهيد» (١٧/٤٢٩)، و«الاعتصام» (١/٤٣).

(٣) «مدارج السالكين» (١/٤٦).

لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل، ولا تغتر بكثرة الهالكين». اهـ.

والزمي كتاب الله تعالى، ففيه نبأ من قبلنا من الأقوام، وأخبار وقصص الأنبياء الكرام، عليهم الصلاة والسلام، وتتبعي سيرة نبيه الكريم ﷺ، ففيها مكارم الأخلاق والدين والهدى، ومجامع الخيرات والزهد والتقى.

○○○○○

أركان الإسلام

يا نفس، وليكن أول حرصك من التقوى بعد الإيمان والتوحيد على إقامة أركان الإسلام، فاجتهدي في تعلمها وفهمها، وإقامتها وإدامتها، وتحسينها واتقانها، واجعلي أعظم اهتمامك فيها، ورغبي نفسك في أدائها، ورهبيها من التقصير فيها، وتدبري في سبيل هذا الأمر الجليل ما ورد في الكتاب والسنة من عظيم شأنها، وكبير ثوابها، وخطر تركها أو التقصير فيها، والعقوبات المتوعدة على ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ بارزًا يومًا للناس، فأتاه جبريل، فقال: ما الإيمان؟ قال: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ».

قال: ما الإسلام؟ قال: «الْإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ».

قال: ما الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». الحديث(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا». قال: صدقت. قال: فعجبنا له يسأله ويصدِّقه!

---

(١) متفق عليه.

قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ». قال: صدقت.

قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

قال: فأخبرني عن الساعة. قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ».

قال: فأخبرني عن أمَارتها. قال :«أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ».

قال: ثم انطلق، فلبثت مليًّا، ثم قال لي: «يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر، فأصبحت يومًا قريبًا منه ونحن نسير، فقلت: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار. قال:

«لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ».

ثم قال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ، وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قلت: بلى يا رسول الله. قال: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». الحديث[2].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا قبل قليل.

شأن الصلاة

واعلمي يا نفس أن الصلاة هي صلتك بالله تعالى، وموعدك وإذنك للوقوف بين يديه عز وجل، لتعظيمه ومناجاته ودعائه، وأنها خير موضوع، وأنها هي العهد الذي بيننا وبين الكفار، فمن تركها فقد كفر.

قال الله تعالى: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣١].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩].

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ»[١].

وعن بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»[٢].

وعن الحسن قال: يا بن آدم، أي شيء يَعِزّ عليك من دينك إذا هانت عليك صلاتك؟![٣].

وتقدم في الحديث قبل قليل: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ».

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَقِيمُوا، وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (رقم ٨٢) وغيره.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٢١) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) «شعب الإيمان» (٥١٤/٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٢٧٧) وغيره، وصححه الألباني.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الصَّلَاةُ خَيْرُ مَوْضُوعٍ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَسْتَكْثِرَ فَلْيَسْتَكْثِرْ»(١).

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ مر بقبر، فقال: «مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ؟» فقالوا: فلان. فقال:

«رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَى هَذَا مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ»(٢).

وعنه رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول:

«أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ؟» قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا»(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«حُبِّبَ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَـ[ـتْ] قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ»(٤).

وهذا باب واسع، وكذلك الأمر بالنسبة للصيام والصدقة والحج، فليُنظر فضلها والترغيب فيها والترهيب من تركها في كتاب الله عز وجل، وفي مظانها من كتب الحديث، خصوصًا كتب الترغيب والترهيب.

قال ابن القيم(٥): «وأما الصلاة فشأنها في تفريح القلب وتقويته وشرحه وابتهاجه ولذته أكبر شأن، وفيها من اتصال القلب والروح بالله، وقربه والتنعم بذكره، والابتهاج بمناجاته، والوقوف بين يديه، واستعمال جميع البدن وقُواه وآلاته في عبوديته، وإعطاء كل عضو حظه منها، واشتغاله عن التعلق بالخلق وملابستهم

---

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٢٤٣) وغيرُه. وهو في «صحيح الترغيب» (٢٤٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٢٠) وغيرُه، وصححه الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١٣٨٨).

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه النسائي (٦١/٧-٦٢) وغيره، وحسنه الألباني.

(٥) «زاد المعاد» (٢٠٩/٤).

ومحاورتهم، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره، وراحته من عدوه حالة الصلاة، ما صارت به من أكبر الأدوية والمفرحات والأغذية التي لا تلائم إلا القلوب الصحيحة، وأما القلوب العليلة فهي كالأبدان لا تناسبها إلا الأغذية الفاضلة.

فالصلاة من أكبر العون على تحصيل مصالح الدنيا والآخرة، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة، وهي منهاة عن الإثم، ودافعة لأدواء القلوب، ومطردة للداء عن الجسد، ومُنوِّرة للقلب، ومُبيِّضة للوجه، ومُنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق، ودافعة للظلم، وناصرة للمظلوم، وقامعة لأخلاط الشهوات، وحافظة للنعمة، ودافعة للنقمة، ومُنزلة للرحمة، وكاشفة للغُمّة».

الخشوع في الصلاة

واحرصي يا نفس على الخشوع في الصلاة، فإنه روحها وحياتها ونورها، وهو خشوعان:

خشوع الجوارح: بأداء أركان الصلاة العملية من ركوع وسجود وغيرها بالطُّمَأنينة، وإعطائها حقها ووقتها من السكون والاستواء وإقامة الصُّلْب، والإتيان بالهيئات الواردة في القيام والركوع والسجود والجلوس والتنقل بينها، وترك الحركة والعبث والالتفات وسائر ما يخل بالسكينة والطُّمَأنينة والوقار.

وخشوع القلب: بالحرص على أخذ حقه من القنوت لله والتعظيم والذل والخضوع، بحسب أعمال الصلاة من قيام وركوع وسجود وغيرها وما يناسبها من ذلك، وبحضور القلب ورقته في التلاوة والذكر، وتدبر ما يقال في الصلاة كلها.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢]. الآيات.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وُضُوئِي هَذَا، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ

مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»(١).

وعن عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عُشْرُ صَلَاتِهِ، تُسُعُهَا، ثُمُنُهَا، سُبُعُهَا، سُدُسُهَا، خُمُسُهَا، رُبُعُهَا، ثُلُثُهَا، نِصْفُهَا»(٢).

وعن أبي اليَسَرِ صاحب النبي ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال:

«مِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي الصَّلَاةَ كَامِلَةً، وَمِنْكُمْ مَنْ يُصَلِّي النِّصْفَ، وَالثُّلُثَ، وَالرُّبُعَ، وَالْخُمُسَ، حَتَّى بَلَغَ الْعُشْرَ»(٣).

ويعين على الخشوع: استشعار المصلي أنه يقف بين يدي الله تعالى، يناجيه ويدعوه ويسأله، وأنه تبارك وتعالى قبل وجهه، يواجهه في قبلته، ويسمعه ويراه ويجيبه(٤)، وأنه سيقف بين يديه في الآخرة، وسيكون أول ما يحاسبه عليه صلاته، فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله، كما ورد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٥-٤٦].

قال ابن القيم(٥): «لا يزن العبد إيمانه ومحبته لله بمثل ميزان الصلاة،

---

(١) بعض حديث، متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (٧٩٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٦١٦) وغيرُه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٥٣٨).

(٤) أعني ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ». أخرجه مسلم (٣٩٥) وغيره.

(٥) «طريق الهجرتين - طبعة بكر أبو زيد» (٦٦٧/٢).

فإنها الميزان العادل، الذي وزنه غير عائل[1]». اهـ.

ويعينه عليه: أن يظن أن هذه الصلاة قد تكون آخر صلاة يصليها، فيحرص على أدائها بكل خشوع وخضوع، مودعًا للدنيا، مقبلًا على الآخرة.

قال النبي ﷺ: «إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ». الحديث[2].

وقال ﷺ : «اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا». الحديث[3].

ويعينه عليه: تفريغ قلبه في الصلاة من كل شيء سوى ما هو بصدده، من مناجاة الله تعالى وترتيل كلامه والتعظيم له، والاستغراق في سائر أفعال الصلاة الظاهرة والباطنة.

قال ابن كثير[4]: «الخشوع في الصلاة إنما يحصل لمن فرغ قلبه لها، واشتغل بها عما عداها، وآثرها على غيرها، وحينئذ تكون راحة له وقرة عين[5]».

وقال ابن رجب: «أصل الخشوع هو: لين القلب ورقته وسكونه وخضوعه وانكساره وحرقته، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له، كما قال ﷺ: «أَلَا إِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[6].

فإذا خشع القلب خشع السمع والبصر والرأس والوجه وسائر الأعضاء وما

---

(١) أي: غير مائل.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

(٤) «تفسيره» (٥/٤٠٣ - بيضون).

(٥) فيه إشارة إلى قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وقد تقدم آنفًا.

(٦) بعض حديث، متفق عليه.

ينشأ منها، حتى الكلام، لهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: «خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي». وفي رواية: «وَمَا اسْتَقَلَّ بِهِ قَدَمِي»(١)». اهـ.

وقال ابن سعدي(٢): «رُوح الصلاة ومقصودها الأعظم حضور القلب بين يدي الله، ومناجاته بكلامه وذكره، والثناء عليه ودعائه، والتضرع إليه وطلب القربة عنده ورجاء ثوابه، وذلك بلا ريب ينير القلب، ويشرح الصدر، ويفرح النفس والروح، ويذهب الهم والغم».

ويعين عليه: أن يؤدي صلاته مع الجماعة، وفي مساجد أهل السنة والجماعة، دون مساجد أهل البدعة، ومساجد الطوائف الضالة، ودون مساجد الضرار، وما أكثرها في زماننا هذا!! فإن أداءها في جماعة مع الإمام أقطع لوسوسة الشيطان، وأحمل لسهو الإنسان، وأدعى لتدبر ما يسمع من القرآن.

قيام الليل

أيا نفس، هذا آخر ما أسطره في هذا الكتاب، وأكتبه وأنا أقدم رجلًا وأؤخر أخرى، وأتردد في مخاطبتكِ ووعظكِ به، إذ إني يائس من استجابتكِ له، وقانطٌ من استفادتكِ منه، أو لأنك عندي لستِ أهلًا له، لذا فإني أوجهه إلى أهل الهمم الرفيعة العالية، وأسوقه إلى ذوي النفوس الشريفة السامية.

أيا نفس، ألستِ قد جربت حياة أهل القيام؟ فقولي لي بالله، هل وجدت ألذ وأطيب، وأشرح للصدر، وأنور للقلب، وأسرَّ للنفس منها؟!!

---

(١) أخرجه الطحاوي (١٣٩٩) وغيره، عن علي رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا ركع قال: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمِي، لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». وصححه الألباني في «أصل صفة الصلاة» (٦٦٤/٢)، وهو في «صحيح مسلم» مطوّلًا، وعنده: «اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، خَشَعَ لَكَ سَمْعِي، وَبَصَرِي، وَمُخِّي، وَعَظْمِي، وَعَصَبِي»، دون الجملة الأخيرة.

(٢) «الرياض الناضرة» (ص ١٧)، بتصرف يسير.

ومع هذا فإن الخِذلان قد لزمك، والكسل قد استحوذ عليك، والبعد قد حالفك!

أيا نفس، إنه الحرمان، وما قد قلته لك: إنكِ لستِ أهلًا لذلك!

خـلِّ الغـرامَ لصَـبٍّ دمعـهُ دمـهُ ... حـيرانَ توجـدهُ الذكـرى وتُعدِمـهُ
عذلتَـهُ حـينَ لـمْ تنظـرْ بنـاظرهِ ... ولا علمـتَ الذي في الحـبِّ يَعلمـهُ
لوْ ذقتَ كأسَ الهوى العذري ما هجعتْ ... عينـاكَ في جُـنْحِ ليـلٍ جَـنَّ مُظلمـهُ
مـا الحـبُّ إلا لقـومٍ يعرفـونَ بـهِ ... قد مارسوا الحبَّ حتى هانَ مُعظمـهُ

أيا نفس، ابقَيْ مع هواك وشهواتك! وظَلِّي في صبواتك وهفواتك! لا تتخلَيْ عن سفاسف الحياة! وتمسكي بتوافهها! ومالك ولطلب المعالي! ومالك ولقيام الليالي!

يـا نفـس فـاز الصـالحون بالتقـى ... فأبصَـروا الرشـد وقلـبي قـد عَـمِي
يـا حُسْـنُهم والليـلُ قـد جنَّـهـم ... ونـورُهم يفـوق نـورَ الأنـجـمِ
ترنَّمـوا بـالذكر في لـيلـهـم ... فعيشـهم قـد طـاب بـالـترنُّـمِ
قلـوبهم للذكـر قـد تـفـرَّغـتْ ... دمـوعهم كلؤلـؤٍ منـتـظِـمِ
أسحارهم بهـم لهـم قـد أشـرقـتْ ... وخُلَـعُ الغفـران خـيرُ الـقِسَـمِ
ساروا وعـدتُ عـن طريـقٍ واضـحٍ ... دلَّ على الرّشـد دليـلَ الـعَـلَـمِ
دعـني أبكـي مـا حييـت أبـدًا ... فحُـقَّ لي أبكـي فـلا لا تَـلُـمِ

القيام دأب الصالحين من قبل، فأين أنتِ منهم؟! ودَيْدَنُ العارفين فلستِ والله منهم!

تنـامُ ولـم تـنم عنـك المنايـا ... تنبـهْ للمنيـة يـا نـؤومُ

تمــوت غــدًا وأنــت قريــر عــينٍ   مــن الغَفَــلات في لُجُــجٍ تعــومُ
لهــوتَ عــن الفنــاء وأنــت تفــنى   ومــا حَيٌّ على الدنيــا يــدومُ

القيام قرة عيون المحبين، ونعيم أرواح المشتاقين، فوا حسرتاه على الجفاء والبعد! ووا أسفا على التفريط في منازل القرب.

لو تصدقُ الحبَّ رُوحي لذاب مني الفؤادْ   من ذا سواك حبيبي أنت الحبيب المرادْ

قال الله تعالى في ضمن عَدِّ صفات عباده (عباد الرحمن): ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴾ [الفرقان:٦٤].

ثم قال في جزائهم وثوابهم: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا * خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ [الفرقان:٧٥-٧٦].

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا، وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا». فقام إليه أعرابي فقال: لمن هي يا رسول الله؟ قال:

«هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى لِلَّهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»(١).

وتقدم حديث: «فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلَأُ الْأَعْلَى؟»(٢)، وأنه في الكفارات، وذكر ﷺ منها: «إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الْكَلَامِ، وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ».

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات:١٥-١٩].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٩٨٤ و٢٥٢٧) وغيره، وحسنه الألباني.
(٢) (صفحة ٤١٨ - ٤١٩).

وقال تعالى: ﴿ أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [الزمر:٩].

وقال: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧].

قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾؛ أي: ترتفع وتتنحى وتبتعد عن الفراش للعبادة.

قال ابن كثير: «﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾؛ يعني بذلك: قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ ﴾؛ يعني بذلك: قيام الليل.

وعن أنس وعكرمة ومحمد بن المنكدر وأبي حازم وقتادة: هو الصلاة بين العشاءين.

وعن أنس أيضًا: هو انتظار صلاة العتمة. رواه ابن جرير بإسناد جيد.

وقال الضحاك: هو صلاة العشاء في جماعة، وصلاة الغداة في جماعة.

﴿ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا ﴾، أي: خوفًا من وبال عقابه، وطمعًا في جزيل ثوابه، ﴿ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾، فيجمعون بين فعل القربات اللازمة والمتعدية، ومُقَدَّمُ هؤلاء وسيدهم وفخرهم في الدنيا والآخرة رسول الله ﷺ، كما قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

وفينا رسول الله يتلو كتابهُ ... إذا انشقَّ معروفٌ من الصبح ساطعُ
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقناتٌ أنّ ما قال واقعُ
يبيتُ يجافي جنبَه عن فراشهِ ... إذا استثقلتْ بالمشركين المضاجعُ

وقوله: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾؛ أي:

فلا يعلم أحد عظمة ما أخفى الله لهم في الجنات من النعيم المقيم، واللذات التي لم يطلع على مثلها أحد، لما أخفَوا أعمالهم أخفى الله لهم من الثواب، جزاءً وفاقًا، فإن الجزاء من جنس العمل.

قال الحسن البصري: أخفى قومٌ عملَهم فأخفى اللهُ لهم ما لم تر عين، ولم يخطر على قلب بشر. رواه ابن أبي حاتم». اهـ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا، بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ». ثم قرأ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾[1].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه المتقدم آنفًا:

«أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟». وفيه: «وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ». قال: ثم تلا: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾، حتى بلغ: ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة:١٦-١٧]»[2].

وفي «التبصرة» لابن الجوزي[3]: «لو رأيتهم بين ساجد وراكع، وذليل مخمول متواضع، ومنكسر الطرف من الخوف خاشع، فإذا جن الليل حن الجازع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

نفوسهم بالمحبة عَلِقَتْ، وقلوبهم بالأشواق فَلَقَتْ، وأبدانهم [للعبادة] خلقت، يقومون إذا انطبقت أجفان الهاجع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

يبادرون بالعمل الأجل، ويجتهدون في سد الخلل، ويعتذرون من ماضي

(١) متفق عليه. وقد تقدم (صفحة ١٣٦). ومعنى (بَلْهَ مَا أَطْلَعَكُمُ اللهُ عَلَيْهِ)؛ أي: دع عنك ما أطلعكم الله عليه، فالذي لم يطلعكم عليه أعظم.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وغيره، وصححه الألباني. وقد تقدم تامًّا قبل قليل.

(٣) انظر (٢/٣٠٠-٣٠١).

الزلل، والدمع لهم شافع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

سبق والله القوم، بكثرة الصلاة والصوم، فإذا أقبل الليل حاربوا النوم، والعزم في الطوالع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

ينادي منادي تائبهم: لا أعود، والمنعم ينعم بالقبول ويجود، هم والله من الكون المقصود، فما حيلة المطرود، والمعطي مانع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

كن يا هذا رفيقهم، ولِجْ وإن شق مضيقهم، واسلك ولو يومًا طريقهم، فالطريق واسع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

اهجر بالنهار طيب الطعام، ودع في الدجى لذيذ المنام، وقل لأغراض النفس: سلام، ﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ﴾ [يونس:٢٥]، فما يُقْعِدُ السامع؟! ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾.

يا من يرجو مقام الصالحين، وهو مقيم مع الغافلين، ويأمل منازل المقربين، وهو ينزل مع المذنبين، دع هذا الواقع، [﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾].

الصدقَ الصدقَ فيه تسلم، الجِدَّ الجِدَّ فيه تغنم، البِدار البِدار قبل أن تندم، هذا هو الدواء النافع، ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾». اهـ.

وقال الله سبحانه لنبيه ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا * نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا * إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا * وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا * رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ [المزمل:١-٩].

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾، قال ابن كثير: «ناشئة الليل هي: ساعاته وأوقاته، وكل ساعة منه تسمى ناشئة، وهي الآنات، والمقصود أن قيام

الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال: ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾؛ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار، لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء:٧٩].

وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ [الإنسان:٢٦].

وعن حُمَيْدِ بن عبد الرحمن رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«أَفْضَلُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَأَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ الْمُحَرَّمُ»(١).

وعن عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟! وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟!»(٣).

وعن عائشة رضي الله عنها، أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لم تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال:

---

(١) أخرجه النسائي (١٦١٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٣٥٧٩) وغيره، وصححه الألباني. وأصله في «صحيح مسلم».

(٣) متفق عليه.

«أَفَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا». الحديث[1].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ، فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ، وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ، وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ، وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ»[2].

قال المناوي[3]: «(فإنه دأب الصالحين)؛ أي: عادتهم وشأنهم، من دَأَبَ في العمل إذا جَدَّ، فحوَّلوه إلى العادة والشأن. (قبلكم)؛ أي: هي عادة قديمة واظب عليها الكُمَّل السابقون، واجتهدوا في إحراز فضلها».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال:

«يَا مُحَمَّدُ، عِشْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَيِّتٌ، وَاعْمَلْ مَا شِئْتَ فَإِنَّكَ مَجْزِيٌّ بِهِ، وَأَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ، وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزَّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ»[4].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«عَجِبَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ مِنْ رَجُلَيْنِ: رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ، مِنْ بَيْنِ أَهْلِهِ وَحِبِّهِ إِلَى صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: أَيَا مَلَائِكَتِي، انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ، وَمِنْ بَيْنِ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلَاتِهِ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي.

وَرَجُلٍ غَزَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ فِي الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي،

---

(١) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري، وقد تقدم بلفظ مسلم (صفحة ٣٥٠).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٤٩) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) «فيض القدير» (٣٥١/٤).

(٤) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في «الأوسط» (٤٢٧٨) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٨٣١).

فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلَائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي، حَتَّى أُهَرِيقَ دَمُهُ»(١).

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ، وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ:

الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ.

وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ، وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي، وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ.

وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ، وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ، فَسَهِرُوا وَنَصِبُوا ثُمَّ هَجَعُوا، فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ ضَرَّاءٍ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّى، وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَإِنْ أَبَتْ نَضَحَ فِي وَجْهِهَا الْمَاءَ، رَحِمَ اللَّهُ امْرَأَةً قَامَتْ مِنَ اللَّيْلِ فَصَلَّتْ، وَأَيْقَظَتْ زَوْجَهَا، فَإِنْ أَبَى نَضَحَتْ فِي وَجْهِهِ الْمَاءَ»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«مَنِ اسْتَيْقَظَ مِنَ اللَّيْلِ وَأَيْقَظَ امْرَأَتَهُ، فَصَلَّيَا رَكْعَتَيْنِ جَمِيعًا، كُتِبَا مِنَ الذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ:

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أحمد (٣٩٤٩) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٦٣٠).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٣). وهو في «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٤٧٨).

(٣) أخرجه أبو داود (١٣٠٨) وغيره. وقال الألباني: «حسن صحيح».

(٤) أخرجه أبو داود (١٣٠٩ و١٤٥١) وغيره، وصححه الألباني.

«يَا عَبْدَ اللَّهِ، لَا تَكُنْ مِثْلَ فُلَانٍ، كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لا تدع قيام الليل، فإن رسول الله ﷺ كان لا يَدَعُهُ، وكان إذا مَرِضَ أو كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ خَافَ أَنْ لَا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ»[3].

قلت: والناظر في تراجم السلف يرى أن أشهر أوصافهم: كان صوّامًا قوّامًا. ويرى أن أعلى مراتبهم وأوسمتهم (نياشينهم): شهد بدرًا، أو شهد أُحدًا، أو شهد بدرًا وأُحدًا، أو شهد المشاهد كلها!

وقال ابن عمر رضي الله عنهما حين حضرته الوفاة: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ظمأ الهواجر، ومكابدة الليل[4].

قلت: وهو صاحب تلك الرؤيا التي كانت سببًا في محافظته على القيام، فعن سالمٍ، عنه رضي الله عنه قال: كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا أقصها على النبي ﷺ.

قال: وكنت غلامًا شابًّا عَزَبًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطَيِّ البئر، وإذا لها قرنان كقَرْنَيِ البئر، وإذا فيها ناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار، أعوذ بالله من النار.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٠٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه مسلم (٧٥٥) وغيره.

(٤) «مختصر قيام الليل للمَرْوَزِي» (ص٦٢).

قال: فلقيهما ملك، فقال لي: لم تُرَعْ. فقصصتُها على حفصة، فقصتْها حفصة على رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ:

«نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ». قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلًا[1].

قال الحافظ: «قال القرطبي: إنما فسَّر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو ممدوح، لأنه عُرِضَ على النار ثم عُوفِيَ منها، وقيل له: لا روع عليك. وذلك لصلاحه، غير أنه لم يكن يقوم من الليل، فحصل لعبد الله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما يتقي به النار والدنو منها، فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك. وأشار المهلب إلى أن السر في ذلك: كون عبد الله كان ينام في المسجد، ومن حق المسجد أن يُتعبد فيه، فنُبِّه على ذلك بالتخويف بالنار». اهـ

وقال الحسن: ما نعلم عملًا أشد من مكابدة الليل، ونفقة هذا المال[2].

وفي «لطائف المعارف»[3]: «أين رجال الليل؟! أين الحسن وسفيان وفضيل؟!

يــا رجــال الليــل جِــدُّوا	ربَّ داعٍ لا يــــــــــــردُّ
مــــا يقـــومُ الليـــل إلا	مَــــنْ له عــــزمٌ وجِــــدُّ
لــيس شيءٌ كصــلاة الـــ	ـــــليلِ للقــــبر يُعَـــدُّ

ما عند المحبين ألذ من أوقات الخلوة بمناجاة محبوبهم، هو شفاء قلوبهم، ونهاية مطلوبهم.

كان داود الطائي يقول في الليل: همك عطل علي الهموم، وحالف بيني وبين

(١) متفق عليه.

(٢) «الإحياء» (٣٥٥/١).

(٣) (ص ٤٣-٤٧).

السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني اللذات، وحال بيني وبين الشهوات.

وكان أبو سليمان يقول: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا.

يـا نفـس قـومي فقـد نـام الـورى   إن تصنعي الخيرَ فذو العـرش يَـرى
وأنت يـا عـينُ دعي عنـك الكَـرى   عند الصباح يَحْمَد القـومُ السُّـرى

كانت امرأة حبيب توقظه بالليل وتقول: ذهب الليل، وبين أيدينا طريق بعيد، وزادنا قليل، وقوافل الصالحين قد سارت قدامنا، ونحن قد بقِينا.

يـا راقـد الليـل كـم ترقـدُ   قـم يـا حبيـبي قـد دنـا الموعـدُ
وخـذ مـن الليـل وأوقاتـهِ   وِردًا إذا مـا هَجَـعَ الرُّقَـدُ
مـن نـام حـتى ينقضـي ليلـهُ   لـم يبلـغ المـنزلَ أو يَجْهَـدُ
قـل لأولي الألبـاب أهـل التـقى   قنطـرةُ العـرض لكـم موعـدُ

يا قُوَّام الليل، اشفعوا في النُّوّام! يا أحياء القلوب، ترحموا على الأموات!

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: ما نستطيع قيام الليل؟! قال: أقعدتكم ذنوبكم.

وقيل للحسن: قد أعجزنا قيام الليل؟! قال: قيدتكم خطاياكم.

وقال الفضيل بن عياض: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم، كبَّلتك خطيئتك.

قال الحسن: إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به قيام الليل».

وفيها[١]: أنشد ذو النون المصري:

---

(١) (ص ١٧٣).

منــع القـــرآنُ بوعـــده ووعيـــدهِ مُقَـلَ العيـون بليلهـا لا تهجـعُ

فهموا عـن المَلِـك العظـيمِ كلامَـهُ فَهْمًـا تَــذِلُّ له الرقـابُ وتخضـعُ

وقيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوهًا؟! قال: لأنهم خلَوْا بالرحمن فألبسهم من نوره نورًا[١].

وقال شريك: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار[٢].

قلت: وكان شيخنا أبو محمد عبد الله عزام كثيرًا ما يحث على قيام الليل، ويقول: قم الليل، وإذا أصبحت انظر إلى وجهك في المرآه، وشاهد النور! أو كلمة نحوها.

وقد صحبتُه في السفر والحضر، فلم يكن يفوته القيام قط.

فأين أنتِ يا نفس من القوم؟! كم بين اليقظة والنوم؟!

والمـوتُ يعمـل والعيـون قريـرةٌ تلهـو وتلعـب بـالمنى وتنـامُ

وقال ابن القيم[٣]: «قيام الليل من أنفع أسباب حفظ الصحة، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب».

ولابن المبارك:

إذا مـا الليـلُ أظلـم كابـدوهُ فيُسْـفِر عـنهم وهـم ركـوعُ

أطـار الخـوف نـومهم فقـاموا وأهـلُ الأمـن في الدنيـا هجـوعُ

لهـم تحـت الظـلام وهـم سـجودٌ أنـينٌ منـه تنفـرج الضـلوعُ

وخُـرْسٌ بالنهـار لطـولِ صـمتٍ علـيهم مـن سـكينتهم خشـوعُ

---

(١) «مختصر قيام الليل للمَرْوَزِي» (ص ٥٨).

(٢) «كتاب المجروحين» لابن حبان (٢٠٧/١).

(٣) «زاد المعاد» (٢٧٧/٤).

ولأبي سهل الصعلوكي:

أنــام على ســهو وتــبكي الحمــائمُ ... ولــيس لهــا جُــرْمٌ ومــني الجــرائمُ
كذبتُ لعمـرُ الله لـو كنـتُ عاقـلًا ... لَمَــا ســبقتني بــالبكاء الحمــائمُ

ولابن القيم:

يحيــون ليلهــم بطاعــة ربهــم ... بــتلاوة وتضــرع وســؤالِ
وعيــونهم تجـري بفـيض دمـوعهم ... مثــلَ انهمــال الوابــل الهطــالِ
في الليــل رهبــان وعنــد جهــادهم ... لعــدوهم مــن أشــجع الأبطــالِ
وإذا بــدا عَلَــمُ الرهــان رأيــتهم ... يتســابقون بصــالح الأعمــالِ

ولغيره:

أألهتــك اللذائــذ والأمــاني ... عــن البـيض الأوانـس في الجنـانِ
تعــيش مخــلَّدًا لا مــوتَ فيهــا ... وتلهــو في الجنــان مــع الحِســانِ
تنبــه مــن منامــك إنَّ خــيرًا ... مــن النــوم التهجــدُ بــالقرآنِ

ولغيره:

قــم الليــل يــا هــذا لعلــك تَرشــدُ ... إلى كم تنـام الليـل والعمـر ينفـدُ
أراك بطــول الليــل ويحــك نائمًــا ... وغــيرك في محرابــه يتهجــدُ
ولــو علــم البَطّــال مــا نــال زاهــدٌ ... من الأجر والإحسان مـا كان يرقـدُ
فصــام وقــام الليــل والنــاس نُــوَّمٌ ... ويخلــو بــربٍ واحــدٍ متفــردُ
بحــزمٍ وعــزمٍ واجتهــادٍ ورغبــةٍ ... ويَعلــم أن الله ذا العــرش يُعبــدُ
أترقــد يــا مغــرور والنــار توقــدُ ... فلا حَرُّهـا يُطفـأ ولا الجمـرُ يُخمـدُ
فكــم بــين مشــغولٍ بطاعــة ربــهِ ... وآخــرَ بالذنــب الثقيــل مقيــدُ

ولمحمد إقبال:

نـــائحٌ والليــلُ ســـاجٍ ســـادل		يهجــع النـــاس و دمـــعي هاطـــل
تصـــــطلي روحي بحـــــزنٍ وأَلَـــم		وِرْدُ يــا قيــومُ أنســـي في الظُّلَـــم

ولياسين خليل:

إذا ســجى الليــلُ قــاموه وأعيــنهم		من خشية الله مثل الجائد[1] الهَطِلِ
هــم الرجــالُ فــلا يُلهــيهمُ لَعِــبٌ		عـن الصـلاةِ ولا أُكْذُوبَـةُ الكَسَـلِ

ولوليد الأعظمي:

يــا ليــلُ قيامــك مدرســةٌ		فيهـــا القـــرآن يُدَرِّســـني
معــنى الإخـــلاص فأَلزمـــهُ		نهجًـــا في الجنـــة يُجلســـني
ويبصِّـــــرني كيـــف الدنيـــا		بالأمـــل الـــكاذب تُغْمِســـني
مثـــلُ الحربـــاءِ تَلوُّنُهـــا		بـــالإثم تحـــاول تُطْمِســـني
فأباعــــدها و أعانـــــدها		وأراقبهـــــا تتهجســـــني
فأَشُـــدُّ القلـــبَ بخالقـــهِ		والذكـــرُ الدائـــمُ يَحرســـني

فصل

وفي «المدهش»[2]: «أيها المقصر عن طلب الزاد، كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟! أين أهل السهر من أهل الرقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رحل المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كلّ جوادٍ لهم يعرف الجواد، فساروا فزاروا والكسلان عاد».

وفيه[3]: «يا هذا، كيف تطيق السهر مع الشِّبَع؟! كيف تزاحم أهل العزائم

(١) أي: المطر الغزير، جاد المطر جَوْدًا: وَبَلَ، فهو جائد. والهَطِل من المطر والدمع: المتتابع.

(٢) (ص ٤٣٠).

(٣) (ص ٤٣٣).

بمناكب الكسل؟!».

وفيه[1]: يا نائمًا طول الليل، أما تحسّ بَرْدَ السَّحَر؟! لقد نَمَّ النسيمُ على الزهر، ودلت أغاريد الحَمام على دنو الفجر، صاح الديك فلم تنتبه، وأعاد فلم تُفِقْ، فقَوِيَ ضربُ الجناحين لَطْمًا على غفلتك.

صَفَّقَ إما ارتياحه لسنا الفجر ... وإما على الدجى أسفًا

يا مَطُولًا بالقيام ... مستلذًّا بالمنام

قم فقد فاتك يا ... مغبون أرباح الكرام

وخَلَوْا دونك بالمو ... لى وفازوا بالمرام

وكذا يسبقك القو ... م إلى دار السلام

وفيه[2]: «الجِدَّ الجِدَّ فما تحتمل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم فجعجِعوا بالإبل.

كانت عابدة لا تنام من الليل إلا يسيرًا، فعوتبت في ذلك، فقالت: كفى بطول الرقدة في القبور رقادًا.

تزوج رباح القيسي[3] امرأة فرأته نائمًا طول الليل، فقالت: ليت شعري! مَنْ غَرّني بك يا رباح؟!

هذه طريقهم، فأين السالك؟ هذه صفاتهم، فأين الطالب؟!».

وفي «اللطف في الوعظ»[4]: «سفر الليل لا يطيقه إلا مُضمّر المجاعة، تجتمع

---

(١) (ص ١٩٣).

(٢) (ص ٤٢٩).

(٣) قال النووي: «هو بكسر الراء وبالمثناة، وهو زياد بن رياح القيسي. وقاله البخاري بالمثناة وبالموحدة، وقاله الجماهير بالمثناة لا غير». انظر «شرح مسلم».

(٤) (ص ١٣).

جنود الكسل فتتشبث بذيل التواني، فتُزَيِّن حُبَّ النوم، وتزخرف طيب الفِراش، وتُخَوِّف بردَ الماء، فإذا ثارت شعلة من نار الحزم أضاءت بها طريق القصر، فسمعتْ أُذُنُ اليقينِ هاتفَ: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟»[(١)].

وفيه[(٢)]: «فقرك من الخير مَشُوب بالكسل، ومتى كان الفقيرُ كسلانَ فلا وجه للغنى.

لو كانت لك أنفة من التواني لخرجتَ من رَبْقة الذل.

بِعْتَ قيام الليل بفضل لقمة، شربت كأس النعاس ففاتتك الرفقة، امتلأت طعامًا فإذا غريم الفراش يتقاضاك بدَيْن النوم، فضُرِبَ على أُذُنك لا في موافقة أهل الكهف.

تناولتَ خمر الرقاد، فوقع بك صاحبُ الشرطة، فعمل في حقك بمقتضى: «نَمْ وقُمْ»، فجعل حدَّك الحَبْسَ عن قيام الليل، فخرج على توقيع قصتك وقت الفجر: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ [التوبة:٨٧ و٩٣].

والله لو بِعْتَ لحظة من خلوةٍ [بالله][(٣)] بتعمير نوحٍ في ملك قارون لغُبِنْتَ».

وفيه[(٤)]: «يا مخذولَ التواني، يا مخدوعَ الأماني، غَرِقَ مركبُ عُمُرِك في بحر الكسل.

ويحك! من لازم المنام لم يَرَ إلا الأحلام.

---

(١) يشير إلى ما في «الصحيحين»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ يُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ». هذا اللفظ لمسلم.

(٢) (ص ٣١).

(٣) يعني: في قيام الليل خاليًا.

(٤) (ص ٧٦).

متى تَفتح عينَ عزمك؟! فيا طولَ هذا الكَرى[1]! أما تستنشق ريحَ السَّحَر؟! أما تجد بردَ هواء الفجر؟! أما تعاين ضوءَ الشمس؟! أما يؤلمك عتابُ الدهر؟!».

وفي «صبا نجد»[2]: «انتظِر المجتهدين على باب الفجر إذا قدِموا من سفر السهر، وصِحْ بقلبك الغافل وعزمك المتكاسل:

عارِضا بي ركبَ الحجاز أُسائلُهُ   متى عهدُه بأيام سَلْعِ[3]

قل لهم: طوبى لكم يا مقبولين، هنيئًا لكم يا واصلين».

وفي «لطائف المعارف»[4]:

مَنْ يُرِدْ مُلْكَ الجنانِ   فليَدَعْ عنه التواني
ولْيَقُمْ في ظلمة اللَّيـ   ـلِ إلى نور القرآنِ
وليَصِلْ صومًا بصومٍ   إنّ هذا العيشَ فاني
إنما العيش جوار اللَّـ   ـهِ في دار الأمانِ

وفي «مجمع البحرين»[5]:

قم في الدُّجى يا أيها المتعبدُ   حتى متى فوق الأَسرة ترقدُ
قم وادع مولاك الذي خلق الدُّجى   والصبحَ وامض فقد دعاك المسجدُ
واندم على ما فات واندب ما مضى   بالأمس واذكر ما يجيء به الغدُ
أسفًا على عمري الذي ضيعتُه   تحت الذنوب وأنت فوقي تَرصدُ

---

(١) الكرى: النوم.

(٢) (ص ٨٨).

(٣) موضع بقرب المدينة.

(٤) (ص ٢٩٨-٢٩٩).

(٥) (ص ٤٢٢ - المقامة القدسية)، لناصيف اليازجي، وهو نصراني الديانة!

الصيام

وصيام النهار ـ يا نفس ـ أخو قيام الليل، وهما أشهر العبادات، وهما شعار الصالحين، وطريق العابدين، وقرة عيون المتقين، فيهما تنافس المتنافسون، وتسابق المتسابقون، واجتهد العاملون.

وقد قُرِنا معًا في أحاديث كثيرة، منها: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: رَبِّ إِنِّي مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ وَالشَّهَوَاتِ بِالنَّهَارِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ. فَيُشَفَّعَانِ»[(١)].

ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ، وَرُبَّ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ»[(٢)].

ومنها: عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ، وَأَمِنَ الْفَتَّانَ»[(٣)].

وهذا باب واسع، والأحاديث فيه لا تكاد تحصى، وتقدم بعضها في فصل (لا عمل يعدل الجهاد)[(٤)]، وتقدم قبل قليل حديث الغرف التي ترى ظهورُها من بطونها وبطونُها من ظهورها.

وفي فضل الصيام قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/٥٥٤) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٩٨٤ و١٤٢٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٦٩٠) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (١٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (١٩١٣) وغيره.

(٤) (صفحة ٢٤١).

﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعمِائَة ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فِيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»[١].

قال ابن سعدي[٢]: «واستثنى في هذا الحديث الصيام، وأضافه إليه، وأنه الذي يجزي به بمحض فضله وكرمه، من غير مقابلة للعمل بالتضعيف المذكور الذي تشترك فيه الأعمال، وهذا شيء لا يمكن التعبير عنه، بل يجازيهم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وفي الحديث كالتنبيه على حكمة هذا التخصيص، وأن الصائم لما ترك محبوبات النفس التي طبعت على محبتها، وتقديمها على غيرها، وأنها من الأمور الضرورية، فقدم الصائم عليها محبة ربه، فتركها لله في حالة لا يطلع عليها إلا الله، وصارت محبته لله مقدمة وقاهرة لكل محبة نفسية، وطلب رضاه وثوابه مقدمًا على تحصيل الأغراض النفسية، فلهذا اختصه الله لنفسه، وجعل ثواب الصائم عنده، فما ظنك بأجرٍ وجزاءٍ تكفل به الرحمن الرحيم الكريم المنان، الذي عمت مواهبه جميع الموجودات، وخَصّ أولياءه منها بالحظ الأوفر،

---

(١) متفق عليه، وهذا أحد ألفاظ مسلم.

(٢) «بهجة قلوب الأبرار» (ص ٩٤).

والنصيب الأكمل، وقدر لهم من الأسباب والألطاف التي ينالون بها ما عنده على أمور لا تخطر بالبال ولا تدور في الخيال؟! فما ظنك أن يفعل الله بهؤلاء الصائمين المخلصين؟!

وهنا يقف القلم، ويسيح قلب الصائم فرحًا وطربًا بعمل اختصه الله لنفسه، وجعل جزاءه من فضله المحض، وإحسانه الصِّرف، و﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١، والجمعة:٤]». اهـ.

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهَا، وَيَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، وَإِنَّهُ كَادَ أَنْ يُبْطِئَ بِهَا، فَقَالَ عِيسَى: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ لِتَعْمَلَ بِهَا، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهَا، فَإِمَّا أَنْ تَأْمُرَهُمْ، وَإِمَّا أَنَا آمُرُهُمْ. فَقَالَ يَحْيَى: أَخْشَى إِنْ سَبَقْتَنِي بِهَا أَنْ يُخْسَفَ بِي أَوْ أُعَذَّبَ، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَامْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرَفِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَكُمْ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِنَّ». الحديث[1]. وفيه:

«وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةٌ فِيهَا مِسْكٌ، فَكُلُّهُمْ يَعْجَبُ أَوْ يُعْجِبُهُ رِيحُهَا، وَإِنَّ رِيحَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ».

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ فِي الْجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟ فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ»[2].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣ و٢٨٦٤) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) متفق عليه.

وعن عثمان بن أبي العاص الثقفي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«الصِّيَامُ جُنَّةٌ[١] مِنَ النَّارِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْقِتَالِ»[٢].

وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ:

«يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ[٣]»[٤].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللهِ إِلَّا بَاعَدَ اللهُ بِذَلِكَ الْيَوْمِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا»[٥].

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مَنْ صَامَ يَوْمًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَعَلَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ»[٦].

قلت: ولقد كان شيخنا عبد الله عزام كثير الصيام، حتى إنه ليصوم النافلة في شدة الحر، وفي البلاد الحارة جدًّا، ويصوم يومًا ويفطر يومًا، هذا الغالب عليه.

إي والله، لقد كان صوّامًا قوّامًا، واشتُهر بذلك شهرته بالجهاد، فكان تلامذته يتعلمون من أفعاله أكثر مما يتعلمون من أقواله! فلله دره!

---

(١) أي: وقاية وستر.

(٢) أخرجه النسائي (١٦٧/٤)، وابن ماجه (١٦٣٩)، واللفظ له، وغيرهما، وصححه الألباني.

(٣) أي: قاطع للشهوة.

(٤) متفق عليه.

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه الترمذي (١٦٢٤) وغيره، وحسنه الألباني.

الأسى على الصيام والقيام

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال حين حضرته الوفاة: ما آسى على شيء من الدنيا إلا على ظمأ الهواجر[1]، ومكابدة الليل، وأني لم أقاتل هذه الفئة الباغية التي نزلت بنا[2].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، أنه لما حضره الموت قال: انظروا أصبحنا؟ قال: فقيل: لم نصبح. حتى أُتِي فقيل له: قد أصبحت. قال: أعوذ بالله من ليلة صباحها إلى النار، مرحبًا بالموت، مرحبًا، زائر مُغِبٌّ، حبيب جاء على فاقة، اللهم إنك تعلم أني كنت أخافك، فأنا اليوم أرجوك، إني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لكَرْي الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن لظمأ الهواجر، ومكابدة الساعات، ومزاحمة العلماء بالرُّكَب عند حِلَق الذكر[3].

وعن قتادة، أن عامر بن عبد الله لما حُضِر جعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: ما أبكي جزعًا من الموت، ولا حرصًا على الدنيا، ولكن أبكي على ظمأ الهواجر، وقيام ليالي الشتاء[4].

وعن عبيد الله بن محمد التيمي: حدثني بعض أشياخنا، أن رجلًا من عِلْيَةِ هذه الأمة حضرته الوفاة، فجزع جزعًا شديدًا، وبكى بكاء كثيرًا، فقيل له في ذلك، فقال: ما أبكي إلا على أن يصوم الصائمون لله ولست فيهم، ويصلي المصلون ولست فيهم، ويذكره الذاكرون ولست فيهم، فذاك الذي أبكاني[5].

---

(١) الهجير والهاجرة: اشتداد الحر منتصف النهار، وإنما يعني بظمأ الهواجر: صيام أيام الحر.

(٢) «مختصر قيام الليل للمَرْوَزِي» (ص ٦٢).

(٣) انظر «كتاب المحتضرين» (ص ١١٠)، و«الحلية» (٥/١٠٣).

(٤) «كتاب المحتضرين» (ص ١٤٠).

(٥) «شعب الإيمان» (٥/٤٢٠).

وعن مهدي بن ميمون قال: رأيت حسان بن أبي سنان ـ أحسبه في مرضه ـ قيل له: كيف تجدك؟ قال: بخير إن نجوت من النار. قيل: فما تشتهي؟ قال: ليلة بعيدة ما بين الطرفين، أُحْيي ما بين طرفيها[1].

وعن أبي بكر النيسابوري قال: حضرتُ إبراهيمَ بن هانئ عند وفاته، فجعل يقول لابنه إسحق: يا إسحق، ارفع الستر. قال: يا أبه، الستر مرفوع. قال: أنا عطشان. فجاءه بماء. قال: غابت الشمس؟ قال: لا. قال: فرده، ثم قال: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات:٦١]. ثم خرجت روحه[2].

قلت: أولئك قوم ذاقوا طعم الإيمان، ووجدوا حلاوته، وأدهشتهم لذته، فحزنوا لفراقها، وبكَوْا لفواتها، وقد زهِدوا جنبها في شهوات الدنيا، واستغنَوا بها عن ملذاتها، فتركوا فضولها، وما لا يعنيهم منها، فضلًا عن حرامها، فهنيئًا لهم جنة الدنيا، والتنعم بعبادة الله فيها، وهنيئًا لهم جنة الآخرة، وهنيئًا لهم لقاء مَنْ تركوا رغبات أنفسهم من أجله، وقاموا وصاموا إرضاء له وفي سبيله، هنيئًا لهم دار الخلد ولذاتها الباقية: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:١٩-٢٤].

ooooo

(١) «كتاب المحتضرين» (ص ١٤٤).

(٢) «تاريخ بغداد» (٦/٢٠٦).

السؤال يوم القيامة

قال الله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾ [الصافات:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الحجر:٩٢-٩٣].

وقال تعالى: ﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ * وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف:٦-٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل:٩٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف:٤٤].

وقال تبارك وتعالى: ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَـٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾ [المطففين:٤-٦].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«لَا تَزُولُ قَدَمُ ابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ خَمْسٍ: عَنْ عُمُرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَمَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَمَاذَا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ»(١).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت، فماذا عملت فيما علمت؟!(٢).

وقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤١٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «جامع بيان العلم» (٦٨٠/١).

وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ اللَّهُ لَهُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، وَسَخَّرْتُ لَكَ الْأَنْعَامَ وَالْحَرْثَ، وَتَرَكْتُكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَكُنْتَ تَظُنُّ أَنَّكَ مُلَاقِي يَوْمَكَ هَذَا؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ لَهُ: الْيَوْمَ أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي»[1].

قوله تعالى: (تركتك ترأس وتربع)، قال النووي: «أي: تأخذ المِرباع الذي كانت ملوك الجاهلية تأخذه من الغنيمة، وهو ربعها، يقال: رَبَعْتُهم؛ أي: أخذت رُبع أموالهم، ومعناه: ألم أجعلْك رئيسًا مطاعًا».

قال: «وقال القاضي بعد حكايته نحو ما ذكرته: عندي أن معناه تركتك مستريحًا لا تحتاج إلى مشقة وتعب، من قولهم: اربع على نفسك؛ أي: ارفق بها». اهـ.

ومعنى قوله تعالى: (اليوم أنساك)؛ قال الترمذي: «يقول: اليوم أتركك في العذاب». اهـ.

قلت: نعم، هو النسيان بمعنى الترك، فكما أَهمل أمرَ ربه سبحانه في الدنيا وتركه ولم يَقُم به خذله ربُّه في الآخرة ولم يُقِم له وزنًا، فتركه في العذاب، جزاء وفاقًا.

وعن عَدِيّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد. الحديث. وفيه:

«وَلَوْ صَاعٌ، وَلَوْ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَلَوْ قَبْضَةٌ، وَلَوْ بِبَعْضِ قَبْضَةٍ، يَقِي أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ (أَوِ: النَّارِ)، وَلَوْ بِتَمْرَةٍ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَاقِي اللَّهَ وَقَائِلٌ لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٨) وغيره، وصححه الألباني.

وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ، فَإِنِّي لَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الْفَاقَةَ(١)، فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُكُمْ وَمُعْطِيكُمْ، حَتَّى تَسِيرَ الظَّعِينَةُ(٢) فِيمَا بَيْنَ يَثْرِبَ وَالْحِيرَةِ أَوْ أَكْثَرَ مَا يُخَافُ عَلَى مَطِيَّتِهَا السَّرَقُ»(٣).

وعن صفوان بن مُحْرِزٍ المازني قال: بينما أنا أمشي مع ابن عمر رضي الله عنهما آخِذٌ بيده إذ عَرَضَ رَجُلٌ فقال: كيف سمعت رسولَ الله ﷺ يقول في النجوى؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ.

وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الْأَشْهَادُ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»(٤).

(وفي رواية): «وَأَمَّا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ».

وعن حُرَيْثِ بن قَبِيصَةَ قال: قدِمتُ المدينةَ فقلت: اللـهم يَسِّرْ لي جليسًا صالحـًا. قال: فجلست إلى أبي هريرة، فقلت إني سألتُ اللهَ أنْ يرزقني جليسًا صالحًا فحدِّثني بحديثٍ سمعتَه من رسول الله ﷺ لعلّ اللهَ أنْ ينفعني به، فقال:

---

(١) أي: الحاجة والفقر.

(٢) الظَّعْن: الركوب للسفر، والظَّعِينَة: المرأة في السفر.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ الترمذي (٢٩٥٣) وغيره، وحسنه الألباني.

(٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (٢٧٦٨) بالرواية الثانية، وغيرهما.

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ»(١).

وعن أنس بن حكيم الضَّبي قال: خاف مِن زيادٍ أو ابن زيـادٍ فأتى المدينةَ فلَقِيَ أبا هريرة، قال: فنسبني فانتسبتُ له. فقال: يا فتى، ألا أحدثك حديثًا؟ قلت: بلى رَحِمَكَ الله. قال يونس (الراوي): وأحسبه ذكره عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ النَّاسُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَعْمَالِهِمُ الصَّلَاةُ». قال: «يَقُولُ رَبُّنَا جَلَّ وَعَزَّ لِمَلَائِكَتِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ: انْظُرُوا فِي صَلَاةِ عَبْدِي أَتَمَّهَا أَمْ نَقَصَهَا؟ فَإِنْ كَانَتْ تَامَّةً كُتِبَتْ لَهُ تَامَّةً، وَإِنْ كَانَ انْتَقَصَ مِنْهَا شَيْئًا قَالَ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟ فَإِنْ كَانَ لَهُ تَطَوُّعٌ، قَالَ: أَتِمُّوا لِعَبْدِي فَرِيضَتَهُ مِنْ تَطَوُّعِهِ. ثُمَّ تُؤْخَذُ الْأَعْمَالُ عَلَى ذَاكُمْ»(٢).

(وفي لفظ): «ثُمَّ يُفْعَلُ بِسَائِرِ الْأَعْمَالِ الْمَفْرُوضَةِ مِثْلُ ذَلِكَ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤١٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٨٦٤)، وابن ماجه (١٤٢٥) باللفظ الثاني، مصرَّحًا بسماع أبي هريرة من النبي ﷺ، وغيرهما، وصححه الألباني.

تُشْرِكَ بِي»[1].

وفي رواية: أن النبي ﷺ قال:

«يُجَاءُ بِالْكَافِرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ لَهُ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ». قال: «فَيُقَالُ: لَقَدْ سُئِلْتَ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ. فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ﴾ [آل عمران:٩١]».

فيا نفس، أعدي للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فما زلت في المهلة، وبيدك الفرصة.

الشهادة على العباد

قال الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [يس:٦٥].

وقال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤].

وقال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٤ و٦٥٣٨ و٦٥٥٧)، ومسلم (٢٨٠٥)، وغيرهما. والرواية الثانية لأحمد في «المسند» (١٢٨٧٥): حدثنا رَوْحٌ، حدثنا سعيد، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك.

وفيه سعيد، هو ابن أبي عَرُوبة، وصفه الحافظ في «التقريب» بأنه: كثير التدليس واختلط. لكن قال: وكان من أثبت الناس في قتادة.

قلت: و رَوْح (ابن عبادة) روى عنه قبل الاختلاط.

ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ * فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوًى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴾ [فصلت: ٢٠-٢٤].

فانظري يا نفس، كيف شهدتْ عليك جوارحك التي ضيعتِ عمرك في السعي من أجل راحتها في الدنيا، وبذلتِ جهدك في الدفاع عنها والمحافظة عليها، وتحصيل شهوتها، ولو على حساب دينك، بارتكاب المنهيات والوقوع في المحرمات.

ثم وا حسرتا عليك! قد تخلت عنك وشهدت عليك.

فيا ألله ما أشد حسرتك! ويا ألله ما أعظم مصيبتك!

فيا من قد علمَتْ هذا وأيقنَتْ به، اجعلي ندمك في الدنيا قبل الآخرة، اجعلي الندم على معصية الله تعالى والغفلة عنه قبل أن تندمي يوم لا ينفع الندم.

وقولي لذاتك الأمّارة: تبًّا لك، ولجوارحك التي تريد لذتها بمعصية الله تعالى: بعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا.

قولي ذلك وأنت حرة ينفعك قولك، قبل أن تقوليه فلا تنالي منه شيئًا، إلا الحسرة والندم، كما جاء في الحديث الذي رواه أنس رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فضحك فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال:

«مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟» قال: «يَقُولُ: بَلَى». قال: «فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي». قال: «فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا».

قال: «فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي». قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ». قال: «ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ». قال: «فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ[(١)]»[(٢)].

---

(١) أي: أجادل وأخاصم وأدافع. «نهاية».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٩) وغيره.

وعن معاوية بن حَيْدة رضي الله عنه مرفوعًا:

«إِنَّكُمْ مَدْعُوُّونَ مُفَدَّمَةً أَفْوَاهُكُمْ بِالْفِدَامِ[1]، ثُمَّ إِنَّ أَوَّلَ مَا يُبِينُ عَنْ أَحَدِكُمْ لَفَخِذُهُ وَكَفُّهُ»[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال:

«هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ فِي الظَّهِيرَةِ، لَيْسَتْ فِي سَحَابَةٍ؟» قالوا: لا.

قال: «فَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَيْسَ فِي سَحَابَةٍ؟» قالوا: لا. قال:

«فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ أَحَدِهِمَا». قال: «فَيَلْقَى الْعَبْدَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ[3]، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى». قال: «فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّانِيَ، فَيَقُولُ: أَيْ فُلْ، أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ وَتَرْبَعُ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ؟ فَيَقُولُ: لَا. فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسِيتَنِي.

ثُمَّ يَلْقَى الثَّالِثَ، فَيَقُولُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، آمَنْتُ بِكَ، وَبِكِتَابِكَ، وَبِرُسُلِكَ، وَصَلَّيْتُ، وَصُمْتُ، وَتَصَدَّقْتُ، وَيُثْنِي بِخَيْرٍ مَا اسْتَطَاعَ، فَيَقُولُ: هَاهُنَا إِذًا». قال:

---

(١) الفِدام: ما يُشَدّ على الإبريق والكُوز من خرقةٍ لتصفية الشراب الذي فيه؛ أي: أنهم يُمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم، فشَبّه ذلك بالفِدام. «نهاية».

(٢) بعض حديث، أخرجه أحمد (٥/٥، وفي مواضع أُخَر) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٢٧١٣).

(٣) معناه: يا فلان.

«ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: الْآنَ نَبْعَثُ شَاهِدَنَا عَلَيْكَ، وَيَتَفَكَّرُ فِي نَفْسِهِ: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْهَدُ عَلَيَّ؟ فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، وَيُقَالُ لِفَخِذِهِ وَلَحْمِهِ وَعِظَامِهِ: انْطِقِي. فَتَنْطِقُ فَخِذُهُ وَلَحْمُهُ وَعِظَامُهُ بِعَمَلِهِ، وَذَلِكَ لِيُعْذِرَ مِنْ نَفْسِهِ، وَذَلِكَ الْمُنَافِقُ، وَذَلِكَ الَّذِي يَسْخَطُ اللهُ عَلَيْهِ»(١).

اقتراب الساعة

وتيقني يا نفس أن الآخرة قد اقتربت، وأن الآزفة قد أَزِفت، وأن الحساب قد دنا، وأن الأمر قد أنى.

قال الله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١].

قال ابن جرير: «يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾: دنت الساعة التي تقوم فيها القيامة، وقوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ﴾؛ افتعلت، من القرب، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون».

وروى عن أبي عبد الرحمن السُّلَمي قال: نزلنا المدائن فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخَطَبَنا حذيفة فقال: ألا إن الله يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشقّ، ألا وإن الدنيا قد آذَنَتْ بفِراق، ألا وإن اليوم المِضْمار وغدًا السباق، فقلت لأبي: أتستبق الناس غدًا؟ فقال: يا بني، إنك لجاهل، إنما هو السباق بالأعمال. ثم جاءت الجمعة الأخرى، فحضرنا، فخطب حذيفة فقال: ألا إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾، ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذَنَتْ بفِراق، ألا وإن اليوم المِضْمار

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٨) وغيره.

وغدًا السباق، ألا وإن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة[1].

وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١].

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، ونعمهم التي أنعمها عليهم فيها في أبدانهم وأجسامهم ومطاعمهم ومشاربهم وملابسهم وغير ذلك من نعمه عندهم، ومسألتُه إياهم: ماذا عملوا فيها؟ وهل أطاعوه فيها فانتهَوا إلى أمره ونهيه في جميعها، أم عصَوه فخالفوا أمره فيها؟ ﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾؛ يقول: وهم في الدنيا عما الله فاعل بهم من ذلك يوم القيامة، وعن دنوّ محاسبته إياهم منهم، واقترابه لهم، في سهو وغفلة، وقد أعرضوا عن ذلك فتركوا الفكر فيه والاستعداد له والتأهب، جهلًا منهم بما هم لاقوه عند ذلك من عظيم البلاء وشديد الأهوال».

قال ابن كثير: «روى الحافظ ابن عساكر[2] في ترجمة الحسن بن هانئ أبي نُوَاس الشاعر أنه قال: أشعر الناس الشيخ الطاهر أبو العتاهية، حيث يقول:

الناس في غفلاتهم ... ورحا المنية تطحن

فقيل له: من أين أخذ هذا؟ قال: من قول الله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾».

وقال الله تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٧-٥٨].

الآزفة: أي القريبة، وهي القيامة، فهذا اسم لها هو أوضح شيء يدل على اقترابها.

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [النحل:١].

---

(١) وأخرجه الحاكم (٦٠٩/٤) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» برقم (٣٣٥٢).

(٢) «تاريخ دمشق» (٤١٦/١٣).

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اقتراب الساعة ودنوها معبرًا بصيغة الماضي الدال على التحقيق والوقوع لا محالة، كقوله: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾، وقال: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾.

وقوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾؛ أي: قرب ما تباعد ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾». اهـ.

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴾ [المعارج:٦-٧].

يعني: أنهم يرون عذاب يوم القيامة الواقع عليهم بعيدًا ومستحيلًا ويراه الله عز وجل قريبًا، فإن كل ما هو آتٍ قريب، والبعيد ما ليس يأتي، وإذا ما قورنت مدة الحياة الدنيا بالآخرة صارت الآخرة كغد.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا ﴾ [النبأ:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [الشورى:١٧-١٨].

وقال الله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾ [الأعراف:١٨٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج:٥٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الزخرف:٦٦].

وقال سبحانه: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴾ [البقرة:٢١٠].

وقال سبحانه: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ فَرَآهَا النَّاسُ آمَنُوا أَجْمَعُونَ، فَذَلِكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗا﴾ [الأنعام:١٥٨].

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا بَيْنَهُمَا فَلَا يَتَبَايَعَانِهِ، وَلَا يَطْوِيَانِهِ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدِ انْصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقْحَتِهِ(١) فَلَا يَطْعَمُهُ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ(٢) فَلَا يَسْقِي فِيهِ.

وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَحَدُكُمْ أُكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»(٣).

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ (أو كهاتين)»، وقَرَنَ بين السبابة والوسطى(٤).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَلِيلًا(٥)، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا الْقَلِيلُ مِنَ

---

(١) هي ذات الدَّرّ من النُّوق. «فتح».

(٢) أي: يطينه ويصلحه. «نهاية».

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٦، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (١٥٧)، مختصرًا، وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٠١، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (٢٩٥٠)، وغيرهما.

(٥) وذلك في مثل قوله عز وجل: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

الْقَلِيلِ، وَمَثَلُ مَا بَقِيَ مِنْهَا كَالثَّغْبِ ـ يعني: الغَدِير ـ شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ»[1].

وقد استفاد ابن مسعود رضي الله عنه من كلمة النبي ﷺ هذه فقال مرة: والذي لا إله إلا هو! ما أذكر ما غَبَرَ من الدنيا إلا كالثَّغْبِ شُرِبَ صَفْوُهُ وبَقِيَ كَدَرُه[2].

قال الحافظ في «الفتح»: «وإذا كان هذا في زمان ابن مسعود وقد مات هو قبل مقتل عثمان ووجود تلك الفتن العظيمة! فماذا يكون اعتقاده فيما جاء بعد ذلك؟! وهَلُمَّ جَرًّا».

وقال الشاعر:

نَسِيرُ إلى الآجالِ في كُلِّ لحظةٍ ... وأعمارُنا تطوى وهن مراحلُ

تَرَحَّلْ من الدنيا بزادٍ من التُّقى ... فعُمْرُكَ أيامٌ وهُنَّ قلائلُ

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: مَرّ بي رسول الله ﷺ وأنا أُطَيِّن حائطًا لي أنا وأمي، فقال: «مَا هَذَا يَا عَبْدَ اللَّهِ؟» قلت: يا رسول الله، شيء أُصْلِحُه. فقال: «الْأَمْرُ أَسْرَعُ مِنْ ذَلِكَ»[3].

وقال ﷺ لأصحابه وهم يبنون مسجده: «عَرِيشًا كَعَرِيشِ مُوسَى، ثُمَامٌ[4] وَخُشَيْبَاتٌ، وَالْأَمْرُ أَعْجَلُ مِنْ ذَلِكَ»[5].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: خَسَفَتِ الشمسُ، فقام النبي ﷺ فَزِعًا يخشى أن تكون الساعة، فأتى المسجد، فصلى بأطول قيام وركوع وسجود رأيته

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣٢٠) وغيره، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٤/١٦٤).

(٢) بعض أثر، أخرجه البخاري (٢٧٤٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٥٢٣٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) مفردها: ثُمامة، وهو نبت ضعيف قصير يُسَد به خَصاصُ البيوت. «فيض القدير».

(٥) انظر: «الصحيحة» (رقم ٦١٦).

قط يفعله. الحديث[١].

وعن خالد بن عُمَيْرٍ العَدَوي قال: خطبَنا عتبةُ بن غَزْوانَ[٢]، فحَمِد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الدنيا قد آذَنَتْ بِصُرْمٍ[٣]، ووَلَّتْ حَذّاءَ[٤]، ولم يبقَ منها إلا صُبَابَةٌ كصُبَابة الإناء يَتَصابُّها صاحبُها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذُكِرَ لنا:

«أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا، لَا يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا، وَوَاللهِ لَتُمْلَأَنَّ». أفعجبتم؟! ولقد ذُكِرَ لنا:

«أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ[٥] مِنَ الزِّحَامِ». الأثر[٦].

ذكر الموت

فإن شَقّ عليك يا نفس استيقان قرب الآخرة، والعمل بمقتضى ذلك، فاعلمي أن الموت قد يأتي بغتة، ويقع فجأة، ولا يحتاج هذا إلى برهان أو دليل، فإننا في هذا الزمان لا يكاد يمر بنا يوم إلا ويموت فيه من البشر أعداد لا يعلم قدرها إلا الذي خلقها سبحانه.

وقد قال عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٤٥-فتح)، ومسلم (٩١٢)، وغيرهما.

(٢) صحابي من السابقين، رضي الله عنهم.

(٣) أي: أعلمتْ بانقطاع وذهاب.

(٤) أي: مسرعة الانقطاع.

(٥) أي: ممتلئ.

(٦) أخرجه مسلم (٢٩٦٧) وغيره.

شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

فيا نفس، أكثري ذكر الموت، فإن في ذكره ردعًا لك عن المعاصي، وحثًّا على التوبة، وتزهيدًا في العاجلة وحطامها، وتذكيرًا بالآخرة وثوابها، ووازعًا إلى الطاعة، وتنشيطًا للجد في العلم والعمل، وتوديعًا للكسل، وتليينًا للقلب، وعلاجًا لقسوته، وتزكية للنفس، وقمعًا لهواها، وأخذًا بيدك إلى نجاتك، وزجرًا لك عن هلاكك، فاذكري الموت يا نفس بقلب حاضر، لا باللسان والقلب غافل، فهذا هو الذكر الذي يؤتي ثماره، ويوجب آثاره.

ومن أبلغ ما قيل في ذلك: ما صوره الله عز وجل لعباده، وقَرّبه إليهم، ووعظهم به، وذلك قوله سبحانه: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ * وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ ﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

قال ابن سعدي في تفسير الآيات: «يعظ تعالى عباده بذكر المحتضَر حال السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر، فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أنه يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ ﴾؛ أي: من يرقيه؟ من الرقية، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فتعلقوا بالأسباب الإلهية، ولكن القضاء والقدر إذا تم وجاء فلا مرد له.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ﴾ للدنيا، ﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظُم الأمر، وصعُب الكرب، وأُريد أن تخرج الروح من البدن الذي أَلِفَتْه ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها».

قال: «فهذا الزجر الذي ذكره الله يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها».

ولأبي إسحاق الإلبيري:

كـأني بنفســي وهْيَ في الســكراتِ تعــالج أن تــرقى إلى اللهــواتِ
وقــد زُمَّ رحــلي واســتقلتْ ركائــبي وقــد آذنتــني بالرحيــل حُــداتي
إلى مــنزلٍ فيــه عــذابٌ ورحمــةٌ وكـم فيـه مـن زَجْـرٍ لنـا وعِظـاتِ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ، فَمَا ذَكَرَهُ عَبْدٌ قَطُّ وَهُوَ فِي ضِيقٍ إِلَّا وَسَّعَهُ عَلَيْهِ، وَلَا ذَكَرَهُ وَهُوَ فِي سَعَةٍ إِلَّا ضَيَّقَهُ عَلَيْهِ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اذْكُرِ الْمَوْتَ فِي صَلاتِكَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا ذَكَرَ الْمَوْتَ فِي صَلَاتِهِ لَحَرِيٌّ أَنْ يُحْسِنَ صَلَاتَهُ، وَصَلِّ صَلَاةَ رَجُلٍ لَا يَظُنُّ أَنْ يُصَلِّيَ صَلَاةً غَيْرَهَا، وَإِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ»(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال: «أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»(٣).

قال المناوي(٤): «إذا أكثر الإنسان ذكر الموت بقلبه انقشعت الظلمة، واستنار الصدر بنور اليقين، فأبصر الموت، وهو عاقبة الأمر، فرآه قاطعًا لكل لذة، حائلًا بينه وبين كل أمنية، ورآها أنفاسًا معدودة، وأوقاتًا محدودة، لا يدري متى

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٦٢ - موارد) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٥٥ - مختصره). وهو في «الصحيحة» (٢٨٣٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣٧٣/٣).

(٤) «فيض القدير» (٨٦/٢).

ينفد العدد، وينقضي المدد، فركبته أهوال الخطر، وأذهلته العبر، وتردد بين الخوف والرجاء، فانكسر قلبه، وخمدت نفسه، وذبلت نار شهوته، فزهد في أمنيته، ورضي بأدني عيشته».

يا نفس، واستعيني على ذكر الموت برؤية الجنائز والنعوش وزيارة القبور، فإن فيها عِبرة تبعث العَبرة، وذكرى توجب الرقة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«عُودُوا الْمَرِيضَ، وَاتَّبِعُوا الْجَنَائِزَ، تُذَكِّرْكُمُ الْآخِرَةَ»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهُ يَرِقُّ الْقَلْبُ، وَتَدْمَعُ الْعَيْنُ، وَتُذْكَرُ الْآخِرَةُ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»(٢).

وشيع الحسن جنازة، فجلس على شفير القبر فقال: إن أمرًا هذا آخره لحقيق أن يُزهد في أوله، وإن أمرًا هذا أوله لحقيق أن يخاف آخره(٣).

ونظر إلى صَبية بين جنازة أبيها تقول: يا أبت، مثل يومك لم أره! فضمها الحسن وقال : أي بنية، وأبوك مثل هذا اليوم لم يره! فبكى الخلق(٤).

ويروى أن آخر خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز قال فيها: أما بعد، فإن ما في أيديكم أسلاب الهالكين، وسيتركها الباقون كما تركها الماضون، ألا ترَوْن أنكم في كل يوم وليلة تشيّعون غاديًا أو رائحًا إلى الله تعالى؟! وتضعونه في صَدْع من الأرض، ثم في بطن الصَدْع، غير مُمَهَّد ولا مُوَسَّد، قد خلع الأسلاب، وفارق الأحباب، وأُسكن التراب، وواجه الحساب، فقير إلى

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب» (٥١٨) وغيرُه، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه الحاكم (٣٧٦/١) وغيره، وحسنه الألباني في «أحكام الجنائز» (مسألة ١١٥).

(٣) «المدهش» (ص ١٠٠).

(٤) «محاضرات الأدباء» (٤٨٤/٤).

ما قدم أمامه، غني عما ترك بعده[1].

ويروى أن أبا الدرداء كان إذا رأى جنازة قال : اغدي فإنا رائحون. أو قال: روحي فإنا غادون[2].

وسمع رجلًا يقول في جنازة: من هذا؟ قال: أنت، وإن كرهتَ فأنا[3].

وهذا كما قيل:

لـــو كَلَّــم المَيْـــتُ مـــن يشـــيّعهُ لقـــال لا تَغْـــتَرِرْ فأنـــت أنـــا

وعن عبد الله بن عتبة قال: عُدْتُ رجلًا مريضًا، فلما قعدت عنده قلت له: كيف تجدك فقال[4]:

خرجت من الدنيـا وقامـت قيـامتي غــداةَ أَقَــلَّ الحــاملون جنــازتي

وعجَّل أهــلي حفـر قـبري وصَـيّروا خــروجي وتعجـيلي إليــه كــرامتي

كـأنهُمُ لـم يَعرفـوا قَـطُّ صـحبتي غــداةَ أتى يــومي عَلَيَّ وســاعتي

ولأبي العتاهية:

فلــو عَــلا بــك أقــوامٌ منــا كبَهمْ حَثُّــوا بنعشــك إسراعًا بأقــدامِ

في يـــومِ آخـــرِ توديـــعٍ تُوَدَّعُـــهُ تُهـدى إلى حيـث لا فـادٍ ولا حـامِ

وله:

فمــا لي لســتُ مشــغولًا بنفســي ومــا لي لا أخــاف المــوت مــا لي

كــأن ممــرضي قــد قــام يمشــي بنعشـــي بـــين أربعـــةٍ عِجـــالِ

وخلــفي نِســوةٌ يَبكــين شَــجوًا كـــأنّ قلـــوبَهن على مقـــالي

---

(١) انظر «حلية الأولياء» (٢٦٦/٥).

(٢) «عيون الأخبار» (٣٠٣/٢).

(٣) «ربيع الأبرار» (١٨٩/٤).

(٤) «العاقبة في ذكر الموت» (ص ١٢١-١٢٢).

سأقنع ما بقيتُ بقوت يومٍ ... ولا أبغي مكاثرةً بمالِ

ولآخر:

وتَعُدُّ كثرةَ مَنْ يموتُ تعجبًا ... عما قريبٍ سوف تدخلُ في العَدَدْ

وأراك تحملهم ولستَ تَردُّهمْ ... وكأنني بك قد حُمِلْتَ ولا تُرَدْ

وفي «معارف الإنعام»[1]: قال بعض السلف: شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل.

اذكر الموت هاذمَ اللذاتِ ... وتهيأ لمصرعٍ سوف ياتي

يا غافل القلب عن ذكر المنياتِ ... عما قليل ستثوي بين أمواتِ

فاذكر محلك من قبل الحلول بهِ ... وتب إلى الله من لهو ولذاتِ

إن الحِمام له وقت إلى أجلٍ ... فاذكر مصائب أيام وساعاتِ

لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها ... قد حان للموت يا ذا اللُّب أن ياتي

وفي «لطائف المعارف»[2]:

اذكرِ الموت وداوم ذكرهُ ... إن في الموت لذي اللُّب عِبر

وكفى بالموت فاعلم واعظًا ... لمن الموت عليه قد قُدِر

وفيها[3]: «قال الحسن: إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم، فالتمسوا عيشًا لا موت فيه.

وقال: فضح الموت الدنيا، فلم يدع لذي لب بها فرحًا.

وقال غيره: ذهب الموت بلذاذة كل عيش، وسرور كل نعيم. ثم بكى

---

(١) لابن عبد الهادي (ص ٨٧).

(٢) (ص ١٠٠).

(٣) (ص ٩٩).

وقال: واهًا لدار لا موت فيها!». اهـ.

فتذكري يا نفس من رحل من آبائك وإخوانك، وأصدقائك وجيرانك، وأحبتك وخلانك، وتفكري في حال أكثرهم، كيف كانوا بالدنيا يشتغلون، وبالسلامة يغترون، وطول العمر يؤملون، وكيف أتاهم الموت فجأة، وفرق جمعهم بغتة، فلا ما جمعوا تناولوا، ولا ما أمَّلوا نالوا!

قال الغزالي[1]: «وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضَوْا قبله، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم، وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وضيعوا أموالهم، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم، وانقطعت آثارهم.

فمهما تذكر رجل رجلًا، وفصل في قلبه حاله، وكيفية موته، وتوهم صورته، وتذكر نشاطه وتردده، وتأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت، وانخداعه بمواتاة الأسباب، وركونه إلى القوة والشباب، وميله إلى الضحك واللهو، وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع، والهلاك السريع، وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله، وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه، وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه، وكيف كان يدبّر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين، في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر، وهو غافل عما يراد به، حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه، فانكشف له صورة الملَك، وقرع سمعه النداء إما بالجنة أو بالنار، فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم، وغفلته كغفلتهم، وستكون عاقبته كعاقبتهم.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرتَ الموتى فعُدَّ نفسك كأحدهم.

---

(١) «الإحياء» (٤/٤٥٢).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز: ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غاديًا أو رائحًا إلى الله عز وجل؟! تضعونه في صَدْع من الأرض، قد توسد التراب، وخلّف الأحباب، وقطع الأسباب.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها، مع دخول المقابر، ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب، حتى يغلب عليه، بحيث يصير نصب عينيه، فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الغرور، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعَذَبَة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقته.

نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها، ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسرورًا، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى بكاءً شديدًا حتى ارتفع صوته». اهـ.

وأوصي بهذه المناسبة بالاطلاع على كتابي «الاعتبار بأقوال الماضين عند الموت والاحتضار»، و«سرير المنايا» أو «النعش».

ومن مواعظ ابن الجوزي(١): «إخواني، آنَ الرحيلُ وما عندكم خبر، إلى كم تُوعَظون ولا تَتَّعظون، وتُوقَظون ولا تتيقظون، وتُتْعِبون الناصح ولا تَقْبَلون؟! ويكفي في البيان رؤية الأقران يرحلون، ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ [الطور:١٥].

أَكُلِّفْتُم ما لا تُطيقون؟! أَكُلِّمْتُم بما لا تَفهمون؟! ما لكم عن مآلكم معرضون؟! ما هذا الفتور وأنتم سالمون؟! ما هذا الرقاد وأنتم منتبهون؟!

كم مؤمل إدراك شهر ما أدركه؟! فاجأه الموت بغتة فأهلكه، كم ناظر

(١) «التبصرة» (٢/٨٣).

إلى يوم صومه بعين الأمل، طمسها بالممات كف الأجل! كم طامع أن يلقاه بين أترابه[١]، ألقاه الموت في عُقْرِ ترابه!».

ومنها[٢]: «إخواني، إلى متى هذه الغفلة وقد علمتم المصير؟! إلى متى هذه الآمال والعمر قصير؟! إلى متى هذا الحجاب والأمر خطير؟! إلى متى هذا التسويف فقد خذلكم التقصير؟! إلى متى هذا العمى عن التحقيق والناقد بصير؟! إلى متى هذا التواني وقد قرب الرحيل إلى الحفير؟! إلى متى هذه القسوة ولا مُعين ولا نصير؟!

كأنك بالموت قد أزعجك وهالك، فنازلك وأنزلك عن عِزِّك وأزالك، وألحقك بأمك وأبيك لا أبا لك، وقد بقي القليل فاعقل حالك، واصْحُ من سكرتك وأطع عُذّالك، واعتذر إلى مولاك وقد أقالك، واسمع نصح شَفِيقٍ يَرْثي لك.

خــذ الوقــت واعلــم بــأن اللبيــــ ــــب يأخــذ مــن يومــه للغــدِ
فمـــا ينفـــع المـــرءَ بعـــد المنـــو نِ قـــولُ النـــوادب لا تُبْعِـــدِ

إخواني، أهل القبور قد أُسِرُوا، وأكثر القوم في تجارتهم قد خَسروا، مُرُّوا على القوم واعتبروا، وتفكروا في أحوالهم وانتظروا، يتمنون العَوْدَ وهيهات! ويسألون البِدار وقد فات.

فيا مُطْلَقًا اذكر قيودهم، ويا متحركًا قد عرفتَ هُمودَهم، خَلِّص نفسك من أسر الذنوب، وتأهّب فإنك مطلوب، وتذكر بقلبك يومَ تُقَلَّبُ القلوب، قبل أن يُمْسِك اللسان، ويتحيرَ الإنسان، ويزول العرفان، وتُنْشَرَ الأكفان، وتُزَارَ الحُفْرة، وتَطُولَ السَّفْرة، ويأتيَ منكر ونكير، ويقوى الشهيق والزفير، ويَبْقى العبد هناك أسيرًا، إلى أن يقوم عُرْيَانًا حسيرًا.

---

(١) أي: يستقبل يوم الصوم وهو بين أمثاله من أصحابه وإخوانه.

(٢) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٦١-٢٦٢).

فحينئذٍ تنتثر الكواكب، وتنتشر المصائب، وتنسد المذاهب، وتتبيّن العجائب، وتسودّ الوجوه، ويفوت العاصي ما يرجوه، وتُنْقَل على الظهور الأوزار، ويؤخذ الكتاب باليمين أو باليسار، وليس لأحد هناك قرار، إلا الجنة أو النار».

ومن «قرة العيون المبصرة»(١):

المـوتُ في كل حـينٍ يَنشـرُ الكَفَنـا ... ونحـن في غفلـةٍ عمـا يـراد بنـا
لا تطمـئنّ إلى الدنيـا وزُخْرُفهـا ... ولـو توشـحتَ مـن أثوابهـا الحَسَـنا
أيـن الأحبـةُ والجـيرانُ مـا فعلـوا ... أيـن الذيـن هـم كانـوا لنـا سَـكَنا
سـقاهم الدهـر كأسًـا غـير صـافيةٍ ... فصـيرتْهم لأطبـاق الـثَّرى رَهَنـا

ومن «التبصرة»(٢): يا من يبارز مولاه بما يكره، ويخالفه في أمره آمنًا مَكْرَهُ، ويُنْعِم عليه وهو ينسى شكره، والرحيل قد دنا وما له فيه فكرة، يا من قبائحه ترفع عشيًّا وبكرة، يا قليل الزاد ما أطول السفرة! والنقلة قد دنت والمصير الحفرة، متى تعمل في قلبك المواعظ؟ متى تراقب العواقب وتلاحظ؟ أما تحذر مَنْ أوعدَ وهدّد؟ أما تخاف مَنْ أنذر وشدّد؟ متى تضطرم نار الخوف في قلبك وتتوقد؟ إلى متى بين القصور والتواني تتردد؟ متى تحذر يومًا فيه الجلود تشهد؟ متى تترك ما يفنى رغبة فيما لا ينفد؟ متى تهب بك ريح الخوف كأنك غصن يَتَأَوَّد(٣)؟ البِدار البِدار إلى الفضائل، والحِذار الحِذار من الرذائل، فإنما هي أيام قلائل.

اغتـنم في الفـراغ فضـل ركـوعٍ ... فعسـى أن يكـون موتـك بغتـهْ
كـم صحيح رأيـتَ مـن غـير سُـقْمٍ ... ذهبـت نفسـه السـليمة فلتـهْ

(١) (٢/٩٥-٩٦).
(٢) «التبصرة» (١/٩٧-٩٨).
(٣) أي: يتثنى.

ولأبي العتاهية:

أيهـــا البـــاني قصـــورًا طـــوالًا   أيـــن تـــبغي هـــل تريـــد السَّـــحابا
إنمـــا أنـــت بـــواد المنـــايا   إن رمـــاك المـــوت فيـــه أصـــابا
أيهـــا البـــاني لهـــدم اللـــيالي   ابـــن مـــا شـــئت ســـتلقى خرابـــا
أأمنـــت المـــوتَ والمـــوتُ يـــأبى   بـــك والأيـــام إلا انقلابـــا
لـــو تـــرى الدنيـــا بِعَيْـــنَيْ بصـــيرٍ   إنمـــا الدنـــيا تـــحاكي الســـرابا
إنمـــا الدنـــيا كـــفَيءٍ تـــولى   أو كمـــا عاينـــت فيـــه الضـــبابا
نـــارُ هـــذا المـــوت في النـــاس طُـــرًّا   كـــل يـــوم نزيـــده التهابـــا
إنمـــا الدنيـــا بـــلاءٌ وكـــدٌّ   واكتئـــاب قـــد يســـوق اكتئابـــا
مـــا اســـتطاب العـــيشَ فيهـــا حكـــيمٌ   لا ولا دام لـــه مـــا اســـتطابا
أيُّهـــا المـــرء الـــذي قـــد أبـــى أن   يهجـــر اللهـــو بهـــا والشـــبابا
وبنـــى فيهـــا قـــصـــورًا ودورًا   وبنـــى بعـــد القبـــاب القبابـــا
ورأى كـــل قبيـــح جميـــلًا   وأبـــى للغَـــيِّ إلا ارتكابـــا
أنـــت في دار تـــرى المـــوت فيهـــا   مستشـــيطًا قـــد أذلّ الرِّقـــابا
أبـــت الدنيـــا على كـــل حيٍّ   آخـــرَ الأيـــام إلا ذهابـــا
إنّمـــا تَـــنْفي الحيـــاةَ المنـــايـــا   مثلمـــا يـــنفي المشـــيبُ الشَّـــبابا
مـــا أرى الدنيـــا على كل حيٍّ   نالهـــا إلا أذًى وعـــذابا
بينمـــا الإنســـان حيٌّ قـــويٌّ   إذ دعاه يومـــه فأجابـــا

غـــير أنّ المـــوت شيءٌ جليـــلٌ يـــترك الـــدور يبابًـــا خرابـــا
أيّ عـــيش دام فيهـــا لِـــحَيٍّ أيّ حيّ مـــات فيهـــا فآبـــا
أيّ مُلـــك كان فيهـــا لقـــومٍ قبـــلنا لـــم يُسـلَبوه اســـتلابا
إنّمـــا داعي المنايـــا ينـــادي احملـــوا الـــزاد وشُـــدّوا الرِّكابـــا
جعـــل الـــرحمن بـــين المنايـــا أنفُـــس الخلـــق جميعًـــا نِـــهابا
ليـــت شـــعري ألِســـاني يقـــوى يـــومَ عـــرضي أن يَـــرُدَّ الجوابـــا
ليـــت شـــعري بيميـــني أُعطـــى أم شـــمالي عنـــد ذاك الكتابـــا

وله:

كـأنْ قـد عَجَّـل الأقـوام غسـلك وقـام النـاس يبتـدرون حَملـك
ونُجِّـد بـالثرى لـك بيـت هجـرٍ وأسرعـت الأكـفُّ إليـه نقلـك
وأسـلمك ابـن عمـك فيـه فـردًا وأرسـل مـن يديـه أخـوك حبلـك
وحاولـت القلـوب سـواك ذكـرًا أنِسْـنَ بوصـله ونسِـين وَصـلك
وصـار الوارثـون وأنـت صِـفرٌ مـن الدنيـا لمالـكَ منـك أمْلـك
إذا لـم تتخـذ للمـوت زادًا ولـم تجعـل بـذكر المـوت شـغلك
فقـد ضـيعت حظـك يـوم تـدعى وأصـلَك حـين تَنسـبه وفصـلك
أراك تغـرك الشـهوات قِـدْمًا وكـم قـد غـرت الشـهوات مثلـك
أمـا ولتـذهبن بـك المنايـا كمـا ذهبـت بمـن كان قبلـك
بخلـت بمـا ملكـت فقـف رويـدًا كأنـك قـد وَهَبْـتَ فلـم يَجُـز لـك
كأنـك عـن قريـب بالمنايـا وقـد شـتّتْن بعـد الجَمـع شـملك

ألا لله أنــــت مُحَـــلٌّ علـــمٍ رأيتَ العلـمَ لـيس يَكُـف جهلـك
ألا لله أنـــت حسَــبت فعـــلي عليَّ فعِبتـــه ونسِـــيت فعلـــك
ألا لله أنـــــت دَعِ التمـــــني ولا تـــأمن عواقبَـــه فتهلـــك
وخـــذ في عـــذل نفســك كل يـومٍ لعـل النفـس تقبـل منـك عـذلك
ألــم تــر جِــدَّة الأيــام تَــبلى وأن الحادثـــات يُـــرِدْنَ قتلـــك
ألا فـــاخرج مـــن الدنيـــا مخفًّـــا وقـدِّم عنـك بـين يـديك ثِقلـك
رأيـــتُ المـــوت مســـلك كلِّ حيٍّ ولـــم أر دونـــه للـــحي مســـلك

ذكر الموت عند النوم

وأوصيك يا نفس كل يوم، وكلما أردت النوم، ووضعت رأسك على الوسادة، أن تتخيلي أنك قد تموتين تلك الليلة، فلا ترقدي وتسلِمي نفسك إلى النوم إلا وقد تبت إلى الله تعالى توبة نصوحًا، وعزمت على ترك ما أنت فيه من الحرام، ونويت إذا استيقظتِ ورجعتْ إليك روحك أن تَلزمي وردك من تلاوة القرآن بالتدبر، فإنه أهم شيء سيحفظك في حياتك من الزيغ والزلل، والخطأ والخَطَل، ويعينك على الاستمرار بالتوبة، ويوقفك على ما فيه صلاحك وفلاحك، وسعادتك ونجاتك، وهكذا فليكن دأبك يا نفس كل ليلة.

وكلما استيقظت فافرحي بفضل الله تعالى عليك، أن أمهلك وأمد لك في العمر، واشكريه عز وجل واحمديه على ذلك(١)، فما أعظمها من نعمة! وما أجلها من منحة! لو كنت تعلمين!

لـو قيـل لقـومٍ مـا منـاكمُ طلبـوا حيـــاةَ يـــومٍ ليتوبـــوا فـــاعلمِ

---

(١) كما سيأتي فيما يقوله إذا استيقظ.

ويحـــكِ يـــا نفـــسُ ألا تـــيقظٌ ينفـــع قبـــل أن تَـــزِلَّ قـــدمي
مضـــى الزمـــانُ في تـــوانٍ وهـــوًى فاســـتدركي مـــا قـــد بـــقي واغتـــنمي

ولو قيل لي: أَوْصِ. لكان هذا مجمل وصيتي، وأهم ما أُؤَكِّد عليه، فاحفظيه يا نفس، ولا تغفلي عنه، فإنك لو مت تلك الليلة مت وأنت مستعدة للقاء الله تعالى، إن شاء الله.

ومن وصية أويسٍ القَرَني لهَرِمِ بن حَيَّانَ: تَوَسَّدِ الموت إذا نمت، واجعله نصب عينيك إذا قمت(١).

ومما يذكرك بهذا الأمر، ويعينك على عدم نسيانه: المحافظة على أذكار النوم التي تذكِّر بالموت خاصة، فالزميها كل ليلة، وأحضري قلبك فيها، وهاكِها:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ(٢) إِزَارِهِ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ، فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ: بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي، وَبِكَ أَرْفَعُهُ، فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ.

فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا أراد أن ينام قال:

«بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا». وإذا استيقظ من منامه قال:

---

(١) انظر «تاريخ دمشق» (٩/٤٤٨)، و«صفة الصفوة» (٢/٣١).

(٢) هي حاشية الإزار التي تلي جسده. «طِيبي».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٠١) بهذا اللفظ، وحسنه الألباني. وأصله في «الصحيحين» دون ذكر ما يقوله إذا استيقظ. وقد تقدم عند «الدعاء للنفس بالحفظ» (صفحة ١٠٧).

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه أمر رجلًا إذا أخذ مضجعه قال:

«اللَّهُمَّ [أَنْتَ] خَلَقْتَ نَفْسِي وَأَنْتَ تَوَفَّاهَا، لَكَ مَمَاتُهَا وَمَحْيَاهَا، إِنْ أَحْيَيْتَهَا فَاحْفَظْهَا، وَإِنْ أَمَتَّهَا فَاغْفِرْ لَهَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ».

فقال له رجل: أسمعت هذا من عمر؟ فقال: من خير من عمر، من رسول الله ﷺ[(٢)].

قال الشوكاني[(٣)]: «في الحديث ذكر الموت والحياة، والدعاء للنفس على تقدير الحياة بالحفظ، وعلى تقدير الموت بالمغفرة، وذلك أن النوم شبيه بالموت، لأن الله سبحانه يتوفى فيه نفس النائم، كما قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر:٤٢]. فناسب ذكر المجيء بهذا الدعاء على التقديرين». اهـ.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ:

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ، فَتَوَضَّأْ وَضُوءَكَ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الْأَيْمَنِ، وَقُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَهْبَةً وَرَغْبَةً إِلَيْكَ، لَا مَلْجَأَ وَلَا مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ، فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ». فقلتُ أَسْتَذْكِرُهُنَّ: وبرسولك الذي أرسلتَ. «قَالَ: لَا، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٢٤، وفي مواضع أُخَر)، وأخرجه (٦٣٢٥، وفي مواضع أُخَر)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وأخرجه مسلم (٢٧١١)، من حديث البراء رضي الله عنه، كلاهما بألفاظ متقاربة، وأخرجه غيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٢) وغيره. وقد تقدم عند «الدعاء للنفس بالحفظ».

(٣) «تحفة الذاكرين» (ص ١٣٣).

(٤) متفق عليه.

قِصَر الأمل

وإن طال أملكِ يا نفس، وظننتِ بُعْدَ الموت، فاعلمي أن لذاتك ستنقطع إن عاجلًا أو آجلًا، وستبقى تَبِعَة الشهوات المحرمة في عنقك، أما لذتها (المنغصة المكدرة) فكأنْ قد زالت، ولم يبقَ منها شيء، فحَرِيٌّ بك إن كنت عاقلة أن لا تتعلقي من الدنيا بشيء، لأن فراقها صعب على مُـحِبِّها، ولا بدَّ له منه.

ويا نفس، إني أربأ بك أن تشابهي قومًا ذمهم الله تعالى في كتابه وتوعدهم على شدة تعلق قلوبهم بالدنيا الدنية، وحرصهم على طول البقاء فيها، من أجل شهواتها وملذاتها، لاهين عن الآخرة وثوابها وحسابها، غافلين عن حياتها الباقية الدائمة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ۞ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۞ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ [الحجر:١-٣].

وقال سبحانه في اليهود عليهم لعائن الله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

قال ابن كثير: «أي: على طول عمر، لما يعلمون من مآلهم السيئ، وعاقبتهم عند الله الخاسرة، لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم، وما يحذرون واقع بهم لا محالة، حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم، وهذا من باب عطف الخاص على العام».

وقال ابن سعدي: «ثم ذكر شدة محبتهم للدنيا فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ﴾، وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنَّوْا حالة هي من المحالات،

والحال أنهم لو عُمِّروا العمر المذكور لم يغن عنهم شيئًا، ولا دفع عنهم من العذاب شيئًا، ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم».

قال ابن القيم[(١)]: «قِصَر الأمل: هو العلم بقرب الرحيل، وسرعة انقضاء مدة الحياة، وهو من أنفع الأمور للقلب، فإنه يبعثه على معاصفة الأيام، وانتهاز الفرص التي تمر مر السحاب، ومبادرة طي صحائف الأعمال، ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء، ويحثه على قضاء جهاز سفره، وتدارك الفارط، ويزهده في الدنيا، ويرغبه في الآخرة، فيقوم بقلبه إذا داوم مطالعة قِصَر الأمل شاهد من شواهد اليقين، يريه فناء الدنيا، وسرعة انقضائها، وقلة ما بقي منها، وأنها قد ترحلت مدبرة، ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها، وإنها لم يبق منها إلا كما بقي من يوم صارت شمسه على رؤوس الجبال، ويريه بقاء الآخرة ودوامها، وأنها قد ترحلت مقبلة، وقد جاء أشراطها وعلاماتها، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه، فكل منهما يسير إلى الآخر، فيوشك أن يلتقيا سريعًا».

قال: «ويكفي في قِصَر الأمل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتَ إِن مَّتَّعۡنَٰهُمۡ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧]. وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ كَأَن لَّمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [يونس:٤٥]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]. وقوله تعالى: ﴿قَٰلُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ * قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [المؤمنون:١١٣-١١٤]. وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَ مَا يُوعَدُونَ لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةٗ مِّن نَّهَارِۭۚ بَلَٰغٞۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥]. وقوله تعالى: ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا *

---

(١) «مدارج السالكين» (٤٤٨/١-٤٤٩).

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه:١٠٣-١٠٤]».

ثم قال: «وقِصَر الأمل بناؤه على أمرين: تيقن زوال الدنيا ومفارقتها، وتيقن لقاء الآخرة وبقائها ودوامها، ثم يقايس بين الأمرين ويؤْثر أَوْلاهما بالإيثار». اهـ.

قلت: ومن أبلغ ما قيل في قِصَر الأمل، وهو غاية ما ذُكِر في حَدِّه، ما أوجزه النبي ﷺ في قوله: «صَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ»، وهو من حديث أبي أيوب رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، علمني وأوجز. قال:

«إِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ فَصَلِّ صَلَاةَ مُوَدِّعٍ، وَلَا تَكَلَّمْ بِكَلَامٍ تَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَجْمِعِ الْيَأْسَ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[(١)].

فقصِّري يا نفس الأمل، ولِم لا تكوني كذلك وأنت ترَين وتسمعين كيف يموت في كل يوم ما لا يُحصى من الأطفال، فضلًا عن غيرهم من الشباب والشيوخ، فعجبًا لك يا نفس!! كيف لا تتعظين والأمر عِيان أمامك، والسهم مصوَّب نحوك، إنها والله شدة الغفلة، والاستغراق في اللهو واللعب، فسارعي يا نفس إلى نجاتك، واسلكي السبيل الحق قبل وفاتك، واستعيني بالله تعالى على الخروج من غفلتك، والتغلب على تقصيرك، فإنما هي الأنفاس، فانتهزيها قبل أن تنقطع، ولعلك اليوم في آخرها، فحسبنا الله ونعم الوكيل!

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«هَذَا ابْنُ آدَمَ، وَهَذَا أَجَلُهُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عِنْدَ قَفَاهُ، ثُمَّ بَسَطَهَا فَقَالَ: وَثَمَّ أَمَلُهُ، وَثَمَّ أَمَلُهُ»[(٢)].

يعني: ما أبعد أمل ابن آدم! وما أقرب أجله!

وعنه رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطوطًا، فقال:

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٤) وغيره، وصححه الألباني.

«هَذَا الأَمَلُ، وَهَذَا أَجَلُهُ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ جَاءَهُ الخَطُّ الأَقْرَبُ»[1].

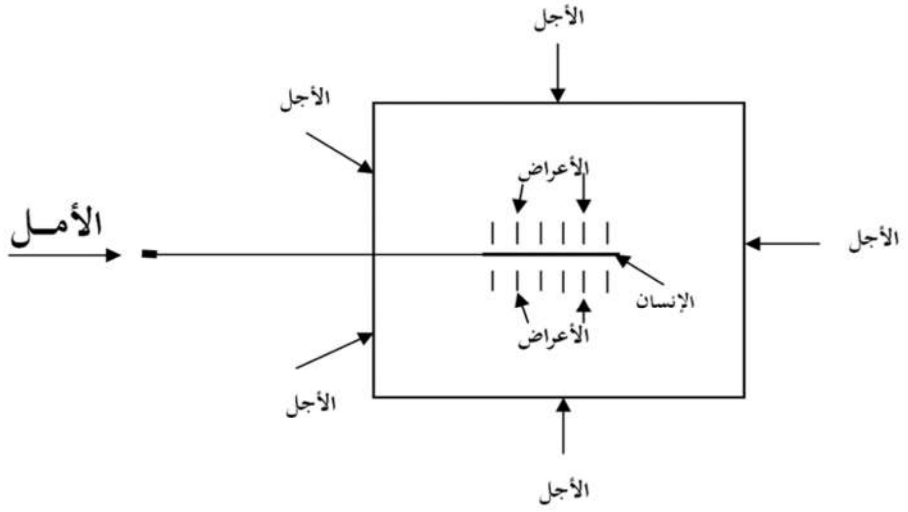
وعن عبد الله رضي الله عنه قال: خَطّ النبي ﷺ خطًّا مربعًا، وخَطّ خطًّا في الوسط خارجًا منه، وخَطّ خُطَطًا صغارًا إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال:

«هَذَا الْإِنْسَانُ، وَهَذَا أَجَلُهُ مُحِيطٌ بِهِ (أو: قَدْ أَحَاطَ بِهِ)، وَهَذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ، وَهَذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الْأَعْرَاضُ، فَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هَذَا نَهَشَهُ هَذَا»[2].

وفي لفظ: وخَطّ في وسط الخط خطًّا، وخَطّ خارجًا من الخط خَطًّا، **وحول الذي في الوسط خُطوطًا**.

وفي لفظ: «هَذَا الْإِنْسَانُ، الخَطُّ الْأَوْسَطُ، وَهَذِهِ الْخُطُوطُ إِلَى جَنْبِهِ الْأَعْرَاضُ، **تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**».

واختلف العلماء في رسم هذه الخطوط النبوية، ورسمتها فيما ظهر لي كما يلي:



(١) أخرجه البخاري (٦٤١٨) وغيره.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٧) وغيره، واللفظ الثاني لفظ الترمذي (٢٤٥٤)، والثالث لفظ ابن ماجه (٤٢٣١).

وإنما الشك عندي في خطوط الأعراض (الصغيرة): هل هي على جانبَي الخط الداخل الذي يشير إلى الإنسان، أم هي على جانب واحد منه؟! وذلك بسبب اختلاف الروايات، ويرجح ما اخترته لفظ رواية الترمذي: «وحول الذي في الوسط خُطوطًا». ويقويه اللفظ المتقدم: «تَنْهَشُهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ». والله تعالى أعلم.

وعن عبد الله بن الشِّخِّيرِ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«مُثِّلَ ابْنُ آدَمَ وَإِلَى جَنْبِهِ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ مَنِيَّةً، إِنْ أَخْطَأَتْهُ المَنَايَا وَقَعَ فِي الهَرَمِ، حَتَّى يَمُوتَ»(١).

وعن بشر بن الحارث قال: حادثوا الآمال بقرب الآجال(٢).

وقيل لحكيم: ما أبعد الأشياء من الناس؟ قال: الأمل. فقيل: وما أقرب الأشياء منهم؟ فقال: الأجل.

وقيل: لو ظهرت الآجال لافتُضحتْ الآمال.

وقيل: يا بن آدم، لو رأيت ما بقي من أجلك لزهدت في طول أملك(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ: فِي حُبِّ الدُّنْيَا، وَطُولِ الْأَمَلِ»(٤).

وعنه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»(٥).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبِي، فقال:

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، [وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٥٠ و ٢٤٥٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) «صفة الصفوة» (٢/٣٣٢).

(٣) انظر «محاضرات الأدباء» (٤/٤٧٨).

(٤) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤١٩) وغيره.

القُبُورِ]»[١].

قال ابن رجب[٢]: «هذا الحديث أصل في قِصَر الأمل في الدنيا، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يتخذ الدنيا وطنًا ومسكنًا، فيطمئنَّ فيها، ولكن ينبغي أن يكون فيها كأنه على جناح سفر، يهيِّئ جهازه للرحيل، وقد اتفقت على ذلك وصايا الأنبياء وأتباعهم».

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: إن أخوف ما أخاف عليكم اثنتان: اتِّباع الهوى، وطول الأمل، فأما اتِّباع الهوى فيَصُد عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسي الآخرة، ألا وإن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، ألا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل[٣].

قال ابن القيم[٤]: «طول الأمل ينسي الآخرة، ويصد عن الاستعداد لها».

وقال[٥]: «لقاحُ أَخْذِ أُهْبَةِ الاستعداد للِّقاء قِصَرُ الأمل، فإذا اجتمعا فالخير كله في اجتماعهما، والشر في فرقتهما».

وقال[٦]: «ليس للعبد أنفع من قِصَر الأمل، ولا أضر من التسويف وطول الأمل». اهـ.

وعن محمد بن نُعيم بن الهَيْصَم، قال: دخلت على بشر في علته، فقلت:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والزيادة للترمذي (٢٣٣٣) وغيره، وصححها الألباني في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث (١١٥٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٧٧).

(٣) «قصر الأمل» لابن أبي الدنيا (رقم ٤٩).

(٤) «الفوائد» (ص ٩٩).

(٥) «الفوائد» (ص ٢٠٠).

(٦) «طريق الهجرتين» (ص ٤٩٠ - طبعة قطر).

عظني. فقال: إن في هذه الدار نملة، تجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، فلما كان يوم أخذت حبة في فمها، فجاء عصفور فأخذها والحبة، فلا ما جمعت أكلت، ولا ما أمّلت نالت![1].

وروى أبو نعيم[2]، عن عبيد الله قال: مَرّ مالك بن دينار على رجل يغرس فسيلًا، فعبر عنه يسيرًا، ثم مَرّ بالفسيل وقد أَطعم، فسأل عن الذي غرسه، فقالوا: مات. ثم أنشأ يقول:

مُؤَمِّـــلُ دنيـــا لتـــبقى لهُ ... فمـات المُؤَمِّـلُ قبـل الأمـلْ

يُـــرَبِّي فَســـيلًا ويُعـــنى بـــهِ ... فعاش الفَسيل ومات الرجـلْ

ويروى أن سيبويه تمثل بهذين البيتين عند موته[3].

وروي أن الحسن قيل له: إن فلانًا مات بغتة! فقال: ما يعجبكم من ذلك؟! لو لم يمت بغتة مرض بغتة، ثم مات![4].

ويا نفس، مهما طالت بك الحياة، ولو عُمِّرْتِ ما عُمِّر نوح عليه الصلاة والسلام فلا بد من الموت، فإذا جاء فكأنك ما عشت، ولا رأيت الدنيا، ولا عافست الأزواج، ولا لاعبت الأولاد، ولا تلذذت، ولا تنعمت، فهاهنا والله حياة الانقطاع والزوال، وثَمّ حياة البقاء والخلود.

ولك يا نفس في قصة وفاة الكليم عليه الصلاة والسلام عبرة وتذكرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ إِلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: أَجِبْ رَبَّكَ».

---

(١) «تاريخ بغداد» (٣/٣٢١).

(٢) «حلية الأولياء» (٢/٣٨٣).

(٣) انظر «معجم الأدباء» (١٦/١٢١)، و«تاريخ بغداد» (١٢/١٩٨).

(٤) «الاستعداد للموت» للمَلِيباري (ص ١٥).

قال: «فَلَطَمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَيْنَ مَلَكِ الْمَوْتِ فَفَقَأَهَا».

قال: «فَرَجَعَ الْمَلَكُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فَقَالَ: [يَا رَبِّ]، إِنَّكَ أَرْسَلْتَنِي إِلَى عَبْدٍ لَكَ لَا يُرِيدُ الْمَوْتَ، وَقَدْ فَقَأَ عَيْنِي».

قال: «فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ عَيْنَهُ، وَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى عَبْدِي فَقُلِ: الْحَيَاةَ تُرِيدُ؟ فَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْحَيَاةَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَى مَتْنِ ثَوْرٍ فَمَا تَوَارَتْ يَدُكَ مِنْ شَعْرَةٍ فَإِنَّكَ تَعِيشُ بِهَا سَنَةً. قَالَ: ثُمَّ مَهْ؟ قَالَ: ثُمَّ تَمُوتُ. قَالَ: فَالْآنَ مِنْ قَرِيبٍ، رَبِّ أَمِتْنِي مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ رَمْيَةً بِحَجَرٍ».

قال رسول الله ﷺ: «وَاللَّهِ لَوْ أَنِّي عِنْدَهُ لَأَرَيْتُكُمْ قَبْرَهُ إِلَى جَانِبِ الطَّرِيقِ عِنْدَ الْكَثِيبِ(١) الْأَحْمَرِ»(٢).

وعن ابن السماك: هب الدنيا في يديك، ومثلها ضُمَّ إليك، وهب المشرق والمغرب يجيء إليك، فإذا جاءك الموت فماذا في يديك؟!(٣).

قال الغزالي(٤): «عليك أن تجتنب طول أملك، فإنه إذا طال هاج أربعة أشياء:

الأول ترك الطاعة والكسل فيها، يقول: سوف أفعل، والأيام بين يدي.

والثاني: ترك التوبة وتسويفها، يقول: سوف أتوب، وفي الأيام سَعَة، وأنا شاب وسني قليل، والتوبة بين يدي وأنا قادر عليها متى رُمتها، وربما اغتاله الحِمام على الإصرار، واختطفه الأجل قبل إصلاح العمل.

والثالث: الحرص على جمع الأموال، والاشتغال بالدنيا عن الآخرة، يقول: أخاف الفقر في الكِبَر، وربما أضعف عن الاكتساب، ولا بد لي من شيء فاضل

---

(١) الكثيب: ما ارتفع من الرمل المجتمع.

(٢) متفق عليه، والسياق لمسلم، والزيادة لابن حبان (٦٢٢٣ و٦٢٢٤).

(٣) «سير أعلام النبلاء» (٨/٣٣٠).

(٤) «الاستعداد للموت» (ص ١٥-١٦)، بتصرف يسير.

أدخره لمرض أو هرم أو فقر، هذا ونحوه يحرك إلى الرغبة في الدنيا، والحرص عليها، والاهتمام للرزق، تقول: إيش آكل؟! وإيش ألبس هذا الشتاء وهذا الصيف؟! وما لي شيء، ولعل العمر يطول فأحتاج، والحاجة مع الشيب شديدة، ولا بد لي من قوت وغُنية عن الناس، وهذه وأمثالها تحرك إلى طلب الدنيا، والرغبة فيها، والجمع لها، والمنع لما عندك منها.

والرابع: القسوة في القلب والنسيان للآخرة، لأنك إذا أمَّلت العيش الطويل لا تذكر الموت والقبر».

وفي «مختصر منهاج القاصدين»[1]: «اعلم: أن السبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا: فإن الإنسان إذا أَنِس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثَقُل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كَرِهَ شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيُمَنِّي نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء، وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يُقَدِّر قربَه، فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبَر ثم تتوب. وإذا كبِر قال: إلى أن يصير شيخًا. وإن صار شيخًا قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعِمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة.

فلا يزال يسوِّف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

---

(١) (ص ٣٨٥-٣٨٦)، بتصرف يسير.

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها، والغفلة عن قول النبي ﷺ: «أَحْبِبْ مَنْ شِئْتَ فَإِنَّكَ مُفَارِقُهُ»[١].

السبب الثاني: الجهل، وهو أن الإنسان يعوِّل على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أوَليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عُدُّوا كانوا أقل من العُشر؟! وإنما قلُّوا لأن الموت في الشباب أكثر، وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإن استبعد ذلك، فإن المرض يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص، من صيف وشتاء وربيع وخريف وليل ونهار، ولا هو مقيَّد بسن مخصوص، من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لَعَظُمَ ذلك عنده واستعد للموت».

وقال ابن الجوزي[٢]: «الواجب على العاقل أخذ العدة لرحيله، فإنه لا يعلم متى يفجؤه أمر ربه، ولا يدري متى يُستدعى، وإني رأيت خلقًا كثيرًا غرهم الشباب، ونسوا فقد الأقران، وألهاهم طول الأمل، وربما قال العالم المحض لنفسه: أشتغل بالعلم اليوم، ثم أعمل به غدًا! فيتساهل في الزهد بحجة الراحة، ويؤخر الأُهبة لتحقيق التوبة، ولا يتحاشى من غِيبة أو سماعها، ومن كَسْب شبهة يأمل أن يمحوها بالورع، وينسى أن الموت قد يبغت، فالعاقل من أعطى كل لحظة حقها من الواجب عليه، فإنْ بغته الموت رُئي مستعدًّا، وإن نال الأمل ازداد خيرًا».

وفي «المدهش»[٣]: «كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموت ساعة، ولا يتم له سرور يوم؟! إذا كان عمرك في إدبار والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى!».

---

(١) بعض حديث، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٤٤٢٩ و٥٠٠٢) وغيرُه. وحسنه الألباني. وقد تقدم (ص ٢١٧).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٨-٢٩).

(٣) (ص ٣١٣).

وفيه[1]: «ويحك! إن سرورها أقتل من السم، وإن شرورها أكثر من النمل، إنها في قلبك أعز من النفس، وستصير عند الموت أهون من الأرض، حرصك بعد الشيب أحر من الجمر، أَبَقِيَ عمر؟ يا أبرد من الثلج! يا من هو عن نجاته أنوم من فهد! ضيعت عمرًا أنفس من الدر، أنت في الشر أجرى من جواد، وفي الخير أبطأ من أعرج».

وفي «لطائف المعارف»[2]: «يا أبناء العشرين، كم مات من أقرانكم وتخلفتم؟! يا أبناء الثلاثين، أُصِبتم بالشباب على قرب من العهد فما تأسفتم! يا أبناء الأربعين، ذهب الصِّبا وأنتم على اللهو قد عكفتم! يا أبناء الخمسين، تنصفتم المائة وما أنصفتم! يا أبناء الستين، أنتم على معترك المنايا قد أشرفتم، أتلهون وتلعبون؟! لقد أسرفتم!

وإذا تكامل للفتى من عمرِهِ ... خمسون وهو إلى التقى لم يجنحْ
عكفتْ عليه المخزياتُ فما لهُ ... متأخرٌ عنها ولا متزحزحْ
وإذا رأى الشيطان غرة وجههِ ... حيّا وقال فديت من لا يفلحْ

قال الفضيل لرجل: كم أتى عليك؟ قال: ستون سنة. قال له: أنت منذ ستين سنة تسير إلى ربك يوشك أن تصل.

وإن امرءًا قد سار ستين حِجةً ... إلى منهلٍ من ورده لقريبُ

يا من يفرح بكثرة مرور السنين عليه، إنما تفرح بنقص عمرك.

قال أبو الدرداء والحسن رضي الله عنهما: إنما أنت أيام، كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

قال الحسن: الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تطوى من ورائكم.

وهي مراحل:

---

(١) (ص ٢٦٠).

(٢) انظر (ص ٣٠٣-٣٠٤).

نســـير إلى الآجـــال في كل لحظـــةٍ وأعمارنـــا تطـــوى وهـــن مراحـــلُ
ترحَّلْ مـن الدنيـا بـزاد مـن التـقى فعمــــرك أيــــام وهُــــنَّ قلائــــلُ

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه! يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه!

شــــيخ كبــــير له ذنــــوب تعجــــز عــــن حملهــــا المطايــــا
قــــد بيضــــت شــــعره الليــــالي وســــودت قلبــــه الخطايــــا

يا من تمر عليه سنة بعد سنة، وهو مستثقل في نوم الغفلة والسِّنة! يا من يأتي عليه عام بعد عام وقد غرق في بحر الخطايا فعام! يا من يشاهد الآيات والعِبر كلما توالت عليه الأعوام والشهور! ويسمع الآيات والسور ولا ينتفع بما يسمع ولا بما يرى من عظائم الأمور! ما الحيلة فيمن سبق عليه الشقاء في الكتاب المسطور! ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]».

ولابن القيم:

ولـــو تبصـــر الدنيـــا وراء ســـتورها رأيـــت خيـــالًا في منـــامٍ سيُصْـــرَمُ
كحُلمٍ بطَيْفٍ زار في النوم وانقضى الْـ ـمنامُ وراح الطيف والصَّبُّ مُغـــرمُ
وظِلٍّ أرته الشـــمسُ عنـــد طلوعهـــا سَيَقلِصُ في وقـــت الـــزوال ويُفصَـــمُ
ومُزْنَةِ صيفٍ طـــاب منهـــا مَقيلهـــا فولّـــت سريعًـــا والحَـــرورُ تَضَـــرَّمُ
ومَطعـــمِ ضـــيف لذّ منـــه مَســـاغُهُ وبعـــد قليـــل حـــاله تلـــك تُعلَـــمُ
كـــذا هـــذه الدنيـــا كـــأحلام نـــائمٍ ومِـــن بعـــدها دار القضـــاء سَـــتَقدَمُ
فجُزهـــا ممـــرًّا لا مقـــرًّا وكـــن بهـــا غريبًـــا تعـــش فيهـــا حميـــدًا وتســـلَمُ

أو ابنَ سـبيلٍ قـال في ظـلِّ دوحـةٍ　　　وراح وخـــلّى ظلَّهـــا يَتـــقسَّمُ
أخـــا ســفرٍ لا يســتقرُّ قـــرارهُ　　　إلى أن يـــرى أوطانَـــه ويُسَـــلِّمُ
فيا عجبا كم مصرعٍ وعظت بـهِ　　　بنيها ولكن عن مصـارعها عَمُـوا
سقتهم كؤوس الحـب حـتى إذا نَشَـوْا　　　سقتهم كؤوس السُّـمِّ والقـوم نُـوَّمُ
وأعجب ما في العبد رؤية هـذه الـ　　　ـــعظائم والمغــرور فيهـــا مُتَـــيَّمُ
ومــــا ذاك إلا أنَّ خمـــرة حُبِّهـــا　　　لَتَسْلِبُ عقـل المـرء منـه وَتَصْـلِمُ
وأعجَبُ مـن ذا أنَّ أحبـــابها الأُلى　　　تـُهـــينُ وللأعـدا تُـراعي وتُكـرِمُ
وذلـك برهـــانٌ علـــى أنّ قــدرها　　　جنـــــاح بعـــــوض أو أدَقُّ وألأمُ
وحسبك مـا قـال الرسـول مُـمثِّلًا　　　لهـــا ولدار الخـلد والحَـقُّ يُفهَـمُ
كما يُدلِيَ الإنسـان في اليَـمِّ أصـبعًا　　　ويَنزعُهـــا منـــه فمـــا ذاك يَغنَـــمُ
ألا ليت شـعري هـل أبيـتنَّ ليـــلةً　　　على حـــذر منهـــا وأمــري مــبرَمُ

ولأبي العتاهية:

ألا رُبَّ ذي أجـــل قـــد حضـــر　　　كثـيرِ التمنـــي قليـــل الحـــذر
إذا هــــز في المشـــي أعطافـــهُ　　　تعرفـــت في مَنكِبيـــه البطـــر
يؤمِّـــل أكثـــر مـــن عمـــرهِ　　　ويــــزداد يومًـــا بيـــوم أشَـــر
أمــا تعجبــون لأهــل القبــور　　　كأنهـــمُ لـــم يكونـــوا بشـــر
فحـــتى مـــتى أنـــت ذو صبـــوةٍ　　　كـــأنْ لـــيس تـــزدادُ إلا صِـــغَر
تؤمـــل في الأرض طـــول الحيـــاة　　　وعمـــرك يـــزداد فيـــه قِصـــر
أرى لــــك ألا تَمَـــلّ الجَهـــاز　　　لقـــرب الرحيـــل وبعـــد السفـــر

وأن تتدبـــر مــــاذا تصيــــر إليــــه فتعمـــل فيـــه الفِـكَــــر
وأن تســتخف بـــدار الغـــرور وأن تستعـــد لإحـــدى الكُبَـــر
هي الدار دار الأذى والقـــــذى ودار الفنــــــاء ودار الغَــــــرر
ولـــــو نِلتـهـــا بحذافيـــرها لمُــتَّ ولــم تقــض منهــا الوَطَــر
فيــا ليــت شــعري أبعــد المشيـــب سوى الموت مـن غائـب يُنتظـر
كأنــك قــد صرت فــي حفـــرةٍ وصــار عليــك الــثرى والمَــدر
فــلا تـنس يومًــا تسجــى علــى سريــرك فــوق رقـــاب البشــــر
وقــــدِّم لــــذاك فــــإن الفتــــى له مـــا يقــــدِّم لا مـــا يَـــذر
أيــا مـــن يؤمــل طــول الحيـــا ة وطــول الحيــاة عليـــه ضـــرر
إذا مـــا كـــبِرت وبـــان الشبـــا ب فلا خير في العـيش بعـد الكِبَر

ولابن الجوزي[١]: مَنْ تفكر في العِبر، ونظر في الغِيَر[٢]، علم أن الآدمي يفنى ببقائه، ويسقم بسلامته، ويؤتى من مأمنه، وما اجتمع لأحدٍ أَمَلُه إلا أسرع في تفريقه أجَلُه، ومن تصور رحيلَه اختار غير اختياره اليوم، ومَنْ بَعُدَتْ هِمَّتُه لم يرض بدون[٣]، ومَنِ استشعر الحساب تنغصت لَذَّتُه، ومَنْ أصغى إلى هاتف الإنذار سمع صوتَ المؤَذِّن بالرحيل، ومَنْ زار القبور بفكره، علم ما ندموا على فعله، وتأسفوا على فَوْته، وتيقنَ أنه غدًا عندهم.

قَصــــِّر بـــدنياك الأمـــل مـــن قبــل إدراك الأجـــل
فلَـــتَرْحَلَنَّ كمثـــل مَـــنْ قـــد كان قبلـــك وارتحـــل

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٤٦).
(٢) غِيَر الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.
(٣) الدُّون: الخسيس الحقير.

واحــذر وقوفــك في غــدٍ عند الحسـاب مِـن الخجـل

وقـد اعترفـت بمـا اقترفْــ ـــتَ مـن الخطايـا والزلـل

فــإلى مـــتى هـــذا الفتــو ر وذا التـــواني والكســـل

وله(١): «يا أسفا للعصاة في مآبها! إذا قَلِقَتْ لقطع أسبابها، وغابت في الأسى عند حضور عتابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية:٢٨].

قامت الأمم على أقدامها، فأقامت تبكي على إقدامها، وسالت عيونٌ من عيون غرامها، ندمًا على آثامها في أيامها واحتقابها(٢)، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

ظهرت أهوالٌ لا توصف، وبدت أُمور لا تُعْرف، وكُشِفَتْ حالات لم تكن تُكْشَف، إنْ لم تنتبه لهذا فأنت أعْرَف، ستعرف من يلوم نفسه عند عذابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

قِيدَتْ جهنم فبدتْ بأَزِمَّتِها، فبكت النفوس على دناءة هِمّتها، كم من ديون تعلقتْ بذمتها! على أنه يكفيها ما بها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

أنت تدري ما في كتابك، وستبكي والله عند عتابك، وستعلم حالك يوم حسابك، إذا كَلَّتْ كلُّ الألسن عن جوابها، ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

يا له يوم لا كالأيام، يتيقظ فيه مَنْ غَفَلَ ونام، ويحزن كل مَنْ فَرِحَ في الآثام، وتيقنْ أنّ أحلى ما كنت فيه أحلام، وا عجبا لِضَحِكِ نَفْسٍ البكاءُ أولى بها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾.

كم من نفسٍ تُرَى بعين الصلاح، تفعل الخير في المساء والصباح، عملت

---

(١) «التبصرة» (١٨٥/٢).

(٢) أي: احتقابها الآثام، احتقب الشيء: ادّخره. واحتقب الإثم: كأنه جمعه واحتقبه من خلفه؛ أي: جعله وراءه حقيبة، كما يجعل الزاد على الراحلة.

أعمالًا ترجو بها الفلاح، فلاح لها ما لم يكن في حسابها! ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾».

وله[1]: «ويحك! أنت محاسب على ما ضَيّعْت، مسؤول عن كل ما جَمَعْت، مناقَشٌ على كل ما فعلت، ألا تتصور بقلبك عتابك على ذنبك؟! ألا تَتَمَثّل بلُبِّكَ شهادة أعضائك وكُتُبك؟! مَنْ لك إذا جُوزِيتَ على كَسْبِك؟! فقل لي: ماذا تقول لربك؟!

يا نازلين منازل الهالكين، يا مقيمين في مقام الراحلين، أين مَنْ فعل فعلكم؟! قِيدوا إلى البِلى فانقادوا، وبادوا في الثَّرى وما عادوا، ما رَدَّ عنهم ما بَنَوْا وما شادوا، ولقد فاتهم يوم الرحيل ما أرادوا».

○○○○○

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٦٩).

فها أنت يا نفس قد أيقنت بدنو القيامة، واطلعت على ما قدمنا في ذلك، وأن الموت سرعان ما ينقلك إلى أول منزل من منازل الآخرة، فهل أنت ـ إذ كنت كذلك ـ مستعدةٌ للقاء الله تعالى؟! وهل أنت متهيئة للحساب والعتاب؟! وهل أعددت للسؤال الجواب؟! وللجواب الصوابَ؟!

قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

قيل: إن هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم.

قلت: فلْيَعِظْ عبدٌ نفسه بما فيها، ولْيُعِدّ للقاء ربه عز وجل الإيمان وصالح الأعمال، ولْيجعل هذه الآية منه على بال، لا يغفل عنها أبدًا.

وقال ابن جرير في تفسيرها: «يعني بذلك جل ثناؤه: واحذروا أيها الناس ﴿يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فتلقَوْنه فيه، أن تَرِدُوا عليه بسيئات تهلككم، أو بمخزيات تخزيكم، أو بفاضحات تفضحكم فتهتك أستاركم، أو بموبقات توبقكم فتوجب لكم من عقاب الله ما لا قِبَل لكم به، وإنه يوم مجازاةٍ بالأعمال، لا يوم استعتاب، ولا يوم استقالة وتوبة وإنابة، ولكنه يوم جزاء وثواب ومحاسبة، تُوَفَّـى فيه كلُّ نفس أجرَها على ما قدمت واكتسبت من سيئٍ وصالح، لا تُغادَر فيه صغيرةٌ ولا كبيرةٌ من خير وشر إلا أُحْضِرَتْ، فوُفِّيَتْ جزاءها بالعدل من ربها، ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾، وكيف يُظلم من جُوزي بالإساءة مثلَها، وبالحسنة عشرَ أمثالها؟! كلا، بل عَدَل عليك أيها المسيء، وتكرم عليك فأفضل وأسبغ أيها المحسن، فاتقى امرؤٌ ربَّه، وأَخذ منه حِذْرَه، وراقبه أن يهجُم عليه يومُه وهو من الأوزار ظهره ثقيل، ومن صالحات الأعمال خفيف، فإنه عز

وجل حَذّر فأعذَر، ووَعظ فأبلغ». اهـ.

ويشبه هذه الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:١٢٣].

وثلاثتها في سورة البقرة!

قال المراغي: «﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾؛ أي: واخشَوا يومًا يقع فيه من الأهوال ما لا قدرة لكم على دفعه، ولا منجاة لكم منه، إلا بتقوى الله في السر والعلن، يوم لا تحمل نفس أوزار نفس أخرى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام:١٦٤، وفي مواضع أُخر].

وقال: ﴿ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ [فاطر:١٨].

وقال: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ [عبس:٣٤-٣٦].

وقال: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾؛ أي: إنها إذا جاءت بشفاعة شفيع لم تقبل منها.

﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾؛ أي: ولا يؤخذ منها فداء إن هى استطاعت أن تأتي بذلك.

﴿ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾؛ أي: يمنعون من العذاب.

والخلاصة: أن ذلك يومٌ تتقطع فيه الأسباب، وتبطل منفعة الأنساب، وتتحول فيه سنة الحياة الدنيا، من دفع المكروه عن النفس بالفداء، أو بشفاعة الشافعين، عند الأمراء والسلاطين، أو بأنصار ينصرونها بالحق والباطل على سواها، وتضمحل فيه جميع الوسائل، إلا ما كان من إخلاص في العمل قبل حلول

الأجل، ولا يتكلم فيه أحد إلا بإذن الله». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۞ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۞ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ١٨-٢٠].

فيا نفس، هلَّا تأتمرين بأمر الله تعالى فتنظري ما قدمتِ لحياتك الآخرة قبل فوات الأوان؟! ويكِ يا نفس! إنما تسعَين لنجاتك! وإنما تعملين لخلاصك!

قال ابن القيم: «يقول تعالى: لينظر أحدكم ما قدم ليوم القيامة من الأعمال: أَمِنَ الصالحات التي تُنجيه أم السيئات التي توبقه.

قال قتادة: ما زال ربكم يقرب الساعة حتى جعلها كغد».

وقال ابن سعدي: «يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه سرًّا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نُصب أعينهم وقبلة قلوبهم واهتموا بالمقام فيها اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تَعُوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون لا تخفى عليه أعمالهم ولا تضيع لديه ولا يهملها أوجب لهم الجد والاجتهاد».

قال: «وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدها: فإن رأى زللًا تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن

الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامر الله بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة».

قال: «والحرمان كل الحرمان أن يغفل العبد عن هذا الأمر ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغُبنوا غَبنًا لا يمكنهم تداركه ولا يُجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده فاستحق جنات النعيم والعيش السليم ـ مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ـ ومَنْ غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه فشقي في الدنيا واستحق العذاب في الآخرة؟! فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون». اهـ.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٞ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ﴾ [الحج:١-٢].

فانظري ويكِ يا نفس! في هذه الآيات، وتدبريها، فوالله لولا أن الله يمسك القلب بحفظه لتوقف من هول هذا المشهد، ووالله إن النفس لتكاد تفارق الجسد من فظاعته، ويا ألله ما أعظم وقعه على الأسماع! وما أعجب تلقيها له! وكأنه صاعقة عظيمة تتلوها صاعقة! فحسبنا الله ونعم الوكيل!

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمٗا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا

﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴾ [الأنعام: ٧٠].

فتخيلي يا نفس، لو قد أحاطت بكِ خطيئتك، واستوجبتِ عذاب الله تعالى الذي لا يحتمله أحد، ثم كانت لك الدنيا بذهبها وفضتها ولؤلؤها، ونسائها وولدانها، ومآكلها ومشاربها، وحيواناتها وأشجارها وزروعها، وجميع مراكبها، وأثاثها ورِئْيها، ثم بذلتِ ذلك كله ومثله معه لتفتدي به من العذاب وتنجي منه، فلم يُتقبل منك، ولم يغنِ عنك من الله شيئًا!!

ووددْتِ لو تفتدين من هذا العذاب العظيم بأبنائك الذين تحبينهم، وزوجك التي تسكنين إليها، وأخيك الذي تنتصرين به في الدنيا.

ووددْتِ لو تفتدين منه بكل مَنْ تحبين من قريب أو صديق، بل وبكل مَنْ في الأرض جميعًا.

ولكن، هل ينفعك هؤلاء؟! وهل يغنون عنك من عذاب الله شيئًا؟! كلا، لن ينفعوك ولن ينصروك، كما قال الله عز وجل: ﴿يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ * وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ * كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ * نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ * تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ * وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴾ [المعارج: ١١-١٨].

ويا نفس، تخيلي ما أعجب أمر ذلك اليوم! وما أفظع هوله! وما أشد زلزلته للنفوس! وما أبلغ تخويفه للقلوب! بحيث يفر فيه المرء من أحبابه وأصحابه! ويود لو يفتدي من عذابه بفلذات كبده! وبالناس جميعًا! وقد كان في الدنيا مهما اشتد

الهول، ومهما عظُم الخطب، يقي بُنَيَّه بنفسه، ويدفع عنه بجسده، ويجعل نحره دون نحره!!! فيا للَّهِ العظيم! ما أشد عذابَه! وما آلَمَ عقابَه!

وقال سبحانه: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقال سبحانه في نفس السورة: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة:١٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴾ [غافر:١٨].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الحديد:١٥].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ۞ وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۞ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ [يونس:٥٣-٥٥].

فيا من آمنَتْ بهذا وأيقنَتْ به! سارعي ويلك إلى فداء جسدك من النار قبل فوات الأوان، وقدّمي ليوم فاقتك طاعة مولاك جل جلاله، لتأمني العذاب يوم القيامة مع الآمنين.

ويا فوزكِ! إن كنت من الذين افتدَوا منه الآن، حيث ينفع الفداء، وندموا على ما فرطوا في جنب الله تعالى، وتابوا وأنابوا قبل حلول الأجل، وانقطاع العمل.

ويا ويلكِ! إن كنت من الذين أخّروا التوبة، وتعلّلوا بلعل وسوف، حتى

فاجأهم الموت، فذهبت أعمارهم في جمع السيئات، وفاتهم رضا رب الأرض والسموات، وحُرِموا الفوزَ بنعيم الجنات، بل واستوجبوا سخط الله تعالى وعقابه! عياذًا بك اللـهم من ذلك!

فصل

وتدبري يا نفس وتفهمي واعملي بمقتضى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود:١٠٣-١٠٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾[النبأ:٣٩].

فعجلي يا نفس، واتخذي إلى ربك مرجعًا نافعًا، ومأوًى آمنًا، بفعل الصالحات، واجتناب السيئات.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

وقوله سبحانه: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القيامة:٢٠-٢١].

وقوله سبحانه: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا * وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الأعلى:١٦-١٧].

وقوله سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

وقوله سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى:٤٧].

قال ابن سعدي: «يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتثال ما أمر به،

واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده، واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربَّه ويهرب منه، بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لِـما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه».

قال: «وهذه الآية ونحوها فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يَعرض للعبد، فإن للتأخير آفات». اهـ.

وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠-١١].

وقال الله تعالى: ﴿أَلۡهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ * حَتَّىٰ زُرۡتُمُ ٱلۡمَقَابِرَ * كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ * كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ ٱلۡجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [سورة التكاثر].

قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوۡ تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾، قال ابن جرير: «ما هكذا ينبغي أن تفعلوا، أن يلهيكم التكاثر أيها الناس، لو تعلمون أيها الناس علمًا يقينيًّا أن الله باعثكم يوم القيامة من بعد مماتكم من قبوركم ما ألهاكم التكاثر عن طاعة الله ربكم، ولسارعتم إلى عبادته والانتهاء إلى أمره ونهيه ورفض الدنيا إشفاقًا على أنفسكم من عقوبته». اهـ.

قلت: فعلى هذا جواب «لو» محذوف، وجملة «لترون الجحيم» مستأنفة.

قال الزمخشري: «﴿لَوۡ تَعۡلَمُونَ﴾ محذوف الجواب؛ يعني: لو تعلمون ما بين أيديكم عِلم الأمر اليقين؛ أي: كعلمكم ما تستيقنونه من الأمور التي وَكَّلْتم

بعلمها هممكم، لفعلتم ما لا يوصف ولا يكتنه، ولكنكم ضُلّال جَهَلة».

وقال ابن القيم: «توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيدًا مؤكدًا، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباءً منثورًا، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خدعًا وغرورًا، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هنالك تكاثره كما خسره أمثاله، وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعُذِّب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة، فكان أشقى الناس بتكاثره، إذ أفاد منه العطب دون الغنيمة والسلامة، فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين».

قال: «فيا له تكاثرًا ما أقلَّه! ورزءًا ما أجلَّه! وغنًى جالبًا لكل فقر! وخيرًا تُوُصِّل به إلى كل شر! يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: ﴿يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢٤]، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي، ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، تلك كلمة يقولها، فلا يُعوَّل عليها، ورجعة يسألها فلا يُجاب إليها!».

وقال: «فلله ما أعظمها من سورة! وأجلّها وأعظمها فائدة! وأبلغها موعظة وتحذيرًا! وأشدها ترغيبًا في الآخرة، وتزهيدًا في الدنيا! على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظمها، فتبارك من تكلم بها حقًّا، وبلغها عنه رسوله وحيًا». اهـ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ

وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّار. فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ. وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ، ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ، خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ». ثم قرأ: «﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾، وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةٍ: أَهْلُ الدُّنْيَا، ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩]»(١).

وعن أنس رضي الله عنه، أن رجلًا سأل النبي ﷺ عن الساعة، فقال: متى الساعة؟ قال: «وَمَاذَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ. فقال: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

قال أنس: فما فرِحنا بشيء فرَحَنا بقول النبي ﷺ: «أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ».

قال أنس: فأنا أُحب النبيَّ ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبِّي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم(٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنه قال: كنت مع رسول الله ﷺ، فجاءه رجل من الأنصار، فسلم على النبي ﷺ، ثم قال: يا رسول الله، أي المؤمنين أفضل؟ قال:

«أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا». قال: فأي المؤمنين أَكْيَس؟ قال: «أَكْثَرُهُمْ لِلْمَوْتِ ذِكْرًا، وَأَحْسَنُهُمْ لِمَا بَعْدَهُ اسْتِعْدَادًا، أُولَئِكَ الْأَكْيَاسُ»(٣).

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ إذْ بَصُرَ بجماعة، فقال:

«عَلَامَ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ هَؤُلَاءِ؟».

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٨٨، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (٢٦٣٩)، وغيرهما.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٩) وغيره، وهو حديث حسن بطرقه، كما في «الصحيحة» (٣٧٣/٣).

قيل: على قبر يحفرونه. قال: ففزع رسول الله ﷺ، فبَدَرَ بين يدي أصحابه مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثا عليه، قال: فاستقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع، فبكى حتى بَلّ الثَّرى من دموعه، ثم أقبل علينا، قال:

«أَيْ إِخْوَانِي، لِمِثْلِ الْيَوْمِ فَأَعِدُّوا»(١).

وعن عَدِيِّ بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة(٢)، ثم أتاه آخر فشكا إليه قَطْعَ السبيل، فقال: «يَا عَدِيُّ، هَلْ رَأَيْتَ الْحِيرَةَ ؟» قلت: لم أرها وقد أُنبئت عنها. قال:

«فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الظَّعِينَةَ(٣) تَرْتَحِلُ مِنَ الْحِيرَةِ، حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ، لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ».

قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّارُ طَيِّءٍ(٤) الذين قد سَعَّروا البلاد.

«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى». قلت: كسرى بن هُرْمُزَ؟! قال: «كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ».

«وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ لَتَرَيَنَّ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ.

وَلَيَلْقَيَنَّ اللَّهَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ، وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ يُتَرْجِمُ لَهُ، فَلَيَقُولَنَّ لَهُ:

أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيُبَلِّغَكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى، فَيَقُولُ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأُفْضِلْ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولُ: بَلَى.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، وأحمد (٢٩٤/٤)، واللفظ له، وغيرهما، وحسن إسناده الألباني في «الصحيحة» (٣٤٥/٤).

(٢) أي: الحاجة والفقر.

(٣) الظَّعْن: الركوب للسفر، والظَّعِينَة: المرأة في السفر.

(٤) جمع داعر، وهو الشاطر الخبيث المفسد، والمراد قُطّاع الطريق. «فتح».

فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ».

قال عَدِيٌّ: سمعت النبي ﷺ يقول:

«اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

قال عَدِيٌّ: فرأيت الظَّعِينَة ترتحل من الحِيرة حتى تطوفَ بالكعبة لا تخافُ إلا الله، وكنت فيمن افتَتح كنوزَ كسرى بن هُرْمُزَ، ولئن طالت بكم حياةٌ لتَرَوُنَّ ما قال النبي أبو القاسم ﷺ: «يُخْرِجُ مِلْءَ كَفِّهِ»[1].

وفي لفظ: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَاقِي اللَّهَ وَقَائِلٌ لَهُ مَا أَقُولُ لَكُمْ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ مَالًا وَوَلَدًا؟ فَيَقُولُ: بَلَى. فَيَقُولُ: أَيْنَ مَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ؟ فَيَنْظُرُ قُدَّامَهُ وَبَعْدَهُ، وَعَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ لَا يَجِدُ شَيْئًا يَقِي بِهِ وَجْهَهُ حَرَّ جَهَنَّمَ، لِيَقِ أَحَدُكُمْ وَجْهَهُ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ». الحديث.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلِمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلِمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[2].

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ[3] مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٣ و ٣٥٩٥، وفي مواضع أُخَر)، ومسلم (١٠١٦)، مختصرًا، وغيرهما. واللفظ الثاني للترمذي (٢٩٥٣)، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (١٠١/٥ و٣٩٥/١١ - فتح) وغيره.

(٣) التي لا قرن لها.

(٤) أخرجه مسلم (٢٥٨٢) وغيره.

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟». قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع. قال رسول الله ﷺ:

«الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ وَزَكَاتِهِ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُقْعَدُ، فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْتَصَّ مَا عَلَيْهِ مِنَ الْخَطَايَا أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(١).

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر:٣٠-٣١]، قلت: أَيُكَرَّرُ علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خَوَاصِّ الذنوب؟ قال:

«نَعَمْ، لَيُكَرَّرَنَّ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ، حَتَّى يُؤَدَّى إِلَى كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ».

قال الزبير: فوالله إن الأمر لشديد(٢).

قال الغزالي: «ما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم! وما أشد حسراتك في ذلك اليوم، إذا وقفت بين يدي الله تعالى وأنت مفلس فقير عاجز مهين، لا تقدر على أن تَرُدَّ حقًّا أو تظهر عذرًا! فعند ذلك تؤخذ حسناتك التي تعبت فيها عمرك، وتنقل إلى خصمائك عوضًا عن حقوقهم.

فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم، إذ ليس يسلم لك حسنة من آفات الرياء ومكايد الشيطان، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٨١)، والترمذي (٢٤١٨)، واللفظ له، وغيرهما.

(٢) أخرجه الحاكم (٤٣٥/٢١ و٥٧٢/٤)، وأحمد (١٦٧/١)، وغيرهما. وأخرجه الترمذي (٣٢٣٦)، وقال: «حسن صحيح»، وعنده: «قال الزبير: يا رسول الله، أتكرَّر علينا الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟». وحسن إسناده الألباني.

وقيام الليل لعلمت أنه لا ينقضي عنك يوم إلا ويجري على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات، من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات؟! وكيف ترجو الخلاص من المظالم في يوم يقتص فيه للجمَّاء من القرناء؟!». اهـ.

وقال ابن أبي الدنيا[١]: حدثنا إسحق بن إسماعيل، ثنا سفيان بن عيينة، عن جعفر بن بُرقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٨].

وقال المحاسبي: «يا أخي، فإني أحذرك ونفسي مقامًا عَنَتْ فيه الوجوه، وخشعت فيه الأصوات، وذلّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين.

وقد جمعهم الواحد القهار، الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشارك في حكمه، جمعهم بعد طول البِلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبدًا أمره ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدنٍ تقف بين يديه، وأَعِدَّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، فإنه لا يُصَدِّقُ إلا الصادقين، ولا يُكَذِّبُ إلا الكاذبين.

فليكن أول ما تبدأ به من العُدَّة لذلك المقام: تقوى الله عز وجل في السر والعلانية، ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور». اهـ.

ولابن القيم:

---

(١) «محاسبة النفس» (رقم ٢).

فيا ساهيًا في غَمرةِ الجهل والهوى صريعَ الأماني عن قريبٍ ستندمُ
أفقْ قد دنا الوقتُ الذي ليس بعدَه سوى جنةٍ أو حَرِّ نارٍ تَضَرَّمُ
وخذ من تقى الرحمن أعظمَ جُنَّةٍ ليومٍ به تبدو عِيانًا جهنمُ
ويُنصبُ ذاك الجِسْرُ من فوق مَتْنِها فهاوٍ ومَخْدوشٌ وناجٍ مُسَلَّمُ
ويأخذُ للمظلومِ ربُّكَ حَقَّهُ فيا بُؤْسَ عبدٍ للخلائقِ يَظْلِمُ
فلا مُجْرِمٌ يَخْشى ظُلامَةَ ذَرَّةٍ ولا محسنٌ من أجره ذاك يُهْضَمُ
وتشهدُ أعضاءُ المُسيءِ بما جَنى كذاكَ على فيه المُهَيْمنُ يَختِمُ
فيا ليتَ شِعري كيف حالُكَ عندما تطايرُ كُتْبُ العالمينَ وتُقْسَمُ
أتأخذُ باليمينِ كتابَكَ أمْ تكنْ بالأخرى وراءَ الظهر منك تُسَلَّمُ
وتقرأُ فيه كلَّ شيءٍ عَمِلْتَهُ فيُشْرِقُ منك الوجهُ أو هو يُظْلِمُ
تقولُ كتابي فاقرؤوهُ فإنّهُ يُبَشِّرُ بالفوزِ العظيمِ ويُعْلِمُ
فإنْ تكنِ الأخرى فإنك قائلٌ ألا ليتني لم أُوتَهُ فهْوَ مَغْرَمُ
فبادِرْ إذَنْ ما دام في العُمْرِ فُسْحَةٌ وعَدْلُكَ مقبولٌ وصَرْفُكَ قَيِّمُ
وجِدَّ وسارِعْ واغتنم زمنَ الصِّبا ففي زمنِ الإمكانِ تسعى وتغنمُ
وسِرْ مُسرعًا فالسيلُ خلفك مسرعٌ وهيهاتَ ما منه مَفرٌّ ومَهْزَمُ
فهنّ المنايا أيَّ وادٍ نَزِلْتَهُ عليها القُدومُ أو عليكَ سَتَقْدَمُ

ولأبي العتاهية:

أيها المُزْمِعُ الرحيلَ عنِ الدُّنْـ ـيا تَزَوَّدْ لِذاكَ من خير زادِ
لتنالنَّك الليالي وشيكًا بالمنايا فَكُن على استعدادِ

تَنَاسَـــيْتَ أم نَسِـــيتَ المنايـــا　　أنَسِـــيتَ الفِـــراق لـــلأولادِ
أنَسِـــيتَ إذ أنـــت فيهـــا　　بـــين ذُلٍّ ووَحشـــةٍ وانفِـــرادِ
أيُّ يـــومٍ يـــومُ السِّـــباق وإذ أنْـــ　　ــت تُنَـادَى فمـا تجيـب المُنـادي
أيُّ يـــومٍ يـــومُ الفِـــراقِ وإذ نفْـــ　　ــسُك تَـرْقَى عـن الحشـا والفُـؤادِ
أيُّ يـــومٍ يـــومُ الصّـــُراخِ وإذْ يَلْـــ　　ــطِمْنَ حُـرَّ الوجـوهِ والأجيـادِ
باكيـــاتٌ عليـــكَ يَنْـــدُبْنَ شَـــجْوًا　　خافِقـــاتُ القلـــوب والأكبـــادِ
يَتَجـــاوَبْنَ بـــالرَّنين ويَذْرِفْـــ　　ــنَ دُمـوعًا تفـيضُ فَـيْضَ المَـزَادِ
أيُّ يـــومٍ نســـيت يـــوم التـــلاقي　　أيُّ يـــومٍ نســـيت يـــوم المعـــادِ
أيُّ يـــومٍ يـــومُ الوقـــوف إلى اللـــ　　ــهِ ويـــومُ الحســـاب والأشْـــهادِ
أيُّ يـــومٍ يـــومُ المَمَـــرِّ على النّـــا　　رِ وأهوالهـــا العِظـــامِ الشـــدادِ
أيُّ يـــومٍ يـــومُ الخـــلاص مـــن النّـــا　　رِ وهـــول العـــذاب والأصـــفادِ
كم وكم في القبور مـن أهـل ملـكٍ　　كـم وكـم في القبـور مـن قُـوَّادِ
كم وكم في القبـور مـن أهـل دنيـا　　كـم وكـم في القبـور مـن زُهّـادِ
لو بذلتُ النّصـح الصـحيح لنفسـي　　لـم تـذق مقلتـاي طعـمَ الرُّقـادِ
لو بذلت النّصـح الصـحيح لنفسـي　　هِمْـتُ أخـرى الزمـان في كل وادِ
بُـؤْسَ لي بُـؤْسَ ميِّتًـا يـوم أُبْكَـى　　بـين أهـلي وحـاضِرِ العُـوَّادِ
كيف ألهو وكيف أسـلُو وأنْسـى الـ　　ــموتَ والمـوتُ رائـحٌ ثـم غَـادِ
يـا طويـلَ الرُّقـادِ لـو كنـتَ تـدري　　كنـتَ مَيْـتَ الرُّقـادِ حيَّ السُّـهادِ

وهذه مقالة قصيرة مؤثرة وقعت في يدي، وقد نُسِبَتْ إلى عدة أشخاص، يقول كاتبها: «عند موتي لن أقلق ولن أهتم بجسدي البالي، فإخواني من المسلمين سيقومون باللازم وهو: يجردونني من ملابسي، يغسلونني، يكفنونني، يخرجونني من بيتي، يذهبون بي لمسكني الجديد (القبر).

وسيأتي الكثيرون لتشييع جنازتي، بل سيلغي الكثير منهم أعماله ومواعيده لأجل دفني، وقد يكون الكثير منهم لم يفكر في نصيحتي يومًا من الأيام.

أشيائي سيتم التخلص منها: مفاتيحي، كتبي، حقيبتي، أحذيتي، ملابسي، وهكذا...، وإن كان أهلي موفقين فسوف يتصدقون بها لتنفعني.

تأكدوا بأن الدنيا لن تحزن علي، ولن تتوقف حركة العالم، والاقتصاد سيستمر، ووظيفتي سيأتي غيري ليقوم بها، وأموالي ستذهب حلالًا للورثة، بينما أنا الذي سأحاسب عليها، القليل والكثير، النقير والقطمير.

وإن أول ما يسقط مني عند موتي هو اسمي، لذلك عندما أموت سيقولون عني: أين الجثة؟! ولن ينادوني باسمي، وعندما يريدون الصلاة علي سيقولون: أحضروا الجنازة. ولن ينادوني باسمي، وعندما يشرعون بدفني سيقولون: قربوا الميت. ولن يذكروا اسمي.

لذلك لن يغرني نسبي ولا قبيلتي، ولن يغرني منصبي ولا شهرتي، فما أتفه هذه الدنيا! وما أعظم ما نحن مقبلون عليه!

فيا أيها الحي الآن، اعلم أن الحزن عليك سيكون على ثلاثة أنواع:

١- الناس الذين يعرفونك سطحيًا سيقولون: مسكين.

٢- أصدقاؤك سيحزنون ساعات أو أيامًا، ثم يعودون إلى حديثهم، بل وضحكهم.

٣- الحزن العميق في البيت، سيحزن أهلك أسبوعًا، أسبوعين، شهرًا، شهرين، أو حتى سنة، وبعدها سيضعونك في أرشيف الذكريات.

انتهت قصتك بين الناس، وبدأت قصتك الحقيقية، وهي الآخرة، لقد زال

عنك: الجمال والمال والصحة والولد، فارقت الدور والقصور والزوج، ولم يبق معك إلا عملك، وبدأت الحياة الحقيقية.

والسؤال هنا: ماذا أعددت لقبرك وآخرتك من الآن؟!!

هذه حقيقة تحتاج إلى تأمل، لذلك احرص على: الفرائض، النوافل، صدقة السر، عمل صالح، صلاة الليل، لعلك تنجو!!».

التحسر على عدم الاستعداد

واعلمي يا نفس، أنك إن لم تكوني من أهل الاستعداد والعمل للآخرة فإنك ستندمين على ذلك أشد الندم، وستتحسرين عليه أعظم الحسرة، فما أن تُحمل جنازتك حتى تقولي: «يا ويلها! أين تذهبون بها؟!».

ثم يصاحبك الندم في كل مواطنك، من ساعة دخول القبر إلى أن تَرِدِي النار ـ والعياذ بالله ـ، وتطلبي في كل موطن الرَّدَّ إلى الدنيا لتناوش الإيمان، وتحصيل صالح الأعمال، فلا تجابي، وا أسفا!

ذكرى الدار

فاجعلي يا نفس الآخرةَ همَّك، وقد كُفِيتِ همومَ الدنيا كلها، وسيأتيك رزقك ونصيبك منها، فإنه مدركك لا محالة، كما أن الموت مدركك لا محالة، كما جاء في الحديث، عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»(١).

وعن زبد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٦٥) وغيره، وصححه الألباني.

«مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت نبيكم ﷺ يقول:

«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ الْمَعَادِ، كَفَاهُ اللَّهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللَّهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهِ هَلَكَ»(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: يَا بْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ صَدْرَكَ غِنًى وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ مَلَأْتُ يَدَيْكَ شُغْلًا وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ»(٣).

وعن مَعْقِلِ بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«يَقُولُ رَبُّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا بْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلَأْ قَلْبَكَ غِنًى وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ رِزْقًا، يَا بْنَ آدَمَ لَا تَبَاعَدْ مِنِّي فَأَمْلَأْ قَلْبَكَ فَقْرًا وَأَمْلَأْ يَدَيْكَ شُغْلًا»(٤).

وعن ابن عَوْنٍ، عن محمد قال: جاء رجلٌ معاذَ بن جبلٍ، معه أصحابه يسلمون عليه ويودعونه ويوصونه، فقال له معاذ: إني موصيك بأمرين إنْ حفظتَهما حفظتَ ما قال لك أصحابُك: إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أحوج، فآثِرْ نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا، فإنه يأتي بك أو يمر بك على نصيبك من الدنيا فينتظمه لك انتظامًا(٥)،

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧ و٤١٠٦) وغيره، وحسنه الألباني.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤٦٦) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أخرجه الحاكم (٣٢٦/٤) وغيره، وهو في «السلسلة الصحيحة» تحت الحديث (١٣٥٩).

(٥) أي: يجمعه لك ويضمه ويلمه. ونقول: انتظم اللؤلؤ في الخيط.

فيزول معك أينما زلت[1].

وقال ابن القيم: «لا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها»[2].

ولأبي العتاهية:

إذا جعلت الهمَّ همًّا واحدًا ... نَعِمْتَ بالًا وغَنِمْتَ راشدًا

ولا تقلقي يا نفس للدنيا الفانية التي فيها وفاتك، واقلقي للآخرة الباقية التي فيها حياتك، ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]. ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:٣٢].

وقد قال الله تعالى ذاكرًا منته العظيمة على أنبيائه وصفوته: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ [ص:٤٦].

قال ابن جرير: «إنا أخلصناهم بخالصة، هي ذكرى الدار الآخرة، فعملوا لها في الدنيا، فأطاعوا الله وراقبوه».

وقال ابن سعدي: «﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي: ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾، جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار، يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعتبر، ويُذكرون بأحسن الذكر».

وعن أنس رضي الله عنه قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين، فما قال لي: أُفٍّ، قَطُّ، وما قال لي لشيء لَمْ أفعله: ألا كنتَ فعلتَه؟ ولا لشيء فعلتُه: لِمَ فعلتَه؟[3].

---

(١) «مصنف ابن أبي شيبة» (٣٤٦٩٥/١٢٥/٧ – طبعة مكتبة الرشد).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٣٦/١).

(٣) متفق عليه، وأخرجه البخاري أيضًا في «الأدب» (٢٧٧)، واللفظ له، وصححه الألباني.

التعلق بغير الله تعالى

وإياك يا نفس والتعلق بغير الله تعالى، من رجل أو امرأة، أو صديق أو حبيب، أو قريب أو بعيد، فتصرفين همتك إليه، وتشغلين قلبك به، وتضيعين وقتك بمراقبة مراضيه ومساخطه، وما يحبه وما يبغضه، فلا أضر عليك ولا أفسد لقلبك من هذا.

قال ابن القيم[1]: «وهذا (يعني: التعلق) أعظم مفسدات [القلب] على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فإنه إذا تعلق بغير الله وَكَله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به وصل، قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا * كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ [مريم:٨١-٨٢].

وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس:٧٤-٧٥].

فأعظم الناس خِذلانًا من تعلق بغير الله، فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به، وهو معرض للزوال والفوات، ومَثَل المتعلق بغير الله كمَثَل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهنِ البيوت.

وبالجملة، فأساس الشرك وقاعدته التي بُنِي عليها: التعلق بغير الله، ولصاحبه الذم والخِذلان، كما قال تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾ [الإسراء:٢٢]. مذمومًا لا حامد لك، مخذولًا لا ناصر لك».

وقال[2]: «وهل النعيم إلا نعيم القلب؟! وهل العذاب إلا عذاب القلب؟!

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (٤٥٥/١).

(٢) «الجواب الكافي» (ص ٧٦-٧٧).

وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر، وإعراضه عن الله والدار الآخرة، وتعلقه بغير الله، وانقطاعه عن الله، بكل واد منه شعبة؟! وكل شيء تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب.

فكل من أحب شيئًا غير الله عُذِّب به ثلاث مرات في هذه الدار: فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل، فإذا حصل عُذِّب به حال حصوله بالخوف من سَلْبه وفواته، والتنغيص والتنكيد عليه، وأنواع من العذاب في هذه المعارضات، فإذا سُلِبه اشتد عليه عذابه، فهذه ثلاثة أنواع من العذاب في هذه الدار.

وأما في البرزخ: فعذاب يقارنه ألم الفراق الذي لا يرجو عودة، وألم فوات ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده، وألم الحجاب عن الله، وألم الحسرة التي تقطع الأكباد، فالهم والغم والحزن تعمل في نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان في أبدانهم، بل عملها في النفوس دائم مستمر، حتى يردها الله إلى أجسادها، فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر!!».

وقال[1]: «متى رأيت القلب قد ترحل عنه حب الله والاستعداد للقائه، وحل فيه حب المخلوق والرضا بالحياة الدنيا والطُّمَأنينة بها، فاعلم أنه قد خُسِف به».

وقال في أصحاب الشهوات الذين آثروا الدنيا ولذاتها الزائلة على الآخرة ولذاتها الباقية:

هربوا من الرِّقّ الذي خُلِقوا لهُ ... فبُلُوا برِقِّ النفسِ والشيطانِ

وقال شيخ الإسلام[2]: «من كان محبًّا لغير الله فهو معذب في الدنيا والآخرة، إن نال مراده عُذِّب به، وإن لم ينله فهو في العذاب والحسرة والحزن، وليس

(١) «بدائع الفوائد» (٢٢٤/٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٣١-٣٢).

للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله والتقرب إليه بما يحبه، ولا تُمْكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه، وهذا حقيقة لا إلٰه إلا الله».

وقال ابن سعدي(١): «تعلق القلب بالله وحده، واللهج بذكره، والقناعة، أسباب لزوال الهموم والغموم، وانشراح الصدر، والحياة الطيبة، والضد بالضد، فلا أضيق صدرًا وأكثر همًّا ممن تعلق قلبه بغير الله، ونسي ذكر الله، ولم يقنع بما آتاه الله، والتجربة أكبر شاهد».

المبادرة بالخيرات

وبادري يا نفس ولا تؤخري، وعجلي ولا تسوّفي، فحياتك ليست بيدك، وأنفاسك ليست إليك.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

وقال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣].

وقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلِكُلّٖ وِجۡهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ أَيۡنَ مَا تَكُونُواْ يَأۡتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [البقرة:١٤٨].

وقال سبحانه عن أنبيائه عليهم الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

---

(١) «الرياض الناضرة» (ص ١٦١).

وقال سبحانه عن القائمين بحقه من أهل الكتاب: ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

وقال سبحانه: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ * مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٣-٤٤].

قال الطبري: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾، يقول: فلأنفسهم يستعدون، ويُسَوّون المضجع، ليسلموا من عقاب ربهم، وينجوا من عذابه، كما قال الشاعر:

امْهَدْ لنفسك حان السُّقْمُ والتَّلَفُ ولا تُضيّعنَّ نفسًا ما لها خَلَفُ

وقال سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ [إبراهيم:٣١].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠-١١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي

كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»[1].

وعنه رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوِ الدَّابَّةَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[2].

وعن عابس الغِفاري رضي الله عنه قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ، وَكَثْرَةُ الشُّرَطِ، وَبَيْعُ الْحُكْمِ[3]، واسْتِخْفَافٌ بِالدَّمِ، وَقَطِيعَةُ الرَّحِمِ، وَنَشْؤٌ[4] يَتَّخِذُونَ الْقُرْآنَ مَزَامِيرَ، يُقَدِّمُونَ أَحَدَهُمْ لِيُغَنِّيَهُمْ وَإِنْ كَانَ أَقَلَّهُمْ فِقْهًا»[5].

قال الصنعاني[6]: «اعلم أن الأمر بالمبادرة بالأعمال لهذه الأمور لأنها إذا حدثت عسرت معها أعمال الخير، أو كان وقوعها سببًا لعدم قبول الأعمال، ولأنه يحال بين المرء وبين ما يريده من الخير بسبب هذه الأعمال عقوبة للعباد». اهـ.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم سمع رسول الله ﷺ يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. فقال: لعلكم تعنون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قالوا: أجل. قال: تلك تكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي ﷺ يذكر التي تموج موج البحر؟ قال حذيفة: فأَسكتَ القوم، فقلت: أنا. قال: أنت لله أبوك! قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨) وغيره.

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٤٧) وغيره.

(٣) أي: أَخْذُ الرشوة عليه.

(٤) أي: صغار حدثاء الأسنان، مفردها ناشئ.

(٥) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨/٣٦ رقم ٦٠، وفي مواضع أُخَر) وغيرُه. وهو في «السلسلة الصحيحة» (٩٧٩).

(٦) «التنوير» (٤/٥٢٨-٥٢٩).

فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا(١)، كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا(٢)، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ».

قال حذيفة: وحدثته أن بينك وبينها بابًا مغلقًا يوشك أن يُكسر. قال عمر: أكسرًا لا أبا لك؟ فلو أنه فُتِح لعله كان يعاد. قلت: لا، بل يكسر. وحدثته أن ذلك الباب رجل يُقتل أو يموت. حديثًا ليس بالأغاليط(٣).

وفي لفظ: عن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر، فقال: أيكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ في الفتنة كما قال؟ قال: فقلت: أنا. قال: إنك لجريء، وكيف قال؟ قال: قلت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«فِتْنَةُ الرَّجُلِ فِي أَهْلِهِ وَمَالِهِ وَنَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَجَارِهِ يُكَفِّرُهَا الصِّيَامُ، وَالصَّلَاةُ، وَالصَّدَقَةُ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ».

فقال عمر: ليس هذا أريد، إنما أريد التي تموج كموج البحر. قال: فقلت: ما لك ولها، يا أمير المؤمنين؟! إن بينك وبينها بابًا مغلقًا. قال: أفيكسر الباب أم يفتح؟ قال: قلت: لا، بل يكسر. قال: ذلك أحرى أن لا يغلق أبدًا. قال: فقلنا لحذيفة: هل كان عمر يعلم مَنِ الباب؟ قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة، إني حدثته حديثًا ليس بالأغاليط. قال: فهبنا أن نسأل حذيفة: مَنِ الباب؟ فقلنا لمسروق: سَلْهُ. فسأله، فقال: عمر.

قال النووي: «وقوله (فتنة الرجل في أهله وجاره تكفرها الصلاة والصيام

---

(١) مكدرًا مغبرًا، فلون هذا القلب أسود فيه يسير من شبه البياض، وهو الكُدرة والغُبرة.

(٢) مقلوبًا منكوسًا منحرفًا، فهو مع انقلابه إلى أسفل مائل منحرف، وهو أمنع ما يكون في حفظ الماء، وأشد ما يكون في حفظ الهواء، فذاك القلب مثل هذا الكوز، ليس فيه خير، وإنما الهوى والشر.

(٣) أخرجه مسلم (١٤٤)، وهو في «صحيح البخاري» بنحوه، دون ذكر عرض الفتن، ودون ذكر القلبين.

والصدقة)، قال أهل اللغة: أصل الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان والاختبار. قال القاضي: ثم صارت في عرف الكلام لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء. قال أبو زيد: فُتِن الرجل يُفتن فتونًا، إذا وقع في الفتنة، وتحول من حال حسنة إلى سيئة. وفتنة الرجل في أهله وماله وولده ضروب من فرط محبته لهم، وشحه عليهم، وشغله بهم عن كثير من الخير، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التغابن:١٥]. أو لتفريطه بما يلزم من القيام بحقوقهم وتأديبهم وتعليمهم، فإنه راع لهم ومسؤول عن رعيته. وكذلك فتنة الرجل في جاره من هذا، فهذه كلها فتن تقتضي المحاسبة، ومنها ذنوب يرجى تكفيرها بالحسنات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود:١١٤]».

وقال المنذري(١): «ومعنى الحديث: أن القلب إذا افتُتِن وخرجت منه حرمة المعاصي والمنكرات خرج منه نور الإيمان، كما يخرج الماء من الكوز إذا مال أو انتكس». اهـ.

وعن كعب قال: لَتُحَبَّبَنَّ إليكم الدنيا حتى تتعبدوا لها ولأهلها، وليأتينكم زمان تُكره فيه الموعظة، وحتى يختفي المؤمن بإيمانه كما يختفي الفاجر بفجوره، وحتى يُعَيَّرَ المؤمن بإيمانه كما يُعَيَّرُ الفاجر بفجوره(٢).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه:

«اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ»(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ:

---

(١) «الترغيب» (٢٣١/٣).

(٢) «الزهد» لابن أبي الدنيا (ص ٧٣).

(٣) أخرجه الحاكم (٣٠٦/٤) وغيره، وصححه الألباني في «تخريج اقتضاء العلم العمل» (ص ١٠٠).

«نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ»[1].

وعن مجاهد، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمَنْكِبِي، فقال:

«كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، [وَعُدَّ نَفْسَكَ فِي أَهْلِ الْقُبُورِ]».

وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك[2].

وعن أبي بَرْزَةَ الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[3].

وعن سعد رضي الله عنه ـ قال الأعمش (الراوي): ولا أعلمه إلا عن النبي ﷺ ـ قال:

«التُّؤَدَةُ[4] فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ»[5].

وعن يحيى بن معاذ الرازي قال: المغبون من عَطّل أيامه بالبطالات، وسَلّط جوارحه على الهَلَكات، ومات قبل إفاقته من الجنايات[6].

وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة المبادرة! فإنما هي الأنفاس لو حُبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، رحم الله امرءًا نظر إلى نفسه، وبكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ

---

(١) أخرجه البخاري. و(مغبون فيهما)؛ أي: منقوص فيهما، يبيعهما بثمن بخس، ولا ينتهزهما في الخير.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤١٦)، والزيادة للترمذي (٢٣٣٣) وغيره، وصححها الألباني في «الصحيحة» تحت الحديث (١١٥٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٤١٧) وغيره، وصححه الألباني.

(٤) أي: التأني والتمهل.

(٥) أخرجه أبو داود (٤٨١٠)، والحاكم (٦٤/١)، واللفظ له، وغيرهما. وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٥٦).

(٦) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص ٢٩٤).

عَدًّا ﴾ [مريم:٨٤]؛ يعني: الأنفاس، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك[١]. اهـ.

فبادر عبدَ الله ما دام في العمر فسحة، وفي الحياة بقية، وتدبر قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر:٥].

قال ابن سعدي: «يقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث والجزاء على الأعمال، ﴿حَقٌّ﴾؛ أي: لا شك فيه ولا مرية ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقًّا فتهيئوا له، وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾، بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم له، ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾».

قال ابن الجوزي[٢]: «أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يُحدّ، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو تُرك كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى.

فالعاقل من مثّل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك، فإن لم يتهيأ تصوير

---

(١) «موعظة المؤمنين» (ص ٣٢٢).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ١٦١).

ذلك على حقيقته تخايله على قدر يقظته، فإنه يَكُفّ كَفَّ الهوى، ويبعث على الجِد، فأما من كانت تلك الساعة نُصب عينيه كان كالأسير لها».

وقال[1]: «أعجب الأشياء اغترار الإنسان بالسلامة وتأميله الإصلاح فيما بعد! وليس لهذا الأمل منتهى، ولا للاغترار حد، فكلما أصبح وأمسى معافًى زاد الاغترار وطال الأمل.

وأي موعظة أبلغ من أن ترى ديار الأقران، وأحوال الإخوان، وقبور المحبوبين؟! فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك! وهذا والله شأن الحمقى! حُوشِيَ مَنْ له عقل أن يسلك هذا المسلك.

بلى والله، إن العاقل ليبادر السلامة، فيدخر من زمنها للزمن، ويتزود عند القدرة على الزاد لوقت العسرة، خصوصًا لمن قد علم أن مراتب الآخرة إنما تعلو بمقدار علو العمل هنا، وأن التدارك بعد الفوت لا يمكن، وقَدِّرْ أن العاصي عُفي عنه، أينال مراتب العمال؟!

ومن أجال على خاطره ذكر الجنة التي لا موت فيها ولا مرض ولا نوم ولا غم، بل لذاتها متصلة من غير انقطاع، وزيادتها على قدر زيادة الجِد هاهنا، انتهب هذا الزمان، فلم ينم إلا ضرورة، ولم يغفل عن عمره لحظة».

وله[2]: المبادرةَ المبادرةَ، إنما هي أنفاسٌ لو حُبِسَتْ عنك لانقطع عنك عملُك آخر الأبد، وخروجُ نفسك آخرُ الأمدِ، وفِراقُ أهلك آخر العَدد.

وأنشدوا:

إذا ما الموت جرَّ على أناسٍ ... كَلاكِلَهُ أناخَ بآخرينا

فقُل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لَقِينا

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٣٣٥-٣٣٦).

(٢) «بستان الواعظين» (ص ١٥٦).

فاذكر حالك أيها الغافل، يوم تُقَلِّبُكَ على المغتسل يَدُ الغاسل، قد زال عِزُّك عنك، وسُلِب مالُك منك، وأُخْرِجْتَ من بين أحبابك، وجُهِّزْتَ لِتُرابك، فأُسْلِمْتَ إلى الدود، وصرت رهنًا بين اللُّحود، وبكى عليك الباكون قليلًا، ثم نَسُوك دهرًا طويلًا، فتغيرتْ منك المحاسن والحِلى[1]، وتَحكّم في أعضائك البِلى، وقُطِّعَتِ الأكفان، وسعى إليك الديدان، فبَلِيَ منك اللسان، وسالتِ الحَدَق[2]، كأنك لم تكن قَطُّ مِمَّنْ رأى ولا نَطَق.

وأنشدوا:

فلو أنّا إذا مِتنا تُرِكْنا ... لكان الموتُ راحةَ كُلِّ حي
ولكنّا إذا مِتنا بُعِثنا ... ونُسأل بعدها عن كل شي

وله[3]: «إخواني، حاسبوا أنفسكم قبل الحساب، وأعِدّوا للسؤال صحيح الجواب، واحفظوا بالتقوى هذه الأيام، واغسلوا عن الأجرام هذه الأجرام[4]، قبل ندم النفوس في حين سياقها، قبل طمس شمس الحياة بعد إشراقها، قبل ذوق كأسٍ مُرَّةٍ في مذاقها، قبل أن تدور السلامة في أفلاك محاقها، قبل أن تُجْذَب النفوس إلى القبور بأطواقها، وتفترش في اللحود أخلاق أخلاقها[5]، وتنفصل المفاصل بعد حسن اتساقها، وتشتد شدائد الحسرة حاسرةً عن ساقها، وتظهر مخبآت الدموع بسرعة اندفاقها، وتتقلب القلوب في ضَنْك ضِيق خناقها، ويطول جوع من كان في الدنيا فاكهًا[6]، وتبكي

(١) في الأصل المطبوع (مكتبة الإيمان): «المحلى»، وهو خطأ. «والحِلى»: جمع حِلية، وهي من الرجل صفته وخلقته وصورته.
(٢) الحَدَق: مفردها حَدَقة، وهي السواد المستدير وسط العين.
(٣) «التبصرة» (٣٣١/١).
(٤) الأولى جمع جِرْم: وهو الجسد، والثانية جمع جُرْم: وهو الذنب.
(٥) لعله يريد: تفترش أخلاقها السيئة، على أن الأولى: جمع خَلَق: وهو البالي، والثانية جمع خُلُق: وهو الصفة والطبع.
(٦) المراد بالفاكه هنا: الناعم العيش مع اللهو والغفلة، والله أعلم.

النفوس في أسرها على زمان إطلاقها».

وله[١]: «أيها الشابّ تدبَّر أمرك، فإنك في زمن الربح ووقت البَذْر وإِبّان الفضائل، احذر أن يخدعك العدوُّ عن نفيس هذا الجوهر فتُنفقه بكَفِّ التبذير، تالله لئن فعلت لتغرسن بذلك شجرة الندامة، فيتساقط عليك من كل فَنَنٍ[٢] منها فَنٌّ[٣] حسرة، واعرف قَدْر ما تؤمِّن به هذا الجوهر من الفضائل، واحذر من اختلاس العدو له، فصابِرْ فكأنْ قد انقضى الموسم».

وله[٤]: يا بن آدم، بادر إلى حسن العمل، بينما أنت في فسحة ومَهَل، وتب إلى مولاك من قبيح الخطايا والزَّلَل، قبل أن يقال: فلان عليل، أو مُدْنف[٥] ثقيل، فهل إلى دوائه سبيل، أو على طبيب دليل؟! فتُدْعى لك الأطباء، ويُجْمع لك الدواء، فلا يزيدك ذلك إلا بلاء، وقد اجتمع عندك الإخوان والأحباء، والأهل والأقرباء، وكثر حولك البكاء، ثم يقال: حشرج[٦]، ونفسه توشك أن تُخْرَج، وأنت تعاني الأمر العظيم، بعد اللذة والنعيم، وعَدَلْتَ ببصرك عن القريب والحميم، وحَلّ بك القضاء، وخرجتِ الرُّوحُ من الأعضاء، ثم عُرِج بها إلى السماء، فيا لها من سعادة أو شقاء!

وأنشدوا:

فلو لم يكن شيءٌ سوى الموت والبِلى ... وتفريقُ أعضاءٍ ولحمٍ مُبَدّدِ
لكنت حقيقًا يا بن آدم بالبُكا ... على نائبات الدهر مع كل مُسْعَدِ

---

(١) «التبصرة» (١٧٩/٢).
(٢) أي: غصن.
(٣) أي: نوع.
(٤) «بستان الواعظين» (ص ١٥٦-١٥٧).
(٥) المُدْنَف والمُدْنِف: مَن براه المرضُ حتى أشفى على الموت.
(٦) حشرج: ترددت روحه في حلقومه، وأوشكت على الخروج.

وله[1]: «يا بن آدم، لقد خُلِقْت لأمر عظيم، لو كنت تعقل لظهر قُنُوعُك، ولبَانَ خشوعك، وثارت دموعك، خوفًا من القبر ووحشته، ومن اللحد وضغطته، ومن هول المُطَّلَع ورَوْعته، فمَهِّد لنفسك يا مسكين بينما أنت حي، وبينما يقبل منك شيء، قبل طَيّ الكتاب، وغَلق الباب، ونزول الحجاب، والرحيل إلى التراب».

وله[2]: «يا نائمًا في قفار التسويف، أخطأت الطريق، صَبِيُّ غَفْلَتِك يقول: إذا شِبْتُ تُبْتُ، ولسان القواطع يناديه: «هيهات هيهات لما توعدون»، علامة الهلاك للمريض التسويف، قواعد آمالك مبنية على شَفا جُرُفٍ هار، عزيمتك للتوبة عزيمة بازي[3]، وعند عقد العهد تفر فِرار رَخَمَة[4]، تنقض عزيمة العزم بالتسويف كالتي نقضت غزلها، كلما ابيضّ الشَّيْبُ اسْوَدَّتِ الصحائف، كلما ضَعُفَتِ القوةُ قَوِي المرض، كلما قَصُر الأجل طال الأمل».

وله[5]: «إخواني، بادروا آجالكم، وحاذروا آمالكم، أما لكم عبرة فيمن مضى؟ أما لكم؟ ما هذا الغرور الذي قد أمالكم؟ ستَتركون على رغم آمالِكم ما لكم.

إخواني، صَدّقْتم الأملَ فكذّبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم، أما أنذركم السقم بعد الصحة، والترحة بعد الفرحة، في كل يوم يموت من أشباحكم ما يكفي في نعي أرواحكم، ويحل بعقوقكم[6] وفِنائكم ما يخبركم عن شتاتكم

---

(١) «بستان الواعظين» (ص ٢٠٢).

(٢) «روح الأرواح» (ص ١٠٣).

(٣) البازي والباز: ضرب من الصقور يُستخدم في الصيد.

(٤) طائر موصوف بالغدر. والمعنى: أنه كلما عزم على عَقْد عَهْدِ التوبة انهزم وغَدَر.

(٥) «المدهش» (ص ٢٨٥-٢٨٦).

(٦) أي: يحل بواديكم.

وفَنائكم، فخذوا حذركم قبل النوائب، فقد أُتيتم من كل جانب، وتذكروا سهر أهل النار في النار، واحذروا فوت دار الأبرار، وتخوفوا يوم الفصل بين الفريقين، أن يصيبكم من البَين البَين».

وله[1]: «يا من تحصى عليه اللفظة والنظرة، مَزِّق بيد الجِدِّ أثواب الفترة، وتأهب فما تدري السير عشاء أو بكرة، واعتبر بالقرباء فالعِبرة تبعث العَبرة، وتزود لسفرة ما مثلها سفرة، واقنع باليسير فالحساب عسير؛ على الذرة، وإياك والحرام وانظر من أين الكسرة؟ قبل أن تلقى ساعة حسرة، وتُلْقى بعدها في ظلمة حفرة».

وله[2]: يا أخي، لا تُغْسَل أدناس الذُّنوب إلا بماء المدامع، لا ينجو مِنْ قَتَار[3] المعصية إلا مَنْ يسارع، أحْضِرْ قلبَك ساعةً عساه بنائحة الموعظة يُراجِع، كم لي أتلو عليك صُحُفَ الموعظة وما أَظُنُّك سامع؟!

يومُ المعصية ما أنحسَه مِنْ طالع، ويوم الطاعة مختارٌ وكُلّ سعدٍ فيه طالع، اطلب ويحك! رِفاقَ التائبين، وجدِّد رسائلك للحبيب وطالِعْ، مِصباحُ التَّقوى يدُلّ على الجادَّة، وكم في ظُلمةِ الغَفلة مِنْ قاطِع، ابكِ ويحك على مَوْتِ قلبك وعَمَى بصيرتك وكثرة الموانع، إذا لم يَعِظْكَ الدَّهْرُ والشَّيْبُ والضَّعْفُ فما أنت صانع؟! فبالله يا إخواني بادروا بالمتاب، وراجعوا أنفسكم قبل يوم الحساب.

مــا اعتــذاري وأمــرُ رَبّي عَصَــيْتُ ... حــينَ تُبــدي صــحائِفي مــا أَتيــتُ
مــا اعتــذاري إذا وقفــتُ ذليــلًا ... قـــد نهـــاني مـــا أَراني انتهيـــتُ
يـــا غنيًّـــا عَـــنِ العبـــاد جميعًـــا ... وعَليمًـــا بكـــلِّ مـــا قـــد ســـعيتُ

(١) «المدهش» (ص ٢٨٩).
(٢) «بحر الدموع» (ص ١٢٠).
(٣) القتار: الدخان.

لـــــيس لي حجَّـــةٌ ولا ليَ عـــذْرٌ   فـاعْفُ عـن زَلَّـتي ومـا جنيـتُ

وله[1]: «أيها الضال عن طريق الهدى، أما تسمع صوت الحادي وقد حدا؟! من لك إذا ظهر الجزاء وبدا؟! وربما كان فيه أن تشقى أبدًا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة:٣٦].

يا من تُكتب لحظاته، وتُجمع لفظاته، وتُعلم عزماته، وتُحسب عليه حركاته، إن راح أو غَدَا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ويحك! إن الرقيب حاضر، [يحفظ] عليك اللسان والناظر، وهو إلى جميع أفعالك ناظر، إنما الدنيا مراحل إلى المقابر، وسينقضي هذا المدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

ما لي أراك في الذنوب تعجل؟! وإذا زُجِرْت عنها لا تَقبل؟! ويحك! انتبه لقبح ما تفعل، فإن الأيام في الآجال تعمل مثل عَمَلِ المُدَى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

سترحل عن دنياك فقيرًا، لا تملك مما جمعت نقيرًا، بلى قد صرت بالذنوب عقيرًا، بعد أن رَدّاك التلفُ رِداءَ الرّدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك بالموت قد قطع وبَتّ، وبَدَّدَ الشَّمْل المجتمِع وأَشَتّ، وأَثَّر فيك الندمُ حينئذ وفَتّ، انتبه لنفسك فقد أَشْمَتَّ والله العِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

كأنك ببساط العمر قد انطوى، وبعُود الصحة قد ذَوَى، وبسِلْك الإمهال قد قُطِع فهوى، اسمع يا من قَتَله الهوى وما وَدَى[2]، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

تالله ما تُقال وما تُعذر، فإن كنت عاقلًا فانتبه واحذر، كم وعظك أَخْذُ

---

(١) انظر «التبصرة» (٢٨٥/١-٢٨٦).

(٢) أي: وما أعطى الدِّيَة. وَدَى القاتلُ القتيلَ وَدْيًا ودِيَةً ووَدْيَةً: أعطى وَلِيَّهُ دِيَتَه.

غيرك وكم أعذر؟! ومَنْ أنذر قبل مجيئه فما اعتدى، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

فبادر نفسك واحذر قبل الفوت، وأصخ[1] للزواجر فقد رَفَعَتِ الصوت، وتنبه فطال ما قد سهوت، واعلم قطعًا ويقينًا أن الموت لا يقبل الفِدا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾.

انهض إلى التقوى بقريحة[2]، وابكِ الذنوبَ بعين قريحة[3]، وأزعج للجدِّ أعضاءك المستريحة، تالله لئن لم تقبل هذه النصيحة لتندمنّ غدًا، ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾».

وله[4]: «عجبًا لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل! لا يعتبر بأخذ الجيل، وإنما هو تأخير وتعجيل. أين النزيل؟ أُزيل. أين القويم؟ أُميل. أين المطمئن؟ اغتيل.

إن الليالي لا تَبقى على حالِ ... والناس ما بين آمال وآجالِ

كيف السرور بإقبال وآخرهُ ... إذا تأملته مقلوبُ إقبالِ[5]

تيقظوا فالأيام دائبة، وتحفظوا فالسهام صائبة، واحذروا دنياكم فما هي مواتية، واذكروا أخراكم فها هي آتية.

أما رأيتم الدنيا فقد أبانت خَدْعها ومَكْرها، إذ أبانت مَنْ جمعها مُكْرهًا.

أين الارتياد للسلامة غدًا؟ أين الاستعداد قبل الندامة أبدًا؟

كأنكم بالمسير عن الرَّبع قد أَزِف، وبالكثير من الدمع قد نُزِف، وبالمقيم

---

(١) أي: أَصْغِ واستمِعْ.

(٢) أي: بفكر ثاقب، ورأي صائب.

(٣) أي: جريحة.

(٤) «المدهش» (ص ٣٢٦).

(٥) «مقلوب إقبال»؛ يعني: «لا بقاء».

قد أُبين مما أَلِف، وبالكريم قد أُهين لَـمّا تَلِف».

وله[1]: «إخواني، هذا نذير الموت قد غَدَا، يقول: الرحيل غدًا، كأنكم والله والأمر معًا، طوبى لمن سمع فوعى، كيف بكم إذا صاح إسرافيل في الصُّور بالصُّوَر؟! فخرجت تسعى من تحت المَدَر[2]، وقد رُجَّت الأرض وبُسَّت الجبال[3]، وشَخَصَت الأبصار لتلك الأهوال، وطارت الصحائف، فقلق الخائف، وشاب الصِّغَار، وبان الصَّغَار[4]، وزفرت النار، وأحاطت الأوزار، ونُصِب الصراط، وآلمت السِّيَاط، وحَضَر الحساب، وقوي العذاب، وشهد الكتاب، وتقطعت الأسباب، فكم من شيخ يقول: وا شيبتاه! وكم من كهلٍ ينادي: وا خيبتاه! وكم من شابٍّ يصيح: وا شباباه! برزت النار فأحرقت، وزفرت غضبًا فمزَّقت، وتقطعت الأفئدة وتفرَّقَت، وقامت ضوضاء الجدل، وأحاط بصاحبه العمل، والأحداق قد سالت، والأعناق قد مالت، والألوان قد حالت، والمحن قد توالت، أين عُدَّتك لذلك الزمان؟! أين تصحيح اليقين والإيمان؟! أترضى يومئذ بالخسران؟! أما تعلم أنك كما تدين تدان؟!».

وله[5]: «يا من يرحل عن الدنيا في كل لحظة مَرْحَلة، وكتابه قد حوى حتى مقدار خَرْدَلة، وما ينتفع بنذير والنُّذُر متصلة، وما يرعوي لنصيحٍ وكم قد عذَله، ودروعه متخرقة والسهام مُرْسَلة، ونور الهدى قد بدا وما رآه ولا تأمَّله، وهو يأمل البقاء وقد رأى مصير مَنْ أَمَّلَه، وأَجَلُه قد دنا ولكنّ أملَه قد شَغَله، وقد انعكف على العَيْب بعد الشَّيْب بصبابةٍ ووَلَه، ويُحْضِـر بدنَه في الصلاة فأما القلب

(١) «التبصرة» (١٨٢/٢).

(٢) المدر: قطع الطين اليابس. وقيل: اللزج المتماسك. والمقصود هنا: أنها خرجت من القبور.

(٣) أي: فُتِّتَت.

(٤) أي: الذّل.

(٥) «التبصرة» (٣٧٨/١).

فقد أهمله، كن كيف شئتَ فبين يديك الحساب والزلزلة، ونَعِّم جسدك فلا بد للدود أن يأكله، يا عجبا من فتورِ مؤمنٍ بالجزاء والمسألة! أيقين بالنجاة أم غرور وبَلَه؟! بادر ما بقي من العمر واستدرك أوله، فبقية عمر المؤمن لا قيمة له».

ولمحمود الوراق[1]:

مضى أمسك الماضي شهيدًا معـدَّلًا	وأَعْقَبَــه يــومٌ عليــك جديــدُ
فإن كنت اقترفت بـالأمس إسـاءةً	فــثَنِّ بإحســانٍ وأنــت حميــدُ
فيومــك إن أعْتَبْتَــه عاد نفعــهُ	عليك وماضي الأمس لـيس يعـودُ
ولا تُرْجِ فِعلَ الخير يومًا إلى غـدٍ	لعــل غــدًا يــأتي وأنــت فقيــدُ

○○○○○

(١) «الزهد الكبير» للبيهقي (ص ٢٣٥).

شروط صحة العمل

واعلمي يا نفس أنه لا يصح لك عبادة، ولا يقبل منك عمل، إلا بشروط ثلاثة[1]:

الأول: الإيمان. وهو الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر؛ خيره وشره، حلوه ومره، وبأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء:٩٤].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء:١٢٤].

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الشنقيطي[2]: «فقَيَّد ذلك بالإيمان، ومفهومُ مخالفتِه أنه لو كان غير مؤمن لما قُبِل منه ذلك العمل الصالح».

وقال ابن سعدي[3]: «﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

---

(١) تقدم ذكر هذا والتنبيه عليه مرارًا، وهذا عَوْد لجمع متفرقاته، وتلخيص مفرداته.

(٢) «أضواء البيان» (٣/٣٥٣).

(٣) «تيسير الكريم الرحمن» (١/٤١٥).

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قُطِع أصلها، وكبناء بُنِي على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يُبْنَى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أُطْلِق، فإنه مقيد به».

وقال في موضع آخر[١]: «الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تُسَمَّى أعمالًا صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مُقْتَضٍ لها، فإنه التصديق الجازم المثمر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات». اهـ.

وقال الله تعالى في عمل غير المؤمن: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان:٢٣].

وقال سبحانه: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴾ [إبراهيم:١٨].

الشرط الثاني: الإخلاص.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥].

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر:١١].

وقال بعدها: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴾ [الزمر:١٤].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوِ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»[٢].

---

(١) «التيسير» (٣/٨٣).

(٢) متفق عليه.

وعن أبي أُمامةَ الباهلي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: أَرأيتَ رجلًا غَزَا يَلتمِسُ الأجرَ والذِّكْرَ، ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». فأعادها ثلاث مرات، يقول له رسول الله ﷺ: «لَا شَيْءَ لَهُ». ثم قال:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ»[1].

والإخلاص ـ كما قال ابن القيم[2] ـ: «تصفية العمل من كل شَوْبٍ؛ أي: لا يُمَازِجُ عملَه ما يَشُوبُهُ من شوائب إرادات النفس، إما طلب التَّزَيُّنِ في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم، أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عَقْدُ مُتَفَرِّقاتها هو: إرادة ما سوى الله بعمله، كائنًا ما كان».

الشرط الثالث: المتابعة للنبي ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر:٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [القصص:٥٠].

وقال سبحانه: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

قال المُعَلِّمي[3]: «فعلى المؤمن أن يتأدب مع الأحاديث الثابتة عن رسول

---

(١) أخرجه النسائي (٢٥/٦) وغيره، وجود إسناده الحافظ في «الفتح» (٢٨/٦)، والمنذري في «الترغيب» (٥٥/١)، وأقره الألباني.

(٢) «مدارج السالكين» (٩٢/٢).

(٣) «آثار المعلمي» (٩٢/٤).

الله صلى الله عليه وآله وسلم كما لو كان بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم، فانظر يا مسكين كيف حالك في هذا الواجب؟!».

وقال ابن أبي العز الحنفي في «شرح الطحاوية»: «كل من عَدَل عن اتباع سنة الرسول، إن كان عالمًا بها فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال، ولهذا شرع الله لنا أن نسأله في كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقًا، غير المغضوب عليهم ولا الضالين». اهـ.

وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»(١).

قال النووي(٢): «قال أهل العربية: الرد هنا بمعنى المردود، ومعناه: فهو باطل غير مُعْتَدٍّ به، وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كَلِمه ﷺ، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات».

قال: «وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات، وإشاعة الاستدلال به».

قال ابن القيم(٣): «ليس العلم كثرة النقل والبحث والكلام، ولكن نور يميز به صحيح الأقوال من سقيمها، وحقها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال، ويميز النقد الذي عليه سكة أهل المدينة النبوية الذي لا يقبل الله عز و جل ثمنًا لجنته سواه من النقد الذي عليه سكة جنكسخان ونوابه من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة وكل من اتخذ لنفسه سكةً

(١) متفق عليه. وقد تقدم (صفحة ٢٦٥)، فلتُنظر ألفاظه.

(٢) «شرح مسلم» (١٦/١٢).

(٣) «اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص ٣٩).

وضربًا ونقدًا يروّجه بين العالم، فهذه الأثمان كلها زيوف لا يقبل الله سبحانه وتعالى في ثمن جنته شيئًا منها، بل تُرَدّ على عاملها أحوج ما يكون إليها، وتكون من الأعمال التي قَدِم اللهُ تعالى عليها فجعلها هباءً منثورًا، ولصاحبها نصيب وافر من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤]».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة[١].

وقال شيخ الإسلام[٢]: «فالحذر الحذر أيها الرجل من أن تكره شيئًا مما جاء به الرسول ﷺ، أو ترده، لأجل هواك، أو انتصارًا لمذهبك أو لشيخك، أو لأجل اشتغالك بالشهوات أو بالدنيا، فإن الله لم يوجب على أحد طاعة أحد إلا طاعة رسوله، والأخذ بما جاء به، بحيث لو خالف العبد جميع الخلق واتبع الرسول ما سأله الله عن مخالفة أحد، فإن من يطيع أو يطاع إنما يطاع تبعًا للرسول، وإلا لو أَمر بخلاف ما أَمر به الرسول ما أُطيع». اهـ.

وقال المُعَلِّمي في تقريظ كتاب «فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد»[٣]: «قد أكثر العارفون بالإسلام المخلصون له من تقرير أن كل ما وقع فيه المسلمون من الضعف والخَوَر والتخاذل، وغير ذلك من وجوه الانحطاط، إنما كان لبعدهم عن حقيقة الإسلام، وأرى أن ذلك يرجع إلى أمور:

الأول: التباس ما ليس من الدين بما هو منه.

الثاني: ضعف اليقين بما هو من الدين.

---

(١) أخرجه الحاكم (١/١٨٤) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (رقم ٤١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٦/٥٢٨-٥٢٩).

(٣) (١/٨-٩).

الثالث: عدم العمل بأحكام الدين.

وأرى أن معرفة الآداب النبوية الصحيحة، في العبادات والمعاملات، والإقامة والسفر، والمعاشرة والوحدة، والحركة والسكون، واليقظة والنوم، والأكل والشرب، والكلام والصمت، وغير ذلك مما يعرض للإنسان في حياته، مع تحري العمل بها كما يتيسر، هو الدواء الوحيد لتلك الأمراض، فإن كثيرًا من تلك الآداب سهلٌ على النفس، فإذا عمل الإنسان بما يسهل عليه منها، تاركًا لما يخالفها، لم يلبث إن شاء الله تعالى أن يرغب في الازدياد، فعسى أن لا تمضي عليه مدة إلا وقد أصبح قدوة لغيره في ذلك.

وبالاهتداء بذلك الهَدي القويم، والتخلق بذلك الخُلُق العظيم ـ ولو إلى حدٍّ ما ـ يستنير القلب، وينشرح الصدر، وتطمئن النفس، فيرسخ اليقين، ويصلح العمل، وإذا كثر السالكون في هذا السبيل لم تلبث تلك الأمراض أن تزول إن شاء الله».

قال: «ومن أبسط مجموعات كتب السنة في الأدب النبوي كتاب «الأدب المفرد» للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، والإمام البخاري كالشمس في رابعة النهار شهرة، وإلى مؤلفاته المنتهى في الجودة والصحة، وكتابه هذا ـ أعني «الأدب المفرد» ـ هو بعد كتابه «الجامع الصحيح» أولى كتبه بأن يَعتني به من يريد اتباع السنة، فإنه جمع فأوعى، مع التحري والتوقي والتنبيه على الدقائق». اهـ.

هذا، ومن اتبع الرسول ﷺ كفاه الله تعالى في كل أمور دينه ودنياه، فأرشده وهداه، وسدده ووقاه، فهو حسبه ونعم الوكيل، كما قال جل وعز: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤].

قال شيخ الإسلام[(١)]: «﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾؛ أي: هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين. هذا هو القول الصواب الذي

(١) انظر «مجموع الفتاوى» (١/٢٩٣).

قاله جمهور السلف والخلف، والمراد أن الله كافٍ للرسول ولمن اتبعه. فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه». اهـ.

وتقدم الكلام على قوله سبحانه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران:٣١].

وقد جمع الله عز وجل هذه الشروط الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩].

أما «الإخلاص»، ففي قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾، فإرادة الآخرة: هي صلاح التوجه والقصد، وهو الإخلاص.

وأما «المتابعة»، ففي قوله تعالى: ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا ﴾.

قال ابن كثير(١): «أي طلب ذلك من طريقه، وهو متابعة الرسول ﷺ».

وأما «الإيمان»، ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾.

قال الشنقيطي(٢): «في الآية الدليل على أن الأعمال الصالحة لا تنفع إلا مع الإيمان بالله، لأن الكفر سيئة لا تنفع معها حسنة، لأنه شَرَطَ في ذلك قوله: ﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾».

وذكر الله عز وجل شَرطي «الإخلاص» و«المتابعة» في قوله:

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠].

قال ابن كثير(٣): «﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ ﴾؛ أي: ثوابه وجزاءه الصالح، ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا ﴾؛ ما كان موافقًا لشرع الله. ﴿ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾، وهو

(١) «تفسيره» (٣/٣٣).
(٢) «أضواء البيان» (٣/٤٩٢).
(٣) «تفسيره» (٣/١٠٨).

الذي يُرَاد به وجهُ الله وحده لا شريك له، وهذان رُكْنا العمل المُتَقَبَّل: لا بد أن يكون خالصًا لله، صوابًا على شريعة رسول الله ﷺ». اهـ.

قلت: وبهذين الشرطين فسر العلماء «العمل الحسن» في مثل قول الله عز وجل:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [هود:٧].

قال ابن كثير[1]: «قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾؛ أي: ليختبركم، ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولم يقل: أكثر عملًا، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسنًا حتى يكون خالصًا لله عز وجل، على شريعة رسول الله ﷺ، فمتى فقد العمل واحدًا من هذين الشرطين حَبِط وبَطَل». اهـ.

قال شيخ الإسلام[2]: «كان أئمة السلف يَجمعون هذين الأصلين، كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧، والملك:٢]، قال: أخلصه وأصوبه. فقيل: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، وإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة[3].

وقد روى ابن شاهين واللالكائي عن سعيد بن جبير قال: لا يُقبل قول وعمل إلا بنية، ولا يُقبل قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة.

---

(١) «تفسير» (٤٣٨/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧٧/٢٨).

(٣) ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠]. كذا في «مدارج السالكين» (٨٩/١).

ورَوَيا عن الحسن البصري مثله، ولفظه: «لا يصلح» مكان «يقبل»». اهـ.

قال شيخ الإسلام[(١)]: «ومما ينبغي أن يعرف أن الله ليس رضاه أو محبته في مجرد عذاب النفس وحملها على المشاق، حتى يكون العمل كلما كان أشق كان أفضل، كما يحسب كثير من الجهال أن الأجر على قدر المشقة في كل شيء! لا، ولكن الأجر على قدر منفعة العمل ومصلحته وفائدته، وعلى قدر طاعة أمر الله ورسوله، فأي العملين كان أحسن وصاحبه أطوع وأتبع كان أفضل، فإن الأعمال لا تتفاضل بالكثرة، وإنما تتفاضل بما يحصل في القلوب حال العمل».

وقال الشنقيطي[(٢)]: «ولا شك أن العاقل إذا علم أن الحكمة التي خُلِق من أجلها هي أن يُبْتَلى (أي: يُختبر) بإحسان العمل، فإنه يهتم كل الاهتمام بالطريق الموصلة لنجاحه في هذا الاختبار». اهـ.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ [النساء:١٢٥].

قال ابن القيم[(٣)]: «إسلام الوجه: إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله ﷺ وسنته». اهـ.

هذا، ويجب على الناظر في أدلة العلم والعمل من الكتاب والسنة، الحريص على اتباع هدي النبي ﷺ فيها، أن يأخذها ويعمل بها كما فهمها الصحابة رضي الله عنهم، وهذا هو الفارق بين المتبع حقيقة وبين المدّعي، وإلا فإن كل الفرق المنتسبة إلى الإسلام تقول: إن مرجعها هو الكتاب والسنة. وكل يستدل لمذهبه وطريقته بهما.

وكلٌّ يدّعي وصلًا لليلى ... وليلى لا تقر لهم بذاكا

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٥/٢٨١-٢٨٢).

(٢) «أضواء البيان» (٣/١١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/٩٠).

بل إن بعض الفساق والضُّلال، والكفار والفجار، يستدل أحيانًا لفسقه أو كفره بأدلة من الكتاب والسنة!! مدعيًا أنها تؤيد قوله وتنصر مذهبه!! وشريعة الله عز وجل ودينه براء من ذلك ومنزه عنه.

قال الشاطبي[1]: «لا تجد فرقة من الفرق الضالة، ولا أحدًا من المختلفين في الأحكام، لا الفروعية ولا الأصولية، يعجز عن الاستدلال على مذهبه بظواهر من الأدلة، بل قد شاهدنا ورأينا من الفساق من يستدل على مسائل الفسق بأدلة ينسبها إلى الشريعة المنزهة.

بل قد استدل بعض النصارى على صحة ما هم عليه الآن بالقرآن، ثم تَحَيّل فاستدل على أنهم مع ذلك كالمسلمين في التوحيد، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

فلهذا كله يجب على كل ناظر في الدليل الشرعي مراعاة ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به، فهو أحرى بالصواب، وأقوم في العلم والعمل».

○○○○○

(١) انظر «الموافقات» (٣/٢٨٨-٢٨٩).

يا نفس، اعلمي وأيقني أن الله تعالى حق، وأن دينه حق، وأن رسوله ﷺ حق، وارضَي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

ولا تغرَّنَّك قوة الباطل وانتشاره وانتصاره، وتمكنه في الأرض، ولا تهولَنَّك سطوته وعدته وكثرة أتباعه، وبالمقابل ضعف المسلمين على كثرتهم أو قلتهم، فإن دين الله ـ ولا بد ـ منتصر وظاهر وقائم، وهو قوي متين متماسك، وإنْ ضعف أهلُه، أو نكص أتباعه! المنتسبون إليه، فله ولأتباعه المتمسكين به ولجنده وناصريه العاقبة في الدنيا والآخرة.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۞ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۞ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٦-١٩٨].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر:٤-٥].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُواْ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُواْ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُواْ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [غافر:٢١-٢٢].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٣٦].

وقد تقدم عند ذكر عذاب الأقوام[1]، كيف أن الله عز وجل أخذهم بكفرهم وظلمهم وعنادهم، فلم تنفعهم قوتهم وكثرتهم، ولم تغن عنهم من الله شيئًا.

فالزمي يا نفس سبيل الله تعالى، ودينه الحق، واستمسكي به، وادْعِي إليه، وانصريه، وجاهدي في سبيله، واصبري وصابري، ولا تيأسي من رَوح الله تعالى، فالدين دين الله عز وجل، وإنه له لحافظ، وإنه له لناصر.

ولا تنتظري يا نفس رؤية الثمار، ولا تستعجلي حصول النتائج، ولا تعلِّقي قلبك بذلك، فتقعي في اليأس والملل، وتتركي الجِدّ والعمل، وتستروحي إلى العجز والكسل.

قال العليم الحكيم سبحانه: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ [غافر:٧٧].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴾ [الرعد:٤٠].

وقال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ * أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ * فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف:٤١-٤٣].

وعن خباب بن الأَرَتِّ رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ، وهو متوسد بردةً له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو الله لنا؟ قال:

«كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[2].

---

(١) (صفحة ٢٨٨).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦١٢ و٣٨٥٢ و٦٩٤٣) وغيره.

ولا بد للدعوة من ثمار، ولا بد للجهاد من نتائج، عاجلًا أو آجلًا، وعدًا من الله عز وجل، كما قال سبحانه: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور:٥٥].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم:٤٧].

وقال سبحانه: ﴿ فَكَفَرُواْ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ * فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ * أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ * فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ * وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ * وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ [الصافات:١٧٠-١٧٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ * يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ [غافر:٥١-٥٢].

وقال سبحانه: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج:١٥].

قال ابن كثير: «قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمدًا ﷺ في الدنيا والآخرة، ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ ﴾؛ أي: بحبل، ﴿ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: سماء بيته، ﴿ ثُمَّ لْيَقْطَعْ ﴾، يقول: ثم ليختنق به. وكذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وأبو الجوزاء وقتادة، وغيرهم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ﴿ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾؛ أي: ليتوصل

إلى بلوغ السماء، فإن النصر إنما يأتي محمدًا من السماء، ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه، إن قدر على ذلك.

وقول ابن عباس وأصحابه أولى وأظهر في المعنى[1]، وأبلغ في التهكم، فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمدًا وكتابه ودينه، فليذهب فليقتل نفسه، إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ۞ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾. ولهذا قال: ﴿فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾.

قال السُّدّي: يعني من شأن محمد ﷺ». اهـ.

وقال الزمخشري: «هذا كلام قد دخله اختصار، والمعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من حاسديه وأعاديه أن الله يفعل خلاف ذلك، ويطمع فيه، ويَغيظه أنه يظفر بمطلوبه، فليَسْتَقْصِ وُسعه وليستفرغ مجهوده في إزالة ما يَغيظه، بأن يفعل ما يفعل مَنْ بلغ منه الغيظ كل مبلغ، حتى مدّ حبلًا إلى سماء بيته فاختنق، فلينظر وليصوّر في نفسه أنه إن فعل ذلك هل يذهب نصر الله الذي يَغيظه؟! وسمى الاختناق قطعًا لأن المختنِق يقطع نفَسَه بحبس مجاريه، ومنه قيل للبُهْر[2]: القَطْع. وسمَّى فعله كيدًا لأنه وضعه موضع الكيد، حيث لم يقدر على غيره، أو على سبيل الاستهزاء، لأنه لم يَكِد به محسوده إنما كاد به نفسه، والمراد: ليس في يده إلا ما ليس بمُذهب لما يَغيظه.

وقيل: فليمدد بحبل إلى السماء المظلة، وليصعد عليه فليقطع الوحي أو ينزل عليه. وقيل: كان قوم من المسلمين لشدة غيظهم وحَنَقهم على المشركين

(١) واستظهره الشنقيطي أيضًا. وقال: «وحاصل هذا القول: أن الله يقول لحاسديه ﷺ الذين يتربصون به الدوائر، ويظنون أن ربه لن ينصره: موتوا بغيظكم، فهو ناصره لا محالة على رغم أنوفكم».

(٢) البُهْر: تتابع النَفَس من الإعياء. «لسان العرب».

يستبطئون ما وعد الله رسوله من النصر، وآخرون من المشركين يريدون اتباعه ويخشون أن لا يثبت أمره، فنزلت.

وقد فُسِّر النصر بالرزق، وقيل: معناه أن الأرزاق بيد الله لا تُنال إلا بمشيئته، ولا بد للعبد من الرضا بقسمته، فمن ظن أن الله غير رازقه وليس به صبر واستسلام، فليبلُغ غاية الجزع وهو الاختناق، فإن ذلك لا يقلب القسمة ولا يردّه مرزوقًا[1]». اهـ.

وقال الله سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٢-٣٣].

وقال سبحانه: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف:٨-٩].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح:٢٨].

فهذا وعد من الله تعالى بظهور دين الإسلام على جميع الأديان، وقد تحقق ذلك في عهد النبي ﷺ، فظهر الدين على سائر الأديان، وانتصر جند الله على جند الشيطان، واتسعت أرض الإسلام، وحكم وسيطر فيها الدين الحق أكثر من ألف سنة، وسيعود الإسلام قويًّا كما بدأ، وسينصر الله جنده، وسيحكِّم دينه، وسيظهره ويتمُّه أكثر وأكثر، حتى يعم الأرض كلها، مشارقها ومغاربها[2]، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف:٢١].

---

(١) قال الشنقيطي: «وهذا القول الأخير ظاهر السقوط، كما ترى».

(٢) كما سيأتي.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَذْهَبُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ حَتَّى تُعْبَدَ اللَّاتُ وَالْعُزَّى». فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ أن ذلك تامًّا! قال:

«إِنَّهُ سَيَكُونُ مِنْ ذَلِكَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَتَوَفَّى كُلَّ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَيَبْقَى مَنْ لَا خَيْرَ فِيهِ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى دِينِ آبَائِهِمْ»(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ(٢)، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ(٣)، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ(٤)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا (أو قال: مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا)، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»(٥).

قال الخطابي(٦): «قوله: (زوى لي الأرض)؛ معناه: قبضها وجمعها، ويقال: انزوى

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٧) وغيره.

(٢) يريد بالأحمر والأبيض خزائن كسرى وقيصر، وذلك لأن الغالب على نقود ممالك كسرى الدنانير، والغالب على نقود ممالك قيصر الدراهم. «تُورِبِشْتي».

(٣) السَّنة: القحط والجدب، وهي من الأسماء الغالبة. «طِيبي».

(٤) أي: مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم، وبيضة الدار: وسطها ومعظمها، أراد عدوًّا يستأصلهم ويهلكهم جميعهم. «طِيبي».

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٨٩) وغيره.

(٦) «معالم السنن» (٣٣٩/٤).

الشيء: إذا انقبض وتجمع. وقوله: (ما زُوِي لي منها)، يتوهم بعض الناس أن حرف (من) ههنا معناه التبعيض، فيقول: كيف اشترط في أول الكلام الاستيعاب ورد آخره إلى التبعيض؟! وليس ذلك على ما يقدرونه، وإنما معناه التفصيل للجملة المتقدمة، والتفصيل لا يناقض الجملة ولا يبطل شيئًا منها، لكنه يأتي عليها شيئًا شيئًا، ويستوفيها جزءًا جزءًا، والمعنى: أن الأرض زُوِيت جملتها له مرة واحدة فرآها، ثم يفتح له جزء جزء منها حتى يأتي عليها كلها، فيكون هذا معنى التبعيض فيها».

وعن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»[١].

وعن أبي قَبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاصي، وسئل: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فدعا عبد الله بصندوق له حَلَقٌ، قال: فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: قسطنطينية أو رُومِيَّةُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «مَدِينَةُ هِرَقْلَ تُفْتَحُ أَوَّلًا». يعني: قسطنطينية[٢].

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». قال: «فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ﷺ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ. تَكْرِمَةَ اللهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ»[٣].

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٣).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤٥) وغيره. وهو في «الصحيحة» (رقم ٤)

(٣) أخرجه مسلم (١٥٦ و١٩٢٣) وغيره.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«لَا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللهِ، قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»(١).

واعتبري يا نفس بما حصل للمؤمنين المسلمين وللكافرين المشركين في أول معارك الإسلام، يوم بدر، لتستيقني أن دين الإسلام حق وظاهر وغالب ومنتصر ولا بد، وأن ما سواه باطل وزاهق ومغلوب ومخذول، ولن ينفع الكفر وأهله أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة، كما حصل لمن هم أشد منهم قوة وبأسًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، كآل فرعون وغيرهم، ممن كذب الرسل وعاندوهم وقاتلوهم، فأخذهم الله عز وجل، وكذلك الأمر فيمن بعدهم، سيهزمون ويغلبون، وفي الآخرة عقاب شديد وعذاب أليم، وحشر إلى جهنم وبئس المهاد، كما قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ * قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [آل عمران: ١٠-١٣].

قال الشنقيطي: «قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا﴾. الآية، ذكر في هذه الآية الكريمة أن وقعة بدر آية؛ أي: علامة على صحة دين الإسلام، إذ لو كان غير حق لما غلبت الفئة القليلة الضعيفة المتمسكة به الفئة الكثيرة

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٢٤) وغيره.

القوية التي لم تتمسك به.

وصرح في موضع آخر أن وقعة بدر بينة؛ أي: لا لَبس في الحق معها، وذلك في قوله: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢].

وصرح أيضًا بأن وقعة بدر فرقانٌ فارقٌ بين الحق والباطل، وهو قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال:٤١]. الآية».

وقال ابن سعدي: «فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره، فهزموهم وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيرًا منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة ﴿لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾؛ أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطلة، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعَدد والعُدد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهَد بالأبصار سبب أعظم منه، لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين».

وعن أبي زُرْعَةَ قال: كتب إليّ إسحاق بن راهَوَيْهِ: لا يهولنك الباطل، فإن للباطل جولة ثم يتلاشى(١).

وعن ابن أبي أسامة قال: حُكي لنا أن أحمد قيل له أيام المحنة: يا أبا عبد الله، أوَلَا ترى الحق كيف ظهر عليه الباطل؟!

قال: كلا، إن ظهور الباطل على الحق أن تنتقل القلوب من الهدى إلى الضلالة، وقلوبنا بعد لازمة للحق(٢).

---

(١) مقدمة «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٣٤٢/١).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٢٣٨/١١).

وقال شيخ الإسلام[1]: «ومن سنة الله أنه إذا أراد إظهار دينه أقام من يعارضه، فيحق الحق بكلماته، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه، فإذا هو زاهق».

وقال[2]: «ومن أعظم أسباب ظهور الإيمان والدين، وبيان حقيقة أنباء المرسلين، ظهور المعارضين لهم من أهل الإفك المبين».

وقال[3]: «والفتنة للإنسان كفتنة الذهب إذا أُدخل كيرَ الامتحان، فإنها تميز جيّده من رديئه، فالحق كالذهب الخالص، كلما امتُحن ازداد جودة، والباطل كالمغشوش المضيء، إذا امتُحن ظهر فساده.

فالدين الحق كلما نظر فيه الناظر، وناظر عنه المناظر، ظهرت له البراهين، وقوي به اليقين، وازداد به إيمان المؤمنين، وأشرق نوره في صدور العالمين.

والدين الباطل إذا جادل عنه المجادل، ورام أن يقيم عُوده المائل، أقام الله تبارك وتعالى مَنْ يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، وتبين أن صاحبه الأحمق كاذب مائق[4]، وظهر فيه من القبح والفساد، والحلول والاتحاد، والتناقض والإلحاد، والكفر والضلال، والجهل والمحال، ما يظهر به لعموم الرجال، أن أهله من أضل الضُّلال، حتى يظهر فيه من الفساد ما لم يكن يعرفه أكثر العباد، ويتنبه بذلك من سِنة الرقاد، من كان لا يميز الغَي من الرشاد، ويحيا بالعلم والإيمان من كان ميت القلب لا يعرف معروف الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ولا ينكر منكر المغضوب عليهم والضالين». اهـ.

ولا تيأسِنّ يا نفس إذا ما ذكرتِ حديث النبي ﷺ: «إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٨/٥٧).

(٢) «الجواب الصحيح» (١/٨٥).

(٣) «الجواب الصحيح» (١/٨٨-٩٠).

(٤) أي: هالك حُمْقًا.

غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»[1]، بل استبشري وأمِّلي، واثبتي عليه، وتمسكي به، فالعاقبة له ولأهله.

قال شيخ الإسلام [2]: «وكثير من الناس إذا رأى المنكر أو تغير كثير من أحوال الإسلام جزِع وكَلّ وناح كما ينوح أهل المصائب، وهو منهي عن هذا، بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بالله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حق، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار.

وقوله ﷺ: «ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»، يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم ثم يظهر، كما كان في أول الأمر غريبًا ثم ظهر، ولهذا قال «سَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ». وهو لما بدأ كان غريبًا لا يُعرف ثم ظهر وعُرف، فكذلك يعود حتى لا يُعرف ثم يظهر ويُعرف، فيَقِلّ مَنْ يعرفه في أثناء الأمر، كما كان من يعرفه أولًا». اهـ.

قلت: وترى كثيرًا من الناس لا يهتمون لأمر الدين! ولا يكترثون بما حل بالإسلام وأهله! وإنما همهم أنفسهم وأموالهم وأولادهم وأهليهم وأرزاقهم! والقليل الموفق منهم مَنْ همه الأول دينه وإيمانه وإسلامه، وسعيه لنصرته وتأييده والدعوة إليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة:٢٤].

---

(١) تقدم (صفحة ٢٦٤).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٨/٢٩٥-٢٩٦)، ولكلامه بقية.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلًا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه:

«اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ».

فما زال يهتف بربه، مادًّا يديه، مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن مَنْكِبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على مَنْكِبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك. فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]. فأمده الله بالملائكة. الحديث(١).

وقال ابن مفلح(٢): «قال [ابن عَقيل] في «الفنون»: من عجيب ما نَقَدْتُ من أحوال الناس: كثرة ما ناحوا على خراب الديار، وموت الأقارب والأسلاف، والتحسر على الأرزاق، بذَمِّ الزمان وأهله، وذِكر نكد العيش فيه، وقد رأَوْا من انهدام الإسلام، وشعث الأديان، وموت السنن، وظهور البدع، وارتكاب المعاصي، وتَقَضِّي العمر في الفارغ الذي لا يُجدي، والقبيح الذي يُوبق ويؤذي، فلا أجد منهم من ناح على دينه، ولا بكى على فارط عمره، ولا

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (١٧٦٣) وغيره. وأخرجه البخاري، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما بألفاظ، أحدها: عن ابن عباس، أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر: «أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ أَبَدًا». فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك. وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ۞ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٥-٤٦].

(٢) «الآداب الشرعية» (٢/٢٤٤-٢٤٥ و٣/٢٤٠).

أَسِيَ على فائت دهره، وما أرى لذلك سببًا إلا قلة مبالاتهم بالأديان، وعِظَم الدنيا في عيونهم، ضد ما كان عليه السلف الصالح، يرضَوْن بالبلاغ، وينوحون على الدين».

العراق والشام الآن

قال علي الغامدي في مقالة له بعنوان «هل ضاعت العراق وبلاد الشام من أيدي المسلمين السُّنّة؟»[1]: «لن تضيع العراق ولا بلاد الشام، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك، ففي القرن الرابع الهجري عم الرفض قلب العالم الإسلامي من شمال إفريقية غربًا إلى بلاد فارس شرقًا، حيث سيطر العبيديون والقرامطة والبويهيون على كل تلك البلاد، ونشروا دين الرفض في كل مكان من تلك البلاد، وارتكبوا من المذابح والجرائم ما سجله التاريخ.

ومن أمثلة ذلك: مافعلوه بجزيرة صِقِلِّيَة الإسلامية التي قاومت جيوش العبيديين، ولكنهم تمكنوا من احتلالها، وتولى الولاية عليها الرافضي خليل بن إسحاق، من سنة ٣٢٦ حتى سنة ٣٢٩ هجرية، فهدم أسوار المدن والقلاع، وقتل من أهل السُّنّة مليون قتيل، وقد افتخر بذلك العدد في مجلس خليفته المعز، فقال: قتلت خلال ولايتي من أهل صِقِلِّيَة ألف ألف إنسان. فرد عليه أحد عقلائهم: يكفيك نفس واحدة! يا أبا إسحاق. وما فعلوه في الشام شبيه بذلك.

وتحالفوا مع الروم الذين نزلت جيوشهم الأعماق في بلاد الشام، وذلك سنة ٣٥٨ هجرية، واحتلوا أنطاكية، وزحفوا منها شرقًا عبر سهل الأعماق إلى حلب، وأخضعوا حلب، فأصبحت محمية رومية، أي في نفس السنة التي استولى فيها

---

(١) نقلًا عن موقعه الرسمي. وهو أستاذ متخصص في تاريخ الحروب الصليبية، وتاريخ العدوان الفكري الغربي على الإسلام.

العبيديون على مصر.

وأصبحت جيوشهم حتى أواخر القرن الرابع تجوس بلاد الشام، حتى أخذت الجزية من دمشق، واستولت على اللاذقية وبيروت وصيدا وغيرها، بالإضافة إلى احتلال الروم سائر الثغور الشامية والجزرية والأرمنية وجزيرتي كريت وقبرص وغيرها، وكل ذلك بتعاون العبيديين والبويهيين وإهمالهم شأن الثغور.

وهنا تتحقق سُنّة الله في هذه الأمة، قال تعالى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد:٣٨]. فقد تقاعس أهل السُّنّة في هذه البلاد، وتركوا الحبل على الغارب للقُوى الرافضية، وهنا تبدأ سُنّة الاستبدال، إذ يورد المؤرخون مثل الذهبي وابن الأثير ومِسكويه خبرًا بالغ الصغر لكنه عظيم الدلالة والمغزى، إذ يقولون في حوادث سنة ٣٤٩ هجرية ما نصه: «وفي هذا العام دخل من الترك في الإسلام مئتا ألف خركاه». وكلمة «خركاه» كلمة تركية بمعنى: خيمة. وفي بعض الخيام يعيش أكثر من ٣٠ نسمة؛ أي: أنه دخل في الإسلام عدة ملايين من الترك الغُز[١]، واعتنقوا الإسلام على عقيدة أهل السنة، وكانوا أمة بدوية محاربة بطبيعتها، وقامت منهم دولة السلاجقة التي من أشهر سلاطينها طُغْرُلْ بَك وأَلْبْ أَرْسَلَان وملك شاه، ومحت البويهيين من الوجود، وطردت العبيديين عن معظم بلاد الشام، وهزمت الروم هزيمة ماحقة في معركة منازكرد سنة ٤٦٣ هجرية، واستردت منهم كل ما اغتصبوه من المسلمين في القرن السابق.

ليس هذا فحسب، بل وفتحت بلاد الروم (آسيا الصغرى)، وأنشؤوا فيها مملكة سلجوقية إسلامية، عُرفت بسلطنة سلاجقة الروم، نسبة إلى البلاد الرومية، وتمكن أتباع السلاجقة الزنكيين في القرن السادس من محو

(١) قبيلة من الترك.

العبيديين من الوجود». اهـ.

فيا نفس، لا تخافي على الإسلام دون الخوف عليك، ويا عبد الله، لا تخف على الإسلام دون الخوف على نفسك، وخف أن تضل عن الهدى، أو أن تزيغ عن الحق، أو أن تترك الدين وراء ظهرك، فكم قد رأينا! وكم قد سمعنا! ممن ضل بعد الهدى، وزاغ بعد الاستقامة؟! وقد كان في حال من الدين ـ فيما يرى الناس ـ يُحسد عليها، وقد كان يشار إليه بالبنان في العلم والعمل!

فالله الله يا نفس في دينك! والله الله يا نفس في إيمانك! لا تبيعيه بثمن بخس، عرضٍ من الدنيا زائل! فما هو إلا قليل وتأتي الآخرة، ﴿ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى:١٧].

OOOOO

عَوْد

فتلك يا عبد الله أمثلة في معاتبة النفس تُلَيِّن الحديد، وتقرب البعيد، وتوجب الانتفاع ـ بإذن الله تعالى ـ بالوعد والوعيد، فعَضّ عليها بنواجذك، وكررها على مسامعك، وانظر فيها بعين بصيرتك، واستحضرها في قلبك، وقِس عليها غيرها، ونَزِّل على نفسك ما يناسبك منها، وبالله التوفيق.

فصل

ثم يحذرها بعد ذلك بكلام العلماء والحكماء والزهاد، كأن يقول لها:

يا نفس، كم من مستقبلٍ يومًا لا يستكمله، ومنتظرٍ غدًا لا يبلغه؟! لو تنظرين إلى الأجل ومسيره، لأبغضتِ الأملَ وغرورَه.

يا نفس، ما أحببتِ أن يكون معك في الآخرة فقدميه اليوم، وما كرهتِ أن يكون معك في الآخرة فاتركيه اليوم.

يا نفس، إن الليل والنهار يعملان فيك، فاعملي أنت فيهما.

يا نفس، الدنيا مجاز، والآخرة وطن، والأوطار إنما تُطلب في الأوطان.

يا نفس، للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

يا نفس، يا عجبا لألسنة تصف، وقلوب تعرف، وأعمال تخالف!

يا نفس، إنما أنتِ أيام، كلما مضى منك يوم مضى بعضك.

إنا لنفرح بالأيام نقطعها ... وكل يوم مضى يدني من الأجلِ

فاعمل لنفسك قبل الموت مجتهدًا ... فإنما الربح والخسران في العملِ

يا نفس، كيف يفرح بالدنيا مَنْ يومُه يهدم شهرَه، وشهرُه يهدم سَنتَه،

وسنتُه تهدم عمرَه؟! كيف يفرح مَنْ يقوده عمرُه إلى أجله، وحياتُه إلى موته؟!

نَجِــــد سرورًا بـــــالهلال إذا بـــــدا وما هو إلا السيفُ للحتف يُنْتَضَى
إذا قيـــل تـــم الشـــهر فهـــو كنايـــةٌ وترجمةٌ عن شطر عمرٍ قد انقضى

يا نفس، من كانت الليالي والأيام مطاياه سارتا به وإن لم يَسر.

ومـــا هـــذه الأيـــام إلا مراحـــلُ يحـث بهـا حـادٍ إلى المـوت قاصـدُ
وأعجـــب شيء لـــو تأملـــت أنهـــا منـــازلُ تطـــوى والمســـافر قاعـــدُ

يا من كلما طال عمره زاد ذنبه، يا من كلما ابيض شعره بمرور الأيام اسود بالآثام قلبه.

يا نفس، من نافسك في دينك فنافسيه، ومن نافسك في دنياك فألقيها في نحره.

فصل

ثم يعاتبها بما تيسر من وعظ وإرشاد، مما يناسب الحال والزمان، والمواسم والأيام، والإنسان غالبًا يكون أدرى بدائه، وأعلم بدوائه، وأبصر بنفسه وأسرارها، فإذا استعمل ما قدمناه، وانتبه لما سيأتي بيانه، فإنه سينتفع ولا بد، وسيعثر فيه على بغيته، ويقع منه على ضالته، والله هو المرجوُّ في تحقيق ذلك، والتوفيق به وحده سبحانه، لا إله غيره، ولا رب سواه.

خَتْم

ومن أفضل ما يكون من المعاتبة للنفس، ومن أشد ما يحركها ويؤثر فيها: أن يسرد عليها أمثلة حية من معاتبة السلف لأنفسهم ومحاسبتهم لها(١)، فإن معرفة سِيَر القدوات أشد وطأً، وأعظم وقعًا.

---

(١) وهو الباب التالي من هذا الكتاب.

كــرِّر عليَّ حــديثَهم يــا حــادي فحــديثهم يجلــو الفــؤاد الصــادي

قيل لأحدهم: ما الذي حبب إليك الخلوة، وطرد عنك الفَتْرة؟ قال: وَثْبة الأكياس من فخ الدنيا.

وقيل لآخر: لم تخليت عن الدنيا؟ فقال: خوفًا والله من الآخرة أن تتخلى عني.

وقيل لزاهد: كيف سَخِيَتْ نفسك عن الدنيا؟ قال: أيقنتُ أني خارِج منها كارهًا، فأحببت أن أخرج منها طوعًا[1].

❑❑❑❑❑

(١) «نثر الدر» (٥٧/٧).

الباب الثالث

أمثلة حية

في معاتبة النفس

عبد الله بن رواحة

قال ابن إسحاق[١]: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: بعث رسول الله ﷺ بَعثة إلى مؤتة في جُمادَى الأولى سنة ثمان، واستعمل عليهم زيد بن حارثة، وقال:

«إِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى النَّاسِ، فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ عَلَى النَّاسِ»[٢].

فتجهز الناس ثم تهيؤوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم ودَّع الناسُ أمراءَ رسول الله ﷺ وسلموا عليهم.

فلما وُدِّع عبد الله بن رواحة مع مَنْ وُدِّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا بن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صَبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل، يذكر فيها النار: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم:٧١]، فلست أدري كيف لي بالصَّدَر بعد الورود. فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين، فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا[٣]
أو طعنةً بِيَدَيْ حَرَّانَ[٤] مُجْهِزَةً ... بحَربةٍ تُنْفِذُ الأحشاءَ والكَبِدا[٥]

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١٣/٤).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٠/٧ - فتح) وغيره، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ولفظه في «الصحيح»: «إِنْ قُتِلَ زَيْدٌ فَجَعْفَرٌ، وَإِنْ قُتِلَ جَعْفَرٌ فَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ».

(٣) (ضربةً ذَاتَ فَرْغٍ)؛ أي: واسعة. والزبد هنا: رغوة الدم.

(٤) أي: شديد.

(٥) (مُجْهِزة): سريعة القتل. و(تُنْفِذ الأحشاء): تخترقها.

حـــتى يقـــال إذا مَـــرُّوا على جَـــدَثي   أرشَـدَه اللهُ مِـنْ غازٍ وقـد رَشَـدا[1]

قال الذهبي[2]: قيل: لما جهز النبي ﷺ إلى مؤتة الأمراء الثلاثة فقال: «الأَمِيْرُ زيد، فَإِنْ أُصِيْبَ فَجَعْفَرٌ، فَإِنْ أُصِيْبَ فَابْنُ رَوَاحَةَ». فلما قُتِلا كره ابن رواحة الإقدام، فقال:

أقســـمتُ يـــا نفـــس لَتَنْزِلِنَّـــهْ   طائعـــــــةً أو لا لتُكْرَهِنَّـــــــهْ

فطالمـــا قـــد كنـــتِ مطمئنـــهْ   مـــا لي أراك تكـــرهين الجَنـــهْ

فقاتل حتى قُتل.

وقال ابن إسحاق[3]: وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد قال: حدثني أبي الذي أرضعني، وكان أحد بني مرة بن عوف، قال: فلما قتل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقســـمتُ يـــا نفـــس لَتَنْزِلِنَّـــهْ   لَتَـــــــنْزِلِنَّ أو لَتُكْرَهِنَّـــــــهْ

إنْ أَجْلَـبَ النـاسُ وشَـدُّوا الرَّنّـهْ   مـــا لي أراك تكـــرهين الجَنـــهْ

قـد طـال مـا قـد كنـتِ مطمئنـهْ   هـــل أنـــت إلا نُطْفَـــةٌ في شَـــنَّهْ[4]

وقال أيضًا:

يـــا نفـــس إلا تُقـــتلي تمـــوتي   هـــذا حِمَـــام المـــوت قـــد صَـــلِيتِ

ومـــا تمنيـــتِ فقـــد أُعطيـــتِ   إنْ تفعـــلي فِعْلَهمـــا[5] هُـــدِيتِ

[وإن تـــأخرتِ فقـــد شَـــقِيتِ]

ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعَرْقٍ من لحم فقال: شُدّ بهذا صُلبك،

(١) في «الاستيعاب»: «يا أرشد الله من غاز».

(٢) «سير أعلام النبلاء» (١/٢٣٤-٢٣٥).

(٣) «سيرة ابن هشام» (٤/١٧-١٨)، والزيادة من «أُسْد الغابة»، و«جامع المسانيد والسنن».

(٤) الشَّنَّة: القِربة الخَلَق.

(٥) يريد صاحبيه: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، رضي الله عنهم.

فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت. فأخذه من يده ثم انتهس منه نَهسةً، ثم سمع الحَطْمَةَ في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم، فقاتل حتى قتل.

وعن أنسِ بن مالكٍ رضي الله عنه قال[1]: حضرت حربًا فقال عبد الله ابن رواحة: يا نفس:

أَلّا أراك تكــــــرهين الجَنــــــهْ أحلـــــف بــــــالله لَتَنْزِلِنَّــــــهْ

طائعــــــــــةً أو لَتُكْرَهِنَّــــــــــهْ

قلت: هذه أشهر معاتبة للنفس في تاريخ الإسلام، وكانت نتيجتها بذل تلك النفس لله عز وجل، وتسليمها للقتل في سبيله، فهل من مدّكر؟!

ولم أنس معاتبة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه المتقدمة[2]، ومعاتبة خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي الله عنه المتقدمة أيضًا[3].

الأحنف بن قيس (ت ٦٧)

حكى صاحب للأحنف بن قيس قال: كنت أصحبه، فكان عامة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار، ثم يقول لنفسه: يا حُنَيْف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟![4].

زين العابدين (ت ٩٥)

قال الزهري[5]: سمعت علي بن الحسين، سيد العابدين، يحاسب نفسه ويناجي ربه، ويقول: يا نفس، حَتَامَ إلى الدنيا غرورك، وإلى عِمارتها ركونك؟! أما

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٧٩٣) وغيره، وصححه الألباني.

(٢) (صفحة ١١٧).

(٣) (صفحة ٣٦٧).

(٤) «الإحياء» (٤/٤٠٥).

(٥) «مختصر تاريخ دمشق» (١٧/٢٤٩).

اعتبرتِ بمن مضى من أسلافك، ومن وارته الأرض من أُلّافك، ومن فُجِعْتِ به من إخوانك، ونقل إلى البِلى من أقرانك؟!

فهـم في بطـون الأرض بعـد ظهورهـا محاســـنهم فيهـــا بَـــوالٍ دَوَاثـــرُ

وله[1]:

يا نفس كُـفّي عـن العصـيان واكتسـبي
فعـــلًا جمـــيلًا لعـــل اللهَ يـــرحمني
يـا نفـس ويحـك تـوبي واعمـلي حسـنًا
عســـى تُجـازَين بعـد المـوت بالحسـنِ

إبراهيم التيمي (ت ٩٦)

عن سفيان بن عيينة قال: قال إبراهيم التيمي: مَثّلْتُ نفسي في النار أعالج أغلالها وسعيرها، وآكل من زقومها، وأشرب من زمهريرها، فقلت: يا نفس، أيش تشتهين؟ قالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عملًا أنجو به من هذا العقاب. ومَثّلْتُ نفسي في الجنة مع حورها، وألبَس من سندسها وإستبرقها وحريرها، فقلت: يا نفس أيش تشتهين؟ قال: فقالت: أرجع إلى الدنيا فأعمل عملًا أزداد فيه من هذا الثواب. قلت: فأنت في الدنيا وفي الأمنية[2].

عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١)

قال ابن رجب[3]: رأى عمر بن عبد العزيز قومًا في جنازة، قد هربوا من الشمس إلى الظل، وتوقَّوُا الغبار، فبكى، ثم أنشد:

---

(١) «نضرة النعيم» (١٠/٥٠٠٤-٥٠٠٥).

(٢) «الزهد» لأحمد (٢١٠٦)، و«ربيع الأبرار» (٣/٤٥٠).

(٣) «لطائف المعارف» (ص ٣٢١).

من كان حــين تُصــيبُ الشــمسُ جبهتَــهُ
أو الغبـــارُ يَخـــاف الشَّـــينَ والشَـــعَثا
ويـــألف الظـــل كي يُـــبقي بشاشـــتَهُ
فســوف يســكن يومًــا راغمًــا جَــدَثًا
في ظـــل مُقْفِـــرَةٍ غـــبراءَ مظلمـــةٍ
يُطيــل تحــت الــثرى في غمهــا اللَّبَثــا
تجهـــزي بجَهـــاز تبلغـــين بـــهِ
يــا نفــس قبــل الــردى لــم تُخلــقي عَبَثــا

يزيد الرقاشي (ت ١٣٠)

وكان يزيد الرقاشي يقول لنفسه: ويحك يا يزيد! من ذا الذي يصلي عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يصوم عنك بعد الموت؟! من ذا الذي يُرضي عنك ربَّك بعد الموت؟! ثم يقول: أيها الناس، ألا تبكون وتنوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟! ويا من الموتُ موعده، والقبر بيته، والثرى فراشه، والدود أنيسه، وهو مع هذا ينتظر الفزع الأكبر، كيف يكون حاله؟! ثم يبكي[(١)].

زياد بن أبي زياد (ت ١٣٥)

قال محمد بن المنكدر: إني خلفت زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش وهو يخاصم نفسه في المسجد يقول: اجلسي، أين تريدين؟! أين تذهبين؟! أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد؟! انظري إلى ما فيه! تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان؟!

(١) «العاقبة في ذكر الموت» (ص ٤٠).

قال: وكان يقول لنفسه: مالك من الطعام إلا هذا الخبز والزيت، ومالك من الثياب إلا هذين الثوبين، ومالك من النساء إلا هذه العجوز، أفتحبين أن تموتي؟! فقالت: أنا أصبر على هذا العيش[1].

عون بن عبد الله (ت ١٥١)

في «صفة الصفوة»[2]: «عن عون بن عبد الله أنه كان يقول في بكائه وذكر خطيئته: ويح نفسي! بأي شيء لم أعص ربي؟ ويحي! إنما عصيته بنعمته عندي، ويحي من خطيئة ذهبت شهوتها وبقيت تبعتها عندي! ويحي! كيف أنسى الموت ولا ينساني؟ ويحي! إن حُجبتُ يوم القيامة عن ربي، ويحي!

كيف أغفل ولا يغفل عني؟! أم كيف تهنئني معيشتي واليوم الثقيل ورائي؟! أم كيف لا تطول حسرتي ولا أدري ما يفعل بي؟! أم كيف يشتد حبي لدار ليست بداري؟! أم كيف أجمع بها وفي غيرها قراري؟! أم كيف تعظم فيها رغبتي والقليل فيها يكفيني؟! أم كيف أوثرها وقد أضرّت بمن آثرها قبلي؟! أم كيف لا أبادر بعملي قبل أن يغلق باب توبتي؟! أم كيف يشتد إعجابي بما يزايلني وينقطع عني؟! أم كيف لا يكثر بكائي ولا أدري ما يراد بي؟! أم كيف تقر عيني مع ذكر ما سلف مني؟! أم كيف تطيب نفسي مع ذكر ما هو أمامي؟!

ويحي! هل ضرت غفلتي أحدًا سواي؟! أم هل يعمل لي غيري إن ضيعت حظي؟! ويحي! كأنه قد تصرّم أجلي، ثم أعاد ربي خلقي كما بدأني، ثم وقفني وسألني، ثم أُشهدت الأمر الذي أذهلني، وشُغلت بنفسي من غيري، وسارت الجبال وليس لها مثل خطيئتي، وجُمع الشمس والقمر وليس عليهما مثل حسابي،

---

(١) «ذم الهوى» (ص ٤٧).

(٢) (٢/٥٨-٥٩). وانظر «حلية الأولياء» (٤/٢٥٥).

وانكدرت النجوم وليست تُطلب بما عندي، وحُشرت الوحوش ولم تعمل مثل عملي، وشاب الوليد وهو أقل ذنبًا مني.

ويحي! ما أشد حالي وأعظم خطري! فاغفر لي واجعل طاعتك همتي ولا تعرض عني يوم تعرض، ولا تفضحني بسرائري ولا تخذلني بكثرة فضائحي، بأي عين أنظر إليك وقد علمتَ سرائري؟! وكيف أعتذر إليك إذا ختمت على لساني، ونطقت جوارحي بكل الذي كان مني؟! إلهي أنا [إذا] ذكرت ذنوبي [ومعاصي] لم تقر عيني [للذي كان مني]، أنا تائب إليك فاقبل ذلك مني، ولا تجعلني لنار جهنم وقودًا بعد توحيدي وإيماني [بك]».

سفيان الثوري (ت ١٦١)

ومما ينسب لسفيان الثوري(١):

يا نفس مالك من صبر على النـارِ　　قد حان أن تُقْبلي من بعـد إدبـارِ

ابن المبارك (ت ١٨١)

وقال الذهبي(٢): ولابن المبارك:

جربـت نفســي فمـا وجـدت لهـا　　مــن بعــد تقــوى الإله كالأدبِ
في كل حالاتهــا وإن كرهــتْ　　أفضـل مـن صـمتها عـن الكـذبِ
أو غِيبــة النــاس إنّ غِيبــتهمْ　　حَرّمهــا ذو الجــلال في الكتــبِ
قلــت لهــا طائعًــا وأُكرهِهــا　　الحلـمُ والعلـمُ زَيـن ذي الحَسَـبِ
إن كان مــن فضــة كلامُــكِ يــا　　نفـس فـإن السـكوت مـن ذهـبِ

---

(١) «الاستعداد للموت» للمَلِيباري (ص ٧٩).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٤١٦).

الشافعي (ت ٢٠٤)

قال ابن رجب[١]: كان الإمام الشافعي رحمه الله ينشد:

يـا نفـسُ مـا هـو إلا صـبرُ أيـامِ   كـأنّ مـدتَها أضـغاثُ أحـلامِ
يا نفسُ جـوزي عـن الدنيـا مبـادرةً   وخَـلِّ[٢] عنهـا فـإن العـيش قـدامي

ومما ينسب له[٣]:

ســأطلب علمًــا أو أمــوت بــبلدةٍ
يَقِــلُّ بهــا هَطْــلُ الدمــوع على قــبري
وليس اكتسابُ العلم يا نفسُ فـاعلمي
بمــيراثِ آبــاءٍ كــرامٍ ولا صِــهْرِ
ولكنَّ فتى الفتيـان مَـنْ راح واغتـدى
ليطلــب علمًــا بــالتجلدِ والصــبرِ
فإن نـال علمًـا عاش في النـاس ماجـدًا
وإن مـات قـال النـاس بـالغ في العـذرِ
إذا هجــع النُّــوام أســبلتُ عَــبرتي
وأنشدتُ بيتًـا وهـو مـن ألطـفِ الشعرِ
ألــيس مِــنَ الخســرانِ أن لياليًــا
تَمُــرُّ بـلا عِلـمٍ وتُحسـبُ مـن عمـري

---

(١) «فضل علم السلف» (ص ١٠).

(٢) كذا هي! بحذف ياء المخاطبة! وهي لهجة عند بعض العرب. والبيت سيأتي لأبي العتاهية بلفظ:

يا نفس كوني عن الدنيا مباعِـدةً   وخَلِّفِيها فإن العيش قدامـي

(٣) «غذاء الألباب» (٢/٤٤٤).

أبو العتاهية (ت ٢١٣)

قال أبو العتاهية:

يـا نفـس أيـن أبي وأيـن أبـو أبـي
وأبـوه عُـدِّي لا أبـا لـك واحسبـي
عُـدِّي فـإني قـد نظـرت فلـم أجـد
بينـي وبيـن أبيـك آدم مـن أبِ
أفأنـت ترجِيـن السلامـة بعـدهم
هـلّا هُدِيـتِ لسَمْـتِ وَجْـهِ المطلـبِ
قـد مـات مـا بيـن الجنيـن إلـى
الرضـيع إلى الفطـيم إلى الكبير الأشـيَبِ
فـإلى مـتى هـذا أرانـي لاعبًـا وأرى
المنيـة إن أتـت لـم تلعـبِ

وقال:

نمـوت جميعًـا كلنـا غيـرَ مـا شـكٍّ
ولا أحـدٌ يـبقى سـوى مالـك الملـكِ
أيـا نفـس أنـت الدهـرَ في حـالِ غفلـةٍ
وليسـت صروف الدهـر غافلـةً عنـكِ
أيا نفس كم لي منك مـن يـوم صرعـةٍ
إلى الله أشـكو مـا أعالجـه منـكِ

أيــا نفــس إن لــم أبــك ممــا أخافــهُ

عليكِ غدًا يــومَ الحســاب فمــن يبكــي

أيــا نفــس هــذي الــدارُ لا دارُ قلعــةٍ

فــلا تجعلِــنّ القصــدَ إلا إلــى تلــكِ

أيــا نفــس لا تنســي عــن الله فضلَــهُ

فتأييــده مَلْكــي وخِذلانــه هَلْكــي

وليس دبيب الذر فوق الصـفاة في الـظَّـ

ــلام بــأخفى مــن ريــاءٍ ولا شــركِ

وقال:

رجعــتُ إلى نفســي بفكــري لعلهــا

تفــارق مــا قــد غرهــا وأذلهــا

فقلــت لهــا يــا نفــس مــا كنــتُ آخــذًا

مــن الأرض لــو أصــبحتُ أملــك كلّهــا

فهــل هي إلّا شِبْعَــةٌ بعــد جَوْعــةٍ

وإلّا مُــنًى قــد حــان لــي أن أمَلَّهــا

ومــدةُ وقــتٍ لــم يــدع مُــرُّ مــا مضــى

علــيَّ مــن الأيــام إلا أقلَّهــا

أرى لــك نفسًــا تبتغــي أن تُعِزَّهــا

ولســتَ تُعِــزُّ النفــسَ حتــى تُذِلَّهــا

وقال:

يــا نفــس أنــى تؤفكينــا … حــتى متــى لا ترعوينــا

حتــى متــى لا تعقليــــ … ــن وتســمعين وتبصرينــا

أصــبحتِ أطــول مــن مضــى … أمــلًا وأضعفهــم يقينــا

وليأتيــن عليــك مــا … أفــنى القــرون الأولينــا

يــا نفــس طــال تمسكــي … بعُــرى المُــنى حينًــا فحينــا

يــا نفــس إلا تصلحــي … فتشبهــي بالصالحيــنــا

وتفكــري فيمــا أقــو … ل لعــل قلبــك أن يلينــا

أيــن الأُلى جمعــوا وكــا … نــوا للحــوادث آمنينــا

أفنــاهم الأجــل المطــلُّ … على الخلائــق أجمعينــا

فــإذا مساكنهــم ومــا … جمعــوا لقــومٍ آخرينــا

أيــن الأُلى جمعــوا وكــا … نــوا للحــوادث آمنينــا

وقال:

يــا نفــس إن الحــق دينــي … فتذللــي ثــم استكينــي

فــإلى متــى أنــا غافــل … يــا نفــس ويحــك خبرينــي

وإلى مــتى أنــا ممســك … بخــلًا بمــا ملكــت يمينــي

يــا نفــس لا تتضايقــي … وثــقي بربــك واستعينــي

يــا نفــس أنــت شحيحــة … والشــح مــن ضــعف اليقــينِ

يــا نفــس تــوبي مــن مــؤا … خــاة الأخ البَطِــرِ البطيــنِ

وتعلقــي بمعالــق الــ … ــمكروب ذي القلــب الحــزينِ

وتفكـــــري في المـــــوت أحـ ـيانًـــا لعلـــك أن تلينـــي
فلتغشيـنِّـــــي غَـشْـيـــــةٌ يَنـــدى لسكرتهـــا جبينـــي
ولتُعْـولَـــــــنّ المُـعْـــــــوِلا تُ هنـــاك حـــولي بالرنيـــنِ
ولتَجعلَنّـــــي بعـــــد خَـلْـــــ ـــقي طينـــةً لَحِقَـــتْ بطيـــنِ
وليأتيـــــنّ عـلـــــيّ تـــحـــــ ـــت الــتُّرب حــينٌ بعــد حيـــنِ

وسيأتي لأبي العتاهية مزيد من هذا في «المواعظ» آخر الكتاب.

المحاسبي (ت ٢٤٣)

قال المحاسبي(١): «يا نفس، ما لي أراك قد اطمأننت وسكنت، والغالب عليك الفرح والسرور، في كثير من أحوالك؟! وأنت ترَين فيك من الله دلائل الغضب وشواهد المقت، ثم لا تبكين! ولا لذلك تكترثين! كأنك لغضب الله تطيقين، ولعذابه تجهلين!

هيهات! هيهات! إنك عن دون ذلك لتضعفين، ومن أقل أذى الدنيا تجزعين، فكيف بشدة غضب الله وأليم عذابه؟!

ويحك! أنت اليوم ممهلة، والله لك مُنْظِر، وعن قليل تنقطع المدة، وتزول النَّظِرة.

ولو قد تغشاك الموت وسياقه فلقد حضرك الندم، فأَعطيت النية الصحيحة حيث لا تُقبل.

ويحك! أتدرين عما ينكشف الغطاء؟ أما تخافين لو بلغت منك النفس التراقي، أن تبدو رسل الله منحدرة من السماء بسواد الألوان، وكَلَحِ الوجوه، وبشرى

(١) «معاتبة النفس» (ص ٤٢-٧٤) مقتطفًا، باختصار وتصرف يسير.

العذاب؟! فهل ينفعك حينئذ الندم، أو يقبل منك الحزن، أو يرحم منك البكاء؟!

ويحك! بادري حلول الأجل بالتوبة، واغتنمي عيش كل ساعة، فإنك في السير مُجِدَّة، وفي كل وقت من لقاء الله تقربين، ويحك! كدري الفكرة في ما سلف منك من الذنوب، وعوِّدي البكاء عينًا بالدموع قبل سيلها في نار جهنم.

ويحك! استعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأديمي الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فان مصيبتك قد عظمت، وبليتك قد تفاقمت، ونأيك قد طال.

قد انقطعت منك الحِيَل، وانزاحت [عنك] العلل، فلا مهرب ولا مطلب ولا استغاثة ولا منحا ولا منجا إلا إلى مولاك.

فاضرعي إليه واخشعي في تضرعك على قدر عظيم جرمك، وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب المتلهف، و يجيب دعوة المضطر، فقد والله أصبحتِ إليه مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، فألحي بالطلب للفرج، واشتكي لعِظَم المصيبة، فإن المطلوب إليه كريم، والمسؤول إليه جواد، والمستغاث به رؤوف.

فأديمي الاستغاثة فإنه يغيثك، وإن من إغاثته لك أنْ مَنّ عليك بالاستغاثة، فإن أدمت أتم ما مَنّ به عليك، وأجاب الدعوة، وعجل الإغاثة، فقد والله ضاقت بك السبل، وانسدت الطرق، وانقطع منك الحبل، ولم تنفع فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فليَرك مولاك في مقام المضطرين الحيارى الملهوفين، لأنه إن آخذك بعظيم جرمك لم يغثك، وإن صفح بجوده أن يؤاخذك أسرع إجابتك.

فادعي دعاء من لا يستأهل أن يجاب ولا يغاث، طامعٍ من الجواد ألا يناقِش بالسيئات، ولا يؤاخِذ بالخطايا، ويغيث من يدعو وهو عند نفسه لا يستأهل أن يجاب، ولكن حمله على التضرع معرفته بكرم المسؤول، وجود

المطلوب، ورحمة المستغاث، فاعقلي ما فاتك من طاعة ربك، وما أفنيت من عمرك في غير التقرب إليه، فيا أسفا على طاعته! ويا حزناه على رضاه! ويا خجلاه مما اطلع عليه! ويا طول كمدك! إن حرمك جواره في الآخرة كما حرمك صدق معاملته في الدنيا.

ويحك! اذكري ما يحل بأهل عذابه من اشتعال النار في جميع أجسامهم، ووصولها إلى أحداقهم ودخولها في أجوافهم.

ويحك! كيف ترَين وجع قلب عبد دخلت النار في عينه، ونفذت الى جميع بدنه؟! بل كيف بنار تأكل أمعاءه وكبده ؟! ويحك! أتأمنين أن يكون هذا غدًا نعتك وصفتك وهذه حالك؟! ويحك! ارحمي ضعف جسمك، ولا تخاطري به، ورِقي لقلة صبرك ولا تغتري.

إذا لم ترحمي بدنك من النار فمن ترحمين؟! واذا لم ترِقِّي له فعلى من ترِقِّين؟!

فافزعي إليه فَزَعَ الهالك، وتضرعي إليه تضرع الغريق، وداومي ولا تمَلي، فمن كان في مثل حالك لا يمَل دوام التضرع، لشدة مسكنته، ولعظيم مصيبته.

ويحك! إن لم تخافي العذاب، ولم ترحمي جسدك، أما تشتاقين أن يحل بك من الله الرضا، وينظر إليك بالحَظوة؟!

ويحك! أما تحنين إلى طيب جوار الله في جنته، في رَوح لا يزول، ونعيم لا يبيد، وقرة عين لا تنقطع؟! وفوق الأماني، مما تشتهيه الأنفس، مع البقاء واليقين بالرضوان.

وأعظم من ذلك: ألَا تشتاقين إلى أن تزوري مولاك، وتسمعي كلامه لك بالترحيب، ويكشف الحجاب فتنظري إلى من لا يشبهه شيء في جلاله؟!

ويحك! فعيشك غنيمة، وبقية عمرك إقالة، فافرحي واشكري مولاك أن لا يكون الموت عاجلك فحال بينك وبين الرجوع، وقطع بك عن النزوع، وفاتك

طِيب جوار الله الجليل العظيم.

ويحك! إن الدنيا دار نجاة الآخرة، بقدر ما تتحملين فيها من المكروه لله تُعوَّضين، وبقدر ما تتركين من ملاذها تُجْزَين.

ويحك! فلا تدَعي معاملة مولاك في دار العمل، فتخسري الدنيا والآخرة.

ويحك يا نفس! ابكي على ما مضى من سوالف الذنوب، فإن المُنقطَع به يستعين بالبكاء إلى من يستغيث به رجاء أن يُرحم، فخذي في البكاء والعويل والنَّوح والضجيج لعله أن يرحم منك العَبرة ، فيقيلك العثرة، ويعجل لك النقلة.

ويحك يا نفس! أليس قد انقطع عنك كل لذة، وزالت عندك كل رفاهية، وانقضت الساعات والأيام، وما كان فيها من التخليط والذنوب، وبقيت عليك الأوزار؟! هذا ما قد مضى وذهب، وبقي السؤال!!

فهكذا تستقبلي أيامك، ما يكون منها، وما يبقى عليك من التبعات، فتحولي عما ينقضي وتبقى عاقبته.

ويحك! فنادي ربك بصوت محزون من قلب محتدم(١) مغموم، واسبلي الدموع واستغيثي استغاثة المكروب، فقولي: يا رب، هذا مقام المتضرع المسكين، البائس الفقير، الهالك الغريق، فعجل إغاثتي وفرجي، وأرني آثار رحمتك، وأذقني برد عفوك ومغفرتك، وارزقني قوة عظمتك، ولذة إقبالك علي، وترويح زوال عقوبتك، وسرور القلب منك، وأُنس الحب لك، فبدل أحوالي، واقلب همتي، وحول لذتي، حتى يصير ذلك في صدق معاملتك، وحلاوة مناجاتك، وراحة الثقة بك.

ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا متِّ انفلتِّ وتخلصت! هيهات! أتحسبين أنك تتركين سدى؟! ألم تكوني نطفة من مني يمنى، ثم علقة فخلق فسوى؟! أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟! فإن

---

(١) مشتعل ملتهب، تشبيهًا له بالنار.

كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك!!

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟!

فاحذري يا نفس يومًا آلى الله فيه على نفسه، أن لا يترك عبدًا في الدنيا أمره ونهاه حتى يسأله عن عمله، دقيقه وجليله، سره وعلانيته.

فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله؟! وبأي لسان تجيبين؟! وأعدي للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا، فرب مسرور مغبون، ورب مغبون لا يشعر، فويل لمن له الويل ثم لا يشعر، يضحك ويفرح، ويلهو ويمرح، ويأكل ويشرب، وقد حق له في كتاب الله أنه من وقود النار!

فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارًا، وسعيك لها اضطرارًا، وتركك لها اختيارًا، وطلبك للآخرة ابتدارًا، ولا تكوني ممن يعجز عن شكر ما أوتي، ويبتغي الزيادة فيما بقي، ويَنهى الناس ولا ينتهي!».

الإلبيري (ت ٤٦٠)

قال أبو إسحق الإلبيري:

أَلِفْتُ العُقابَ حَذارَ العِقاب ... وعِفتُ الموارد خوف الذئاب

وأبغضتُ نفسي لعصيانها ... وعاتبتها بأشدِّ العِتاب

وقلتُ لها بانَ عنكِ الصِّبا ... وجرَّدكِ الشيبُ ثوبَ الشباب

وما بعدَ ذلك إلا البِلى ... وسُكنى القبور وهَولُ الحساب

فأيقظهـــا العَتْـــبُ مـــن نومهـــا ولكنهـــا جَمَّـــةُ الاضـــطراب

فكـــم أنشـــأتْ مُزنـــةً للـــتقى وعادت وشـــيكًا كلَمْـــعِ الســـراب

وكـــم وعـــدَتْني بتَـــوْبٍ وكـــم ومـــا أنجـــزتْ وعـــدَها في المتـــاب

وكـــم خـــدَعَتْني على أنـــني بصـــيرٌ بطُـــرْقِ الخَطَـــا والصـــواب

فلســـتُ على الأمـــن مـــن غـــدرها ولـــو حَلَفَـــتْ لي بِـــآيِ الكتـــاب

الحريري (ت ٥١٦)

قال الحريري في «المقامة البصرية»:

خَـــلِّ ادّكَارَ الأَرْبُـــعِ والمَعْهَـــدِ المُرْتَبِـــعِ

والظَّـــاعِنِ المُـــوَدَّعِ وعَـــدِّ عَنـــهُ وَدَعِ

وانـــدُبْ زَمَانًـــا سَـــلَفَا سَـــوَّدْتَ فِيـــهِ الصُّـــحُفَا

ولَـــمْ تَـــزَلْ مُعْتَكِفَـــا على القبـــيحِ الشَّـــنِعِ

كَـــمْ لَيْلَـــةٍ أَوْدَعْتَهَـــا مآثِمًـــا أَبْـــدَعْتَهَا

لِشَـــهْوَةٍ أَطَعْتَهَـــا في مَرْقَـــدٍ ومَضْـــجَعِ

وكَـــمْ خُطًـــى حَثَثْتَهَـــا في خِزْيَـــةٍ أَحْـــدَثْتَها

وتَوْبَـــةٍ نَكَثْتَهـــا لِمَلْعَـــبٍ وَمَرْتَـــعِ

وكَـــمْ تَجَـــرَّأْتَ عَلَى رَبِّ السَّـــمواتِ العُـــلى

ولـــم تُرَاقِبْـــهُ وَلَا صَـــدَقْتَ فِيمَـــا تَـــدَّعِي

وكَـــمْ غَمَطْـــتَ بِـــرَّهُ وكَـــمْ أَمِنْـــتَ مَكْـــرَهُ

وكَـــمْ رَكَضْـــتَ في اللَّعِـــبْ وفُهْـــتَ عَمْـــدًا بالكَـــذِبْ

ولــم تُــراعِ مَــا يَجِــبْ　　مِــن عَهْــدِهِ المُتَّبَــعِ
فــالْبَسْ شِــعَار النَّـــدَمِ　　واسْـــكُبْ شــآبيبَ الدَّمِ
قَبْــــلَ زَوَالِ القَــــدمِ　　وقَبْــلَ سُــوءِ المَصْــرَعِ
واخْضَـعْ خُضُـوعَ المُعْـتَرِفْ　　ولُذْ مَــلَاذَ المُقْـــتَرِفْ
واعْـصِ هَـوَاكَ وانْحَـرِفْ　　عَنــهُ انْحِــرَافَ المُقْلِــعِ
إِلَامَ تَسْــــهُو وَتَــــنِي　　ومُعْظَــمُ العُمْــرِ فَــنِي
فِيمَــا يَضُــرُّ المُقْتَــنِي　　ولَسْــــتَ بالمُرْتَــدِعِ
أَمــا تَــرى الشَّــيْبَ وَخَــطْ　　وخَــطَّ في الــرأسِ خُطَــطْ
ومَــن يَلِــحْ وخْــطَ الشَّــمَطْ　　بِفَــــوْدِهِ فَقَــــدْ نُــعِي
وَيْحَــكِ يــا نَفْــسُ احْـرِصِي　　على ارْتِيَــادِ المَخْلَــصِ
وطَــــاوِعِى وأخْلِصِـــــي　　واسْــتَمِعِي النُّصْــحَ وَعِي
واعْتَــبري بمَــنْ مضــى　　مــن القُــرونِ وانْقَضــى
واخْشَــيْ مُفَاجَــأَةَ القَضَــا　　وحَــاذِرِي أَنْ تُخْــدَعِي
وانــتهجي سُــبْلَ الهُــدَى　　وادَّكِــرِي وَشْــك الــرَّدَى
آهًــا لَهُ بَيْــتُ البِــلَى　　والمَــنْزِلِ القَفْــر الخَــلَا
ومَـــوْرِدِ السَّـــفْرِ الأُولَى　　واللَّاحِـــقِ المُتَّبِـــعِ
بَيْــتٌ يُــرى مَــنْ أُودِعَــهْ　　قَــد ضَــمَّهُ واسْــتَوْدَعَهْ
بَعْــدَ الفَضَــاءِ والسَّــعَةْ　　قَيْــدَ ثَــلاثِ أَذْرُعِ
لا فَــرْقَ أَنْ يَحُلَّــهُ　　دَاهِيَــةٌ أَوْ أَبْلَــهُ
أَوْ مُعْســـرٌ أَوْ مَـــنْ لَهُ　　مُلْــكٌ كَمُلْــكِ تُبَّــعِ

وبَعـــــدَهُ العَـــــرْضُ الذِي يَحْـــوِي الحَــــيِيَّ وَالبَــــذِي

والمُبْتَــــدِي والمُحْتَــــذِي ومَـــــنْ رَعَى ومَـــــنْ رُعِي

فيـــــا مَفَــــازَ المُــــتَّقِي ورِبْــــحَ عَبْــــدٍ قَــــدْ وُقِي

سُــــوءَ الحِسَــــابِ المُوبِــــقِ وهَــــوْلَ يَــــومِ المَفْــــزَعِ

ويــــا خَسَـــارَ مَـــنْ بَــــغَى ومَـــــنْ تَعَــــدَّى وطَــــغَى

وشَــــبَّ نِــــيرانَ الــــوَغَى لِمَطْعَــــمٍ أَوْ مَطْمَــــعِ

يــــا مَـــنْ عَليــــهِ المُــــتَّكَلْ قَــــد زَادَ مَــــا بي مِــــنْ وَجَــــلْ

لِمَــــا اجْتَرَمْــــتُ مِــــنْ زَلَــــلْ في عُمْـــــرِيَ المُضَــــيَّعِ

فَــــاغْفِرْ لِعَبْــــدٍ مُجْــــتَرِمْ وارْحَــــمْ بُكَــــاهُ المُنْسَــــجِمْ

فأنــــتَ أَوْلَى مَـــــنْ رَحِــــمْ وخَـــــيْرُ مَـــــدْعُوٍّ دُعِي

ابن الجوزي (ت ٥٩٧)

قال ابن الجوزي[١]: «رأيت من نفسي عَجَبًا! تسأل الله عز وجل حاجاتها، وتنسى جناياتها!! فقلت: يا نفس السوء! أوَ مثلك ينطق؟! فإن نطق فينبغي أن يكون السؤالُ العفوَ فحسب. فقالت: فممن أطلب مراداتي؟! قلت: ما أمنعك من طلب المراد، إنما أقول: حققي التوبة وانطقي، كما نقول في العاصي بسفره إذا اضطر إلى الميتة: لا يجوز له أن يأكل. فإن قيل لنا: أفيموت؟! قلنا: لا، بل يتوب ويأكل(!).

فاللهَ اللهَ من جراءةٍ على طلب الأغراض مع نسيان ما تقدم من الذنوب التي توجب تنكيس الرأس، ولئن تشاغلتِ بإصلاح ما مضى والندم عليه جاءتك مراداتك».

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ١٥٠).

وقال[1]: «قدرت في بعض الأيام على شهوة للنفس هي عندي أحلى من الماء الزلال[2] في فم الصادي[3]، وقال التأويل: ما هاهنا مانع ولا مُعَوِّق إلا نوع ورع! وكان ظاهر الأمر امتناع الجواز، فترددت بين الأمرين، فمنعت النفس عن ذلك، فبقيت حيرتي لمنع ما هو الغاية في غرضها، من غير صاد عنه بحال إلا حذر المنع الشرعي، فقلت لها: يا نفس، والله ما من سبيل إلى ما تودين ولا ما دونه! فتقلقلت، فصحت بها: كم وافقتك في مراد ذهبت لذته، وبقي التأسف على فعله! فقدري بلوغ الغرض من هذا المراد، أليس الندم يبقى في مجال اللذة أضعاف زمانها؟! فقالت: كيف أصنع؟ فقلت:

صبرتُ ولا والله ما بي جلادةٌ ... على الحب لكني صبرت على الرَّغْمِ

وها أنا ذا أنتظر من الله عز وجل حسن الجزاء على هذا الفعل.

وقد تركت باقي هذه الوجهة البيضاء، أرجو أن أرى حسن الجزاء على الصبر، فأسطره فيه إن شاء الله تعالى، فإنه قد يعجل جزاء الصبر، وقد يؤخره، فإن عجل سطرته، وإن أخر فما أشك في حسن الجزاء لمن خاف مقام ربه، فإنه من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه.

والله إني ما تركته إلا لله تعالى، ويكفيني تركه ذخيرة، حتى لو قيل لي: أتذكر يومًا آثرتَ اللهَ على هواك؟ قلت: يوم كذا وكذا.

فافتخري أيتها النفس بتوفيقك، واحمدي من وفقك، فكم قد خذل سواك! واحذري أن تُخذلي في مثلها! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وكان هذا في سنة إحدى وستين وخمس مائة، فلما دخلت سنة خمس

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢١١-٢١٢).

(٢) أي: العذب الصافي.

(٣) أي: العطشان.

وستين عُوِّضت خيرًا من ذلك بما لا يقارَب، مما لا يَمنع منه ورع ولا غيره، فقلت: هذا جزاء الترك لأجل الله سبحانه في الدنيا، ﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [يوسف:٥٧]. والحمد لله».

وقال[(١)]: «ترخصت في شيء يجوز في بعض المذاهب، فوجدت في قلبي قسوة عظيمة، وتخايل لي نوع طرد عن الباب وبعد وظلمة تكاثفت، فقالت نفسي: ما هذا؟! أليس ما خرجت عن إجماع الفقهاء؟! فقلت لها: يا نفس السوء! جوابك من وجهين:

أحدهما: أنك تأولت ما لا تعتقدين، فلو استُفتيت لم تُفْتِ بما فعلت. قالت: لو لم أعتقد جواز ذلك ما فعلته. قلت: إلا أن اعتقادك ما ترضينه لغيرك في الفتوى.

والثاني: أنه ينبغي لك الفرح بما وجدت من الظلمة عقيب ذلك، لأنه لولا نور في قلبك ما أثّر مثلُ هذا عندك. قالت: فلقد استوحشت بهذه الظلمة المتجددة في القلب. قلت: فاعزمي على الترك، وقدِّري ما تركت جائزًا بالإجماع، وعُدِّي هجره ورعًا، وقد سلمت».

وقال[(٢)]: «اشتد الغلاء ببغداد في أول سنة خمس وسبعين، وكلما جاء الشعير زاد السعر، فتواقع الناس على اشتراء الطعام، فاغتبط من يستعد كل سنة بزرع ما يقوته، وفرح من بادر في أول النيسان[(٣)] إلى اشتراء الطعام قبل أن يضاعَف ثمنه، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم، فرمَوْه في سوق الهوان، وبان ذل نفوس كانت عزيزة.

فقلت: يا نفس! خذي من هذه الحال إشارة: لَيُغْبَطَنَّ مَنْ له عمل صالح وقت

(١) «صيد الخاطر» (ص ٢٢٩-٢٣٠).

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٢٥٧-٢٥٨).

(٣) شهر نيسان بفتح النون وكسرها وسكون الياء: موسم الحصاد.

الحاجة إليه، ولَيَفْرَحَنَّ من له جواب عند إقبال المسألة، وكل الويل على المفرط الذي لا ينظر في عاقبته! فتنبهي، فقد نبهتِ ناسًا في الدنيا على أمر الآخرة! وبادري موسم الزرع ما دامت الروح في البدن، فالزمان كله تشرين[1]، قبل أن يدخل نيسان الحصاد وما لك زرع، وحاجة المفتقرين إلى أموالهم تمنعهم من الإيثار».

وقال[2]: «رأيت النفس بعد علو السن يقوى أملها، ويزداد حرصها، كما قال النبي ﷺ: «يشيب ابن آدم، وتشب منه خصلتان: الحرص والأمل»[3].

ورأيت أكثر أسباب ذلك فراغ اليد من الدنيا، وكثرة العائلة، وقوة الحاجة، فيحتاج الإنسان إلى التعرض بما يشين العرض، ليحصل الغرض، فقلت: إلهي، أبَعْدَ رؤية جبال عرفة أضِل؟! أبَعْد مشارفة الحرم تأخذني أعراب البادية؟! وا أسفا! أيطلع فجر النحر وما وصلتُ إلى عرفات؟! ويا ضياع سفرِ العمر وما حصل المقصود!

قد كنت أرجوك لنيل المنى ... واليوم لا أطلب إلا الرضا

ثم قلت: يا نفس، ما لكِ ملجأٌ إلا اللَّجْأَ واستغاثة الغريق، فإن رُحِمْتِ وإلا فكم من حسرة تحت التراب!».

وقال[4]: «رأيت ميل النفس إلى الشهوات زائدًا في المقدار، حتى إنها إذا مالت مالت بالقلب والعقل والذهن، فلا يكاد المرء ينتفع بشيء من النصح! فصِحْتُ بها يومًا، وقد مالت بكليتها إلى شهوة: ويحك! قفي لحظة أُكلمْكِ كلمات، ثم افعلي ما بدا

---

(١) شهر تشرين: موسم الزرع.

(٢) «صيد الخاطر» (ص ٣٤٥).

(٣) لم أجده بهذا اللفظ. وهو متفق عليه، من حديث أنس رضي الله عنه، ولفظه عند البخاري (٦٤٢١): «يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ، وَطُولُ الْعُمُرِ». وعند مسلم (١٠٤٧): «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ».

(٤) «صيد الخاطر» (ص ٧٢-٧٣).

لك! قالت: قل أسمع. قلت: قد تقرر قلة ميلك إلى المباحات من الشهوات، وأما جل ميلك فإلى المحرمات! وأنا أكشف لك عن الأمرين، فربما رأيت الحلوَين مُرَّين.

أما المباحات من الشهوات فمطلقة لك، ولكن طريقها صعب، لأن المال قد يعجز عنها والكسب قد لا يحصِّل معظمَها، والوقت الشريف يذهب بذلك، ثم شُغْل القلب بها وقت التحصيل، وفي حالة الحصول، ويُحذر الفوات، ثم ينغصها من النقص ما لا يخفى على مميز، إن كان مطعمًا فالشِبَع يُحدث آفات، وإن كان شخصًا فالملل أو الفِراق أو سوء الخُلُق، ثم ألذ النكاح أكثره إيهانًا للبدن، إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

وأما المحرمات، فتشتمل على ما أشرنا إليه من المباحات، وتزيد عليها بأنها آفة العَرَض[1]، ومظنة عقاب الدنيا وفضيحتها، و هناك وعيد الآخرة، ثم الجزع كلما ذكرها التائب.

وفي قوة قهر الهوى لذة تزيد على كل لذة، ألا ترى إلى كل مغلوب بالهوى كيف يكون ذليلًا لأنه قُهِر، بخلاف غالب الهوى فإنه يكون قوي القلب عزيزًا لأنه قَهَر؟!

فالحذر الحذر من رؤية المشتَهى بعين الحُسن، كما يرى اللصُّ لذةَ أخذ المال من الحرز ولا يرى بعين فكره القَطْع! وليفتح عين البصيرة لتأمل العواقب، واستحالة اللذة نُغصة وانقلابها عن كونها لذة، إما لملل أو لغيره من الآفات، أو لانقطاعها بامتناع الحبيب، فتكون المعصية الأولى كلقمة تناولها جائع، فما رَدَّتْ كَلَب الجوعِ[2] بل شَهَّت الطعام!».

وقال[3]: «أمكنني تحصيل شيء من الدنيا بنوعٍ من أنواع الرُّخَص، فكنت كلما حصل شيء منه فاتني من قلبي شيء، وكلما استنارت لي طريق التحصيل

(١) أي: أنها آفة الزوال، أي: معرضة للزوال.

(٢) أي: شدته.

(٣) «صيد الخاطر» (ص١٦٣-١٦٤).

تجدد في قلبي ظلمة، فقلت: يا نفس السوء! الإثم حواز القلوب[١]، وقد قال النبي ﷺ: «اسْتَفْتِ قَلْبَكَ»[٢]، فلا خير في الدنيا كلها إذا كان في القلب من تحصيلها شيء أوجب نوع كَدَر.

وما زلت أغلب نفسي تارة وتغلبني أخرى، ثم تدَّعي الحاجة إلى تحصيل ما لا بد لها منه، وتقول: فما أتعدى في الكسب المباح في الظاهر! فقلت لها: أوَليس الورع يمنع من هذا؟ قالت: بلى. قلت: أليست القسوة في القلب تحصل به؟ قالت: بلى. قلت: فلا خير لك في شيء هذا ثمرته!

فخلوت يومًا بنفسي، فقلت لها: ويحك! اسمعي أحدثْك! إن جمعت شيئًا من الدنيا من وجه فيه شبهة، أفأنت على يقين من إنفاقه؟ قالت: لا. قلت: فالمحنة أن يحظى به الغير، ولا تنالين إلا الكَدَر العاجل والوزر الذي لا يؤمَن!

ويحك! اتركي هذا الذي يمنع منه الورع لأجل الله، فعامليه بتركه، وكأنك لا تريدين أن تتركي إلا ما هو محرم فقط! أو ما لا يصح وجهه! أوَما سمعت أن: «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»[٣]؟! أمَا لكِ عبرة في أقوام جمعوا فحازه سواهم، وأمّلوا فما بلغوا مناهم؟! كم من عالم جمع كتبًا كثيرة ما انتفع بها! وكم من منتفع ما عنده عشرة أجزاء! وكم من طيِّب العيش لا يملك دينارين! وكم

---

(١) أي: يحز في القلب ويحيك، والمقصود: يضيق منه القلب ويتألم ولا يرتاح إليه، فما كان كذلك فليُترك.

(٢) أخرجه أحمد (١٨٠٠٦) وغيره: عن وابصة الأسدي قال: أتيت رسول الله ﷺ وأنا أريد أن لا أدع شيئًا من البر والإثم إلا سألته عنه، وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله ﷺ. فقلت: دعوني فأدنوَ منه، فإنه أحب الناس إلي أن أدنو منه. قال: «دَعُوا وَابِصَةَ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ»، مرتين أو ثلاثًا، قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: «يَا وَابِصَةُ، أُخْبِرُكَ أَمْ تَسْأَلُنِي؟» قلت: لا، بل أخبرني. فقال: «جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ». فقال: نعم. فجمع أنامله، فجعل ينكت بهن في صدري، ويقول: «يَا وَابِصَةُ، اسْتَفْتِ قَلْبَكَ، وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ»، ثلاث مرات، «الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ، وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ، وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وَأَفْتَوْكَ». وهو في «صحيح الترغيب» (١٧٣٤).

(٣) انظر اللفظ المرفوع إلى النبي ﷺ (صفحة ١٢١).

من ذي قناطير منغص!

أما لك فطنة تتلمح أحوال من يترخص من وجه، فيُسلب منها من أوجه؟! ربما نزل المرض بصاحب الدار، أو ببعض من فيها، فأنفق في سنته أضعاف ما ترخص في كسبه، والمتقي معافى.

فضجت النفس من لومي، وقالت: إذا لم أتعد واجب الشرع فما الذي تريد مني؟! فقلت لها: أَضِنّ بك عن الغَبَن، وأنتِ أعرف بباطن أمرك. قالت: فقل لي: ما أصنع؟ قلت: عليك بالمراقبة لمن يراك، ومثِّلي نفسك بحضرة معظَّم من الخلق، فإنك بين يدي الملك الأعظم، يرى من باطنك ما لا يراه المعظَّمون من ظاهرك، فخذي بالأحوط واحذري من الترخُّص في بيع اليقين والتقوى بعاجل الهوى، فإن ضاق الطَبْع مما تلقَين، فقولي له: مهلًا، فما انقضت مدة الإشارة! والله مرشدك إلى التحقيق، ومعينك بالتوفيق».

وقال: «إخواني! لنفسي أقول، فمن له شِرب معي فليَرِدْ: أيتها النفس، لقد أعطاك ما لم تؤمِّلي، وبلَّغك ما لم تطلبي، وستر عليك من قبيحك ما لو فاح ضجت المشام[1]! فما هذا الضجيج من فوات كمال الأغراض؟! أمملوكة أنت أم حرة؟! أما علمت أنك في دار التكليف؟!

وهذا الخطاب ينبغي أن يكون للجهال، فأين دعواك المعرفة؟! أتراه لو هبت نفحة فأخذت البصر، كيف كانت تطيب لك الدنيا؟! وا أسفا عليك! لقد عَشِيَت البصيرة التي هي أشرف وما علمتِ! كم أقول: عسى ولعل، وأنت في الخطأ إلى قدام؟!

قرُبت سفينة العمر من ساحل القبر وما لك في المركب بضاعة تربح! تلاعبتْ في بحر العمر ريحُ الضعف ففرَّقت تلفيق القُوى، وكأنْ قد فصلت المركب.

---

(١) أي: الأُنوف.

بلغتِ نهاية الأجل وعين هواك تتلفت إلى الصِّبا! بالله عليك، لا تُشْمِتي بكِ الأعداء! هذا أقل الأقسام، وأوفى منها أن أقول: بالله عليك، لا يفوتنك قدم سابق مع قدرتك على قطع المضمار.

الخلوة الخلوة! واستحضري قرين العقل، وجولي في حَيْرة الفكر، واستدركي صَبابة الأجل، قبل أن تميل بك الصَّبابة عن الصواب.

وا عجبا! كلما صعد العمر نزلت! وكلما جَدّ الموت هزلت! أتراك ممن خُتم له بفتنة، وقُضيتْ عليه عند آخر عمره المحنة؟! كان أول عمرك خيرًا من الأخير! كنت في زمن الشباب أصلح منك في زمن أيام المشيب! ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت:٤٣]، نسأل الله عز وجل ما لا يحصل إلا به، وهو توفيقه، إنه سميع مجيب».

وقال[١]: «لما رأيت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء، وتعتقد الدليل، وتفضل ساعة التشاغل به على ساعات النوافل، وتقول: أقوى دليل لي على فضله على النوافل أني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول، فرأيتها في هذا الاتجاه على الجادة السليمة والرأي الصحيح، إلا أني رأيتها واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟! أين الخوف؟! أين القلق؟! أين الحذر؟! أوَما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟!

أما كان الرسول ﷺ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه[٢]؟!

---

(١) «صيد الخاطر» (ص ٧١-٧٢).

(٢) متفق عليه. وقد تقدم.

أما تعلمين أخبار الأئمة الأربعة في زهدهم وتعبدهم، أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد؟!

احذري من الإخلاد إلى صورة العلم مع ترك العمل به، فإنها حالة الكسالى الزَّمنى».

وله من نظمه[1]:

يا ويح نفسٍ رضيَت بالسقمِ ... وفرَّطَتْ في عمرٍ منصرمِ
تسَتّر باللهو وتنسى حتفها ... وتؤثر البعدَ على التقدُّمِ
وكلما أصبحتُ أبكي فعلَها ... أضحت عنادًا لي في تبسمِ
تفرح بالفاني فما تطلب ما ... يبقى لها فمن يكون حَكَمي
أقول يا نفس اتقي من لم يزلْ ... معروفُهُ يفوقُ وَكْفَ الدِّيَمِ
كم من ذنوب لك قد سترها ... وعاد بالفضل وبالتكرمِ
وكم له من نعمة جاد بها ... وكم وكم أولاكِ طِيبَ أنعمِ
كم واعظٍ في كل يوم زاجرٍ ... وكم نذيرٍ زائرٍ مسلِّمِ
وكم يناديك لسانُ عِبرةٍ ... وأنتِ عن قول الهدى في صَمَمِ
أين الذين شيّدوا واحترسوا ... وأين من كان كثيرَ النِّعمِ
مضى الجميع هل ترى من أثرٍ ... لهم وصاروا في بيوت الظُّلَمِ
تبدلوا بالتِرب تُربًا كلهم ... في قعر لحدٍ ضيِّقٍ منهدمِ
تفصلت عظامهم وحصلت ... أعمالُهم وأصبحوا كالعدمِ
وباشروا التراب بعد ترفٍ ... وشرف وحُجب وخدمِ

---

(١) «المدهش» (ص ٥١٣-٥١٤).

وسـرُرٍ ودُرَرٍ وطُـرَفٍ ... وتـُحـفٍ وصَـولةٍ وكـرمِ
ولـذةٍ فـي شـهـوة لـذيذةٍ ... وعِـزة فـي عِـزمة وهـمِ
لو قيل قولوا مـا مناكمُ طلـبـوا ... حيـاة يـوم ليتـوبـوا فـاعـلـمِ
ويحك يا نـفـسُ ألا تـيقـظٌ ... ينفع قبل أن تـزلَّ قـدمـي
مضى الزمان في توانٍ وهوى ... فاستدركي ما قد بقي واغتنمي
انتظـري المـوت سـيأتي بـغـتةً ... وأنـت بـين أسـفٍ ونـدمِ
وحَـرَقٍ وفَـرَقٍ وحسـرةٍ ... وفـيضِ دمـعِ العـين في تَسَجُّـمِ
وتـرحلـين عـن ديـار إلـفةٍ ... فـانتبهي مـن رَقَـدات النُّـوَّمِ
مـن لي إذا نزلـت لحـدًا مظلمًـا ... هذا وكـم مـن نـازلٍ لـم يسـلـمِ
مـن لي إذا قـرأت مـا أمـليتُـهُ ... أقـبحَ مسـطور جـرى بالـقـلـمِ
مـن لي إذا أزعـج قلـبي حسـرةٌ ... وهـل تـرى يشـفي بفـوزي ألـمي
كيف الخلاص والكتاب قـد حـوى ... كلَّ فعـالي وجميـع كَـلِمـي
يـا نفـسُ فـاز الصـالحون بالتقـى ... فأبصَـروا الرشـدَ وقلـبي قـد عَـمِي
يـا حُسْـنُهم والليـل قـد جنَّـهـمْ ... ونـورُهم يفـوق نـورَ الأنـجـمِ
ترنَّمـوا بـالذكر في لـيلـهـم ... فعيشـهم قـد طـاب بـالـترنُّـمِ
قلـوبهم للذكـر قـد تـفـرَّغـتْ ... دمـوعهم كلؤلـؤٍ مـنـتـظِـمِ
أسحارهم بهم لهم قد أشـرقـتْ ... وخُلَعُ الغفران خيرُ الـقِـسَـمِ
ساروا وعـدتُ عـن طريـقٍ واضـحٍ ... دلَّ على الرّشـد دليـلَ الـعَـلَـمِ
دعـني أبكـي مـا حييـت أبـدًا ... فحُقَّ لي أبكي فـلا لا تَـلُـمِ

الصرصري (ت ٦٥٦)

قال الصَّرْصَري[(١)]:

يا قسوةَ القلب مـا لي حيلـةٌ فيـكِ ... ملكـتِ قلـبي فأضـحى شرَّ مملـوكِ

حجبتِ عني إفاداتِ الخشـوع فـلا ... يشـفيك ذكـرٌ ولا وعـظٌ يـداويكِ

وما تماديك من كَنْفِ الذنـوب ولــ ... ـكنَّ الذنوب أراهـا مـن تماديـكِ

لكن تماديك من أصلٍ نشـأتِ بـهِ ... طعــامِ سـوءٍ على ضـعف يُقَوِّيـكِ

وأنت يا نفـس مـأوى كلِّ مُعضـلةٍ ... وكلُّ داء بقلــبي مـــن عواديــكِ

أنت الطليعة للشـيطان في جسـدي ... فلـيس يـدخل إلا مـن نواحيـكِ

لمــا فســحتِ بتــوفير الحظــوظ لهُ ... أضحى مـع الدَّمِ يجـري في مجاريـكِ

واليتِـه بقَبـول الـزور منـك فلـن ... يـــواليَ اللهَ إلا مــــن يعاديــكِ

مــا زلـتِ في أسره تهـوين مُوثَقـةً ... حــتى تلِفــتِ فأعيــاني تلافيــكِ

يا نفـس تـوبي إلى الـرحمن مخلصـةً ... ثــم اســتقيمي على عــزمٍ ينَجِّيــكِ

واستدركي فارط الأوقـات واجتهـدي ... عساك بالصدق أن تُمْحَى مسـاويك

واسعَي إلى الـبر والتقـوى مسـارعةً ... فربمــا شُــكِرَتْ يومًــا مســاعيكِ

ولــن تَـتم لـك الأعمـال صـالحةً ... إلا بتركـــك شـــيئًا شرَّ مـــتروكِ

حُـبّ التكاثـر في الدنيـا وزينتهـا ... فهي التي عن طِلاب الخـير تلهيـكِ

لا تكثري الحرص في تِطلابها فلكـمْ ... دَمٍ لهـا بسـيوف الحـرص مسـفوكِ

بل اقنعي بكَفـاف الـرزق راضـيةً ... فكلُّ ما جاز مـا يكفيـكِ يُطغيـكِ

(١) «الآداب الشرعية» (٣/٥٩٨-٦٠٠).

ثم اذكري غُصَصَ الموت الفظيعِ تَهُـنْ　　　عليـك أكـدارُ دنيـا لا تصـافيكِ

وظلمةَ القـبر لا تخشَـــي ووحشـتَهُ　　　عنـد انفـرادك عـن خِـلٍّ يواليـكِ

والصـالحاتِ ليـوم الفاقـة ادخـري　　　في موقفٍ ليس فيـه مـن يواسـيكِ

وأحســني الظـن بـالرحمن مسـلمةً　　　فحُسـن ظنـك بـالرحمن يكفيـكِ

أبو العباس الموصلي (ت ٦٨٢)

كان أبو العباس الموصلي يقول لنفسه: يا نفس، لا في الدنيا مع أبناء الملوك تتنعمين، ولا في طلب الآخرة مع العباد تجتهدين، كأني بك بين الجنة والنار تُحبسين! يا نفس، ألا تستحين؟![(١)].

نساء مجتهدات في العبادة

عن بكر بن عبد الله المُزَني قال كانت امرأة متعبدة باليمن، وكانت إذا أمست قالت: يا نفس، الليلة ليلتك، لا ليلة لك غيرها، فاجتهدت، وإذا أصبحت قالت: يا نفس، اليوم يومك، لا يوم لك غيره، فاجتهدت[(٢)].

وعن عبد الرحمن بن عمرو قال: أدركت امرأة لا أُقَدِّم عليها رجلًا ولا امرأة ممن أدركت، كانت إذا أصبحت قالت: يا نفس، هذا اليوم، ساعديني يومي هذا، فلعلك لا ترَين بياض يوم أبدًا، وإذا أمست قالت: يا نفس، هذه الليلة، ساعديني ليلتي هذه، فلعلك لا ترَين سواد ليلة أبدًا، فما زالت تخدع وتدفع يومها بليلها وليلها بنهارها حتى ماتت على ذلك[(٣)].

قال الغزالي[(٤)]: «... فإن حدثتْك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا

(١) «الإحياء» (٣/٦٦).

(٢) «الزهد» لوكيع (رقم ٩).

(٣) «الزهد الكبير» للبيهقي (رقم ٥٩٥).

(٤) «الإحياء» (٤/٤١٤).

يطاق الاقتداء بهم، فطالع أحوال النساء المجتهدات، وقل لها: يا نفس، لا تستنكفي أن تكوني أقل من امرأة، فأخسس برجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها!».

❑❑❑❑❑

الباب الرابع

أمثلة أخرى

في معاتبة النفس

الغزالي

قال الغزالي[1]: «اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمها وقَودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولًا بوعظ نفسك.

وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها، وأنها أبدًا تتعزز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أَنَفها واستنكافها إذا نُسبت إلى الحمق، فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك! تدعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟! وعساك اليوم تُختطفين أو غدًا، فأراك ترَين الموت بعيدًا ويراه الله قريبًا! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت؟! أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصِّبا دون الشباب ولا في الشباب

---

(١) «الإحياء» (٤/٤١٦-٤٢٢)، مختصرًا.

دون الصِّبا، بل كل نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت، فما لك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١-٣]؟!

ويحك يا نفس! إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كان مع علمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك! ويحك يا نفس! لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له؟ فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه؟! أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جربي نفسك إن ألهاك البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس، أو في بيت الحمام، أو قربي أصبعك من النار، ليتبين قدر طاقتك.

أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك؟ فما لك لا تعوِّلين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك، فإذا قصدك عدو فلِم تستنبطين الحِيَل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى، وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم، فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحِيَل؟! فلا تعوِّلين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز، أو يسخِّر عبدًا من عبيده، فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب.

ويحك يا نفس! كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنين أنك إذا مت انفلتِّ وتخلصت؟! فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك!

فإن كنت يا نفس قد آمنت به فما لك تسوِّفين العمل والموت لك بالمرصاد؟!

ولعله يختطفك من غير مهلة، فبماذا أَمِنت استعجال الأجل؟

وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والمشقة؟ أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسر فيه مخالفة الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره، ولا تكون المكاره قط خفيفة على النفوس، وهذا محال وجوده.

أما تتأملين مذ كم تعِدِين نفسك وتقولين غدًا غدًا؟! فقد جاء الغد وصار يومًا، فكيف وجدته؟ أما علمت أن الغد الذى جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس؟! لا بل الذى تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز.

ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي على لذة الشهوات، وقلة صبري على الآلام والمشقات، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنتِ صادقة في ذلك فاطلبي التنعم بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد، ولا مطمع في ذلك إلا في الجنة.

وليت شعرى أَأَلم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم؟! فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟! ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر خفي أو لحمق جلي.

أما الكفر الخفي فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب، وقلة معرفتك بعظم قدر الثواب والعقاب، وأما الحمق الجلي فاعتمادك على كرم الله تعالى وعفوه من غير التفات إلى مكره واستدراجه واستغنائه عن عبادتك، مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز، بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحِيَل.

ويحك يا نفس! لا ينبغي أن تغرك الحياة الدنيا، ولا يغرنك بالله الغرور، فانظري لنفسك فما أمْرك بمهم لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك فالأنفاس معدودة، فإذا مضى منك نفَس فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحة قبل السقم، والفراغ

قبل الشغل، والغنى قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت.

واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها، يا نفس، أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته؟ فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب، ولا تتكلين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وحطب وغير ذلك، فإنه قادر على ذلك، أفتظنين أيتها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردًا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء؟! أم تظنين أن ذلك دون هذا؟! كلا أن يكون هذا كذلك، أو أن يكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة، أفتظنين أن العبد ينجو منها بغير سعي؟ هيهات! كما لا يندفع برد الشتاء إلا بالجبة والنار وسائر الأسباب فلا يندفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات، وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه، لا في أن يندفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتى تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجبة مما يستغني عنه خالقك ومولاك، وإنما تشترينه لنفسك إذ خلقه سببًا لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهدتك أيضًا هو مستغن عنها، وإنما هي طريقك إلى نجاتك، فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، والله غني عن العالمين.

ويحك يا نفس! انزعي عن جهلك، وقيسي آخرتك بدنياك، ويحك يا نفس! ما أراك إلا أَلِفْتِ الدنيا وأَنِسْتِ بها فعسر عليك مفارقتها، وأنت مقبلة على مقاربتها، وتؤكدين في نفسك مودتها.

ويحك يا نفس! أتعلمين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزود من السم المهلك وهو لا يدرى.

يا نفس، ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك! عجبًا لك كيف

تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجليلة!

ولعلك يا نفس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها، أوَما تتفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك، فاحسبي أن كل من على وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أفما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقين أنت ولا أحد ممن على وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك؟! وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك، كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك، فكيف تبيعين يا نفس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي؟!

فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك، فما لك لا تتركينها ترفعًا عن خسة شركائها، وتنزهًا عن كثرة عَنائها، وتوقيًا من سرعة فنائها؟

فبادري ويحك يا نفس، فقد أشرفتِ على الهلاك، واقترب الموت، وورد النذير، فمن ذا يصلي عنك بعد الموت، ومن ذا يصوم عنك بعد الموت، ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت؟!

ويحك يا نفس، مالك إلا أيام معدودة، هي بضاعتك إن اتجرت فيها، وقد ضيعت أكثرها، فلو بكيت بقية عمرك على ما ضيعت منها لكنت مقصرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك؟!

أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟!

أما علمت يا نفس أن عسكر الموتى عندك على باب البلد ينتظرونك؟! أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنون الرجعة إلى الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارك ما فرط منهم؟! وأنت في أمنيتهم، ويوم من عمرك لو بيع منهم بالدنيا بحذافيرها لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة!

ويحك يا نفس! أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق، وتبارزين الله في السر بالعظائم؟! أفتستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق؟! ويحك! أهو أهون الناظرين عليك؟! أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطخة بالرذائل؟! تَدعين إلى الله وأنت عنه فارة! وتُذكِّرين بالله وأنت له ناسية!

ويحك يا نفس! أتشتغلين مع هذه الخطايا بعِمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها؟! أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا؟! جمعوا كثيرًا وبنَوا مشيدًا وأمّلوا بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا وبنيانهم قبورًا وأملهم غرورًا، ويحك يا نفس! أما لك بهم عبرة؟! أما لك إليهم نظرة؟! أتظنين أنهم دُعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين؟! هيهات هيهات! ساء ما تتوهمين!

والعَجَب كل العَجَب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة! ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين بنقصان عمرك! وما نفع مال يزيد وعمر ينقص؟!

ويحك يا نفس! تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك! وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك! فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله! وكم من مؤمِّل لغد لا يبلغه!

فاحذري أيتها النفس المسكينة يومًا آلى الله فيه على نفسه، أن لا يترك عبدًا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله، سره وعلانيته، فانظري يا نفس بأي بدن تقفين بين يدي الله! وبأي لسان تجيبين! وأعدي للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، واعملي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونصب لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار، قبل أن تخرجي منها على الاضطرار.

فاتعظي يا نفس بهذه الموعظة، واقبلي هذه النصيحة، فإن من أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار، وما أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية.

فإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجد والقيام، فإن لم تزل فالمواظبة على الصيام، فإن لم تزل فبقلة المخالطة والكلام، فإن لم تزل فبصلة الأرحام واللطف بالأيتام، فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه، فوطِّني نفسك على النار، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلًا وخلق النار وخلق لها أهلًا، فكل ميسر لما خلق له.

فإن لم يبق فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك! والقنوط كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله من ذلك، فلا سبيل لك إلى القنوط، ولا سبيل لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك، فإن ذلك اغترار وليس برجاء.

فانظري الآن هل يأخذك حزن على هذه المصيبة التي ابتليتِ بها؟! وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك؟! فإن سمحت فمُسْتَقَى الدمع من بحر الرحمة، فقد بقي فيك موضع للرجاء، فواظبي على النياحة والبكاء، واستعيني بأرحم الراحمين، واشتكي إلى أكرم الأكرمين، وأدمني الاستغاثة، ولا تملي طول الشكاية، لعله أن يرحم ضعفك ويغيثك، فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحِيَل، وراحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجا إلا إلى مولاك، فافزعي إليه بالتضرع، واخشعي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك، لأنه يرحم المتضرع الذليل، ويغيث الطالب المتلهف، ويجيب دعوة المضطر، وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة، وإلى رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبل، وانسدت عليك الطرق، وانقطعت منك الحِيَل، ولم تنجح فيك العظات، ولم يكسرك التوبيخ، فالمطلوب منه كريم، والمسؤول جواد، والمستغاث به بَرٌّ رؤوف، والرحمة واسعة، والكرم فائض، والعفو شامل».

وكتب إلى أبي الفتح بن سلامة قائلًا[(١)]: «قَرَعَ سمعي بأنك تلتمس مني كلامًا وجيزًا في معرِض النصح والوعظ، وإني لست أرى نفسي أهلًا له، فإن الوعظ زكاةٌ نصابها الاتعاظ، فمن لا نصاب له كيف يُخرج الزكاة؟! وفاقد النور كيف يستنير به غيره؟! ومتى يستقيم الظل والعود أعوج؟!».

وذكر له الواعظَين: القرآن والموت، ثم قال: «وفيهما كفاية لكل متعظ، ومن لم يتعظ بهما كيف يعظ غيره؟! ولقد وعظت نفسي بهما وقَبِلَتْ وصَدَّقَتْ قولًا وعملًا، وأبتْ وتمردت تحقيقًا وفعلًا، فقلت لنفسي: أمَا أنتِ مصدقة بأن القرآن هو الواعظ الناطق، وأنه الناصح الصادق، وأنه كلام الله المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟! فقالت: بلى. فقلت لها: قد قال الله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود:١٥-١٦].

فقد وعدك الله بالنار على إرادة الدنيا، وكل ما لا يصحبك بعد الموت فهو من الدنيا، فهل تنزهتِ عن حب الدنيا وإرادتها؟! ولو أن طبيبًا نصرانيًّا وعدك بالموت أو بالمرض على تناول ألذ الشهوات لتحاميتِها واتقيتِها، أفكان النصراني عندك أصدق من الله تعالى؟! فإن كان كذلك فما أكفرك! أو كان المرض أشد عندك من النار؟! فإن كان كذلك فما أجهلك! فصدَّقَتْ ثم ما انتفعتْ، بل أصرت على الميل إلى العاجلة واستمرتْ.

ثم أقبلتُ عليها فوعظتها بالواعظ الصامت، فقلت لها: قد أخبر الناطق عن الصامت، إذ قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجمعة:٨].

(١) انظر «الرسالة الوعظية» ضمن «مجموعة رسائل الغزالي» (ص ٣١٦-٣١٨)، و«الاستعداد للموت» للمَلِيباري (ص ١١-١٤).

وقلت لها: هَبي أنك مِلْتِ إلى العاجلة! أفلستِ مصدقة بأن الموت لا محالة آتيك، وقاطعٌ عليك ما أنت متمسكة به، وسالبٌ منك كل ما أنت راغبة فيه، وأن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، وقد قال الله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ يُوعَدُونَ * مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴾ [الشعراء:٢٠٥-٢٠٧].

فكأنك مخرجة بهذا الوعظ عن جميع ما أنت فيه! قالت: صدقت. فكان منها قولًا لا تحصيل وراءه، إذ لم تجتهد قط في التزود للآخرة كاجتهادها في تدبير العاجلة، ولم تجتهد قط في رضا الله تعالى كاجتهادها في طلب رضاها وطلب رضا الخلق، ولم تستح قط من الله تعالى كما تستحي من واحد من الخلق، ولم تشمر للاستعداد للآخرة كتشميرها في الصيف لأجل الشتاء، وفي الشتاء لأجل الصيف، فإنها لا تطمئن في أوائل الشتاء ما لم تفرغ من جميع ما تحتاج إليه من آلاته، مع أن الموت ربما يختطفها! والشتاء لا يدركها! والآخرة عندها يقين، فلا تتصور أن تُختطف منها! فقلت لها: ألا تستعدين للصيف بمقدار طوله، وتصنعين آلة الصيف بقدر صبرك على الحر؟! قالت: نعم. قلت: فاعصي الله بقدر صبرك على النار! واستعدي للآخرة بقدر بقائك فيها! فقالت: هذا هو الواجب الذي لا يرخِّص في تركه إلا الأحمق. ثم استمرت على سجيتها! ووجدتني كما قال بعض الحكماء: في الناس من يموت نصفه ثم لا ينزجر نصفه الآخر. وما أراني إلا منهم.

ولما رأيتها متمادية في الطغيان، غير منتفعة بواعظ الموت والقرآن، رأيت أهم الأمور التفتيش عن سبب تماديها مع اعترافها وتصديقها، فإن ذلك من العجائب العظيمة! فطال تفتيشي عنه حتى وقفت على سببه، وها أنا موصٍ نفسي وإياكَ بالحذر منه، فهو الداء العضال، وهو السبب الداعي إلى الغرور والإهمال، وهو اعتقاد تراخي الموت واستبعاد هجومه على القرب، فإنه لو أخبره

صادق في بياض نهاره أنه يموت في ليلته أو يموت إلى أسبوع أو شهر لاستقام على الصراط المستقيم، ولترك جميع ما هو فيه مما يظن أنه يتعاطاه لله تعالى وهو فيه مغرور، فضلًا عما ليس لله تعالى!

فانكشف لي تحقيقًا أن من أصبح وهو يؤمِّل أنه يمسي، أو أمسى وهو يؤمِّل أنه يصبح، لم يَخْلُ من الفتور والتسويف، ولم يقدر إلا على سير ضعيف، فأوصيه ونفسي بما أوصى به رسول الله ﷺ حيث قال: «صَلِّ صَلَاةَ مُودِّعٍ»(١).

ولقد أوتي جوامع الكلم وفصل الخطاب، ولا يُنتفع بوعظ إلا به، ومن غلب على ظنه في كل صلاة أنها آخر صلاته حضر معه خوفه من الله تعالى وخشيته منه، وتيسر له الاستعداد بعد الصلاة، ومن لم يخطر بخاطره قِصَرُ عمره، وقرب أجله، وغفل قلبه عن صلاته، فلا يزال في غفلة دائمة، وفتور مستمر، وتسويف متتابع، إلى أن يدركه الموت، وتهلكه حسرة الفوت.

وأنا مقترح عليه أن يسأل الله تعالى أن يرزقني هذه الرتبة، فإني طالب لها وقاصر عنها، وأوصيه أن لا يرضى من نفسه إلا بها، وأن يحذر مواقع الغرور فيها، فإذا وعَدَتْ النفس بذلك طالبها بمَوثقٍ غليظ من الله تعالى، فإن خداع النفس لا يقف عليه إلا الأكياس، وقليل ما هم.

والوصايا وإن كانت كثيرة، والمذكورات(٢) وإن كانت كبيرة، فوصية الله أكملها وأنفعها وأجمعها، وقد قال الله عز وجل في محكم القرآن: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

فما أسعد من قبل وصية الله تعالى! وعمل بها، وادخرها لنفسه، ليجدها يوم مردها ومنقلبها».

---

(١) بعض حديث، أخرجه ابن ماجه (٤١٧١) وغيره، وحسنه الألباني. وقد تقدم تامًّا (صفحة ٥٠٩).

(٢) كذا هي في المطبوع، ووجهها ظاهر، لكن لعلها: «والمُذَكِّرات»!

الخشوع في الصلاة

وقال[1]: «اعلم أنه تعالى مطلع على سريرتك، وناظر إلى قلبك، فإنما يتقبل الله من صلاتك بقدر خشوعك وخضوعك وتواضعك وتضرعك، واعبده في صلاتك كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

فإن لم يحضر قلبك ولم تسكن جوارحك لقصور معرفتك بجلال الله تعالى، فقدر أن رجلًا صالحًا من وجوه أهل بيتك ينظر إليك ليعلم كيف صلاتك، فعند ذلك يحضر قلبك وتسكن جوارحك.

ثم ارجع إلى نفسك وقل: يا نفس السوء ألا تستحين من خالقك ومولاك؟! إذ قدّرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك، وليس بيده ضرك ولا نفعك، خشعت جوارحك وحسنت صلاتك، ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك ولا تخشعين لعظمته، أهو تعالى عندك أقل من عباده؟! فما أشد طغيانك وجهلك! وما أعظم عداوتك لنفسك!

وعالج قلبك بهذه الحِيَل فعسى أن يحضر معك في صلاتك، فإنه ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها، وأما ما أتيت مع الغفلة والسهو فهو إلى الاستغفار والتكفير أحوج».

طلب الشهرة

قال ابن حزم[2]: «وأما من علق وهمه وفكره بأن يبعد اسمه في البلاد، ويبقى ذكره على الدهر، فليتفكر في نفسه، وليقل لها: يا نفس، أرأيتِ لو ذُكِرتُ بأفضل الذكر في جميع أقطار المعمور أبد الأبد إلى انقضاء الدهر، ثم لم يبلغني ذلك ولا عرفت به، أكان لي في ذلك سرور أو غبطة أم لا؟ فلا بد من لا، ولا

---

(١) «بداية الهداية» (ص ٤٥).

(٢) «مداواة النفوس» (ص ٨٩-٩٠).

سبيل إلى غيرها البتة، فإذا صح ذلك وتُيُقِّن فليعلم يقينًا أنه إذا مات لا سبيل له إلى علم أنه يذكر أو أنه لا يذكر، وكذلك إن كان حيًّا إذا لم يبلغه.

ثم ليتفكر أيضًا في معنيين عظيمين، أحدهما: كثرة من خلا من الفضلاء من الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم أولًا، الذين لم يبق لهم على أديم الأرض عند أحد من الناس اسم ولا رسم ولا ذكر ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه، ثم من الفضلاء الصالحين من أصحاب الأنبياء السالفين والزهاد، ومن الفلاسفة والعلماء والأخيار، وملوك الأمم الداثرة، وبُناة المدن الخالية، وأتباع الملوك الذين أيضًا قد انقطعت أخبارهم، ولم يبق لهم عند أحد علم ولا لأحد بهم معرفة أصلًا البتة، فهل ضر من كان فاضلًا منهم ذلك، أو نقص من فضائلهم، أو طمس من محاسنهم، أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل؟

ومن جهل هذا الأمر فليعلم أنه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملوك من ملوك الأجيال السالفة أبعد مما بأيدي الناس من تاريخ ملوك بني إسرائيل فقط، ثم ما بأيدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس، وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام، فأين ذكر من عمّر الدنيا قبل هؤلاء؟! أليس قد دُثِر وفَنِي وانقطع ونُسِي البتة؟!

وكذلك قال الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]. وقال تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم:٩]. فهل الإنسان وإن ذُكِر برهة من الدهر إلا كمن خلا قبل من الأمم الغابرة الذين ذُكِروا ثم نُسُوا جملة؟

ثم ليتفكر الإنسان فيمن ذُكِر بخير أو بشر، هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته؟

فإذا كان هذا كما قلنا فالرغبة في الذكر رغبة غرور ولا معنى له ولا فائدة

فيه أصلًا، لكن إنما ينبغي أن يرغب العاقل في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر، التي يستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة، فهي التي تقربه من بارئه تعالى، وتجعله مذكورًا عنده عز وجل الذكرَ الذي ينفعه، ويحصل على بقاء فائدته، ولا يبيد أبد الأبد، وبالله تعالى التوفيق». اهـ.

وقال سعيد بن الحداد: «ما صَدَّ عن الله مثلُ طلبِ المحامد وطلبِ الرِّفعة»[١].

طلب العلم

وأنشد الرشيد عن المهدي بيتين، وقال: أظنهما له[٢]:

يا نفس خوضي بحار العلم أو غوصي
فالناس ما بين معموٍم ومخصوصِ
لا شيء في هذه الدنيا نحيط بهِ
إلا إحاطة منقوصٍ بمنقوصِ

وقال الآجُرِّيُّ في حال طالب العلم[٣]: «إن فاته سماع علم قد سمعه غيره فحزن على فوته لم يكن حزنه بغفلة حتى يواقف نفسه ويحاسبها على الحزن، فيقول: لم حزنت؟ احذري يا نفس أن يكون الحزن عليك لا لك، إذ سمعه غيرك فلم تسمعيه أنت، فكان أولى بك أن تحزني على علم قد قرِع السمع، وقد ثبتت عليك به الحجة، فلم تعملي به، فكان حزنك على ذلك أولى من حزنك على علم لم تسمعيه، ولعلك لو قدر لك سماعه كانت الحجة عليك أوكد، فاستغفر الله من حزنه، وسأل مولاه الكريم أن ينفعه بما قد سمع».

❑❑❑❑❑

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٤/٢١٤).
(٢) «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٨).
(٣) «أخلاق العلماء» (ص ٤٩).

الباب الخامس

مواعظ

في معاتبة النفس

أيتها النفس تدبري أمرك

في «المدهش»[1]: أيتها النفس تدبري أمرك وتأملي، ومثّلي بين ما يبقى وما يفنى ولا تعجلي، لقد ضللتِ طريق الهدى فقفي واسألي، وآثرتِ وهَنًا يورث وهَنًا لا تفعلي، يا غمرة من الشقا ما أراها تنجلي، أتَّبِع الهوى والهوى عليَّ وليس لي، أريد حياة نفسي ونفسي تريد مقتلي، يا جسدًا قد بَلِي بما قد بُلِي.

يا مقهورًا بغلبة النفس

وفيه[2]: اسمع يا من قد ضَيَّق على نفسه الخناق في فعل المعاصي، فما أبقى لعذر موضعًا، يا مقهورًا بغلبة النفس صُلْ عليها بسوط العزم، فإنها إن علمت جِدَّك استأسرت لك، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام[3]، فإذا ضجت لطلب المباح ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد:٤].

الدنيا والشيطان خارجيّان، خارجان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو مباطن، ومن آداب الجهاد: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة:١٢٣].

ليس من بارز بالمحاربة كَمَنْ كَمَنَ، ما دامت النفس حية تسعى، فهي حية[4] تسعى، أقل فعلٍ لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفًا[5]، اخل بها في بيت الفكر ساعة، وانظر، هل هي معك أو عليك؟! نادها

---

(١) (ص ١٥٤).

(٢) (ص ١٦٠-١٦١).

(٣) مَنْعُ النفس مما أحل الله تعالى لها لا يشرع، وأما منعها من الفضول، ومما لا يعني، ومن الإسراف، فنعم.

(٤) أي: أفعى، والأُولى: من الحياة.

(٥) مثل يُضرب للذي يفسد ماله. قال العسكري: «خرقاء وجدت صوفًا. قالوا: هي امرأة من قريش وجدت صوفًا؛ أي: ثَلَّةً ومالًا، فأفسدت فيه، وهي التي يقال لها: أخسر من الناقضة غزلها». «مجمع الأمثال». الثَّلَّة: الصوف.

بلسان التذكرة، يا نفس ذهب عرش بِلقيس، وبَلِيَ جمال شيرين، وتمزق فرش بُوران، وبقي نُسُك رابعة، يا نفس صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تَحَزُّم الأجير فإنما هو يوم:

جِــدَّ في الجِــدِّ قــد تــولى العمــر كـم ذا التفـريط قـد تـدانى الأمـر
أقبــل فعســى يُقبــل منــك العــذر كـم تبني وكـم تـنقض كـم ذا الغـدر

أقلعي عن الجناح وتوبي

وفيه[1]: أيتها النفس، أقلعي عن الجُناح[2] وتوبي، وارجعي إلى الصلاح وأُوبي، أيتها النفس، قد شان شاني عيوبي، أيتها الجاهلة، تكفيني ذنوبي.

يا ويـح نفســي مـن تتـابع حَـوْبتي لــو قــد دعاني للحســاب حســيبي
فاســتيقظي يـــا نفـــس ويحــكِ واحذري حذرًا يُــهَيج عَـبْرتي ونحيـبي
واسـتدركي مـا فـات منـك وسـابقي ســطواتِ مــوتٍ للنفــوس طَلُــوبِ
وابكـي بكـاء المسـتغيث وأعْـوِلي إعـــوال عانٍ في الوِثـــاقِ غريـــبِ
هـذا الشـباب قــد اعتللـتِ بلهـوِهِ أفلـيس ذا يـا نفـس حـينَ مشـيبي
هــذا النهــار يَكُــرّ ويحــك دائبًــا يجـري بصَــرْف حـوادث وخطـوبِ
هــذا رقيــب لـيس عــني غافــلًا يُحصـــي عليَّ ولــو غَفَلْــتُ ذنــوبي
أوَلــيس مِـــنْ جَهْــلٍ بــأني نــائمٌ نــومَ السَّــفيه ومــا ينــام رقيــبي

آهٍ لنفس تركت يقينها وتبعت آمالها! ما لها جهلت ما عليها وما لها؟ أما

---

(١) (ص ١٧٨).

(٢) أي: الإثم.

ضَرَبتِ العِبَرُ بأخذ أمثالِـها أمثالَـها؟ من لها إذا نازلها الموت فغالها، وأخذ منها ما نالها وقد أنى[1] لها؟! ليتها تفقدت أمورها أو شهدت أحوالها، تحضر المجلس بنية فإذا قامت بدا لها، ويحها! لو ترى أجزاءً مما لَهَا لَهَالَـها[2].

ما هذا الحب للدنيا والصبابة

وفيه[3]: ما هذا الحب للدنيا والصبابة، وإنما يكفي منها صبابة، فقل للنفس الحريصة: لقد بعت الأخرى رخيصة.

يا نفس ما الدهر إلا ما علمتِ فكـمْ
ألســتِ حــدثتني أني أتــوب فلــمْ
إياك اياك من سـوف فكـم خَـدعتْ
وأهلكــتْ أُممًــا مــن قبلهــا وأُمــمْ
توبي يكــن لـك عنـد الله جـاهُ تـقًى
وقــدمي مــن فعــال الصــالحين قَــدمْ
يــا راقــدٌ للــبِلى حَــثّ المشـيب بــهِ
ألا فكــن خائفًــا لا تقعــدَنّ وقُــمْ

يا من قد أخذ الهوى بأزِمَّته، وأمسك الردى بلِمَّته، يا رهين ديون تعلقت في ذمته، هذا أوان جِدِّك إن كنت مُجِدًّا، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعدًّا.

---

(١) أي: حان.

(٢) أي: لأفظعها.

(٣) (ص ٢٩٥).

يا من قد غلبته نفسه

وفيه[1]: يا من قد غلبته نفسه، وبطش بعقله حسه، استدرك صبابة اليقظة، وصِحْ في سمع قلبك بموعظة.

يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا

أما ترَين المنايا كيف تلقطنا
لقطًا وتُلحق أُخرانا بأُولانا

في كل يوم لنا ميْت نشيعهُ
نرى بمصرعه آثار موتانا

يا نفس ما لي وللأموال أتركها
خلفي وأخرج من دنياي عُريانا

أبعد خمسين قد قضّيتها لعبًا
قد آن أن تَقْصِري قد آن قد آنا

ما بالنا نتعامى عن مصائرنا
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا

نزداد حرصًا وهذا الدهر يزجرنا
كأن زاجرنا بالحرص أغرانا

أين الملوك وأبناء الملوك ومَنْ
كانت تخر له الأذقان إذعانا

(١) (ص ٣٧٥).

صاحت بهم حادثات الدهر فانقلبوا
مســـتبدلين مـــن الأوطـــان أوطانـــا
خلَّـــوْا مـــدائن كان العـــز مفرشـــها
واستفرشـــوا حُفَـــرًا غُـــبْرًا وقيعانـــا
يـــا راكضًـــا في ميـــادين الهـــوى مرِحًـــا
ورافـــلًا في ثيـــاب الـــغَي نشـــوانا
مضـــى الزمـــان وولى العمـــر في لعـــبٍ
يكفيك ما قد مضى قد كان مـا كانـا

عاتب نفسك على تفريطها

وفيه(١): يا هذا عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدثها بما بين يدها وأخبرها، أشر عليها بمصلحتها ودبِّرها.

استعدي للمـوت يـا نفـس واسعَي	لنجـــــاةٍ فالحـــــازم المســـــتعدُّ
قـــد تبينـــتِ أنـــه لـــيس للـــحي	خلـــود ولا مـــن المـــوت بـــدُّ
أي مُلـــك في الأرض أو أي حـــظٍ	لامـــرئ حظـــه مـــن الأرض لحـــدُ
كيـــف يهـــوى امـــرؤ لذاذة أيـــامٍ	عليـــه الأنفـــاس فيهـــا تعـــدُّ

آه لنفوس بغرور هذه الدنيا يُخدعن! فإذا فاتهن شيء من فانٍ توجعن، شربن من مياه الغفلة وتجرعن، فلما بانت حبة الفخ أسرعن، فما انجلت ساعة التفريط حتى وقعن، أما علمن أنهن يحصدن ما يزرعن؟! أما تيقنّ أنهن في هلاكهن يشرعن؟! يا قلة ما تنعمن! ويا احتقار ما تمتعن! أما هن عن قليل في اللحد

(١) (ص ٣٧٩).

يضجعن؟! أين تلك الأقدام المشيعة لهن؟! تصدعن، بئس حافظ الأجساد تراب يقول: دعهن لما أودعن، طال ما كن يوترن الذنوب ويشفعن، فلو رأيتهن بعد الموت يتضرعن: ﴿رَبِّ ٱرۡجِعُونِ﴾ [المؤمنون:٩٩]، لا والله لا يرجعن، يا عجبا! هذه الآفات لهن ويهجعن! وهذا الحبس الشديد ويرتعن! يا لها من مواعظ فهل أثَّرن أو نجعن؟!

بادر ما دمت في فسحة

وفي «بستان الواعظين»[(١)]: يا أخي، بالله عليك لو أتاك الحِمام ولك ملك الدنيا، أما كنت تختار عيش يوم بالجميع؟! فبادر ما دمت في فسحة من العمر قبل أن يضيق عليك الأمر، لو صيح بك الليلة: أجب الداعي، أما كنت نادمًا على ما قدمت؟! وباكيًا على ما فرطت؟!

وأنشدوا:

الموت بحر طامح موجهُ ... تذهب فيه حيلة السابح

يا نفس إني قائل فاسمعي ... مقالةً من مشفقٍ ناصح

ما يُعجِب الإنسانَ في قبرهِ ... مثلُ التقى والعمل الصالح

بادري بالأوقات

وفي «الياقوتة»[(٢)]: يا نفس، بادري بالأوقات قبل انصرامها، واجتهدي في حراسة ليالي الحياة وأيامها، فكأنك بالقبور وقد تشققت، وبالأمور وقد تحققت، وبوجوه المتقين وقد أشرقت، وبرؤوس العصاة وقد أطرقت.

يا نفس، أمّا الورعون فقد جدوا، وأما الخائفون فقد استعدوا، وأما الصالحون فقد راحوا، وأما الواعظون فقد صاحوا.

---

(١) (ص ١٦٨).

(٢) (ص ٧٩).

يا نفس، اتعبي قليلًا تستريحي في الفردوس كثيرًا، كأنك بالتعب قد مضى، وبحرصك من اللعب قد مضى، وثمر الصبر قد أثمر حلاوة الرضا.

إن أيامكم قلائل

وفي «الكبائر» للذهبي(١): عباد الله، إن أيامكم قلائل، وآثامكم غوائل، ومواعظكم قواتل، فليعتبر الأواخر الأوائل، وليستيقظ الغافل قبل سير القوافل، يا من يوقن أنه لا شك راحل، وما له زاد ولا رواحل، يا من لج في لجة الهوى، متى يرتقي إلى الساحل، هلَّا انتبهت من رقاد شامل، وحضرت المواعظ بقلب قابل، وقمت في الليل قيام عاقل، وكتبت بالدموع سطور الرسائل، تحف بها زفرات الندم كالوسائل، وبعثتها في سفينة دمع سائل، لعلها تُرسي على الساحل؟! وا أسفا! لمغرور جهول غافل، لقد أثقل بعد الكهولة بالذنب الكاهل، وضيع في البضاعة وبذَّر الحاصل، وركن إلى ركوب الهوى ركبة مائل، يبني البنيان ويشيد المعاقل، وهو عن ذكر قبره متشاغل، ويدعي بعد هذا أنه عاقل! تالله لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل، وهو يؤمّل في بطالته فوز العامل! وهيهات هيهات! ما فاز بطال بطائل.

أيها المعجب فخرًا ... بمقاصير البيوتِ
إنما الدنيا محلٌّ ... لقيامٍ وقنوتِ
فغدا تنزل بيتًا ... ضيقًا بعد النحوتِ
بين أقوام سكوتٍ ... ناطقاتٍ في الصموتِ
فارض في الدنيا بثَوْ ... بٍ ومن العيش بقوتِ
واتخذ بيتًا ضعيفًا ... مثل بيت العنكبوتِ
ثم قل يا نفس هذا ... بيتُ مثواك فموتي

---

(١) «الكبائر» (ص ١٤٥-١٤٦). وانظر «التبصرة» لابن الجوزي (١/٢٢٨-٢٢٩)!

وفي «لطائف المعارف»[1]:

يــا نفــس قــومي فقــد نــام الــورى
إن تصــنعي الخـير فـذو العـرش يـرى

وأنــت يــا عــين دعي عنــك الكــرى
عنــد الصــباح يَحمَــد القــوم الســرى

وفيها[2]:

طوبى لمن أجاب مولاه، ﴿يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ [الأحقاف:٣١].

يــا نفــس ويحــك قــد أتــاك هــواكِ
أجيــبي فــداعي الحــق قــد نــاداكِ

كم قـد دُعيـت إلى الرشـاد فتُعـرضي
وتجيــــبي داعي الــــغَي حــــين دعاكِ

وفي «الزهر الفائح»[3]:

يــا ويــح قلــبي مــا له لا يلــين
قــد أتعــب القــراء والــواعظين

يـا نفـس كـم تبيتـين مـن مـرةٍ
وكــــم تقــــولين ولا تفعلــــين

وكــم تنــادَين فــلا تســمعين
وكــم تُقــالِين فــلا تــرجعين

حــتى مــتى يــا نفــس حــتى مــتى
يــــراك مــــولاك مــــع الغــــافلين

فاستغفري الله لمـا قـد مضـى ثـم
اســــتحي مــــن خــــالق العــــالمين

(١) (ص ٤٥-٤٦).

(٢) (ص ٢٩٤).

(٣) (ص ١١٤).

وفي «غذاء الألباب»[1]:

تجهـــزي بجَهـــازٍ تبلغـــين بـــهِ
يا نفس قبـل الـردى لـم تُخلـقي عَبَثـا

وسـابقي بغتـة الآجـال وانكمشـــي
قبــل اللِّــزام فــلا ملجــا ولا غَوثــا

ولا تكِــدي لمــن يــبقى وتفتقــري
إن الــردى وارث البــاقي ومــا ورثــا

واخشَـي حوادث صَرف الدهر في مَهَـلٍ
واســتيقظي لا تكــوني كالذي بَحَثــا

عــن مُديــةٍ كان فيهــا قَطْـعُ مدتــهِ
فوافــتِ الحــرثَ محروثًــا كمــا حَرَثــا

من كان حين تُصـيبُ الشـمسُ جبهتَـهُ
أو الغبــارُ يَخــافُ الشَّــيْنَ والشَــعَثا

ويــألف الظــل كي يُــبقي بشاشــتَهُ
فســوف يســكن يومًــا راغمًــا جَـدَثًا

في قَعْــر مُوحِشَـــةٍ غَـــبراءَ مُقْفِــرَةٍ
يُطيــل تحــت الــثرى في جوفهــا اللَّبَثــا

ولابن المعتز[2]:

يــا نفــس ويحـكِ طـال مــا
أبصـــرتِ موعظـــة ومـــا

(١) (٤٥١/٢).

(٢) «المدهش» (ص ١٥٠).

نفعتْـــك فاخشَـــيْ وانـــتهي وعليـــك بـــالتقوى كمـــا

فعـــل الأنـــاس الصالحـــو ـــــن وبـــادري فلربمـــا

سَـــلِم المبـــادرُ واحـــذري يـــا نفـــس مـــن ســـوف فمـــا

خُـــدِع الشـــقيُّ بمثلهـــا إيـــاك منهـــا كلمـــا

ناجـــت مكايـــدُها ضميـــ ــــرَك إنمـــا هي إنمـــا

خطـــرتْ وكـــم قتلـــتْ وأهلكـــتْ النفـــوس وقَلمـــا

تغـــــني أمانيهـــــا إذا حضـــر الـــردى فكأنمـــا

لـــم يـــحيَ مـــن لاقى منيتـــه فيـــا عجبـــا أمـــا

في ذاك معتــــــــبرٌ ولا شـــافٍ يبصـــر مِـــنْ عَـــمَى

يـــا ذا المـــنى يـــا ذا المـــنى عـــش مـــا بـــدا لـــك ثـــم مـــا

ولغيره:

يـــا نفـــس إني قائـــل فاســـمعي مقالـــةً مـــن مرشـــدٍ ناصـــحِ

مـــا صَـــحِب الإنســـانَ في قـــبرهِ غـــيرُ التـــقى والعمـــلِ الصـــالحِ

ولغيره:

ألا يـــا نفـــس هـــل لـــك في صـــيامٍ عـــن الدنيـــا لعلـــك تهتـــدينا

يكون الفطـر وقـتَ المـوت منهـا لعلـــك عنـــده تستبشـــرينا

أجيبيـــني هُـــديتِ وأســـعفيني لعلـــك في الجنـــان تُخَلَّدينـــا

ولابن القيم:

فحَـــيَّهَلَا إن كنـــت ذا همـــة فقـــد

حدا بك حادي الشوق فـاطْوِ المـراحلا

وقـــل لمنـــادي حـــبهم ورضـــاهمُ
إذا مـــا دعا لبيـــك ألفًـــا كـــواملا
ولا تنظـر الأطـلال مـن دونهـم فـإنْ
نظـرت إلى الأطـلال عُـدْنَ حـوائلا
ولا تنتظـــر بالســير رِفقـــة قاعـــدٍ
ودعـه فـإن الشـوق يكفيـك حـاملا
وخـــذ مـــنهم زادًا إليهـــم وسر على
طريـق الهـدى والحـب تصبح واصـلا
وأحيِ بـــــذكراهم سُراك إذا وَنَـــــتْ
ركابُـــك فـــالذكرى تعيـــدك عامـــلا
وإمـــا تخـــافنَّ الـــكلال فقـــل لهـــا
أمامــك وِرد الوصـــل فـــابغي المنـــاهلا
وخــذ قبسًـا مــن نــورهم ثــم سر بــهِ
فنـــورهم يهـــديك لـــيس المشـــاعلا
وحَيَّ على جنـــات عـــدن فإنهـــا
منازلـــك الأولى بهـــا كنـــت نـــازلا
ولكــن ســباك الكاشــحون لأجــل ذا
وقفــت على الأطـلال تــبكي المنــازلا
وحَيَّ على يـــوم المزيـــد بجنـــة الــــ
ــخلود فجُـدْ بـالنفس إن كنـت بـاذلا

فــدعها رســومًا دارســات فمــا بهــا
مقيــل وجاوزهــا فليســت منــازلا
رسومًا عفـت ينتابهـا الخلـق كـم بهـا
قتيــلٍ وكــم فيهــا لذا الخلــق قــاتلا
وخــذ يمنــة عنهــا على المــنهج الذي
عليــه سرى وفــد المحبــة آهــلا
وقل سـاعدي يـا نفـس بالصبر سـاعةً
فعنــد اللِّقــا ذا الكــدُ يصــبح زائــلا
فمــا هي إلا ســاعة ثــم تنقــضي
ويصــبح ذو الأحــزان فرحــانَ جــاذلا

ولأبي العتاهية:

ســبحان مــن يعطــي بغــير حســاب
ملــكِ الملــوك ووارثِ الأربــاب
ومــدبرِ الدنيــا وجاعــلِ ليلَهــا
ســكنًا ومــنزلِ غيــثَ كلِّ ســحاب
يــا نفــس لا تتعــرضي لعطيــةٍ
إلا عطيــةَ ربِّــك الوهــاب
يــا نفــس هــلَّا تعمليــن فإننــا
في دار مُعْتَمَــلٍ لــدار ثــواب

وله:

سبحان علام الغيوبِ عجبًا لتصريفِ الخطوبِ
تعرو فروعُ الآمنين وتجتني ثمرَ القلوبِ
حتى متى يا نفس تغترين بالأمل الكذوبِ
يا نفس توبي قبل أن لا تستطيعي أن تتوبي
واستغفري لذنوبك الرحمن غفارِ الذنوبِ
أمّا الحوادث فالرياح بهن دائمةُ الهبوبِ
والموت خَلْقٌ واحدٌ والخَلْقُ مختلفُ الضُروبِ
والسعي في طلب التقى من خَيْرِ مُكتَسَبِ الكَسوبِ
ولقَلَّ ما ينجو الفتى المحمود من لَطْخِ العيوبِ

وله:

ألا مَن لنفسٍ في الهوى قد تمادتِ
إذا قلتُ قد مالت عن الجهل عادتِ
وحسب امرئٍ شرًّا بإهمال نفسهِ
وإمكانها من كل شيءٍ أرادتِ
أيا نفس ما الدنيا بأهل لحيها
دعيها لأقوام عليها تعادتِ
ألا قَلما تبقى نفوسٌ لأهلها
إذا راوحتهنّ المنايا وغادتِ
ألا كل نفس طال في الغَي عمرُها
تموت وإن كانت عن الموت حادتِ

ألا أيــن مــن ولى بــه اللهــوُ والصبِّــا
وأيــن قـــرونٌ قبـــلُ كانـــت فبـــادتِ
كأن لـم أكـن شـيئًا إذا صرتُ في الـثرى
وصـــار مهـــادي رضرضًـــا ووسادتـــي
ومـا ملجـأٌ لي غـيرَ مـــن أنـــا عبـــدهُ
إلى الله ربـــــي شِقوتـــــي وسعادتـــي

وله:

فيا نفس خافـي اللــهَ واجتهــدي لــهُ
فقد فاتـــت الأيـــام واقتـــرب الوعـــدُ
فخيـــر الممـــاتِ قِتلـــةٌ فـــي سبيلـــهِ
وخير المعاش الخِـفُّ والحِـلُّ والقَصــدُ
تشاغلتُ عما ليـس لــي منـــه حيلـــةٌ
ولا بـــد ممـــا ليـــس منـــه لنـــا بـــدُّ
عجبتُ لخـوض النـاس في الهـزل بيـنهم
صُراحًـــا كـــأن الهـــزلَ بينهـــم جِـــدُّ
نسوا المـوت فارتـاحوا إلى اللهـو والصِّـبا
كـــأن المنايـــا لا تـــروح ولا تغـــدو

وله:

إنـــا لفـــي دارِ تنغيـــصٍ وتنكيـــدِ
دارٍ تنـــادي بهـــا أيامُهـــا بيـــدي

لقـــد عرفنـــاك يـــا دنيـــا بمعرفـــةٍ
صَــحَّتْ لنــا فانقصـــي إن شـئت أو
نـــرى الليالـــي والأيـــامَ مسـرعـــةً
فينـــا وفيـــكِ بتفـريـــقٍ وتبعـيـــدِ
جَـدَّ الرحيـل عـــن الدنيـــا وساكنهـــا
يرجـو الخلـــود وليســـت دارَ تخليـــدِ
يا نفـس للمـوت بـــي عيـــن موكلـــةٌ
في كل وجـــهٍ فَـــرُوغي عنـــه أو حيـــدي
إن كانـت الدار ليســـت لـــي بباقيـــةٍ
فمـــا عنائـــي بتأسيـــسٍ وتشيـيـــدِ
لم يكسُني الدهر يومًـا مـــن مسرتـــهِ
إلا جــرى منـــه مكـــروهٌ بتجريـــدِ
ولي مــن المـوت يـــوم لا دفـــاع لـــهُ
لو قد أتاني لقـــد ضَلـــتْ أقاليـــدي
الحمـــد لله كـــل الخلـــق منتقَـــصٌ
مُصَـــرَّفٌ بيـــن خِـــذلان وتأيـيـــدِ
وكـــلُّ مـــا ولدتْـــهُ الوالـــداتُ إلـــى
مـــوتٍ تؤديـــهِ ساعـــاتُ المواليـــدِ

وله:

ألا يـــا نفـــس مـــا أرجـــو بـــدارٍ أرى مَـــنْ حَلَّهـــا قَلِـــقَ القـــرارِ

بــدار إنمــا اللـــذات فيهـــا … معلقـــــةٌ بأيـــــام قـصــــــارِ
نـــرى الأمـــوال أربابًـــا علينـــا … ومــــا هي بيننـــــا إلا عــــــوارِ
كــأني قــد أخــذت مــن المنايــا … أمانًــــــا في رواحي وابـــــتكاري
إذا مــا المــرء لــم يقنــع بعــيش … تقنَّـــع بالمذلـــــة والصغــــــارِ

وله:

حــتى مــتى يستفزنـــي الطمــعُ … ألــيس لـــي بالكفـــاف متســعُ
مــا أفضــل الصــبرَ والقناعــةَ للنــ … ـــاس جميعًــا لــو أنهــم قنِعــوا
وأخــدعَ الليـــل والنهـــار لأقـــ … ـــوام أراهــم في الــغَي قــد رتعــوا
أمّـــا المنايـــا فغيـــر غافلـــةٍ … لـــكل حيٍّ مـــن كأسهـــا جــرعُ
أي لبيـــب تصـــفو الحيـــاة لـــهُ … والمـــــوت ورد له ومنتجَـــــعُ
الخلــق يمضـــي يـــؤم بعضهـــم … بعضًـــا فهـــم تابـــعٌ ومُتَّبَـــعُ
يــا نفــس مــا لـــي أراك آمنـــةً … حيـث تكـون الـروعات والفـزعُ
مــا عُــدّ للنــاس في تصــرف حــا … لاتهـــم مـــن حـــوادثٍ تقـــعُ
لقــد حلبــتُ الزمـــان أشطـــرهُ … فـكان فـيهن الصّــاب والسَّلَــعُ[1]
مــا لي بمــا قــد أتى بـــه فـــرحٌ … ولا على مـــا ولى بـــــه جـــزعُ
للـــه درُّ الدنيـــا لقـــد لعبـــتْ … قــبلي بقــوم فمــا تــرى صنعــوا
غـــدًا ينـــادَى مَـــنْ في القبـــور إلى … هـــولِ حســابٍ عليــــه يجتمــعُ
غـــدًا تـــوفّى النفــوس مــا كسبـــتْ … ويحصــد الزارعــون مــا زرعــوا

---

(١) السَّلَع: شجر مر، وكذلك الصاب.

تبــارك الله كيــف قـــد لعبـــتْ بالنــاس هــذي الأهــواء والبــدعُ

شــتت حــب الدنيــا جماعتهـــمْ فيهــا فقــد أصــبحوا وهــم شِيَـــعُ

وله:

ألــم نــر يــا دنيـــا تصـــرف حالـــكِ
وغـــدرك يـــا دنيـــا بنـــا وانتقالـــكِ

فلســتِ بــدار يستتـــم بـــك الرضـــا
ولـو كنـت في كـف امـــرئ بكمالـــكِ

حرامـك يـا دنيـا يعـود إلـــى الضنـــا
وذو اللـــب فينــا مشــفق مــن حلالـــكِ

أليفــك يـــا دنيـــا كثيـــر غمومـــهُ
فليس النجـاة منـك غيـــرَ اعتزالـــكِ

أيـــا نفـــس لا تستوطنـــي دار قلعـــةٍ
ولكــن خــذي في الــزاد قبــل ارتحالــكِ

أيا نفس لا تنسَـــي كتابـك واذكـــري
لـــك الويـــل إن أُعطيتِـــه بشمالـــكِ

أيـــا نفـــس إن اليـــوم يـــوم تفـــرغٍ
فدونكِـهِ مــن قبـــل يـــوم اشتغالـــكِ

ومســؤولة يــا نفــس أنـــت فيسِّـــري
جوابًــا ليــوم الحشـــر قبـــل سؤالـــكِ

ومسـكينةٌ يـا نفـس أنـت فقيـرةٌ
إلى خـير مـا قدمتِـه مـن فعالـكِ
هـو المـوت فاحتـاطي له وأبشـري إذا
نجـوت كَفافًـا لا عليـك ولا لـكِ

وله:

يـا سـاكن القـبر عـن قليـلِ	مـاذا تـزودت للرحيـلِ
الحمـد لله ذي المعالـي	والحـول والقـوة الجليـلِ
إنـا لمستوطنـون دارًا	نحـن بهـا عابـرو سبيـلِ
دارَ أذًى لـم يـزل عليـلٌ	يشـكو أذاهـا إلـى عليـلِ
كـم شـاهدٍ أنهـا ستفنـى	مـن مـنزلٍ مُقْفِـرٍ مَحيـلِ
كـم مستظـلٍ بظـلِّ مُلـكٍ	أُخـرج مـن ظلـه الظليـلِ
لا بـد للمُلـك مـن زوالٍ	عـن مُسـتدال إلـى مُديـلِ
كـم تـرك الدهـر مـن أنـاسٍ	يـدعون بالويـل والعويـلِ
كـم نغـص الدهـر مـن مبيـتٍ	على سريـرٍ ومـن مقيـلِ
كـم قتـل الدهـر مـن أنـاسٍ	مضَـوا وكـم غال مـن قبيـلِ
هيهـات لـلأرض مـن عزيـزٍ	يبقـى عليهـا ولا ذليـلِ
يـا عجبـا مـن جمـود عيـنٍ	لـم تُعْـرَ مـن حـادث جليـلِ
كـأنني لـم أُصـب بإلـفٍ	ولا قريـنٍ ولا دخيـلِ
ولا رفيـقٍ ولا صديـقٍ	ولا شفيـقٍ ولا عـديـلِ

مــا لي إذا مــا ثكلــتُ خــلًّا   ثنيــتُ صــدرًا علــى خليــلِ

محــلٌّ مــن مــات لــيس يلــوي   بــه وَصــولٌ على وَصــولِ

يــا نفــس لا بــد مــن فنــاءٍ   فقصِّــري العمــر أو أطيلــي

مــا أقطــع المــوتَ للأمانــي   والأمــلِ النــازح الطويــلِ

مــا أخــوض النــاسَ منــذ كانــوا   في كل قــال وكــل قيــلِ

مــا أفضــل الــرفضَ للمــلاهي   والصــبرَ للفــادح الجليــلِ

مــا أزيــن الجــودَ مــن حليــفٍ   مــا أشــين البخــل للبخيــلِ

وله:

يــا نفــس قــد أزف الرحيــل   وأظلــك الخطــب الجليــل

فتأهبــي يــا نفــس لا   يلعــب بــك الأمــل الطويــل

فلتنــزلِــنّ بمنــزلٍ   ينســى الخليــلَ بــه الخليــل

وليركبــن عليــك فيــ   ــه مــن الــثرى ثِقْــل ثقيــل

قُــرن الفنــاء بنــا فمــا   يَــبقى العزيــز ولا الذليــل

لا تعمــرِ الدنيــا فليــ   س إلى البقــاء بهــا سبيــل

يــا صــاحب الدنيــا أبالــد   نيــا تُــدل وتستطيــل

كــلٌّ يفــارق روحــهُ   وبصــدره منهــا غليــل

عمــا قليــل يــا أخــا الشهــوا   ت أنــت لهــا قتيــل

فــإذا اقتضــاك المــوت نفــ   ــسك كنــت ممــن لا يُحيــل

فهنــاك مالــك ثَــمَّ إلّا   فعلــك الحســن الجميــل

إنــي أعيــذك أن يَميــ   ــل بــك الهــوى فــيمن يميــل

والمـــــوت آخــــر علـــــةٍ يعتلهـــا البـــدن العليـــــل

لدفـــــاع دائـــــرة الـــــردى يتضـــايق الـــرأي الأصـــيل

فلربمـــــا عثـــــر الجـــــوا د وربمـــــا حـــــار الدليـــــل

ولــــرب جيــــل قــــد مضــــى يتلـــوه بعـــد الجيـــل جيـــل

ولـــــرب باكيـــــة علـــــيَّ غنائهـــــا عنـــــي قليـــــل

وله:

يا نفس مـا أوضـحَ قصـد السـبيل خُلقـتِ يـا نفـس لأمـر جليـل

يـا نفـس مـا أقـرب منـا البِلـى أنـا الذي لا نفـس لي عـن قليـل

كــــل خليـــل فلـــه فُرقـــةٌ لا بـد يومًـا مـن فـراق الخليـل

يــا عجبــا إنــا لنلهــو وقــد نــودي في أســماعنا بالرحيـل

وله:

يــا نفــس مــا هــو إلا صبــر أيــامِ
كـــأن لذتهـــا أضغـــاثُ أحـــلامِ

يــا نفــس مــا لي لا أنفــك مــن طمــعٍ
طَــرْفي إليـــه سريــعٌ طامـــحٌ ســـامِ

يــا نفــس كــوني عــن الدنيــا مباعِــدةً
وخلِّفيهـــا فـــإن العـــيش قـــدامي

يا نفس ما الذخـر إلا مـا انتفعـت بـهِ
في القــبر يــوم يكــون الدفــنُ إكــرامي

وللزمـــان وعيـــدٌ فـــي تصرفـــهِ

إن الزمـــان لذو نَقْـــضٍ وإبـــرامِ

أمـــا المشيـــب فقـــد أدى نذارتـــهُ

وقـد قضـى مـا عليـه منـذ أعـوامِ

إني لأســتكثر الدنيـــا وأعْظُمهـــا

جهــلًا ولــم أرهــا أهــلًا لإعظـــامِ

يـــا ذا الذي يومـــه آتٍ بساعتـــهِ

وإن تــأخر عــن عـــامٍ إلـــى عـــامِ

فلــو عـــلا بـــك أقـــوام مناكبهـــم

حَثُّــوا بنعشـــك إسراعًـــا بأقـــدامِ

في يـــومِ آخـــرِ توديـــعٍ تُوَدَّعُـــهُ

تُهــدى إلى حيــثُ لا فــادٍ ولا حــامِ

مــا النــاس إلا كــنفس في تقاربهـــم

لـــولا تفـــاوت أرزاق وأقســـامِ

كم لابـن آدم مـن لهـو ومـن لعـبٍ

وللحـــوادث مـــن شَـــدٍّ وإقـــدامِ

كم قد نعت لهـم الدنيـا الحلـول بهـا

لــو أنهــم سمعــوا منهـــا بأفهـــامِ

وكـــم تخرمـــت الأيـــام مـــن بشـــرٍ

كانـــوا ذوي قـــوة فيهـــا وأجســـامِ

يـــا ســـاكن الدار تبنيهـــا وتعمرهـــا

والــــــدار دار منيّــــــاتٍ وأســقـــــامِ

لا تلعــبن بـــك الدنيـــا وخُدعتهـــا

فكـــم تلاعبـــت الدنيـــا بأقـــوامِ

يـــا رُبّ مقتصـــدٍ عـــن غـــير تجربـــةٍ

ومُعْتَـــدٍ بعــــد تجريـــبٍ وإحكـــامِ

ورُبّ مكتسِـــبٍ بالحلـــم واقيـــةً

ورُبّ مســـتهدَفٍ بـــالبغي للرامـــي

وله:

أيـــا نفــس مهمــا لـــم يـــدم فذريـــه

وللمــــوت رأي فيـــك فانتظريـــه

مضـى من مضـى منـا وحيـدًا بنفسـهِ

ونحـــن وشيكًـــا لا نشـــك نليـــه

بنــو المــرء يســليهم عــن المــرء بَعــدهُ

إذا مــات مــا أســلاه بعـــد أبيـــه

رأيــت أقــل النـــاس همًّـــا أشــدَّهم

قُنـــوعًا وأرضـــاهم بمـــا هـــو فيـــه

فطــوبى لمــن لــم يلــق أمــرًا قضــى لهُ

بـــه الله إلا ســـره ورضيـــه

ولا خـــير فـــيمن ظـــل يـــبغي لنفســهِ
مــن الخـــير مـــا لا يبتغـــي لأخيـــه

وله:

ألم يأن لي يــا نفــس أن أتنبهــا   وأن أتــرك اللهــو المضــر لمــن لهــا
أرى عملي للشــر منــي بشهــوةٍ   ولســت أروم الخيـــر إلا تكرّهــا
كفى بامرئٍ جهـلًا إذا كان تابعًــا   هواه مــن الدنيــا إلى كل مــا اشــتهى
وفي كل يــوم عِــبرة بعـــد عِبـــرةٍ   وفي الموت ناهٍ للفــتى لــو هــو انــتهى
وكل بني الدنيــا علـــى غفلاتـــهِ   تواجهــه الأقـــدار حيـــث توجهــا

وله:

أحمـــــــد الله على كل حـــــالِ   إنمـــا الدنيـــا كـــفَيْء الظـــلالِ
إنمـــا الدنيـــا مُنـــاخُ لركـــبٍ   يســـرع الحَـــثَّ بشَـــدِّ الرحـــالِ
رب مغـــتر بهـــا قـــد رأينـــا   نعشـــه فـــوق رقـــاب الرجـــالِ
مـــن رأى الدنيـــا بعيـــنَي بصـــيرٍ   لـــم تكـــد تخطـــر منـــه ببـــالِ
إنمـــا المســـكين حقًّـــا يقينًـــا   مـــن غـــدا يـــأمن صَرف الليـــالي
لـــيس مـــالٌ لـــم يقدمـــه ذخـــرًا   ربُّـــه بـــين يديـــه بمـــالِ
مـــا أرى لي ظالمًـــا غـــيرَ نفســـي   ويح نفســـي مـــا لنفســـي ومـــا لي
يـــا مضـــيِّع الجِـــدِّ بـــالهزل منـــهُ   مـــن يبـــالي منـــك مـــا لا تبـــالي

وله:

طـــال شـــغلي بغـــير مـــا يعنيـــني   وطِـــلابي فـــوق الذي يكفيـــني
واحتيـــالي بمـــا علي ولا لي   واشـــتغالي بكـــل مـــا يلهيـــني

وأرى مـــا قضـــى علي إلـــهي ... مـــن قضـــاء فإنـــه يـــأتيني
ولـــو أني كففـــت لـــم أبـــغ رزقي ... كان رزقي هـــــو الذي يبغيـــــني
أحمـــد الله ذا المعـــارج شـــكرًا ... مـــا عليهـــا إلا ضـــعيف اليقـــينِ
ولعمـــري إن الطريـــق إلى الحـــقِّ ... مبـــــينٌ للنـــــاظر المســـــتبينِ
ويـــح نفســـي إني أراني بـــدنيا ... ي ضـــنينًا ولا أضـــنُّ بـــديني
ليت شعري غـدًا أؤعطـى كتـابي ... بشـــمالٍ لشِـــقوتي أم يميـــني

ولغيره:

قـــفي هاهنـــا في رحـــاب الهـــدى ... ولله يـــا نفـــس فاستســـلمي
أطـــلَّ على النـــاس شـــهر الصـــيام ... فبشـــــراك بالوافـــد المُكـــرَمِ
هلـــمي هلـــمي بـــه نحـــتفي ... ونعلـــن عـــن فرحـــة المَقْـــدَمِ
أعيـــذك مـــن نـــزغات الهـــوى ... وفي موســـم الخَصـــب أن تُحـــرَمي
صـــيامك يـــا نفـــس فيـــه الخـــلا ... ص مـــن الضـــعف والعجـــز والمـــأثمِ
ومعراجـــك الفَـــذّ تقـــوى الإلـــ ... ـــه فركضًـــا إلى الله لا تُحجِـــمي

ولغيره:

شـــهر الشـــهور أتى بـــالخير أجمعـــهِ
عـــن ســـابغ العفـــو والغفـــران لـــم يَحَـــلِ
فيـــه الشـــياطين قـــد ســـدت منافـــذها
وسلســـلت مالهـــا في الشـــر مـــن أمـــلِ
يا نفـــس للفـــوز هـــذي فرصـــة ســـنحتْ
دعي الوســـاوس والـــزلات وامتـــثلي

فقوتـــــك اليـــــوم أذكار وأدعيـــــةٌ
مــلء المحاريــب مــلء الســهل والجبــلِ

ولغيره:

يــا نفــس قــد طــاب في إمهالــك العمــلُ
فاســتدركي قبــل أن يــدنوَ لــك الأجــلُ
إلى مـــتى أنـــت في لهـــو وفي لعـــبٍ
يغـــرك الخـــادعان الحـــرص والأمـــلُ
وأنـــت في ســـكرِ لهـــوٍ لـــيس يدفعـــهُ
عن قلبـك الناصـحان العَتْـب والعَـذْلُ
فـــتزودي لطريـــق أنـــتِ ســـالكةٌ
فيهـــا فعمـــا قليـــلٍ يأتـــك المثـــلُ
ولا يغـــرك أيـــام الشـــباب فـــفي
أعقابهـــا الموبقـــان الشـــيب والأجـــلُ
يا نفس توبي مـن العصـيان واجتهـدي
ولا يغرنـــــك الإبعـــــاد والملـــــلُ
ثـــم احـــذري موقفًـــا صـــعبًا لشـــدتهِ
يَغشـى الورى المُتلفان الحـزن والوجـلُ
ويُختـــتم الفـــم والأعضـــاء ناطقـــةٌ
ويظهـــر المُفصـــحان الخَـــط والخَطَـــلُ

ويحكـــم الله بـــين الخلـــق مَعدِلَـــةً
فتُـــذكر الحالتـــان الـــبِر والزلـــلُ

ولغيره:

يـــا نفـــس هـــذا الذي تأتينـــه عجـــبُ
علـــم وعقـــل ولا نُســـك ولا أدبُ
وَصْـفُ النفـاق كمـا في النـص نسـمعهُ
علـم اللسـان وجهـل القلـب والسـببُ
حـــب المتـــاع وحـــب الجـــاه فـــانتبهي
من قبل تطوى عليك الصحف والكتبُ
وتصـــبحين بقـــبر لا أنـــيس بـــهِ
الأهـــل والصَّـــحب لمـــا ألحـــدوا ذهبـــوا
وخلَّفـــوك ومـــا أســـلفتِ مـــن عمـــلٍ
المـــال مســـتأخر والكســـب مصـــطحَبُ
واســـتيقني أن بعـــد المـــوت مجتمعًـــا
للعـــالمين فتـــأتي العُجْـــمُ والعَـــربُ
والخلـــق طُـــرًّا ويجـــزيهم بمـــا عملـــوا
في يـــومٍ لا ينفـــع الأمـــوال والحســـبُ

ولغيره:

يا نفـس كُـفِّي فطـول العمـر في قِصَـــرِ
ومـــا أرى فيـــك للتـــوبيخ مـــن أثـــرِ

يا نفس قضيتُ عمري في الذنـوب وقـدْ
دنـــا الممـــات ولـــم أقـــض مـــن الـــوَطَرِ
يـــا نفـــس غـــرك مـــن دنيـــاك زخرفُهـــا
ولـــم تكـــوني بهـــول المـــوت تعتـــبري
يـــا نفـــس بالغـــتِ بالعصـــيان غاويـــةً
ولـــــم تبـــــالي بتحـــــذيرٍ ومزدجـــــرِ

ولغيره:

يـــا نفـــس مـــا عيشـــك بالدائـــبِ ... فقصـــــري مـــــن أمـــــلٍ خائـــــبِ
وَيْـــكِ أمـــا يكفيـــك أن تبصـــري ... جنـــــائزًا تنقـــــل بالراتـــــبِ
بالطفـــــل والبـــــالغ والمبتـــــدي ... شـــــبابه والكهـــــلِ والشـــــائبِ
مـــــــــــــــــن والد أو ولد أو أخٍ ... أو مـــن غريـــب عنـــك أو صـــاحبِ
فهـــل تـــبقى لـــك مـــن حجـــةٍ ... إلا غـــــرورُ الأمـــــل الـــــكاذبِ
أمـــــا عجيـــــبٌ أن ذا كلَّـــــهُ ... مُـــــــوفرٌ في شَرَه الكاســـــــبِ
لـو لـم يكـن شيء سـوى المـوت كا ... ن الزهـد في الدنيـا مـن الواجـبِ
أو لـم يكـن مـوت لكانـت همـو ... م الدهـــر تـــنفي رغبـــةَ الراغـــبِ
فكيـــف والإنســـان مـــن بعـــدهِ ... منـــاقَش مـــن عالِـــمٍ حاســـبِ
قـــد أنـــذر الـــوعظ وأســـماعُنا ... عـــن كل مـــا يُـــذكر في جانـــبِ

ولغيره:

يـــا نفـــس لا بـــالموت تعتـــبري ولا ... تصـــغي لذي نصـــح لـــك ســـيقولُ
يـــا نفـــس بعـــد المصـــطفى أفـــتطمعي ... في الخـــلد كلا مـــا إليـــه ســـبيلُ

يا نفس كم تعصـــي إلهك جهــرةً والقلـــب مـــني بـــالذنوب عليـــلُ
يـــا نفـــس تـــوبي مـــن ذنوبـــك إنـــهُ مـــن يعـــص رب العـــرش فهـــو ذليـــلُ
يا نفس كم تعصـــي وربـــك نـــاظرٌ ويـــرى فِعالـــك والدُّجى مســـدولُ
يـــا نفـــس لا تَـــرجي البقـــاء فإنـــهُ ســـيف المنايـــا في الـــورى مســـلولُ
كيـــف الطريـــق إلى النجـــاة وإنـــني بقيـــود ذنـــبي دائمًـــا مغلـــولُ
مـــا حيلـــتي إلا البـــكاء وقـــد غـــدا حـــزني على قـــبح الذنـــوب يطـــولُ

ولغيره:

ويـــح دنيـــا غرورهـــا يضـــنيني كـــم إلى كـــم غـــررتِني فـــدعيني
كم تسـومينني خـداعًا عـن الرشـــ ـــد وكـم ذا الخـداعُ ويـكِ ذريـني
أمَـــلي زائـــدٌ وعمـــري يفـــنى ويـح نفســـي عـن رأيهـا المغبـونِ
همـــتي تعـــتلي الســـماء وســـعي كســـلًا ســـعي عاجـــزٍ مـــأفونِ
ويح نفســي أمـا كفاهـا مـن العيـــ ـــش تقضـــي ســـنينَ بعـد ســـنينِ
ليـت شـعري ومـا انتظـاري وقـد لاح شـــيبٌ بعـــارضي وقـــروني
ويا ابن ستينَ مـا اعتـذارك مـن بعـــ ـــد بلـــوغ الأشـــدّ والســـتينِ

ولغيره:

صـبرت عـن الـلذات حـتى تولـتِ وألزمـت نفســي تركهـا فاسـتمرتِ
وكانـت على الأيـام نفســي عزيـزةً فلمـا رأت عـزمي على الذل ذلـتِ
فقلـت لهـا يـا نفـس مـوتي كريمـةً فقـد كانـت الدنيـا لنـا ثـم ولـتِ
خلـيليَّ لا والله مـا مـن مصـيبةٍ تمـر على الأيـام إلا تجلـتِ
وما النفس إلا حيـث يجعلهـا الفـتى فـإن أُطعمـتْ تاقـت وإلا تسـلتِ

ومن نشيد محمد المقرن:

كـفى يـا نفـس مـا كانـا ... كفـاك هـوى وعصـيانا
كفـاك فـفي الحشـى صـوتٌ ... مـن الإشـفاق نادانـا
أمـا آن المـآب بـلى ... بـلى يـا نفـس قـد آنـا
خطـوتِ خطـاك مخطئـةً ... فسـرتُ الدرب حيرانـا
فـؤادي يشـتكي ذنـبي ... ويشـكو منـك مـا كانـا
أعيـدي لِلْحِـمَى قلـبي ... وعـودي عـوديَ الآنـا
تَجـاذبني هـوًى وهـدًى ... وقلـبي بعـد مـا لانـا
كـأني مـا سـمعت ومـا ... رأيـت الهَـدْيَ إذ بانـا
كـأني صـخرة فمـتى ... يَلـين الصـخر إيمانـا
أرى آلام أمتنـا ... كسـقف الليـل يغشانـا
وأُمضـي مغضـيًا طـرفي ... وراء النفـس هيْمانـا
نسـيت همومهـا فمـتى ... أعـيش الهـمَّ إنسـانا
أيـا نفْسـي خبـا نفَسـي ... بضِـيق الصـدر أحزانـا
ظننـتُ سـعادتي لهـوًا ... يُـزيح الهـمَّ سِلوانـا
فلـم ازدد سـوى هـمٍّ ... ولـو أُضـحكتُ أحيانـا
يسـافر بـالهوى قلـبي ... لدور اللهـو نَشوانـا
فتُوقفـه محطـاتٌ ... تَهـز عُـراه إيمانـا
ألا فـارجع وأرجـعْ مـا ... مضـى بـالقرب أزمانـا

سـيـاط التـوب تزجـرني فـأُحني الـرأس إذعانـا
وأُطـرق والحشـا يغـلي بمـا أسرفـتُ نيرانـا
أصـيح بتـوبتي نـدمًا كـفى يـا نفـس مـا كانـا

❑❑❑❑❑

خاتمة

وختامًا، أخي القارئ، فانظر إلى نفسك بعد اطلاعك على ما تقدم: هل أنت عامل على فلاحها ونجاتها بتزكيتها، فمعتقها من العذاب؟! أم أنت مهمل ذلك غير مكترث به، فعامل على خيبتها وهلاكها بتدسيتها، فموبقها بالعذاب؟!! كما روى أبو مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ للهِ تَمْلَآنِ (أو: تَمْلَأُ) مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو: فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا، أَوْ مُوبِقُهَا»(١).

قال النووي(٢): «معناه: كل إنسان يسعى بنفسه، فمنهم من يبيعها لله تعالى بطاعته، فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما، فيوبقها؛ أي: يهلكها».

وقال القرطبي(٣): «(يغدو)؛ بمعنى: يُبكِّر، يقال: غدَا إذا خرج صباحًا في مصالحه، يغدو، وراح إذا رجع بعَشِيٍّ، ومعنى ذلك: أن كل إنسان يصبح ساعيًا في أموره متصرفًا في أغراضه، ثم إما تكون تصرفاته بحسب دواعي الشرع والحق، فهو الذي يبيع نفسه من الله تعالى، وهو بيع آيِلٌ إلى عِتْقٍ وحرية، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَ﴾ [التوبة:١١١].

وإما أن تكون تصرفاته بحسب دواعي الهوى أو الشيطان، فهو الذي باع

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣) وغيره.

(٢) «شرح مسلم» (١٠٢/٣).

(٣) «المفهم» (٥٥٣/٢).

نفسه من الشيطان، فأوبقها؛ أي: أهلكها، ومنه: ﴿أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ﴾ [الشورى:٣٤].

ومثله قول ابن مسعود: الناس غاديان: فبائع نفسه فموبقها، أو مفاديها فمعتقها».

قال الحسن(١): «ابن آدم، إنك تغدو وتروح في طلب الأرباح، فليكن همك نفسك، فإنك لن تربح مثلها أبدًا».

وفي «الفوائد» لابن القيم: اشترِ نفسك اليوم، فإن السوق قائمة، والثمن موجود، والبضائع رخيصة، وسيأتي على تلك السوق والبضائع يوم لا يقبل فيه لا قليل ولا كثير، ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن:٩]، ﴿يَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ﴾ [الفرقان:٢٧].

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ... وأبصرت يوم الحشر من قد تزودا
ندمت على أن لا تكون كمثله ... وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

ومن مواعظ ابن السماك(٢): «الدنيا كلها قليل، والذي بقي منها قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا قليل، وقد أصبحت في دار العزاء، وغدًا تصير إلى دار الجزاء، فاشترِ نفسك لعلك تنجو». اهـ.

ولْيعجِّل العاقل قبل فوات الأوان، قبل هجوم الموت ومجيء سكرته، وقبل حصول الفوت ووقوع حسرته، فعندها يقع الفراق، فلا ينفع طبيب، ولا يدفع راق، ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ * وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ * وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

ولْيبادِر بالتوبة النصوح، وبابها قريب مفتوح، قبل أن يأتيه العذاب، ويَبغته العقاب، فلا تُجْدي حيلة، ولا يُقبل استعتاب، قبل أن تقول نفس: يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله!

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٠).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٧/٣٣٠).

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ * وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ * وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٣-٥٨].

ولْيستحي من ربه عز وجل، أن يراه حيث نهاه، أو ألا يجده حيث أمره، أو أن يعصيه بنعمه، فحقه جل جلاله أن يشكر فلا يكفر، وأن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يتقى حق تقاته، وأن يُستحيا منه حق الحياء.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«اسْتَحْيُوا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ». قال: قلنا: يا رسول الله، إنا نستحيي والحمد لله، قال:

«لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ الْمَوْتَ وَالْبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»(١).

وعن سعيد بن يزيد الأزدي رضي الله عنه، أنه قال للنبي ﷺ: أوصني. قال:

«أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥٨) وغيره، وحسنه الألباني.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٥٣٩)، واللفظ له، وأحمد في «الزهد» (٢٤٨)، وغيرهما، وهو في «السلسلة الصحيحة» (٧٤١).

قال المناوي[1]: «قال ابن جرير: هذا أبلغ موعظة وأبين دلالة، بأوجز إيجاز وأوضح بيان، إذ لا أحد من الفسقة إلا وهو يستحي من عمل القبيح عن أعين أهل الصلاح وذوي الهيئات والفضل، أن يراه وهو فاعله، والله مطلع على جميع أفعال خلقه، فالعبد إذا استحى من ربه استحياءه من رجل صالح من قومه تجنب جميع المعاصي الظاهرة والباطنة، فيا لها من وصية ما أبلغها! وموعظة ما أجمعها!».

وقال الراغب[2]: «فأما مداواة اكتساب الحياء[3]: فحق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أَجَلَّ مَنْ في نفسه، حتى كأنه يراه، فالإنسان يستحي ممن يكبُر في نفسه، ولذلك لا يستحي من الحيوان ولا من الأطفال، ولا من الذين لا يميزون، ويستحي من العالم أكثر مما يستحي من الجاهل، ومن الجماعة أكثر مما يستحي من الواحد».

وعن عون بن عبد الله بن عتبة، أن أبا الدرداء لما رأى ما أحدث المسلمون في الغَوْطة، من البنيان ونصب الشجر، قام في مسجدهم فنادى: يا أهل دمشق، فاجتمَعوا إليه، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: ألا تستحيون؟! ألا تستحيون؟! تجمعون ما لا تأكلون! وتبنون ما لا تسكنون! وتأملون ما لا تدركون! قد كانت قبلكم قرون يجمعون فيُوعون، ويبنون فيُوثِقون، ويأملون فيُطيلون، فأصبح أملهم غرورًا، وأصبح جمعهم بُورًا، وأصبحت مساكنهم قبورًا، ألا إن عادًا ملكت بين عَدن وعُمانَ خيلًا ورِكابًا، من يشتري مني ميراث عادٍ بدرهمين؟![4].

ولْيبك عبدٌ على نفسه، ولْيتب من خطيئته.

---

(١) «فيض القدير» (٣/٩٦).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (ص ٢٠٨).

(٣) وتقدم في أول الكتاب (صفحة ٦١) ذكر أن مراقبة الله تعالى تستجلب الحياء منه سبحانه.

(٤) «تفسير ابن أبي حاتم» (٩/٢٧٩٩- طبعة الباز).

وعن عقبةَ بن عامر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، ما النجاةُ؟ قال: «امْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[1].

وحُقّ لمن لا يملك إلا نفسًا واحدة، هي أغلى الأنفس، أن يبكيها ويبكيها، وأن يبكي ما قد فقد من أيامه، ويندب ما قد ضاع من زمانه.

ولأبي العتاهية ـ وهي من أحسن ما قيل في الباب أو أحسنه ـ:

لأبكـين علـى نفسـي وحُـقَّ لِيَـهْ
يـا عـين لا تـبخلي عنـي بعَبرتيـهْ
لأبكيـن لفِقـدان الشبـاب وقـدْ
نـادى المشـيب عـن الدنيـا برحلتيـهْ
لأبكيـن علـى نفسـي فتسعدنـي
عيـنٌ مؤرَّقـةٌ تبكـي لفُرقتيـهْ
لأبكيـن علـى نفسـي فيُسعدنـي
أهـلي ومـن كان حـولي مـن أحبتيـهْ
لأبكـيـن ويبكيـنـي ذوو ثقـتـي
حـتى الممـات أخلائـي وإخوتيـهْ
لأبكيـن فقـد جـد الرحيـل إلـى
بيـت انقطـاعي عـن الدنيـا ووَحدتيـهْ
يا بيـتُ بيـتَ الـردى يـا بيـتَ مـنقطعي
يا بيتُ بيـتَ الـردى يـا بيـتَ غربتيـهْ

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦) وغيره، وصححه الألباني.

يـا بيـتُ بيـتَ النـوى عـن كل ذي ثقـةٍ
يا بيتُ بيـتَ الـردى يـا بيـتَ وَحشـتيهْ
يــا نــأيَ منــتجعي يــا هــولَ مطَّلعـــي
يــا ضِــيقَ مضــطجعي يــا بُعــد شقتيــهْ
يا عـينُ كـم عـبرةٍ لي غيــرِ مشكلــةٍ
إن كنـــت منتفعـــًا يومـــًا بعَبرتيـــهْ
يــا عــين فــانهملي إن شــئت أو فدعـــي
أمّـــا الزمـــان فقـــد أودى بجِدَّتيـــهْ
يـــا كـــربتي يـــومَ لا جـــارٌ يَبَـــرُّ ولا
مولًـــــى يُنَفِّـــس إلا اللهُ كربتيـــهْ
يومًـــا أقلـــب فيـــه شاخصًـــا بصـــري
تميـــد بي في حيـــاض المـــوت ســـكرتيهْ
إذا تمثـــل لي كـــرب السيـــاق وقـــدْ
قَلَّبـــتُ طَـــرْفي وقـــد ردَّدْتُ غُصتيـــهْ
إذ حَـــثَّ بي عَلَـــقٌ عالٍ وحَشـــرج فـــي
صـــدري ودارت لكَـــرب المـــوت مُقلتيـــهْ
أُمســـي وأُصـــبح في لهـــو وفـــي لعـــبٍ
مـــاذا أضَيِّـــع فـــي يومـــي وليلتيـــهْ
إنـــي لألهـــو وأيـــامـــي تُنَقِّلـنـــي
حـــتى تَســـُدَّ بـــيَ الأيـــام حفرتيـــهْ

مــاذا أضَـيِّع مــن طَـرْفي ومــن نَفَســي
لغفلــتي وهمــا فــي حــذف مدتيــهْ

ألهــو ولي رهبــة فــي كــل حادثــةٍ
وإنمــا رهبتــي فَــرعٌ لرغبتيــهْ

الرشــد يُعتقنــي لــو كنــت أتبعــهُ
والغَــي يجعلنــي عبــدًا لشهوتيــهْ

يا نفــس ضـيعتِ أيــامَ الشبــاب وهــ
ـذا الشـيبُ فـاعتبري بالشـيب عِبرتيـهْ

يــا نفــس ويحــك مــا الدنيــا بباقيــةٍ
فشــمِّري واجعــلي في المــوت فِكرتيــهْ

لــئن ركنــتُ إلــى الدنيــا وزينتهــا
لأَخــرجنّ مــن الدنيــا بحسرتيــهْ

أشــكو إلى الله تضــييعي ومسكنتــي
أشــكو إلى الله تقصــيري وقسوتيــهْ

واللهُ واللهُ ربــي المستغــاثُ بـــهِ
واللهُ ربــي بـــه حَولــي وقوتيــهْ

المــال مــا كــان قدامــي لآخرتــي
ما لم أقدمْـه مـن مالـي فليـس ليـهْ

وللإلبيري:

ومــا آسى على الدنيــا ولكــنْ   على مــا قــد ركبــتُ مــن الذنــوبِ

فيـا لهَـفي على طـول اغـتراري ويـا ويـحي مـن اليـوم العصـيبِ
إذا أنـا لـم أنـح نفسـي وأبكـي على حـوبي بتَهْتـانٍ[1] سـكوبِ
فمـن هـذا الذي بعـدي سـيبكي عليهـا مـن بعيـد أو قريـبِ

وله:

ومما شـجاني والشـجون كثـيرةٌ ذنـوبٌ عظـام أسـبلتْ عَـبراتي
وأقلقـني أني أمـوت مفرطًـا على أنـني خُلِّفـت بعـد لِداتي
وأغفلـتُ أمـري بعـدهم متثبطًـا فيـا عجبـا مـني ومـن غفـلاتي
إلى الله أشكو جهلَ نفسـي فإنها تميـل إلى الراحـات والشـهواتِ

وفي «التبصرة»[2] لابن الجوزي: طوبى لمن تنبه من رقاده، وبكى على ماضي فساده، وخرج من دائرة المعاصي إلى دائرة سداده، عساه يمحو بصحيح اعترافه قبيح اقترافه، قبل أن يقول فلا ينفع، ويعتذر فلا يُسمع.

قـد قلـت للنفس وبالغـتُ وزدت في العَتـب وأكـثرتُ
يا نفس قد قصرتِ ما قد كفى تيقظـي قـد قَـرُبَ الوقـتُ
جِدِّي عسى أن تدركي ما مضى قـد سـبق النـاس وخُلِّفْـتُ
أنـا الذي قـد قلـت دهـرًا غـدًا أتـوب مـن ذنـبي فمـا تبـتُ
لـو كنـتُ ذا عقـل لِمـا حَـلَّ بي نُحـت على نفسـي مـا عشـتُ
واحسـرتي يـوم حسـابي إذا وُقِفْـتُ للعـرض وحُوسـبتُ
واخجلـتي إن قيـل لي قـد مضى وقتـك تفريطًـا ووُبِّخْـتُ

(١) أي: بدمع متتابع. يقال: هتنت السماء، وهتنت العين. وهتن الدمع؛ أي: سال بغزارة.

(٢) (٦٣/١).

ولي كتـــــاب نــــــاطق بـــــالذي قـــد كنـــت في دنيـــاي قـــدمتُ

وفي «مختصرها»[1]: «لو تفكرت النفوسُ فيما بين يديها، وتذكرت حسابها فيما لها وعليها، لبعَثَ حزنُها بَريدَ دَمْعها كلَّ وقت إليها، أما يحق البكاء لمن قد مضى زمانه؟! أما يحق البكاء لمن قد ذهب أوانه؟! أما يحق البكاء لمن طال عصيانه؟! نهاره في المعاصي فقد زاد خسرانه، وليله في الخطايا فقد خَفّ ميزانه، وبين يديه الموت الشديد لقاؤه وعِيانه، والقبر المظلم المنهدمة أركانه، والحشر العنيف فيه ذله وهوانه، والحساب اليسير يُنشر فيه ديوانه، والموقف الطويل فيه غمومه وأحزانه، والجحيم الشديد فيه من العذاب ألوانه.

أنوح على نفســـي وأبكـــي خطيئـةً تقـود خطايـا أثقلـت مِـنِّيَ الظَّهْـرا
فيـــا لَـــذَّةً كانـــت قلـــيلًا بقاؤهـــا ويا حسرةً دامت ولـم تُبْـقِ لي عُـذْرا

ذِكْر العَرْض أجرى دموعَ الخائفين، وهولُ الحساب قَلْقلَ أفئدة التائبين».

وأخيرًا، أقول لنفسي ـ ومن أراد نصحي فليسمعْني ـ: يا نفس، كرري على قلبك العلم والبيان، وراجعي أسباب الهداية والإيقان، ولو احتجت أن تكرري ذلك ألف مرة! فافعلي، فكما تتكرر عليك المشغلات والملهيات، وتتجاذب سمعك وبصرك وقلبك الشهوات والمحرمات، مما يضعف الإيمان، ويزلزل الإيقان، ويصد عن ذكر الله تعالى وعن الدار الآخرة، كرري عليك ما يضادها ويدفعها، ويكون جندَ إيمانٍ لك، يقابل جند الهوى، ويكاثره ويغالبه، فيهزمه ويقصمه، بإذن الله تعالى.

وسلي الله دائمًا أن يجدد في قلبك الإيمان، فإنه يبلى فيك كما تبلى الثياب الخُلْقان.

(١) «قرة العيون المبصرة» (٢/٢٧٧).

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»(١).

وبتكرار العلم وتعاهده يرسخ في النفوس، ويستقر في القلوب، فيزداد الإيمان ويقوى، ويصل العبد إلى اليقين.

فاليقين هو: رسوخ العلم، وتمكن الاعتقاد، وقوة الإيمان، فلا ريب فيه، ولا شك يعتريه.

قال الله تعالى: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ [التكاثر:٥].

أي: لو تعلمون علم اليقين لما أشغلكم شيء عن طاعة الله تعالى، ولسارعتم إلى رضاه، ولبذلتم الجهد في ذلك، ولفعلتم وفعلتم، ولما قصرتم قط، ولما غرتكم الحياة الدنيا، ولا ألهاكم التكاثر فيها.

ولو وَجد العبدُ اليقينَ حقًّا لرأى الآخرة كأنها رأيُ العين، ولانبعثت جوارحه في العمل لها، ولدأبَتِ الليل والنهار فيما ينفعه هنالك!

قال سفيان الثوري: «لو أن اليقين وقع في القلب كما ينبغي لطار اشتياقًا إلى الجنة وهربًا من النار»(٢).

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْيَقِينِ وَالزُّهْدِ، وَيَهْلِكُ آخِرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْبُخْلِ وَالْأَمَلِ»(٣).

فالبخل يضاد الزهد ويؤدي إلى تركه، فيُتمسك بالدنيا، والأمل يضاد اليقين، لأنه يطيل العهد بالعلم ومقتضاه ويشغل عنه، فتُنسى الآخرة.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤٥/١) وغيره. وهو في «الصحيحة» (١٥٨٥).

(٢) انظر «الحلية» (١٧/٧)، و«فتح الباري» (٤٨/١).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «اليقين» (رقم ٣)، و«قصر الأمل» (رقم ٢٠)، وغيرُه. وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٤٠).

وكلما ازداد العبد العاقل الموفق علمًا ازداد خشية من الله تعالى، وازداد زهدًا في الدنيا وجانب شهواتها، وازداد رغبة في الآخرة وعمل من أجلها، عكس ما عليه أكثر أبناء الزمان، كلما ازداد أحدهم علمًا ازداد حبًّا للدنيا وعملًا من أجلها، وازداد تيهًا وكبرًا وزَهْوًا وعُجْبًا وحرصًا، وما ذلك إلا من فساد النية، وخُبث الطَّوِيَّة، وإلا فإن العلم النافع يقتضي الخشية والخشوع والتواضع، والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ولكنهم أعرضوا عن العمل على إصلاح أنفسهم، وأهملوا علاجها من أدوائها، بسبب حبهم للعاجلة، وانهماكهم في شهواتها، واستغراقهم في تحصيل ملذاتها، فوقعوا بما وقعوا فيه من الآفات والأدواء، نسأل الله السلامة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا * وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وعن ابن أبي مُلَيْكَةَ قال: جلسنا إلى عبد الله بن عمرو في الحِجْر، فقال: ابكوا، فإن لم تجدوا بكاء فتباكوا! لو تعلمون العلم لصلى أحدكم حتى ينكسر ظهره، ولبكى حتى ينقطع صوته![1].

قال ابن القيم[2]: «من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زيد في علمه زيد في تواضعه ورحمته، ومن علامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتيهه».

فائدة: قال ابن القيم[3]: «فإن قلت: كيف يجتمع التصديق الجازم الذي لا

(١) أخرجه الحاكم (٤/٦٢٢) وغيره. وهو في «صحيح الترغيب» (٣٣٢٨).

(٢) انظر «الفوائد» (ص ٢٠٣).

(٣) «الجواب الكافي» (ص ٤٠-٤١).

شك فيه بالمعاد والجنة والنار ويتخلف العمل؟ وهل في الطباع البشرية أن يعلم العبد أنه مطلوب غدًا إلى بين يدي بعض الملوك ليعاقبه أشد عقوبة، أو يكرمه أتم كرامة، ويبيت ساهيًا غافلًا لا يتذكر موقفه بين يدي الملك، ولا يستعد له، ولا يأخذ له أُهبته؟!

قيل: هذا لعمر الله سؤال صحيح، وارد على أكثر الخلق، فاجتماع هذين الأمرين من أعجب الأشياء، وهذا التخلف له عدة أسباب:

أحدها: ضعف العلم، ونقصان اليقين، ومن ظن أن العلم لا يتفاوت فقوله من أفسد الأقوال وأبطلها.

وقد سأل إبراهيم الخليل ربه أن يريه إحياء الموتى عِيانًا بعد علمه بقدرة الرب على ذلك، ليزداد طُمَأنينة، ويصير المعلوم غيبًا شهادة.

وقد روى أحمد في «مسنده»[1]، عن النبي ﷺ أنه قال: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ».

فإذا اجتمع إلى ضعف العلم عدم استحضاره، أو غَيبته عن القلب في كثير من أوقاته أو أكثرها، لاشتغاله بما يضاده، وانضم إلى ذلك تقاضي الطبع، وغَلَبات الهوى، واستيلاء الشهوة، وتسويل النفس، وغرور الشيطان، واستبطاء الوعد، وطول الأمل، ورقدة الغفلة، وحب العاجلة، ورُخَص التأويل، وإلف العوائد، فهناك لا يمسك الإيمان إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا.

وبهذا السبب يتفاوت الناس في الإيمان والأعمال، حتى ينتهي إلى أدنى مثقال ذرة في القلب.

وجماع هذه الأسباب يرجع إلى ضعف البصيرة والصبر، ولهذا مدح الله

---

(١) (١٨٤٢ و٢٤٤٧)، ومن طريقه ابن حبان (٦١٨٠/٥١/٩ - التعليقات الحسان)، وصححه الألباني. وأحد لفظي أحمد هو: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوسَى بِمَا صَنَعَ قَوْمُهُ فِي الْعِجْلِ فَلَمْ يُلْقِ الْأَلْوَاحَ، فَلَمَّا عَايَنَ مَا صَنَعُوا أَلْقَى الْأَلْوَاحَ، فَانْكَسَرَتْ».

سبحانه أهل الصبر واليقين، وجعلهم أئمة في الدين، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة:٢٤]».

وقال المقدسي[١]: «فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟! فعن ذلك أجوبة:

منها: أن العقاب الموعود ليس بحاضر.

ومنها: أن المؤمن إذا أذنب لابد أن يعزم على التوبة، وقد وُعِد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها: أنه يرجو عفو الله عنه.

وعلاج هذه الأسباب: أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، والمُسَوِّف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقى، وإن بقي فربما لم يقدر على الترك غدًا كما يقدر عليه اليوم، وهل عجز في الحال إلا لغلبة الشهوة، وهى غير مفارقة له غدًا؟! بل تتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المُسَوِّفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المُسَوِّف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة، فرآها قوية لا تنقطع إلا بمشقة شديدة، فقال: أُؤَخرها سنة ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضَعُفَ وقَوِيَتْ؟!

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالحزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن

(١) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (ص ٢٦٦-٢٦٧).

إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق». اهـ.

وفي «الإحياء»(١): قال يحيى بن معاذ: من أعظم الاغترار عندي: التمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامة، وتوقع القرب من الله تعالى بغير طاعة، وانتظار زرع الجنة ببَذْر النار، وطلب دار المطيعين بالمعاصي، وانتظار الجزاء بغير عمل، والتمني على الله عز وجل مع الإفراط.

ترجو النجاة ولم تَسلك مسالكَها إن السفينة لا تجري على اليَبَسِ

ومن مواعظ ابن السماك(٢): «همة العاقل في النجاة والهرب، وهمة الأحمق في اللهو والطرب، عجبًا لعين تلذ بالرقاد، وملك الموت معها على الوساد، أفلا منتبه من نومته، أو مستيقظ من غفلته، ومفيق من سكرته، وخائف من صرعته؟! أما تجعل للآخرة منك حظًّا؟! أقسم بالله، لو رأيت القيامة تخفق بأهوالها، والنار مشرفة على آلها، وقد وضع الكتاب، وجيء بالنبيين والشهداء، لسرك أن يكون لك في ذلك الجمع منزلة.

أبَعْدَ الدنيا دار مُعتمَل؟! أم إلى غير الآخرة مُنتقَل؟! هيهات! ولكن صمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع».

ومنها: «ألا متأهب فيما يوصف أمامه؟! ألا مستعد ليوم فقره؟! ألا مبادر فناء أجله؟! ما ينتظر من ابيضت شعرته بعد سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكَلّ بصره، وضعف ركنه، وقل نومه، وبَلِيَ منه شيء بعد شيء في حياته؟! فرحم الله امرأً عقَل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه». اهـ.

---

(١) (١٤٤/٤).

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣٣٠/٧).

ولابن الجوزي[1]: «كيف تصنع إذا نُودِيَ بالرحيل وما تأهبت؟!!».

فيا نفس، عظمي أمر الآخرة التي ستقدمين عليها، والتي سترجعين إليها، ولا تغرنك الحياة الدنيا التي تفارقينها، وتنتقلين عنها، وتدبري قول الله الحق المبين:

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ * أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴾ [ص:٦٧-٦٨].

أي: القرآن العظيم، وما أَخبر به من أمر البعث والنشور والآخرة، أي: اجعلوا ذلك على بالكم، وأَوْلُوه اهتمامَكم، واستعدوا له بكل طاقتكم، فإنه أمر عظيم، حقه أن يُعَظَّم، لا أن يُعْرَض عنه ويُغْفَل!!

وقوله تبارك تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨١].

وبالله التوفيق.

تم الكتاب، والحمد لله رب العالمين، أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، والصلاة والسلام على محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه: محمد شومان الرملي

١٤٣٩هـ

---

(١) «التبصرة» (٣٧/١).

الفهرس

الفهرس

أسئلة

يوم القيامة

تأليف

محمد شومان الرملي

شأن العافية

تأليف

محمد شومان الرملي

الأذكار المضاعفة

تأليف

محمد شومان الرملي

كتب للمؤلف

الخوف من الله تعالى
المشوق إلى ذكر الله تعالى
الفرار إلى الله تعالى
الندامة الكبرى
دعوة الأنام إلى دار السلام
السعي المشكور
كشف الكرب
صفات الزوجة الصالحة
بشرى المتقين
المشوق إلى الحور العين
التحذير من اليمين الغموس
الخصال الموجبة لصلاة الملائكة
أبواب الجنة
مثل الحياة الدنيا
صفات الأبرار والمقربين
رؤية النبي ﷺ في المنام
دموع القراء
المواعظ الجوزية
الفروق لابن القيم
الفوائد الفقهية لابن القيم
الجزاء من جنس العمل
إحصاء الأسماء الحسنى
قناديل الشهداء
وداع الشهداء
اللؤلؤ المصنوع
أسئلة يوم القيامة
الأذكار المضاعفة
كنوز من تحت العرش
الفردوس الأعلى
سرير المنايا
شأن العافية
شأن صلاة الفجر
غراس الجنة
النوادر الذهبية
الاعتبار بأقوال المحتضرين
أحاديث السنن الأربعة الموضوعة